الأخلاق المتبولية

للعارف بالله

سيدى عبد الوهاب الشعرانى

الجزء الأول

مدخل الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه ثقتي

أحمد الله رب العالمين . وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين . وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله سيد الأولين والآخرين . اللهم فصل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين . وعلى آلهم وصحبهم أجمعين .

(وبعد) فهذا كتاب نفيس . صغير الحجم . عظيم القدر ، جمعت فيه جملة صالحة من أخلاق سيدنا ومولانا الشيخ العارف بالله تعالى شيخ مشايخنا الشيخ إبراهيم المتبولى المحمدى صاحب الزاوية ببركة الحجاج[1] بمصر المحروسة رضى الله تعالى عنه . التى أخذها مشايخنا عنه وذكروا أنه أخذها من حضرة رسول الله ﷺ يقظة ومشافهة[2] بالشروط المعروفة بين القوم كما سيأتى بيانه فى الكتاب إن شاء الله تعالى . وهى أخلاق شريفة لا يكاد الإنسان يجدها عند غالب فقراء[3] هذا الزمان .

فأحببت تقييدها فى هذه الطروس رجاء النفع بها خوفا أن تذهب بذهاب أهلها والأعمال بالنيات . وقد قال العلماء بالله تعالى كل من لم يفتح الله تعالى على قلبه بالعلوم الغريبة الجديدة فليس له أن يؤلف كتابا ، لأن غاية ملاكه هذا أنه جمع بين كلام الناس وجعله مؤلفا . وقد كان الشيخ أبومدين[4] رضى الله عنه يقول لأصحابه إذا حكوا له

---

(١) يطلق عليها فى الوقت الحالى إسم بركة الحاج وهى قرية على مشارف القاهرة كانت تتجمع فيها القوافل المسافرة للحج .

(٢) من عقائد الصوفية جواز رؤية الرسول ﷺ يقظة ومشافهة .

(٣) يقصد بفقراء هذا الزمان طائفة الصوفية فى عصره حيث أن لقب فقراء كان يطلق عليهم ولا يقصد به الفقر المادى كما هو الغالب على هذا الإصطلاح فى العصر الراهن .

(٤) يقول عنه الإمام الشعرانى فى الطبقات الكبرى : هو من أعيان مشايخ المغرب وصدور المربين وشهرته تغنى عن تعريفه واسمه شعيب وهو مدفون بتلمسان بأرض المغرب =

كلاما عن أحد من سلف (لا تطعمونا القديد وأطعمونا اللحم الطرى) أى أسمعونا الكلام الذى ورد على قلوبكم من حضرة الله عز وجل لأن هذا هو النافع المفيد لنا ما ليس عندنا . وما دَرَجَ السلف الصالح إلا على تأليف ما لم يسبقهم أحداً إليه وكانوا يقولون : من أراد جمع كلام الناس فليدل المريدين على الأصول التى أخذ مؤلفه ويستريح من التعب فى الكتابة وتضييع الزمان وتسويد الورق . فهذا كان السبب فى تأليفى لهذا الكتاب ليدوم النفع به على ممر الزمان ويكون نائبا عنى فى النصح بعد موتى أسوة العلماء (والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه)[1] فاسع يا أخى فى تجميع مقام التخلق بها على يد شيخ صادق ولا يضرك غرابتها منه حيث غرابة طريقها فإنها أخلاق محررة على الكتاب والسنة وأخلاق السلف الصالح كتحرير الذهب والجوهر كما سبق إن شاء الله تعالى . لا يقدح فى معانيها إلا جاهل أو معاند أو مائل عن طريق الحق لأجل غرضه الفاسد ، وإن كان كلام البشر من الأمة لا يخلو عادة عن خطإ وسهو ولكن الحكم للأغلب فافهم .

وقد تلقيت هذه الأخلاق التى أذكرها فى هذا الكتاب عن نحو سبعين شيخا من

= فى جبانة العبادلة وقد ناهز الثمانين وقبره ظاهر يزار . وكان سبب دخوله تلمسان أن أمير المؤمنين لما بلغه خبره ، أمر بإحضاره من بجاية ليتبرك به ، فلما وصل إلى تلمسان قال ما لنا وللسلطان الليلة نزور الإخوان ثم نزل واستقبل القبلة وتشهد وقال ها قد جئت ها قد جئت وعجلت إليك ربى لترضى ، ثم قال : الله الحى وفاضت روحه رضى الله عنه .

وأجمعت المشايخ على تعظيمه وإجلاله وتأدبوا بين يديه وكان ظريفاً جميلا متواضعا زاهداً ورعاً محققاً مشتملا على كرم الأخلاق رضى الله عنه .

ومن كلامه : (ليس للقلب إلا وجهة واحدة متى توجه إليها حجب عن غيرها) .

وكان يقول : الجمع ما أسقط تفرقتك ومحا إشارتك والوصول استغراق أوصافك وتلاشى نعوتك .

وله كلام كثير فى علوم التصوف والأحوال .

(١) هذه جملة من حديث صحيح أخرجه مسلم فى صحيحه والحاكم فى المستدرك وأبو يعلى فى مسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه .

أصحاب سيدى الشيخ إبراهيم المتبولى رضى الله تعالى عنه وعنهم أجمعين ، كشيخنا وقدوتنا إلى دخول حضرة الله تعالى الأمى المحمدى صاحب الكشوفات والمعارف والتصريف العظيم فى مصر وقراها الشيخ على الخواص[1] رضى الله عنه ، وكسيدى وشيخى العارف بالله تعالى الذى انتهت إليه الرياسة فى تربية المريدين فى مصر : الشيخ على المرصفى[2] رحمه الله تعالى . وكسيدى العارف بالله تعالى المجذوب الصاحى صاحب الكشفات[3] والمعارف والكرامات والخوارق سيدى الشيخ عبد القادر الدشطوطى[4]

---

(١) كان سيدى على الخواص البرلسى أمياً لا يقرأ ولا يكتب ومع ذلك كان الإمام الشعرانى يعتز بأستاذيته له ويذكر دائماً أقواله : والواقع أنه من خلال كتابات الشعرانى عنه نشعر أنه كان على قدم كبير فى التصوف بل يصل إلى مقام الأستاذية فيه .

ومن أقواله : آفة العقل الحذر . وآفة الإيمان الإنكار . وآفة الإسلام الملل . وآفة العمل الملل . وآفة العلم النفس . وآفة الحال الأمن . وآفة العارف الظهور . وآفة العقل الجور . وآفة المحبة الشهوة . وآفة التواضع للذلة . وآفة الصبر الشكوى . وآفة التسليم التفريط . وآفة الغنى الطمع . وآفة العز البطر . وآفة الكرم السرف الزائد . وآفة البطالة الفقر . وآفة الكشف التكلم . وآفة الإتباع التأويل . وآفة الأدب التفسير . وآفة الصحبة المنازعة . وآفة الفهم الجدال . وآفة المريد التسلل على المقامات . وآفة الإنتفاع التسلق . وآفة الفتح الإلتفات . وآفة الفقيه الكشف . وآفة المسالك الوهم . وآفة الدنيا شدة الطلب . وآفة الآخرة الإعراض .

(٢) هو الشيخ على نور الدين المرصفى كان من أساتذة الإمام الشعرانى توفى سنة نيف وثلاثين وتسعمائة وكان على قدم كبير فى التصوف ومن أقواله : إذا وقع من المريد شىء مذموم عند شيخه وهو محمود عند غيره فالواجب عليه عند أهل الطرق رجوعه إلى كلام شيخه دون كلام غيره وإن قام للمريد أن كلام شيخه معارض لكلام العلماء أو دليلهم فعليه بالرجوع إلى كلام شيخه وأولى إذا كان من الراسخين فى العلم .

(٣) فى المخطوط جاءت الكلمة وكانت شبه ممسوحة بلفظ كشفات ولكن الأصح أن تكون صاحب الكشوف أو الكشف .

(٤) هو الشيخ عبد القادر الدشطوطى وكان يسمى بين الأولياء (صاحب مصر) وحج رضى الله عنه ماشيا حافيا وعمر عدة جوامع بمصر وكان السلطان قايتباى يمرغ وجهه على أقدامه .

رضى الله عنه وكسيدى الشيخ العالم العامل الورع الزاهد الذى كان اشتغاله بنفع الأمة ليلا ونهاراً سيدى محمد المنير[1] الذى حج إلى بيت الله الحرام اثنين وستين حجة منها أربعين ماشيا ويركب جماله العاجزين رضى الله عنه وكان معدودا من الجماعة الذين يشفعون فى الموقف بعرفات كل سنة فى عصاة الحجاج . وكسيدى الشيخ العابد الناسك المقبل على عبادة ربه ليلا ونهاراً صيفاً وشتاءً سيدى محمد بن عنان[2] خادم الحجرة المحمدية من طريق الروحانيات فلا يدخل على رسول الله ﷺ من الأحياء والأموات إلا بإذنه رضى الله عنه . وكسيدى الشيخ الصالح الوارث المحمدى الشيخ أبو بكر[3] الحديدى رضى الله

= ومن أقواله : كل من قال السعادة بيد أحد غير الله كذب وإنى كنت جهدان فى الدنيا يضرب بى المثل فحصل لى جاذب إلاهى وصرت أغيب اليومين والثلاثة ثم أفيق أجد الناس حولى وهم متعجبون من أمرى ثم صرت أغيب العشرة ايام والشهر لا آكل ولا أشرب فقلت : اللهم إن كان هذا واردا منك فاقطع علائقى من الدنيا . فمات الأولاد والدتهم والبهائم ولم يبق أحد دون أهل البلدة فخرجت سائحاً إلى وقتى هذا فهل كان هذا فى قدرة العبد قلت له لا . توفى سنة نيف وثلاثين وتسعمائة .

(١) هو العارف بالله الشيخ محمد المنير رضى الله عنه من أصحاب الشيخ إبراهيم المتبولى رضى الله عنه .

وكان رضى الله عنه أكثر أوقاته يحج على التجريد ماشيا وعلى كتفه ركوة يسقى الناس منها وكان يكره الكلام فى الطريق من غير سلوك ولا عمل ويقول : هذا بطالة ومكث نحو ثلاثين سنة يقرأ فى الليل ختمة وفى النهار ختمة . توفى رضى الله عنه سنة نيف وثلاثين وتسعمائة .

(٢) هو الشيخ محمد بن عنان وكان من الزهاد العباد وكان يضرب به المثل فى قيام الليل وفى العفة .

وكان رضى الله عنه يقول : الفقير ما رأس ماله فى هذه الدار إلا قلبه فليس له أن يدخل على قلبه من أمور الدنيا شيئا يكدره . توفى فى صفر سنة خمس وتسعمائة .

(٣) هو الشيخ أبو بكر الحديدى : وكان من أكرم الناس وكان إذا دعا شخص لطعامه ولم يرض يكشف رأسه ويمشى خلفه حتى يجيبه توفى بالمدينة المنورة سنة خمس وعشرين وتسعمائة ودفن بالبقيع .

عنه وكانوا يشتمونه بخانه الفقراء بمصر . وكسيدى الشيخ الصالح العابد الناسك الأمى المحمدى سيدى محمد العدل[١] بنواحى البحر الصغير بمصر وكانوا يسمونه جليس رسول الله ﷺ على الدوام لما هو عليه من الطهارة الظاهرة والباطنة رضى الله عنه . وكسيدى الشيخ العالم الصالح الأمى المحمدى سيدى الشيخ محمد السروى[٢] صاحب الكرامات والخوارق من كان يطير فى الهوى ويمشى على الماء جهاراً إلى أن يغيب عن العيون ثم يأتى ويداه مخضوبتان بالدم ويقول : توجه إلينا شخص قد أسره الفرنج فى البحر المالح خلصناه منهم بعد أن قتلنا كذا وكذا نفس من الكفار رضى الله عنه .

وكسيدى الشيخ عبد الحليم بن مصلح[٣] قطب زمانه فى التواضع والكرم والإيثار وخدمة الضعفاء والمساكين وكان ينفق من الغيب بمشاهدتى له حين يقبض الذهب والفضة من الهوى رضى الله عنه وكان لا يختص عن الفقراء بشيء وربما عملت له عياله الدجاجة فيفرقها على نحو سبعين نفسا ويقول :

---

(١) هو الشيخ محمد العدل الطناحى : كان ذا سمت حسن وقبول تام بين خاصة الناس وعامتهم وأصل تسميته العدل أن شخصا رأى رسول الله ﷺ فى المنام فقال له : قل لمحمد العدل الطناحى يتبع سنتى وينفع الناس فاشتهر بالعدل .

(٢) هو الشيخ محمد السروى : وكان يكره للمريد قراءة الأحزاب والأوراد ويقول: نحن ما نعرف إلا لا إله إلا الله بعزم وهمة ويقول:مثال أرباب الأحزاب مثال شخص من أسافل الناس اشتغل بالدعاء ليلا ونهارا أن الله تعالى يزوجه بنت السلطان .

وتعليقنا على ذلك أنه يطلب عدم الكسل والتوانى والاعتماد على القراءة المسترخية دون عزم وهمة فى العبادة سواء كانت لقراءة الأوراد أو غيرها .

توفى سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة .

(٣) هو الشيخ عبد الحليم بن مصلح المنزلاوى : كان كثير التواضع والإزدراء لنفسه وكان لا يسأله فقير إلا أعطاه حتى يخرج بعمامته ولبسه الكامل فيرجع بالفوطة فى وسطه وعمر عدة مساجد وكان له جامع بالمنزلة فيه فقراء وفيه سماط على الدوام ومارستان للضعفاء من الفقراء والغرباء والمستضعفين توفى رضى الله عنه سنة نيف وثلاثين وتسعمائة .

إن الله تعالى يكره العبد العامل المتميز عن أخيه رضى الله عنه .

وكسيدى الشيخ العالم الزاهد قوام الليل وصوام النهار الشيخ يوسف الحريثى كان يسمع لعشرة من الأطفال القرآن ويرد على كل واحد الغلط واللحن لا يشغله واحد عن الآخر وهذا المقام من التخلق بأخلاق الله عز وجل خلعه عليه

وكسيدى وشيخى العارف بالله تعالى مربى المريدين الشيخ محمد الشناوى الأحمدى وكان دأبه قراءة القرآن والذكر ليلا ونهاراً لايفرغ من الذكر إلا ويستفتح القرآن ولا من القرآن إلاويستفتح الذكر وقد لازمته عشرين يوماً وليلة فما رأيته نام مضجعاً ليلا ونهاراً رضى الله عنه .

وكسيدى وشيخى العابد الزاهد المقبل على عبادة ربه ليلا ونهاراً منشىء جميع مجالس الصلاة على رسول الله ﷺ فى مصر وقراها واليمن والقدس والشام ومكة والمدينة ومكث فى مجلس الصلاة على رسول الله ﷺ فى جامع الأزهر فى بلد سيدى أحمد البدوى رحمه الله مدة ثمانين سنة كما أخبرنى عن ذلك فى مرض موته رضى الله عنه وقال : عمرى الآن مائة سنة وإحدى وعشرين سنة ، وكان من أصحاب الخطوة وكانوا يرونه كل سنة فى عرفات ولو لم يكن له من المناقب إلا الذكر فى حضرة رسول الله ﷺ صباحاً ومساءاً لكان فى ذلك كفاية فى علو شأنه ، فإنى لما حججت سنة ثلاث وستين وتسعمائة حضرت مجلس نائبه وتلميذه الشيخ عبد الله اليمنى فى الروضة الشريفة وكان كلما فرغ من مجلس الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وذكر الله يقول : بأعلا صوته الفاتحة للشيخ نور الدين الشونى فيقرؤها الحاضرون ورسول الله ﷺ يسمع . وهذه مناقبه ما سمعنا بمثلها لأحد من الأولياء إلى عصرنا هذا . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وكسيدنا ومولانا الشيخ زكريا الذى ما كان جليسه يضبط عليه ساعة غفلة عن مصالح دينه ودنياه وما كنت أمثله إذا جالسته إلا بالإمام الشافعى لما هو عليه من الخفر والحرمة والهيبة والوقار وما خطر ببالى شىء بين يديه إلا وأخبرنى به .

وكان مجاب الدعوة جاءه شخص قد عمى سنين وقال له : أدع الله تعالى أن يرد على عمرى فدعا له فرد الله عليه بصره ثانى يوم رضى الله عنه .

وكسيدنا ومولانا شيخ الإسلام العامل بعلمه للقبل على شأنه الحافظ للسانه الشيخ برهان الدين بن أبى شريف رضى الله عنه .

وكسيدنا ومولانا شيخ الإسلام الشيخ برهان الدين القلقشندى .

وكشيخنا العالم الصالح الشيخ كمال الدين الطويل شيخ الإسلام الذى بشره سيدى براهيم المتبولى / وهو دون سن التمييز وقبل أن يقرأ القرآن بأنه يصير شيخ الإسلام .

وكالشيخ العالم العامل الورع الزاهد الشيخ عبد الحق السنباطى .

وكالشيخ الصالح الذى كان يجتمع بالحضرة عليه السلام كثيراً الشيخ يوسف الكردى .

وكالشيخ الصالح أحمد الغزاوى الذى كان يصلى المغرب كل ليلة بمكة المشرفة مع سيدى إبراهيم المتبولى . وغيرهم ممن ذكرناهم فى كتاب الطبقات رضى الله عنهم أجمعين .

وقد ذكرت نبذة من كلام جماعة من تلامذة هؤلاء أيضاً كسيدى عمر البجاى المغربى المدفون بحوش عبد الله بن وهب بالقرافة .

وكسيدى الشيخ أبو العباس الحرمقى .

وكالشيخ سليمان الخضيرى .

وكالشيخ الكامل الراسخ سيدى أفضل الدين الأحمدى تلميذ الشيخ على الخواص ووارثه فى عدة مقامات .

وقد خدمت بحمد الله تعالى جميع هؤلاء الأشياخ . وقرأت عليهم كتب الشريعة من فقه وتفسير وحديث وتصوف وغير ذلك حتى درجوا كلهم إلى رحمة الله تعالى وهم عنى راضون ، وذلك من أكبر نعم الله تعالى على .

ولما درجوا أظلمت مصر وقراها فإن بعضهم كان كالشمس ، وبعضهم كان كالقمر ، وبعضهم كان كالنجوم يهتدى بهم فى ظلمات الجهل ليلا ونهاراً .

فلما خفت على نسيان الناس أحوالهم وأخلاقهم ولم أعلم أحـد من تلامذتهم دون لهم كلاماً ولا أخلاقاً وضعت هذا الـكتاب كالمبين لما اندرس من أخلاقهم وخفى من أنوارهم.

فلا تظن يا أخى أنهم كانوا على صورة بعض من برز فى هذا الزمان بالمشيخة بغير حق فيخطىء الطريق ويسيء الظن بالصادقين رضى الله عنهم .

ووالله ما كنت أمثل سيدى محمد بن عنان وسيدى عمر البحاى وسيدى أبا العباس الحرمى إلا كأن احدهم بشر الحافى .

وما كنت أمثل سيدى على الخواص إلا كأنه معروف الـكرخى .

وما كنت أمثل سيدى على المرصفى إلا كأنه الإمام أبو القاسم الجنيد .

وما كنت أمثل الشيخ برهان الدين بن أبى شريف إلا كأنه إمام الحرمين .

وما كنت أمثل سيدى على النبتيتى إلا كالفضيل بن عياض .

وما كنت أمثل الشيخ عبد الحق السنباطى إلا كأنه الشيخ أبو إسحاق الشيرازى .

وما كنت أمثل سيدى الشيخ محمد المنير رحمه الله إلا كأنه سهل بن عبد الله التسترى

وما كنت أمثل الشيخ عبد القادر الدشطوطى إلا كأنه قضيب البان .

وما كنت أمثل أخى أفضل الدين إلا كأنه الشيخ نجم الدين الـكبرى . أو الشيخ محى الدين بن العربى فى تحقيق العلوم

فطوبى لعبد نظر لأحد من هؤلاء إليه ولو مرة واحدة فى عمره أو نظر هو إلى أحد منهم حيناً من الدهر .

وقد كان سهل بن عبد الله التسترى يقول :[1] .

---

(١) هو أبو محمد سهل بن عبد الله التسترى : أحد أئمة الصوفية لم يكن له نظير فى وقته فى المعاملات والورع .

وكان صاحب كرامات ، لقى ذا النون المصرى بمكة سنة خروجه إلى الحج .

توفى كما قيل ، سنة ثلاث وثمانين ومائتين وقيل : ثلاث وسبعين ومائتين .

ومن قوله : كل فعل يفعله العبد بغير اقتداء ، طاعة كان أو معصية فهو عيش النفس وكل فعل يفعله بالاقتداء فهو عذاب على النفس .

من أولياء الله من إذا مر على قوم من العصاة فسلم عليهم أو سلموا عليه فرد عليهم السلام غفر الله لهم جميع ذنوبهم وأمنهم من عذابه ، ومنهم من لا تأكل النار من جالسهم ولو فى وقت من الأوقات أو حضر جنازتهم انتهى .

فإياك يا أخى إذا عملت شيخاً فى هذا الزمان أن تظن بنفسك أنك على قدم واحد من هؤلاء الأشياخ الذين أدركناهم فى النصف الأول من القرن العاشر أو يخطر ذلك ببالك .

وإن كان ولا بد لك من رؤية نفسك فلا تظن بنفسك ذلك إلا بعد مرورك على أخلاقهم التى ذكرناها عنهم فى هذا الكتاب ورؤيتك نفسك متخلقاً بها .

واعلم يا أخى تجد نفسك منسلخة من غالبها كما تنسلخ الحية من ثوبها . وربما تأثرت من واضعها غاية التأثر لكشفها لك ما لبسته نفسك عليك ولإظهاره للناس نقائصك بعد أن كانوا سلموا لك دعوى أنك من الصالحين جهلا بأخلاقهم فإن هذه الأوراق التى رقمناها فى هذا الكتاب كالسيف القاطع لعنق كل مدع الطريق فى هذا الزمان لما فيها من الموازين والمحكمات التى تفلس المدعين للطريق مما لا يكاد أحدهما يجده الآن فى رسالة أحد من أهل العصر .

وها هى كلها بين يديك فى مصر وقراها فليطالع فيها من يشك فى قولى يعرف صدق قولى وإنى والله ناصح للإخوان ما أنا متعنت .

وأود لجميع إخوانى أن يتخلق أحدهم بمثل هذه الأخلاق ليفوز برضى الله تعالى عنهم فى الدنيا والآخرة إن شاء الله تعالى .

واعلم يا أخى أن كل من تخلق بأخلاق هذا الكتاب كان معدوداً من متصوفة القوم وكأنه صحب جميع الأشياخ الذين أخذوها عن سيدى إبراهيم المتبولى عن رسول الله ﷺ وانتفع بصحبتهم .

وقد من الله عز وجل على بالتخلق بها فلم أذكر فى هذا الكتاب إلا ما تخلقت به وربما وجدت ذلك الخلق عزيزاً فأنبه على عزته بنحو قولى: وهذا الخلق لم أجد له فاعلا من أقرانى إلا القليل .

وربما ظن بعض من لا علم عنده بأحوال الفقراء أن ذكرى لذلك إنما هو من باب الافتخار للنفس واحتقاراً للأقران ، معاذ الله أن أقصد ذلك .

وقد نظر بعض علماء العصر فى مسودة هذا الكتاب فقال : هذه الأخلاق لا تكون إلا للأنبياء وأنكر أن أحداً يقدر على التخلق بها فى هذا الزمان حين ظن بنفسه أنه من العلماء العاملين ولم يقدر على التخلق بها فذوقه صحيح وحكمه غير صحيح على أن جميع ما ذكرته فيه إنما هو من أخلاق المريدين سيأتى بسطه فى هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

ولم أذكر فيه شيئاً من أخلاق العارفين إلا استشهاداً .

كما أنى لم أذكر فيه شيئاً من أخلاق إلا ما أذن لى فى إفشائه بين الإخوان ليقتدوا بى فيه كما أوضحته فى مقدمة كتاب المنن الكبرى ، فإن كل من دعا إلى خير ولم يكن هو متخلقاً به قبل الناس ربما قالوا بلسان الحال والمقال : كيف تدعونا إلى التخلق بشىء عجزت أنت عن التخلق به مع علمك وصلاحك وقدم هجرتك ؟ فيقل نفع الناس به عادة وإن كان ذلك ليس بشرط فى الداعى إنما هو كمال فافهم .

وقد ذكرت فى التقرير مراراً أن سبب ذكرى الأخلاق التى تخلقت بها وعدم كتمى لها ما سمعته من جماعة من الإخوان حين أمرتهم بالزهد فى الدنيا والتورع فى المطعم والملبس والمنطق وغير ذلك فقالوا لى : أرنا أحداً تخلق بذلك حتى نقتدى به وها هى معى كلها بين يديك فتأثرت لذلك غاية التأثير وشرعت بعون الله تعالى فى ذكر بعض ما من الله تعالى به على .

وقلت لهم : أنظروا فى هذه الأخلاق فكل خلق رأيتمونى متخلقاً به فاتبعونى فيه وما لم أتخلق به فأنا وإياكم فيه على السواء .

فهذا هو سبب ذكرى الأخلاق التى كان الأولى بنا كتمها عادة لولا حرصى على حصول الخير للاخوان فإياك أن تظن بى سوءاً أو تنازعنى فى قصدى فتقع فى الإثم لوقوعك فى أعراض الفقراء بغير علم ولا غرض صحيح .

واعلم يا أخي أن تخلق المريد بأخلاق العارفين إنما يصح منه بعد انتهاء سيره في مقامات كما أن تخلق العارفين بأخلاق رسول الله ﷺ لا يكون إلا بعد انتهاء السير كذلك وطول المجاهدة فيوفق الله تعالى المريد في بداية أمره لرعاية أقواله ﷺ ثم في وسط سيره لحال الاقتداء بأعماله ﷺ وأحواله فيثمر له ذلك الأخذ في طريق التوصل إلى مقام النهاية ليقدر على التخلق بنظير أخلاقه ﷺ على وجه الاحتياط

وفي الحديث: تخلقوا بأخلاق الله — أي بنظيرها في الإسم فقط — دون التخلق بالكنه والحقيقة فإن ذلك لا يصح لأحد من الخلق ولو ارتفعت رتبته.

وقد سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن[1].

ولم تقل كان متخلقاً بأخلاق الله تعالى أدبا منها مع الله عز وجل فصح حينئذ تخصيصه غيره ﷺ في حقها.

« خذوا شطر دينكم عن هذه الحميراء[2] ».

وكان السهروردي[3] رحمه الله يقول:

---

(١) حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (كان خلقه القرآن) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث طويل من طريق قتادة وأخرجه أحمد في مسنده عن الحسن قال: سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن.

وأخرجه بن جرير عن سعيد بن هشام وغيرهم.

(٢) حديث: خذوا شطر دينكم: قال ابن حجر: لا أعرف له إسناداً ولا رأيته في شيء من كتب الحديث إلا في النهاية لابن الأثير ولم يذكر من خرجه. وذكر الحافظ ابن كثير أنه سأل عنه الذهبي فلم يعرفه.

(٣) هو الشيخ أبو النجيب عبد القادر السهروردي رضي الله تعالى عنه ويلقب بضياء الدين ونجيب الدين ونسبه ينتهي إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه يقول عنه الإمام الشعراني انعقد عليه إجماع المشايخ والعلماء بالاحترام وأوقع الله عز وجل له القبول التام في الصدور محبة وافرة في القلوب.

في قول عائشة كان خلقه القرآن شيء غامض وإنما خفي عن الأخلاق الربانية فاحتشمت مع الحضرة الإلهية أن تقول كان متخلقاً بأخلاق الله عز وجل وعبرت بالمعنى بقولها كان خلقه القرآن استحياء من سبحات الجلال وستراً للحال وهذا من شدة وفور علمها وكمال أدبها .

قال : وبين قوله تعالى : « ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم[1] » وبين قوله تعالى « : وإنك لعلى خلق عظيم[2] » مناسبة مشعرة بقول عائشة : كان خلقه القرآن انتهى .

وكان سهل بن عبد الله التستري رحمه الله يقول :

من السر الأكبر أن قلب العارف يصير بدوام الإقبال على الله تعالى ودوام ذكره بالقلب واللسان بمثابة العرش والعرش قلب الكائنات في عالم الخلق والحكمة وهناك يرتقي إلى ذكر الذات ويصير بحراً مواجاً من نسمات القرب ويجري في جداول أخلاق النفس صفاء النعوت والصفات ويتحقق العارف بالتخلق بأخلاق الله انتهى .

وكان الشيخ أبو القاسم الكركاني يقول : إن الأسماء التسعة وتسعين تصير أوصافاً للعارف[3] انتهى .

= ومن قوله أول التصوف علم ، وأوسطه عمل ، وآخره موهبة، فالعلم يكشف عن المراد والعمل يعين على الطلب والموهبة تبلغ غاية الأمل .

وأهل التصوف على ثلاث طبقات مريد طالب ومتوسط طائر ومنته واصل فالمريد صاحب وقت والمتوسط صاحب حال والمنتهي صاحب يقين .

(١) سورة الحجر آية (٨٧) .

(٢) سورة القلم آية (٤) .

(٣) يقصد التخلق بأخلاق الله تعالى .

ونقل ذلك أيضاً عن الشيخ الكبير أحمد بن الرفاعي[1] ولفظه :

إذا بلغ العبد الكمال صار صفة من صفات الحق جل وعلا انتهى .

ولعل المراد من قول هذين الشيخين رضي الله عنهما : أن العارف يأخذ من كل اسم إلهي وصفا يناسب ضعف بشريته وقصورها مثل أن تأخذ من اسم الله تعالى الرحيم معنى من الرحمة على قدر قصور البشر . وكل إشارات المشايخ في الأسماء والصفات التي هي عز علومهم على هذا المعنى والتفسير وكل من توهم بذلك شيئاً من الحلول تزندق وألحد[2] فتأمل ذلك فإنه نفيس .

واعلم يا أخي أنني حيث قلت : ومن أخلاقهم كذا وكذا فمرادي يرجع الضمير إلى المريدين الصادقين كهؤلاء المشايخ الذين قدمنا ذكرهم ممن كان مريدا لسيدي الشيخ إبراهيم المتبولي رضي الله عنه دون مطلق المريدين من تلامذة الأشياخ الذين هم من سلسلة

---

(١) هو الشيخ أحمد بن أبي الحسن الرفاعي رضي الله عنه منسوب إلى بني رفاعة قبيلة من العرب وسكن أم عبيدة بارض البطائح في العراق إلى أن توفي بها وكان على قدم كبير في علوم التصوف وشرح أحوال الصوفية ، وتخرج بصحبته جماعة كثيرة وتتلمذ له خلائق لا يحصون وهو أحد من قهر أحواله وملك أسراره وكان له كلام عال على لسان أهل الحقائق وقد سئل عن وصف الرجل المتمكن فقال هو الذي لو نصب له سنان على أعلى شاهق جبل في الأرض وهبت الرياح الثمان ما غيرته .

وكان يقول : من لم ينتفع بأفعالي لم ينتفع بأقوالي .

ويقول : طريقنا مبنية على ثلاثة أشياء لا نسأل ولا نرد ولا ندخر .

وكان إذا رأى على فقير جبة صوف يقول له : يا ولدي أنظر بزي من تزييت وإلى من تنسبت قد لبست لبسة الأنبياء وتحليت بحلية الأتقياء هذا زي العارفين فاسلك فيه مسالك الصادقين وإلا فاتركه .

(٢) يقصد بذلك نفي تهمة الحلول عن الصوفية وأن مقصود كلام بعضهم عندما يقول (أنا الحق) أو غيرها من العبارات التي تشعر بالحلول والإتحاد إنما هو تخلق بخلق الله سبحانه وتعالى ومن تصور غير هذا فهو اتهام باطل .

الإمام أبي القاسم الجنيد[١] فإن أخلاق هؤلاء تنزل عن درجة من بينه وبين رسول الله ﷺ رجل واحد فقط وهو سيدى إبراهيم رضى الله عنه[٢] . وربما كان تلامذة هؤلاء الأشياخ لا يعرفون شيئاً من أخلاق هذا الكتاب إما جهلا به لكونه من غير طريقهم

---

(١) هو الإمام أبو القاسم الجنيد بن محمد : سيد طائفة الصوفية وإمامهم .
أصله من نهاوند ومولده ومنشأه بالعراق .
وكان فقيها على مذهب (أبي ثور) وكان يفتى فى حلقته بحضرته وهو ابن عشرين سنة . صحب السرى السقطى والحارث المحاسبي ومحمد بن على القصاب .
سئل مرة عن العارف فقال : من نطق عن سرك وأنت ساكت ومن أقواله : ما أخذنا التصوف عن القيل والقال لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات .
ويقول : من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به فى هذا الأمر لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة .
وقال الجنيد : علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ .
وقيل للجنيد : من أين استفدت هذا العلم ؟
فقال : من جلوسى بين يدى الله ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة .
وأومأ إلى درجة فى داره .
وكان الجنيد يدخل كل يوم حانوته ويسبل الستر ، ويصلى أربعمائة ركعة ثم يعود إلى بيته .
وقال أبو بكر العطوى : كنت عند الجنيد حين مات فرأيته ختم القرآن . . . ثم ابتدأ من البقرة . . . وقرأ سبعين آية . ثم مات رحمه الله .
توفى سنة : سبع وتسعين ومائتين .

(٢) يقصد الإمام الشعرانى أن سيدى إبراهيم المتبولى تلقى الطريق عن سيدى رسول الله ﷺ مباشرة أما بقية المشايخ كالإمام أبي القاسم الجنيد فإن طريقهم كان نتيجة سلسلة من الرجال حتى يصلوا إلى سيدنا رسول الله ﷺ فعلى ذلك فإن مريدى الشيخ إبراهيم المتبولى هم أرفع درجة من مريدى بقية المشايخ لأنهم ليس بينهم وبين سيدنا رسول الله ﷺ إلا شخص واحد هو سيدى إبراهيم المتبولى .

ولكن سببه لم يكن في عصرهم وكل مؤلف لا يذكر في مؤلفه إلا ما يحتاج إليه أهل عصره إذ الأخلاق تحدث في كل عصر بحسب حدوث الوقائع الواقعة من أهله فترى رسالة القشيري[1] مثلا لا يغني عنها كتاب القوت لأبي طالب المكي[2] ، ولا الرعاية للحارث المحاسبي[3] ، ولا الحلية لأبي نعيم[4] ، وترى كتاب الإحياء[5] لا يغني عنه كتاب عوارف المعارف للسهروردي[6] ، كما لا تغني هذه الكتب كلها عن كتابنا هذا لأنه أسلوب غريب كما يعرفه من نظر فيه وربما أكرر فيه الخلق الواحد مرارا بقصد الاعتناء به لا ذهولا ولا نسيانا لكن بعبارة أخرى وربما أستشهد به في أبواب متعددة تتميما للفائدة كفعل الإمام البخاري وغيره وقد رتبته على عشرة أبواب وخاتمة وضمنت كل باب منه جملة من الأخلاق في معان مختلفة فإني ألفته بحسب الوقائع والحوادث ولم يتفق لي أن أختم كل نوع إلى شكله كما يفعل المؤلفون في الفقه والأصول والنحو وغيرها وخصصت الخاتمة بذكر جملة صالحة مما قاساه أهل الله تعالى من تحمل البلايا والمحن والأذى من الخلق تشجيعا للإخوان على التحمل وعدم مقابلة أحدهم من آذاه بسوء طول عمرهم فإن كل من

---

(١) رسالة القشيري هي الرسالة القشيرية للإمام (أبي القاسم عبد الكريم القشيري . ولقد ألف الإمام القشيري هذا الكتاب تصحيحا وتوضيحا للفكرة الصوفية في سلامتها ونقائها ودافع عن كثير من القضايا التي يثيرها الناس حول التصوف بالتأريخ لرجال التصوف وشرح أحوالهم .

(٢) كتاب قوت القلوب لأبي طالب المكي وهو كتاب في بيان حال الصوفية وأخلاقهم .

(٣) الرعاية لحقوق الله للحارث بن أسد المحاسبي وهو كتاب كسابقه .

(٤) كتاب حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني وهو تأريخ لرجال التصوف وبيان أحوالهم وأخلاقهم .

(٥) كتاب إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي .

(٦) وهو كتاب كسابقيه في بيان أحوال الصوفية ومقاماتهم .

صدق فى طلب الطريق فلابد له من أن يتجنب على الأذى له جماعات كثيرة من الأشقياء الأنس والجن لينفروه عن طريق أهل الله تعالى .

وأما الكاذب فى طلبه فقد كفى إبليس المؤنة لاحباط عمله بالرياء والنفاق فلم يحوجه لأن يسوس لأحد بالأذى له لأنه لم يدخل الطريق ولا شمها فأكرم به من كتاب جاء على حين فترة من موت الأشياخ الذين أدركتهم فى النصف الأول من القرن العاشر مجددا لما اندرس من معالم طريقهم كما هى سنة الله تعالى فى عباده فى كل عصر .

فتجدد كل عالم ما اندرس من علوم العلماء قبله إما بإيضاح معانيها وإما بأن يرجح خلاف ما رجحوه بأدلة أخرى لم يطلع عليها من قبله فلا يقال : أى فائدة لتأليف فلان الكتاب الفلانى وقد سبقه الناس إلى ذكر ما فيه لأنا نقول لا يخلو مؤلف عن مؤلف لأن كل متأخر لابد أن يكون فيه تعقيب لكلام المتقدم بذكر قيد أو شرط كما هو مقرر بين العلماء[1] .

وأسأل الله تعالى من فضله وكرمه أن يحفظ هذا الكتاب من كل حاسد وعدو يدس فيه ما ليس من كلامى مما يخالف ظاهر الشريعة لينفر الناس عن النظر فيه كما فعلوا ذلك فى كتاب العهود[2] وثارت فتنة فى جامع الأزهر وغيره وما خمدت إلا بإرسال نسختى السالمة من الدس التى عليها خطوط العلماء كما بينته فى خطبة العهود فالله تعالى

---

(١) فيما سبق توضيح من الإمام الشعرانى لمنهجه فى تأليف الكتاب .

(٢) هو كتاب البحر المورود فى المواثيق والعهود ، ألفه الإمام الشعرانى فى بيان المواثيق والعهود التى أقرها مشايخ الصوفية على مريدهم وألزموهم باتباعها ، وقد أثار ذلك الكتاب ثائرة العلماء فى عصره نتيجة الدس الذى ورد على الكتاب وكان من ضمن الدس أنه جعل نفسه أحد الأئمة المجتهدين وقد دافع الإمام الشعرانى عن نفسه دفاعاً مريراً ضد الذين اتهموه بالكفر والزندقة فى بعض الأحيان ، وقد أثرت هـــذه الحادثة فى نفس الإمام الشعرانى ويبدو ذلك من ذكره لها بألم فى بعض كتبه .

يغفر لهؤلاء الحسدة ما جنوه آمين اللهم آمين والحمد لله رب العالمين . فتأمل يا أخى فى أخلاق هذا الكتاب بين الاعتبار والإنصاف تعرف الصادق من الفقراء من غيره .

وكذلك أقول فى غالب الأخلاق فاعرض يا أخى ما ذكرناه لك فى هذا الخلق على مريدى عصرك تعرف حالهم وحالك وذلك لأن الصادقين اختفوا من شدة فساد الزمان وما ظهر إلا بعض المدّعين لرسوم أهل الطريق من أمثالنا . بل سمعت سيدى الشيخ أبا السعود الجارحى (١) رضى الله عنه مع شدة ما كان عليه من المجاهدة والإقبال على الله تعالى ليلا ونهاراً يقول : من أراد أن ينظر إلى مدع كذاب على الله تعالى فلينظر إلىّ . وكان يقول : والله إن لحيتى هذه لم تبلغ مقام مريد انتهى .

فإذا كان هذا قول هذا الشيخ العظيم فكيف يكون حال أمثالنا . والله إن أمثالنا لمن المغرورين .

وسيأتى فى الكتاب مواضع أنه لا بد أن يتقدم الدجال الأكبر جماعة من الدجاجلة تمهدوا له الطريق فيظهر أحدهم الباطل فى صورة حق إذ الدجل فى اللغة هو تمويه الباطل بصورة الحق فطالب يا أخى نفسك وإخوانك بالتخلق بهذه الأخلاق ترى قدمك فى مقام الإرادة وبعدك عنه ولو تأمل أحدنا حاله بعين التحقيق لوجد نفسه لم تشم من طريق القوم رائحة إنما هى دعاوى وجلاّس فقط والقلب خراب .

---

(١) هو الشيخ أبو السعود الجارحى : أحد تلامذة الشيخ شهاب الدين المرحومى رضى الله عنه وكان للشيخ أبو السعود كثير من المريدين والأتباع وكان الملوك والوزراء يحضرون بين يديه خاضعين وعملوا بأيديهم فى عمارة زاويته فى حمل الطوب والطين .

ومن قوله : لا تجعل لك قط مريدا ولا مؤلفا ولا زاوية وفر من الناس فإن هذا من الفرار .

وقال يوما لفقيه من الجامع الأزهر متى تصير هاء الفقيه راء . توفى سنة نيف وثلاثين وتسعمائة .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله تعالى يقول : لا تنظروا إلى جلاّس فقراء هذا الزمان فانظروا إلى أفعاله وأقواله وأحواله وخذوا الطريق عن المتخلق بأخلاقها لا عن المتجلببين بجلاس أهلها وإياكم أن تقفوا مع إذن أشياخ هذا الزمان لتلامذتهم أن يلقنوا الذكر فإن تلقين الذكر ليس بإذن فى إرشاد المريدين وإنما هو رواية سند . وسمعته يقول : جاء رجل إلى سيدى إبراهيم المتبولى رضى الله تعالى عنه يطلب الطريق إلى معرفة الله تعالى فقال له : تريد مشيخة سوقية والا مشيخة بيتية ؟ فقال : يا سيدى بينوا ذلك لنا حتى نعرف المراد من ذلك فقال المشيخة السوقية أن أجلسك بجلاس الفقراء الظاهر من لباس الصوف وإرخاء العذبة وآذن لك بالجلوس على السجادة فتصير تخبط عندى وتصطاد الدنيا بذلك وكل من نازعك فى مريد حوله إحسان وبرّ قامت عليه القيامة منك ومن زبانيتك ومن كان هذا حاله فهو من إخوان الشياطين وهو حال أكثر المدعين للطريق فى هذا الزمان .

وأما المشيخة البيتية فأن تجلس عندى على قدم الاتباع للسنة المحمدية تخلقاً وتحققاً فلا تدع مأموراً إلا وفعلته ولا منهياً إلا واجتنبته ولا معروفاً إلا عملته ثم ترى نفسك بعد ذلك كله أنك قد استحقيت الخسف بك والمسخ بصورتك وأنك لو سجدت على الجمر لله تعالى من افتتاح الوجود إلى انتهائيه لا تؤدى شكر ذرة واحدة مما تفضل الله تعالى به عليك من الحلم وعدم معاجلتك بالعقوبة ثم تمكث بقلبك على حضرة الله عز وجل فلا تلتفت لغيره من نعيم الدارين حتى تلقاه فهذه هى المشيخة البيتية فقال الرجل : لا طاقة لى بهذه الطريق فقال له سيدى إبراهيم : فاذهب إلى عمل الحرف والصنايع ولا تزاحم الصادقين بالدعاوى الكاذبة فقال : سمعاً وطاعة انتهى .

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : والله لو أن أحدنا شم رائحة مقام فسقة الزمان الماضى لادعى القطبية الآن وسمعته مراراً يقول : قد صار الموت اليوم تحفة للمؤمن فقد ذهب الصادقون وبقى الكاذبون على الله حتى أننى عددت من ادعى

صية الكبرى فوجدتهم عشرة أنفس فى مصر .

وسكت على ذلك أتباعهم لجهل أحدهم بمقام القطبية فإن له ألف علامة كل علامة تحت ألف علامة وله ألف عالم كل عالم له ألف عرش وألف كرسى وألف سبع سموات وألف سبع أرضين مضروب ذلك فى ألف ألف ألف / ألف ألف ألف ألف ألف ألف عشر مرات لا يعطى أحد القطبية حتى يعرف جميع عوالم هذه العروش والكراسى والسموات والأرضين بأسمائهم وأنسابهم وأعمارهم وأعمالهم انتهى .

وسمعته يقول : جاء رجل إلى سيدى إبراهيم المتبولى رضى الله عنه فقال : يا سيدى قد أعطانى الله تعالى الاطلاع على عدد من كان فى ظهر آدم من الذرية لا يزيدون حبة ولا ينقصون عنه وأعطانى علم عدد ما يخرج من النبات والأزهار فلا يخرج نبت ولا زهر ولا ورق إلا ويعلمنى الله به . فقال : وعزة ربى قد أعطانى الله ذلك وأنا ابن أربع سنين فلم ألتفت إلى ذلك لأننا لم نخلق لذلك وإنما خلقنا للعمل بالكتاب والسنة واقتفاء أثر الأئمة فقال له إنسان إن هذه الأمور من علم الله لم يبلغنا أنه أعطى علمه لسيد المرسلين مع جلالته فقال : ألا تقرأ قوله تعالى : « ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء » وهذا مما شاء قال : وقد نزلت وأنا صغير إلى تخوم التخوم بعد أن جزت سبعمائة ألف ألف أرض وصعدت إلى العلو حتى جاوزت ألف ألف عرش غير العرش العظيم واطلعت على مدائن لا تحصى كل مدينة أوسع من هذه الدنيا انتهى .

ويؤيد ذلك قول سيدى أحمد بن الرفاعى رحمه الله : إن الله تعالى خلق بحراً من ريح تجرى بين السماء والأرض من منذ خلق الله الدنيا إلى يوم القيامة لله تعالى بعدد كل ريح منه مدينة قدر دنيا كم هذه وفى كل مدينة جميع ما فى الدنيا من العوالم والأحكام : قال : ولله تعالى فى كل مدينة أنبياء وأولياء ومؤمنون وكفار وأطال فى ذلك . ثم قال : بعض الأمور لا ينتبهاويؤمن بها إلا من ثبته الله تعالى بالقول الثابت .

وكان يقول : لا يكون الفقير عندنا رجلا حتى يعرف ثمانين ألف أمة بأسمائهم وأنسابهم وأعمالهم الإنس والجن عالم واحد منهم انتهى .

وكان سيدى إبراهيم المتبولى صاحب أخلاق هذا الكتاب يقول : لا يكمل الفقير عندنا فى الصفا حتى يصير يعرف أعمال جميع العباد من حسن وقبح فلا تخفى عليه ما يفعلونه في قعور بيوتهم . فقيل له : ومن أين تعرف ذلك وما ثم وحى ؟ فقال : يعرف الفقير ذلك من رؤية أنف أحدهم فإذا رأى أنفه عرف جميع ما فعله طول عمره حتى كأنه كان حاضراً معه .

وكان يقول : إذا صفى قلب الفقير صار مهبط الوحى[1] ومحل الأنوار وإذا تكدر كان محل الظلمة ومهبط الشياطين .

وكان يقول : قد أعطانى الله تعالى من الأخلاق المحمدية على لسان محمد ﷺ ما لم يعط لأحد من أولياء عصرى .

وكان يقول : آخى رسول الله ﷺ بينى وبين سيدى أحمد البدوى[2] وقال :

---

(١) محلا للتجليات الإلهية .

(٢) هو أبو فراج السيد أحمد البدوى : ولد رضى الله عنه بمدينة فاس بالمغرب لأن أجداده انتقلوا أيام الحجاج إليها حين كثر القتل فى الشرفاء فلما بلغ سبع سنين سمع أبوه قائلا يقول له فى منامه : ياعلى انتقل من هذه البلاد إلى مكة المشرفة فإن لنا فى ذلك شأناً وكان ذلك سنة ثلاث وستمائة : فنزلوا بمكة وتلقاهم أشرافها بالترحيب ولقب فيها السيد أحمد البدوى بالبدوى لكثرة ما كان يتلثم وقرأ القرآن وحفظه ومن شجاعته لقب فى مكة أيضاً بالعطاب ثم تغيرت أحواله واعتزل عن الناس ولازم الصمت .

ثم توجه إلى مدينة طنطا وفى الطريق إليها مر بالعراق لزيارة الأولياء هناك وفى طنطا ربى كثيرا من المريدين وكانت مدرسته الصوفية هناك ذائعة الصيت فى جميع الأقطار ولا زالت طريقته ومريدوه منتشرون فى جميع أنحاء العالم الإسلامى وكان من كبار العلماء فى التصوف والفقه والحديث وكان يدرس لتلامذته هذه العلوم ويحضهم على الجهاد فى سبيل الله حيث كانت الحملات الصليبية فى ذلك العصر مستمرة .

... هيم لو علمت أحداً أكبر قوة من أحمد البدوى فى الأولياء لآخيت بينك وبينه .

وكان يقول : أعطانى الله تعالى مقاماً لم يعط لأحد من الأولياء(١) وهو سماطى الذى ... كل سنة على فلا يتخلف عنه أحد من الأولياء الأحياء والأموات فيحضرون ... رسول الله ﷺ فيأكلون فيه طعاما روحانياً جبرا لخاطرى ونقباء هذا السماط ... (٢) وإلياس(٣) وعمار بن ياسر(٤) والمقداد ربيب الأسود وأبو هريرة انتهى .

وقد ذكرت ذلك لسيدى الشيخ عبد القادر الدشطوطى فقال :

صدق سيدى إبراهيم وقد حضرت هذا السماط مراراً أنا والشيخ على الخواص وجماعة ... أصحاب سيدى إبراهيم رضى الله عنه وكان سيدى إبراهيم يقول : كنت أرى النبى ﷺ وأنا صغير فى المنام فكانت أمى(٥) تقول لى : يا إبراهيم كل الناس يرونه فى ... ولا تكون رجلا إلا إن صرت تراه فى اليقظة ويحدثك وتشاوره على أمورك كما ... المريد شيخه(٦) قال : وما وصلت هذا المقام حتى قطعت مائتى ألف مقام وسبعة ... ألف مقام وتسع مائة تسعة وتسعين مقاماً فقيل له وكذلك الحكم فى غيركم ... فى مقام الأخذ عن رسول الله ﷺ يقظة إلا بعد مجاوزة جميع هذه المقامات ؟

---

(١) يقصد خصوصية معينة .
(٢) صاحب القصة المعروفة فى سورة الكهف .
(٣) من الأنبياء الوارد من ذكرهم فى القرآن .
(٤) من الصحابة .
(٥) يبدو أن أم سيدى إبراهيم المتبولى كانت من النساء الصالحات لمعرفتها هذه ... الأولياء .
(٦) يريد منه أن يكون شيخه سيدنا رسول الله ﷺ مباشرة دون واسطة من أحد ... كما يتعامل المريد مع شيخه وهذا من أعظم مقامات الأولياء حيث أن التعامل ... سيدنا رسول الله ﷺ يقربهم من مرتبة الصديقية وهى من أعظم المراتب ...

فقال : نعم لا يصح لأحد مقام الأخذ عنه ﷺ إلا بعد مجاوزتها .

وكان يقول رضى الله عنه : أعطانى الله تعالى معرفة ذنوب كل من توضأ من مطهرة من زوية[١] غسالة أعضائهم فأعرف غسالة الكبائر والصغائر والمكروهات وخلاف الأولى فأفرق بينها . وكان يقول : وعزة ربى هؤلاء الذين يتكلمون فى طريق المحبة كعمر ابن الفارض[٢] لم يعطوا من سر الله عز وجل ما يعطى شارب ناموسه[٣] . وكان يقول : وعزة ربى كل فقير لم يمد صاحب الوليمة التى حضرها بالبركة الخفية طول عامه ويتحمل عنه جميع البلايا النازلة عليه فى ذلك العام فليس له أن يمد يده إلى لقمة[٤] . وكان يقول : إياكم أن تروا نفوسكم كبرتم فتفطموا عن الرضاع من ثدى الأمداد الإلهية[٥] . وكان

(١) يقصد من جانب غسالة أعضائهم .

(٢) كان من أكابر أولياء مصر وضريحه مشهد بجبل المقطم وكان من أبناء الوزراء كان يعتزل الناس بوادى المستضعفين بالمقطم ويقيم فيه الشهور . ولا يرجع إلا إكراما لوالده . ومع ذلك كان لا يجد الفتح الذى يتمناه فقال له أحد الأولياء أنه لن يفتح عليك إلا بمكة فتوجه إليها وفتح عليه هناك . ثم عاد إلى مصر وأقام فيها . له أشعار مشهورة أشهرها تائية بن الفارض التى قيل أن الفتوحات المكية شرح لها بناء على الخلاف بين المؤرخين : هل قابل سيدى عمر بن الفارض الشيخ الأكبر محى الدين بن عربى أم لا .

(٣) يقصد تعظيم سر الله وبيان أفضليته فى العلم عن سيدى عمر بن الفارض فإن مقدار شارب ناموسة من سر الله من أعظم الدرجات عند الأولياء فهو مدح فى نفس الوقت لسيدى عمر بن الفارض .

(٤) هذا يقارب قول سيدى أبى الحسن الشاذلى عندما قيل له أن رسول الله ﷺ كان يقبل الهدية : بقوله : كان يقبلها ليجازى بأكبر منها فهذا القبول يعد إكراما للمهدى أكبر من قيمة هديته بمراحل كبيرة فلا يكون قبول الهدايا معترفا به عند الصوفية إلا بهذه الشروط وكذلك حضور الوليمة .

(٥) فإن نفس المريد قد ينتابها الغرور إذا ظهرت عليها الفتوح فى أول الطريق وبالذات الكرامات .

رضى الله عنه يجوع حتى تعصب على بطنه الحجر ويطعم طعامه المحتاجين إليه . وكان إذا شكى أحد إليه ضرب العزوبة يعطيه خيطا يشده فى وسطه فلا تنتشر له جارحة حتى يتزوج(١) وإن طلب أن يكون ذلك دائما يمسح بيده على ظهره فلا يشتاق إلى نكاح حتى يموت .

وكان إذا شكى أحد إليه فقراً أو ديناً يقول له إذهب إلى الخص الذى فى الغيط فارفع الحصا وخذ حاجتك فيرفعها فيجد قناة من ذهب تجرى من علو وتنزل فى سفل فيأخذ منها حاجته ومناقبه كثيرة رضى الله عنه .

---

(١) أى لا يشعر برغبة جنسية حتى يتزوج .

مقدمة في بيان عدة أمور يتعين على مطالع الكتاب الوقوف عليها قبل الخوض فيه بغير فهم ليعرف اطلاع القوم

إعلم يا أخي أن مرادنا بالأخلاق المحمدية حيث اطلقناها في هذا الكتاب وغيره ما يعم الصريح والمستنبط من نص أو قياس كما أطلق العلماء لفظ الشريعة على ما يشمل الصريح والمستنبط وكما أطلقوا مذهب المجتهد على ما صرح به وعلى ما فهمه المقلدون له من كلامه أي فكما يسمى ما ذكرناه شريعة ومذهباً كذلك يسمى ما أستنبط العارفون من أخلاقه ﷺ بأخلاق المحمدية فافهم والله أعلم .

ولنبين لك يا أخي ما اشتملت عليه هذه المقدمة بأوضح بيان فنقول :

بيان كون طريق القوم مشيدة بالكتاب والسنة

أعلم أن القوم كلهم قد أجمعوا على أن من خرج عن السنة المحمدية قيد شبر في ملبسه أو مأكله أو منامه أو قوله أو فعله فليس هو من القوم ولو تزيا بزيهم وهم برءآ منه في الدنيا والآخرة كما تبرأ المجتهدون كذلك من كل قول يخالف ظاهر الكتاب والسنة وقالوا : إذا خالف قولنا ما صح رسول الله ﷺ فارموا بقولنا وأعملوا بقول رسول الله ﷺ [1] وكان الامام أبو حنيفة [2] رضى الله عنه يقول كثيراً لا ينبغى لمن لم يعلم دليلي

---

(١) وكذلك كان قول الأئمة الأربعة ومن تابعهم من الأئمة المجتهدون .

(٢) هو الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت : رضى الله عنه ولد سنة ثمانين من الهجرة وتوفى ببغداد سنة خمسين ومائة وهو ابن سبعين سنة وكان في زمنه أربعة من الصحابة هم : أنس بن مالك — عبد الله بن أبي أوفى — سهل بن سعد — أبو الطفيل وهو آخرهم موتا .

وأكره رضى الله عنه على تولى القضاء وضرب على رأسه ضربا شديدا فلم يقبل . =

يحق بكلامي . وتأمل يا أخي إذا كان علماء الظاهر يخطئون بعضهم بعضاً مع إنهم في
مذهب واحد وشريعة واحدة ظاهرة للافهام فكيف لا يخطئون كلام من جاوز الفهم إلى
الأمور الكشفية ومعلوم أن دائرة الكشف تبتدى من بعد دائرة الفكر والفهم فلا
ينبغي لصاحب الفكر أن يذوق من طريق الكشف إلا ما وافق صريح السنة . مع أن
علوم الكشفية لا تأتى قط إلا موافقة للشريعة لأنها إخبار بالأمور على ما هى عليه في
نفسها كما هو الأمر فى الشريعة المطهرة ومن شهد خطأ فى الشريعة فذلك الخطأ راجع قطعاً
إلى فهمه هولا إلى الشريعة ويؤيد ذلك قول من قال : إن حكم الحاكم ينفذ ظاهراً وباطناً
في الدنيا والآخرة لكن ينبغي تقييده بما إذا حكم بصريح النص أما إذا حكم بما فهمه
فقد يوافق الأمر الأخروى وقد يخالفه وقد تتبعت بحمد الله تعالى أدلة أقوال المجتهدين
فرأيت القول لا يخلو من أن يكون مسنداً إلى آية أو حديث أو مفهوم لهما أو أثر أو
قياس صحيح على أصل صحيح .

وقد كان أبو القاسم الجنيد رضى الله عنه يقول : علمنا هذا مشيد بالكتاب
والسنة وكل من لم يفهم القرآن والحديث لا يقتدى به في طريقنا ولو كان على عبادة
الثقلين قلت وإنما لم يذكر الجنيد رحمه الله القياس مع الكتاب والسنة لأنه لا يثبت
حكم دلالته إلا بالكتاب والسنة وكذلك الإجماع فى نفس الأمر والله أعلم وكان سيدى

= وكان رضى الله عنه حسن الثياب طيب الرائحة كثير الكرم حسن المواساة لإخوانه.

وكان رضى الله عنه يقول : ما صليت قط إلا ودعوت لشيخى حماد ولكل من
تعلمت منه علماً أو علمته .

وكان الشافعي رضى الله عنه يقول : الناس عيال على أبى حنيفة فى الفقه .

وكان لا ينام الليل وسموه الوتد لكثرة صلاته ، وصلى الصبح بوضوء العشاء أربعين
سنة . وكان عامة الليل يقرأ القرآن كله فى كل ركعة وكان يسمع بكاؤه حتى يرحمه
جيرانه وختم القرآن في الموضع الذى مات فيه سبعة آلاف مرة .

إبراهيم الدسوقي[1] رضى الله عنه يقول : من لم يحبس نفسه فى قمقم الشريعة ويختم عليها بخاتم الحقيقة فليس هو من اتباعنا ولو مشى فى ركابنا .

وكان يقول أيضاً : أول من يتبرأ من الفقراء المبتدعة من السهروردية والقادرية والرفاعية وغيرهم مشايخهم يوم القيامة .

---

(١) هو العارف بالله تعالى : سيدى إبراهيم الدسوقى القرشى رضى الله عنه من أجلاء مشايخ الصوفية . يقول عنه الإمام الشعرانى : هو من أجلاء مشايخ الفقراء أصحاب الحرف وكان من صدور المقربين وكان صاحب كرامات ظاهرة ومقامات فاخرة ومآثر ظاهرة وبصائر باهرة وأحوال خارقة وأنفاس صادقة وهمم عالية ورتب سنية مناظره بهية وإشارات نورانية ونفحات روحانية وأسرار ملكوتية ومحاضرات قدسية . له المعراج الأعلى فى المعارف والمنهاج الأسنى فى الحقائق والطور الأرفع فى المعالى والقدم الراسخة فى أحوال النهايات واليد البيضاء فى علوم الموارد والباع الطويل فى التصريف الناقد . والكشف الخارق عن حقائق الآيات والفتح المضاعف فى معنى المشاهدات . وهو أحد من أظهره الله عز وجل إلى الوجود وأبرزه رحمة للخلق وأوقع له القبول التام عند الخاص والعام وصرفه فى العالم ومكنه فى أحكام الولاية وقلب له الأعيان وخرق له العادات وأنطقه بالمغيبات وأظهر على يديه العجائب وصومه فى المهد رضى الله عنه وله كلام كثير عال على لسان أهل الطريق .

ومن كلامه رضى الله عنه : من لم يكن مجتهدا فى بدايته لا يفلح له مريد ، فإنه إن نام نام مريده وإن قام قام مريده وإن أمر الناس بالعبادة وهو بطال أو نوبهم عن الباطل وهو يفعله ضحكوا عليه ولم يسمعوا منه وكان ينشد كثيراً إذا قيل له انصحنا وأرشدنا بمثالين من قول بعضهم :

لا تعذلين الحرائر حتى تكونى مثلهن   يقبح على معلولة تصف دواء الناس

وكان رضى الله عنه يقول يجب على المريد أن لا يتكلم قط إلا بدستور شيخه إن كان جسمه حاضرا وإن كان غائبا يستأذنه بالقلب وذلك حتى يترقى إلى الوصول إلى هذا المقام فى حق ربه عز وجل . فإن الشيخ إذا رأى المريد يراعيه هذه المراعاة رباه بلطيف الشراب وأسقاه من ماء التربية ولاحظه بالسر المعنوى الإلهى فيا سعادة من أحسن الأدب مع مربيه ويا شقاوة من أساء .

وسمعت سيدى علي المرصفي رضى الله عنه يقول : سبب ظن بعض الناس أن طريق القوم خارجة عن الشريعة بعدهم عن مخالطة أهلها ولو أنه خالطهم لوجدهم متقيدين بالكتاب والسنة .

وكان الشيخ عز الدين ابن عبد السلام[١] قبل اجتماعه بالقوم يقول : وهل ثم طريق يتقرب بها إلى الله تعالى غير ما بأيدينا من العلم ؟ فلما اجتمع بالشيخ أبى الحسن الشاذلى[٢] وقطع السلسلة الحديدية بالكراس أى صار يقول : من أدل دليل على أن

(١) هو الشيخ عز الدين بن عبد السلام كان من أجلاء شيوخ مصر والشام وكان مشهورا بلفتيا وقول الحق حتى لقب بسلطان العلماء .
هاجر من الشام إلى مصر فى زمن المماليك وعندما رأى ظلمهم وجورهم بالرعية ، ويتوانى عن الإفتاء ببيعهم لأنهم لم يعتقوا .
شارك مع الإمام أبى الحسن الشاذلى فى معركة المنصورة .
وهو صاحب القولة المشهورة عندما سمع حديث أبى الحسن الشاذلى (اسمعوا هذا حديث القريب العهد من الله) .
(٢) هو على بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلى بالشين والذال المعجمتين هاجر من المغرب إلى مصر وأقام بالإسكندرية .
فى مبدأ حياته صاحب الشيخ نجم الدين الأصفهانى وسيدى عبد السلام بن شيش .
يقول عنه سيدى ابن عطاء الله السكندرى فى كتابه الرائع لطائف المنن :
« قطب الزمان والحامل فى وقته لواء أهل العيان حجة الصوفية علم المهتدين زين العارفين أستاذ الأكابر زين الأسرار ومعدن الأنوار القطب الغوث الجامع أبو الحسن على الشاذلى رضى الله عنه . لم يدخل طريق القوم كان يعد للمناظرة فى العلوم الظاهرة . وشهد له الشيخ أبو عبد الله بن النعمان بالقطبانية : جاء رضى الله عنه فى هذا الطريق بالعجب العجاب وكان الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد رضى الله عنه يقول مارأيت أعرف بالله من الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه ، ومن كلامه رضى الله عنه عليك بالإستغفار وإن لم يكن هناك ذنب ، واعتبر بإستغفار النبى صلى الله عليه وسلم بعد البشارة واليقين بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، هذا فى معصوم لم يقترف ذنبا قط وتقدس عن ذلك فما ظنك بمن لا يخلو من العيب والذنب فى وقت من الأوقات ، وكان رضى الله عنه يقول إذا عارض كشفك

القوم قعدوا على أساس الشريعة وقعد غيرهم على الرسوم ما يقع على يدهم من الكرامات والخوارق ولا يقع شيء من ذلك على يد أحد من الفقهاء إلا إن سلك طريقهم .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : كيف ينسب القوم إلى مخالفة السنة وهم مجمعون على أنه لا يجوز لأحد منهم الإقدام على فعل أو قول حتى يعلم مستنده من الكتاب والسنة ؟ فإن كان مثل هؤلاء لا يصح تسميتهم مبتدعة ، فما بقى على وجه الأرض من المسلمين الآن سنى .

وكان سيدى على المرصفى يقول : من تأمل بعين الإنصاف وجد جميع ما ينكره بعض المجادلين على الصوفية جهل وجحد وعناد وحسد فإن حقيقة الصوفى أنه عالم عمل بعلم على وجه الإخلاص لا غير .

ويؤيده ما ورد عن السيد عيسى عليه الصلاة والسلام أنه كان يقول : من عمل بما علم فهو من أولياء الله تعالى .

وكذلك يؤيده قول الإمام الشافعى[1] رحمه الله : إن لم تكن العلماء العاملون أولياء

الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف وقل لنفسك إن الله تعالى قد ضمن لى العصمة فى الكتاب والسنة ولم يضمنها لى فى جانب الكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة مع أنهم أجمعوا على أنه لا ينبغى العمل بالكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة .

(١) هو الإمام أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعى رضى الله عنه :
ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتقى معه فى عبد مناف . ولد رضى الله عنه فى غزة بالشام ثم حمل إلى مكة وهو ابن سنتين وعاش أربعا وخمسين سنة وأقام بمصر أربع سنين ونيفا ثم توفى بمصر ليلة الجمعة سنة أربع ومائتين .

نشأ رضى الله عنه فى ضيق حال يجالس فى صباه العلماء ويكتب ما يستفيده فى العظام ونحوها لعجزه عن شراء الورق . تفقه فى مكة على مسلم بن خالد الزنجى . وفى المدينة لازم الإمام مالك بن أنس وقرأ عليه الموطأ وكان سنه عند ما أتى الإمام مالك ثلاث عشرة سنة

الله تعالى فليس لله ولى[١] انتهى .

فكذب والله وافترى من قال إن طريق القوم لم يأت بها كتاب ولا سنة وذلك من أكبر علامة[٢] على جهل هذا القائل بالحقيقة والشريعة والحمد لله رب العالمين .

ثم رحل إلى اليمن واشتهر بها . ثم رحل إلى العراق وناظر محمد بن الحسن وغيره ونشر علم الحديث ونصر السنة واستخرج الأحكام منها ورجع كثير من النـاس إلى مذهبه ثم جاء إلى مصر فى آخر سنة تسع وتسعين ومائة . وألف مذهبه الثـانى .

قال الربيع بن سليمان : رأيت على باب دار الإمام الشافعى رضى الله عنه سبعمائة راحلة تطلب سماع كتبه .

وكان الإمام الشافعى يقول : إذا صح الحديث فهو مذهبى .

وكان رضى الله عنه يقول : وددت لو أن الخلق تعلموا هذا العـلم على ألا ينسب إلى منه حرف .

(١) لأن الولاية تكون نتيجة العمل . وفى الحديث .

(من عمل بمـا علم ورثه الله علم مالم يعلم)

(٢) من أكبر العلامات .

بيان نفاسة طريق سيدى الشيخ إبراهيم المتبولى التى بنينا عليها غالب أخلاق الكتاب رضى الله عنه وبيان بعض عقوبة من أنكر على أهل الطريق وبيان أن كل من لم يخالط القوم بعد عن معرفة اصطلاحهم فأخطأ طريق الصواب

وقد قال الشيخ أبو تراب النخشبي[1] رضى الله عنه : إذا ألف القلب الإعراض عن الله صحبته الوقيعة في أولياء الله أى لأنه لو أقبل على حضرة الله لعرف أهلها ومن هو المقدم فيها وكان يحترمهم ضرورة فإنه ما عادى أحد أولياء الله وهو يعتقد ولايتهم أبداً وإنما يعاديهم حين يحجب عن مقامهم وحينئذ يرميهم بالنفاق والرياء والزندقة فافهم .

وكان الشيخ أبو عبد الله القرشي[2] أحد الرجال الأكابر من أولياء مصر : يقول من غضب من ولى لله عز وجل ضرب بسهم مسموم فى قلبه ولم يمت حتى تفسد عقيدته[3] . انتهى .

---

(١) هو العارف بالله : أبو تراب عسكر بن الحسين النخشبي : صحب حاتما الأصم وأبا حاتم العطار وهو من كبار مشايخ خراسان .

كان مشهورا بالعلم والفتوة والزهد والتوكل الورع .

وكان يقول : لاينبغى لفقير قط أن يضيف إلى نفسه شيئا من المال قط . ألا ترى إلى موسى عليه السلام حيث قال : هى عصاى واوعى الملك لها ، قال الله عز وجل له : ألق عصاك فلما قلب العين فيها لجأ وهرب فقيل ارجع ولاتخف .

توفى سنة خمس وأربعين مائتين .

(٢) هو الشيخ أبو عبد الله القرشي : كان جليل القدر ، وكان يعظم الفقراء أشد التعظيم ، ويقول إنهم انتسبوا إلى الله تعالى .

ومن أقواله : مارأينا أحدا قط أنكر على الفقراء وأساء بهم الظن إلا ومات على أسوأ حال .

وكان رضى الله عنه يقول : إحتقار الفقراء سبب لارتكاب الرذائل .

(٣) وفى الحديث : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب . . . . .

وهذا من أكبر العقوبات لأن من ضرب فى قلبه بسهم مسموم لا يقدر أحد من الأطباء يداوى له مرضاً فيقاسى من العذاب ما لم يعذب به أحد من العالمين إن كان فى أجله فسحة ومن فسدت عقيدته صار لا يعتقد فى الله تعالى ولا فى رسوله ولا فى أوليائه خيراً فيجنى ثمرة سوء ظنه بالله وأنبيائه وأوليائه ، فلا أحد يأخذ بيده فى شدة ، لا فى الدنيا ، ولا فى الآخرة ، نسأل الله العافية من ذلك . إذا علمت ذلك فأقول وبالله التوفيق .

كان سيدى إبراهيم المتبولى رضى الله عنه من أكابر الأولياء أصحاب الدوائر الكبرى[1] وكان يقول . ليس لأحد من الأشياخ فى رقبتى منة فى طريق وإنما المنة على لرسول الله ﷺ .

وكان فى بداية أمره يبيع الحمص المسلوق بالقرب من جامع الأمير شرف الدين خارج الحسينية . ويأكل من كسبه . ولا يقبل من أحد شيئاً ، ولو كان أعز أصحابه .

ومات أبوه وهو صغير . فربته والدته ، وكانت من الصالحات ، ولها حال عظيم ، مع الله عز وجل .

ورأيت سيدى عليا الخواص رضى الله عنه مع علو مقامه فى التصريف[2] ، إذا حزبته حاجة شديدة ، يذهب على قبر والدة سيدى إبراهيم ويحكى لها ذلك الأمر عند القبر ، فتقضى الحاجة . وقبرها معروف بذلك إلى الآن .

وكان سيدى إبراهيم — وهو صغير — يرى رسول الله ﷺ فى المنام كثيراً ويحادثه ، فتقول له أمه : يا ولدى كل الناس يرونه فى النوم وإنما الرجل من يراه فى اليقظة .

فما زال رضى الله عنه يترقى فى المقامات ، حتى صار يجتمع به فى اليقظة ، ويشاوره فى أموره كلها كما يشاور التلميذ الصادق شيخه ، والولد الموفق والده ، ويعمل بإشارته

---

(١) من أصحاب المقامات العالية .

(٢) التصريف فى المصطلح الصوفى يقصد به أن الله سبحانه وتعالى يعطى أولياءه بعض التصرف فى الكون على ما يجرى به قدره .

ﷺ . ولما عمر سيدى إبراهيم زاويته ببركة الحاج وغرس البستان الذى هناك صار كم يحفر بئراً تنهال فشاور رسول الله ﷺ على ذلك فقال له : سأرسل لك على بن أبى طالب يخط لك بجريدة على جدار بئر أخى شعيب نبي الله التى كان يسقى منها الغنم — وكانت قد رددمت ولا يعلم أحد مكانها — فأصبح سيدى إبراهيم فوجد الإمام عليه رضى الله عنه قد خط له عليها . فحضر فوقع على أساسها ، فهى دائرة يشرب منها الغنم إلى الآن[1] .

وأخبرنى سيدى الشيخ عبد القادر الدشطوطى رضى الله عنه — وكان من أعز أصحاب سيدى إبراهيم — قال : قد خصّ الله تعالى سيدى إبراهيم المتبولى بخصيصة لم تكن لأحد من الأولياء وهى أنه كل سنة وليمة عظيمة يمد سماطها على سد اسكندر ذى القرنين فلا يتخلف عن تلك الوليمة أحد من الأنبياء والمرسلين وصالح المؤمنين .

قال : وقد حضرتها كذا كذا مرة ، وصحبت الخضر والياس من هناك وأخبرنى أن نقباء السماط هناك الإمام على وأبو هريرة والمقداد ابن الأسود وأعوانهما فيمتد من ذلك السماط الأحياء من الأولياء والأموات . قال : وأما حضور الأنبياء فإنما هو جبر خاطر منهم له .

فقلت لسيدى عبد القادر : فهل يسع سد اسكندر هؤلاء الخلائق كلهم ؟ فقال لى : نعم طول السد سبعمائة ميل وعرضه خمسة أميال انتهى .

وأخبرنى شيخ الإسلام زكريا[2] رحمه الله قال : كان سيدى إبراهيم المتبولى من

---

(١) وهى لا زالت موجودة حتى الآن .

(٢) هو شيخ الإسلام الإمام زكريا الأنصارى الخزرجى : كان من كبار علماء مصر سواء فى الفقه أو التصوف .

وله شرح على الرسالة القشيرية وشرح على الأربعين النووية وعلى تفسير البيضاوى وغيرهم من الكتب .

دفن بجوار الإمام الشافعى بعد وفاته فى شهر ذى الحجة سنة ست وعشرين وتسعمائة .

الراسخين فى العلم ، مع أنه كان أميا ، لا يعرف الخط ، وكان يحل مشكلات الكتاب والسنة بحسن عبارة ، وعاش مائة سنة وسبع سنين لم يغتسل قط من جنابة ، لأنه لم يتزوج ، ولم يحتلم ، وكانوا إذا قالوا له تزوج يقول : يا أولادى ليس فى ظهرى ذرية تخرج منه إلى الدنيا وهم أهوال يوم القيامة لم يدع له شهوة إلى الجماع قال : وكان إذا شكى إليه أحد العزوبية يقول له تريد أن تخمد شهوتك طول عمرك أو حتى تقدر على مؤنة النكاح ، فإن قال : طول عمرى ، مسح بيده على ظهره ، فلا يشتهى الجماع ، إلى أن يموت ، وإن قال : حتى أقدر على القيام على المرأة ، يشد له على بطنه بخيط ، ويقول ما دام هذا على بطنك لا تنتشر لك جارحة ، فإذا قدرت على التزويج فانزع الخيط ، قال : الشيخ زكريا وكنا لا نهمل من أحواله شيئاً فربما فعل فعلا باطنه حكمة وظاهره بدعة قال : وقد زرناه يوما وكان معى خمسة عشر من العلماء فشق لنا بطيخة بيده وصار يعطى واحداً ويدع آخر أو اثنين ، وبدأ بالجانب الأيسر فأراد بعض الفقهاء أن ينكر عليه ، فقلت له : لا تنكروا كتب لى أسماء من فرق عليهم على الترتيب ، وأسماء من أخرهم ، ففعل . قال : شيخ الإسلام فمن أعطاه أولا مات أولا ، ومن أعطاه ثانيا مات ثانيا بعده ، وهكذا قال : وكان أعطانى آخر الكل فماتوا كلهم ولم يبق منهم غيرى وكانت تفرقته عليهم على حسب أعمارهم رضى الله عنهم .

وكان رضى الله عنه يصلى الظهر دائما بالجامع الأبيض برملة لد[1] وكان بعض الفقهاء ينكر عليه عدم حضوره الجماعة معه فى مصر لجهله بحاله .

قال سيدى على الخواص : وقد أوصانى بذلك أنا والشيخ عبد القادر الدشطوطى فما تخلفنا عن صلاة الظهر فى هذا الجامع من حين أوصانا سيدى إبراهيم إلى وقتنا هذا . قال : وقد حضرت مع الشيخ مراراً فى حياته ، وكان إمام الجامع نحيفاً بلا لحية ولونه كالزعفران فأمره بالدعاء لنا فدعا لنا وهكذا أخبرنى أيضاً الشيخ يوسف الكردى

---

(١) بلدة بالشام .

أحد أصحاب سيدى إبراهيم ، وأخبرنى أيضاً : أنه اشتاق إلى أمه يوماً وهو مقيم عنده فى بركة الحاج ، فشاور سيدى إبراهيم ، فقال : إن شاء الله تزورها فى هذا اليوم قبل الغروب .

فتعجبت من قول الشيخ ، ولم أجد بداً من تصديقه ، فصليت معه العصر بالزاوية ثم دخلت خلوتى ورددت الباب ، فبينما أنا أقرأ وردى ، إذ رأيت نفسى داخلا بلدنا ووالدى وأهلى يتلقونى بالأعلام والذكر فسلمت عليهم ودخلت على الوالدة ففرحت بى فرحاً شديداً ، وأقمت عند أهلى تسعة أشهر ، أقرىء أطفالا وأخطب وأصلى بالناس ، وكان الإمام مريضاً ، فلما مضت على تسعة أشهر تحرك شوق إلى سيدى إبراهيم ولم أقدر أقيم عند أهلى بعد ذلك فودعتهم وخرجت للسفر ، فشيعونى إلى المحل الذى كانوا تلقونى منه ، وزودونى فاكهة ففتحت عينى فإذا أنا جالس فى وردى فى الخلوة والفاكهة بين يدى ، فخرجت أسلم على الإخوان سلام المسافرين ، فضحكوا على فصرت أحلف لهم أنى كنت مسافراً ولم يصدقونى ، فعلم الشيخ بذلك فقال لى : اكتم ما رأيت قال : فكتمت ومكث الفقراء يضحكون زماناً ، ثم بعد سنة جاءتنى أمى ووالدى من بلاد الأكراد بهدية للشيخ ، وقالا للشيخ : قد عجزنا فى يوسف أنه يكمل عندنا سنته فلم نقدر عليه ، وقال : يكفى تسعة أشهر فتعجب الفقراء من ذلك فقال سيدى إبراهيم : لا تتعجبوا فإن القدرة صالحة لأعظم من ذلك : وأخبرنى سيدى على الخواص : أن شخصاً من الأولياء نزل من الهوى[١] وجلس بين يدى سيدى إبراهيم منادياً فقال : يا سيدى مما أعطانى الله تعالى أنه لا ينزل حيوان من بطن أمه من جن وإنس ووحش وطير وغير ذلك ولا تخرج ورقة من العود أو نبات من الأرض إلا ويعلمنى بذلك قبل ظهوره . فقال له سيدى إبراهيم : وعزة ربى هذا أمر قد أعطانيه الله عز وجل وأنا دون البلوغ فلم أقف معه ، إنما الشأن يا ولدى فى الاقبال على ربك بحيث لا يكون لك

---

(١) الهواء .

عنه إعراض فى ساعة من ليل أو نهار ووالله إن قول العبد : سبحان الله مرة واحدة فضل من اطلاعه على ملكوت الدنيا والإخرة على التفصيل [1] انتهى .

وقد بلغنا أن الله سبحانه وتعالى يقول فى بعض كتبه المنزلة : « ياعبدى لو سقت إليك ذخاير الكونين فنظرت بقلبك إليها طرفة عين فأنت مشغول عنا لا بنا انتهى .

فتاب ذلك الولى وقبل رجل الشيخ وطار فى الهوى ونحن ننظره .

وأخبرنى أيضاً أن فقيراً كان فى زاوية سيدى إبراهيم على قدم الجد والاجتهاد فى العبادة فدعاه سيدى إبراهيم يوماً وقال لى : مالى أراك كثير الأعمال ناقص الدرجات؟ قال : لأن والدى مات وهو ساخط على فقال له سيدى إبراهيم : هل تعرف قبره ؟ فقال : نعم . فذهب بالولد إليه ، ونادى والده من القبر ، فأجاب وانشق القبر وخرج مرعوباً لاعتقاده أن الساعة قد قامت فقال الشيخ : لا روعة عليك إنما دعوتك لترضى عن ولدك هذا .

فقال اللهم إنى أشهدك أنى قد رضيت عن ولدى .

فقال له : ارجع سالماً وسأله عن أحوال أهل القبور فأعلمه بأحوال بعضهم ، فبكى حتى بل الثرى ثم نزل والده إلى قبره ، وفاق ذلك الولد حتى صار من أهل الكشف من ذلك اليوم .

وأخبرنى الشيخ يوسف الكردى المتقدم ذكره قال : كنت أمشي خلف حمارة سيدى [illegible] وهو ذاهب من مصر إلى بركة الحاج فتلقته امرأة وعانقت حمارته وقالت : سيدى ولدى أسره الفرنج ولا أعرف ولدى إلا منك .

---

[1] يعتبر المتصوفة أن ظهور الكرامات وخوارق العادات على يد أىمنهم دلالة على أنه [illegible] فى مبدأ أمره بل إن كثيراً من المتصوفة الذين قطعوا فى الولاية مراحل كبيرة [illegible] تجرى هذه الخوارق على يديهم ولا يلقون إليها بالا ، بل إن الاتجاه الأكبر عندهم [illegible] التوجه إلى الله سبحانه وتعالى فيكونون له وبه فى كل لحظات حياتهم .

[illegible] الحديث : عبدى أطعنى تكن ربانياً .

فقال سيدى إبراهيم : هذه الكرامة إنما هى لسيدى أحمد البدوى فلم تطلق الحارة فطأطأ الشيخ رأسه ساعة لحظة وقال : انظرى هل هذا ولدك ؟ فإذا هو يمشى نحوه فتلاقت هى وإياه وعانقته فقالت له : كيف جئت ؟ فقال : كنت جالساً فى دار التفتيش ففتحت عينى فإذا أنا أمشى بالقرب منكم .

وأخبرنى أيضاً أن سيدى إبراهيم رأى الصغار الذين يلعبون بالحمام فى طريق البركة فسلم علي صغير منهم على رأسه زنط من أولاد الترك وقال : أهلا بشيخ الإسلام فتعجب الفقراء من تلقيبه بذلك .

قال الشيخ يوسف : فتبعت الولد حتى دخل مصر فعرفت بيت والده وصرت أتردد إليه كل قليل فاشغله والده بالقرآن والعلم فبرع حتى صار شيخ الإسلام .

وهو الشيخ كمال الدين الطويل الشافعى (١) ، وقد تولى مشيخة الإسلام أيام السلطان الغورى وقرأت أنا عليه العلم ولما دنت وفاته رأيت سيدى إبراهيم فى المنام وهو يقول لى : قل للشيخ كمال الدين يتهيأ للموت فقد دنا أجله فأرسلت له شخصاً أعلمه بذلك فقال سمعاً وطاعة فعاش بعدها نحو شهر فتعجبت من اعتناء سيدى إبراهيم به فى صغره وعند وفاته حتى تهيأ للقاء الله رضى الله عنه .

وأخبرنى سيدى الخواص قال : كنا مع سيدى إبراهيم فى وليمة على الخليج الحاكمى أيام النيل وهناك ولد لصاحب الوليمة فالتهى والده بالسماط فوقع الولد فى الماء فى الخليج وكان عمره نحو ثلاث سنين ، فلم يتذكروه إلا آخر الليل ، فأخبروا الشيخ بذلك فقال : اذهبوا إلى القنطرة تجاه جامع الظاهر تجدوه بجنب الجرف عائماً على الماء والروح

---

(١) هو شيخ الإسلام الشيخ كمال الدين الطويل : كانت الأنوار تحفق على وجهه ، وكان إماماً فى العلوم والمعارف متواضعاً عفيفاً ظريفاً ، لا يكاد جليسه يمل مجالسته ، انتهت إليه الرئاسة فى العلم ، ووقفت الناس عند فتاويه ، وكانت كتب الإمام الشافعى نصب عينيه لا كتب الأوزاعى والزركشى .

توفى فى أوائل حكم العثمانيين ودفن بتربته خارج باب النصر .

فيه . فذهبوا فإذا هو حى ، كما قال الشيخ ، لم يصبه أذى من الماء ، ببركة سيدى إبراهيم .

وكان رضى الله عنه يلبس شملة الصوف الحمراء على عمامته ويقول : أتبرك بزى أخى أحمد البدوى فقد آخى رسول الله ﷺ بينى وبينه وأمرنى أن أصغر جرم خبزى كخبز سيدى أحمد .

وقال : وعزة ربى لو وجدت لك يا إبراهيم أحداً من الأولياء أكبر فتوة من أحمد البدوى لآخيت بينك وبينه ولكن ما ثم فى أولياء مصر بعد محمد بن إدريس[1] أكبر فتوة منه .

فقلت له : يا رسول الله فمن بعده فى الفتوة من أولياء مصر ؟ فقال : السيدة نفيسة[2] وبعدها الشيخ شرف الدين الكردى[3] بالحسينية وبعده الشيخ عبد الله المنوفى[4] انتهى .

وكان رضى الله عنه يعيب على من يشتغل بالأسماء الإلهية[5] لعلة دنيوية ويقول : من

---

(١) هو الإمام الشافعى .

(٢) هى السيدة نفيسة بنت سيدى حسن الأنور بن سيدى زيد الأبلج بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم : ولدت رضى الله عنها بمكة وكان سنة خمس وأربعين ومائة ونشأت فى العبادة وتزوجت بإسحاق المؤتمن ورزقت منه بولدين القاسم وأم كلثوم ، وأقامت بمصر سبع سنوات وكان الإمام الشافعى يزورها ويصلى بها صلاة القيام فى رمضان بمسجدها وتوفيت سنة ثمان ومائتين .

(٣) هو الشيخ شرف الدين الكردى : المدفون بالحسنية وكان من أصحاب العارف بالله أبى السعود بن أبى العشائر وله مقام عظيم وكرامات مشهورة ، توفى سنة سبع وستين ومائتين .

(٤) هو الشيخ عبد الله المنوفى المالكى : يقول عنه الإمام الشعرانى : أنه الصالح العابد المجتهد الأوحد ذو الكرامات الكثيرة ، مات سابع رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة . ودفن خلف قبر السلطان قايتباى الآن بالصحراء .

(٥) يقصد بذلك علم الحرف وحساب الجمل .

فعل ذلك فهو كعبدة الأصنام بل عبدة الأصنام أكبر همة منهم لأنهم قالوا : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، وهؤلاء عبدوا الله تعالى بالأسماء طلباً للقرب من الدنيا .

وكان يقول لأصحابه : لا تكبروا تفطموا وانظروا أنفسكم بغير العفوية يدوم رضاكم من الأمداد الإلهية بواسطة وبلا واسطة .

وكان يقول : لو احتجب عنى رسول الله ﷺ طرفة عين ما عددت نفسى من جملة المسلمين[1] يعنى الكاملين .

وكذلك بلغنا مثل هذا القول عن الشيخ أبى العباس المرسى[2] رضى الله عنه .

وكان سيدى إبراهيم إذا سألوه : من شيخكم فى الطريق ؟ يقول : شيخى أمى لأنها ربته فى الصغر .

وربما عنى بذلك رسول الله ﷺ .

وتارة يقول : شيخى أبونا إبراهيم الخليل[3] .

---

(١) بالنسبة لمقامه الصوفى .

(٢) هو الإمام العارف بالله سيدى أحمد أبو العباس المرسى ، يقول عنه سيدى أبو الحسن الشاذلى أنه أعرف بطرق السماء منه بطرق الأرض . ولد بمرسية بأسبانيا والتقى بشيخه أبى الحسن الشاذلى بالمغرب ، وهاجر معه إلى مصر ، وكان يقال إنه لم يرث علم الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه غيره .

ومن أقواله : « علوم هذه الطائفة علوم تحقيق ، وعلوم التحقيق لا تحتملها عقول عموم الخلق » .

وكان يقول فى معنى حديث : « من عرف نفسه عرف ربه » معناه : من عرف نفسه بذلها وعجزها عرف الله بعزه وقدرته .

وكان يقول : من أحب الظهور فهو عبد الظهور ، ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء ، ومن كان عبد الله فسواء عليه أظهره أو أخفاه . توفى عام ست وثمانين وستمائة ، ودفن بالإسكندرية .

(٣) يقصد أبو الأنبياء سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام .

وأجاب سيدى على الخواص عن ذلك فقال : ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ترجع إلى ملة محمد ﷺ لأنها فرع منها وإن كانت أما لها من وجه آخر من حيث قوله تعالى : « أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً »[١] وسألت سيدى عليا الخواص : هل بلغكم أن أحداً من الأولياء السابقين أخذ عن رسول الله ﷺ كما وقع لسيدى إبراهيم المتبولى ؟ فقال: نعم ما من ولى حق له قدم الولاية إلا ويصير يستمد من رسول الله ﷺ بلا واسطة ويستغنى عن جميع الوسائط فقلت له : حتى المجتهدين لأنه ماثم أحد حق له قدم الولاية المحمدية إلا ويخرج عن التقليد لأن غايته الظن وعلوم الأولياء من علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين ، وذلك فوق علوم الظن .

ومن اشتهر عنه من الأولياء أنه كان حنبليا أو حنفيا كالشيخ عبد القادر الجيــلى وسيدى محمد الحنفى فذلك كان حاله قبل كماله وإلا فما ثم ولى كامل مقلد لغير رسول الله ﷺ أبدا .

قال : وممن بلغنا من المتقدمين أنه لم يكن له شيخ غير رسول الله ﷺ أربعة لاخامس لهم فى الشهرة وهم الشيخ عبد الرحيم القناوى[٢] والشيخ أبى السعود بن أبى العشائر[٣]

---

(١) أو ربما يقصد مايسمى فى الإصطلاح الصوفى أنه « على قدم سيدنا إبراهيم عليه السلام » فإن الأولياء يربون على خلق نبي معين والجميع مستمدون من خلق رسول الله ﷺ باعتبار أنه (كان خلقه القرآن) كما ورد فى الحديث .

(٢) هو العارف بالله أبو محمد عبد الرحيم المغربى القناوى رضى الله عنه ، كان من أجلاء مشايخ مصر المشهورين وعظماء العارفين .

ومن أقواله : أدركت فهم جميع صفات الله تعالى إلا صفة السمع . وكان يقول : الرضا سكون القلب تحت مجارى الأقدار بنفى التفرقة حالا وعلم التوحيد جمعاً فيشهد القدرة بالقادر والأمر بالآمر وذلك يلزمه فى كل حال من الأحوال .

(٣) هو العارف بالله أبو السعود بن أبى العشائر بن شعبان بن الطيب البادين رضى الله عنه :

كان يزوره السلطان ، وتخرج بصحبته مشايخ لاحصر لهم . وكان يسمع عند خلع نعليه

والشيخ أبو مدين[١] والشيخ إبراهيم المتبولى رضى الله عنهم .

وأما من لم يشتهر بذلك بين العلماء فكثير .

قلت : وممن أدركته أنا من الأشياخ الذين اشتهر عنهم رؤية رسول الله ﷺ يقظة ومشافهة سيدى محمد المغربى[٢] شيخ الجلال السيوطى ، ولكنه كان يقول : المراد باليقظة انكشاف الحجاب عن القلب بطى المسافة بينه وبين رسول الله ﷺ حتى يصير جليسه وهو فى قبره الشريف ، لا أن رسول الله ﷺ كان يأتى إلى ذلك الولى لأن ذاته الشريفة منزهة عن كافة المجىء والرواح فى البرزخ . قال : وهذا هو الحق الصراح ، وإن كان الكامل يراه ﷺ ملء الوجوه بحسب عموم دعوته وسريان نور شريعته فلا يوجد نور شريعته فى مكان إلا وهو ﷺ حاضر فيه ، هكذا يدركه أهل الكشف .

وكذلك ممن أدركته أنا من أهل هذا المقام الشيخ محمد بن داود[٣] ، والشيخ على

كأنين المريض فسئل فى ذلك ؟ فقال هى النفس تخلعها عند النعال ، إذا اجتمعنا بالناس خشية التكبر ، وكان يقول : ينبغى للسالك الصادق فى سلوكه أن يجعل كتابه قلبه . توفى رضى الله عنه سنة أربع وأربعين وستمائة ، ودفن بسفح جبل المقطم .

(١) هو الشيخ أبو مدين المغربى السابق ذكره .

(٢) هو الشيخ محمد المغربى الشاذلى رضى الله عنه : كان من الراسخين فى العلم ، أخذ التصوف عن الشيخ أبى العباس السرسى تلميذ العارف بالله شمس الدين الحنفى .

وكان رضى الله عنه يقول ، عندما سئل أن يصنف رسالة فى الطريق ؟ أصنف الطريق لمن هاتوا لى راغباً صادقاً إذا قلت له أخرج عن مالك وعيالك خرج فسكتوا . وكان رضى الله عنه يقول : الطريق كلها ترجع إلى لفظين سكتة ولفتة وقد وصلت (أى عدم الإلتفات لغير الله تعالى والإقبال على أوامر الله) .

(٣) هو الشيخ محمد بن داود المنزلاوى : كان يضرب به المثل فى اتباع الكتاب والسنة وخدمة الصوفية وطلبة العلم ، مدفون بالسمية قرية بالمنزلة .

الخواص ، والشيخ أفضل الدين ، والشيخ جلال الدين السيوطى[١] ، والشيخ على النبتيتى الضرير[٢] ، والشيخ محمد العدل ، والشيخ أحمد الزواوى[٣] ، والشيخ نور الدين

---

(١) هو الإمام جلال الدين السيوطى ، صاحب التآليف الكثيرة المشهورة ، منها الجامع الصغير فى الحديث وجمع الجوامع فى الحديث وتفسيره للجلالين مشهور وله آراء مشهورة فى جميع فنون العلم ومصنفاته قد تزيد على الخمسمائة مصنف .

يقول عنه الشيخ عبد القادر الشاذلى فى مناقبه : كان الشيخ جلال الدين رحمه الله مجبولا على الخصال الحميدة فى العلم والعمل ، لا يتردد على الأمراء والملوك ولا إلى غيرهم مدة حياته رضى الله عنه ، وكان يظهر كل ما أنعم الله عليه [به] من العلوم والأخلاق ، ولا يكتم منها إلا ما أمر بكتمه ، عملا بقوله تعالى : « وأما بنعمة ربك فحدث » .

وكان الأمراء والأغنياء يأتون إلى زيارته ، ويعرضون عليه الأموال النفسية فيردها . وأرسل له السلطان الغورى خصيا وألف دينار ، فرد الألف ، وأعتق الخصى ، وقال للخصى : لا تعد تأتينا قط بهدية فإن الله تعالى أغنانا عن مثل ذلك . وقال له مرة : إن بعض الأولياء كان يتردد على الملوك والأمراء فى حوائج الناس فقال : اتباع السلف الصالح فى عدم ترددهم ، أسلم لدين المسلم ، وكذلك فى رد أموالهم عليهم . توفى سنة إحدى عشرة وتسعمائة .

(٢) هو الشيخ على النبتيتى الضرير ، كان من أكابر العلماء العاملين . وكانت مشكلات ... ومعضلاتها ترسل إليه من الشام والحجاز واليمن وغيرها فيحلها بعبارة سهلة .

ومن قوله ، لا يجتمع الخضر عليه السلام بشخص إلا إن جمعت فيه ثلاث خصال ، ... تجتمع فيه فلا يجتمع به قط ولو كان على عبادة الملائكة . الخصلة الأولى ، أن يكون العبد على سنته فى سائر أحواله ، والثانية أن لا يكون له حرص على الدنيا ، والثالثة أن يكون سليم الصدر لأهل الإسلام لا غل ولا غش ولا حسد ، توفى سنة سبع عشرة وتسعمائة .

(٣) هو العارف بالله أحمد الزواوى ، كان على درجة كبيرة فى الولاية . ورده فى اليوم والليلة عشرين ألف تسبيحة ، وأربعين ألف صلاة على الرسول ﷺ .

توفى سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة .

الشونى[١] والشيخ محمد الصوفى[٢] بنواحى الفيوم ، والشيخ عمر النبتيتى المغربى ، ووِرده فى الصلاة على رسول الله ﷺ فى كل يوم وليلة مائة ألف صلاة ، هكذا أخبرنى من لفظه رضى الله عنه .

وأخبرنى الشيخ أمين الدين الإمام بجامع الغمرى[٣] : إن سيدى محمد الغمرى لما أراد أن يعمر جامعه برأس سوق أمير الجيوش بمصر أرسل خادمه يستأذن رسول الله ﷺ على لسان شخص كان يبيع لبن المعز فقال له : تعال غداً خذ الجواب عند عتبة باب النصر بعد الفجر فجاءه فى الموعد فقال له : قل للشيخ : قال لك رسول الله ﷺ : عمر الجامع وتوكل على الله .

---

(١) هو العارف بالله الشيخ نور الدين الشونى ، شيخ الإمام الشعرانى فقد لازمه حوالى خمسا وثلاثين عاماً .

وهو أول من أنشأ مجالس الصلاة على الرسول ﷺ .

يقول عنه الامام الشعرانى ، وكان رضى الله عنه حسن العشرة جميل الخلق كريم النفس حسن السمت كثير التبسم صافى القلب مفتوحاً كباطن الطفل سواء ، وهذه صفة من صفات الخلة . وكان إذا نزل بالمسلمين هم أو غم لايقر له قرار حتى يرتفع وكان لايتفوه قط برؤية الرسول ﷺ وإنما يقول (رأى بعض الفقراء رسول الله ﷺ) .

توفى سنة أربع وأربعين وتسعمائة .

(٢) هو العارف بالله تعالى الشيخ محمد الصوفى ؛ وكان مقيما بالفيوم ، وكان يأكل من عمل يده ، ولا يقبل من أحد شيئاً .

وكان يحل مشكلات الشيخ محيي الدين بن عربى .

(٣) كان رضى الله عنه من العلماء العاملين فقد كان يقرأ السبع القراءات ، وكان له صوت فى القراءة له تأثير كبير فى نفوس السامعين فى عصره ، ولما دخل مصر العثمانيون طلبوا إماما للسلطان فأجمع المصريون على الشيخ أمين الدين .

وكان زاهدا كريما ورعا يقضى حوائج الناس ومصالح الأرامل والمساكين ووقته كله كان فى عبادة الله سبحانه وتعالى على أى وجه كان .

توفى رضى الله عنه سنة تسع وعشرين وتسعمائة .

فنقول : فلا أدرى أ كان سيدى محمد الغمرى [١] إذ ذاك لم يبلغ مقام الكمال أو أنه يشاور بالواسطة حياء من رسول الله ﷺ .

ولعل الثانى هو الواقع ، فإن سيدى محمد هذا كان من المشهورين بالكمال ، حتى كانوا يسمونه فقيه الصوفية من كثرة متابعته السنة .

وقد قلت مرة لسيدى على الخواص رحمه الله : ما شروط الاجتماع برسول الله ﷺ يقظة على الوجه الذى قررناه بحيث يصير يراجعه ويسأله عن أحواله وعن الأحاديث التى قيل بضعفها هل قالها أم لا ونحو ذلك ؟ فقال : بين العبد وبين هذا المقام مائتا ألف مقام وتسعماية تسعة وتسعون مقاماً ألف إلا واحداً ، فلا بد لمن حق له مقام الأخذ عن رسول الله ﷺ أن يجاوز المقامات كلها ، فهو أمر عزيز وجوده ، فى هذا الزمان انتهى .

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : كان سيدى إبراهيم المتبولى رضى الله عنه يقول : لا يكمل الرجل عندنا فى الطريق حتى يصير يستخرج جميع مذاهب المجتهدين من القرآن العظيم ، ثم يستخرج جميع أحكام القرآن من سورة الفاتحة ، ثم يستخرج جميع علوم الفاتحة من أى حرف شاء من حروف الهجاء ، وهناك يصح له مقام الكمل والأخذ عن رسول الله ﷺ [٢] . قال : وقد من الله تعالى على بذلك ، فاستخرجت من سورة الفاتحة مائتى ألف علم .

---

(١) هو الشيخ محمد الغمرى رضى الله عنه : كان من أصحاب سيدى أحمد الزاهد المقربين ، وكان من العلماء العاملين ، وكان مريديه يضرب بهم المثل فى الأدب والعلم ، وكان قد قسمهم إلى ثلاثة أقسام كهول وشباب وأطفال وجعل لكل قسم مكانا يخصه ولا يختلط بالآخر وكانوا لا يجتمعون إلا يوما واحدا فى الجمعة . فيتناقشون فيما وقع بينهم فى بقية الأسبوع .

توفى رضى الله عنه فى نيف وخمسين وثمانمائة .

(١) يقصد بذلك ألا يصل أحد إلى الدرجات الكبرى فى الولاية إلا بعد مروره على هذه العلوم .

وعلمت من كان فى ظهر آدم من السعراء حال كونهم ذرات فلا يزيدون على ماعلمت ولا شخصاً واحداً ، وكذلك أطلعنى الله تعالى على جميع ما يفعله كل عبد حين أرى أنفه فأعرف ما وقع فيه فى الماضى ، وما يقع فيه فى المستقبل ، من خير وشر .

قلت : وينبغى التسليم لكل من أدعى أن الله أطلعه على ذلك لأنه ادعى ممكنا[1] والله أعلم .

وقد أدعى شخص مرة بأنه يجتمع برسول الله ﷺ يقظة .

فقال له سيدى أفضل الدين : إن بينك وبين مقام الأخذ كذا كذا ألف مقام ، ومقصودى تخبرنا بعشر مقامات منها ، فتلجلج الشخص وما درى ما يقول .

فقال له : تب إلى الله يا أخى فإن هـذا مقام الأكابر كسيدى إبراهيم المتبولى وأضرابه ، انتهى .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

سمعت سيدى إبراهيم المتبولى رضى الله عنه يقول : وعزة ربى معى سبعون وظيفة ومتفرق بعدى على سبعين رجلا ويعجزوا عن القيام بها . منها تحمل البلاء عن جميع أهل مصر وقراها ودوام السماط فى زاويتى ببركة الحاج ، والبلاء الذى يأتى من بلاد المشرق مدفوع عن أهل مصر فيا ويلهم إذا انقطع السماط من زاويتى وخربت .

قال سيدى على : فقلت له : فمن يأخذ بعدكم خدامة الحجرة النبوية[2] ؟ فقال : هى لمحمد بن عنان فقلت له : وما محمد بن عنان هذا ؟ فقال : شاب يظهر من بلاد الشرقية لا يكون فى عصره أحد على قدمه فى العبادة وقيام الليل وحفظ الأنفاس مع الله تعالى إلا

---

(١) لأن الذى يعرف تلك المقامات والعلوم كلها فقد وصل إلى قمة العلوم والتصوف فالولاية فالقطبانية فرؤية الرسول ﷺ .

(٢) الخدمة الروحية .

القليل ، فلا يدخل أحد من الأولياء حجرة رسول الله ﷺ بالروح ، أو بالجسم ، حتى يستأذنه انتهى .

ولا يلزم من ذلك أنه أفضل ممن يساويه من جميع الأولياء كما هو مشاهد في نواب الملك إذا دخل عليه أمير كبير فافهم .

وقد كان سيدى محمد بن عنان من أصحاب الخطوة[١] والتطوير[٢] ، فأخبرني سيدى على المرصفى : أن سيدى محمد هذا كان لم يزل واقفاً بين يدى رسول الله ﷺ وهو معتمد على قضيب أخضر مع كونه في عدة أمكنة أخرى ، ومن حين كان صغيراً وهو يغزو بلاد الفرنج كل ليلة ، ويرجع إلى بلاده قبل الفجر ، وسمعته يقول : لا يكون الفقير كاملا حتى يطوف الشرق والمغرب ، وهو مضطجع على جنبه ، انتهى .

وسمعت سيدى محمد بن عنان رضى الله عنه يقول : كان سيدى إبراهيم المتبولي يحث أصحابه على عمل الحرفة ، ويقول من لا كسب له فهو كالمرأة لا حظ له في الرجولية[٣] .

وترك شخص مرة الحرفة وجلس عنده في الزاوية ، فقال له الشيخ : لم تركت حرفتك ؟ قال : رأيت مرة بومي[٤] عمياء في طاقة في سقف الزاوية ورأيت صقراً يأتيها كل يوم بحم فيطعمها ، فقلت في نفسى أتوكل على الله فإنه لا يضيعني .

فقال له : ولأى شيء تجعل نفسك كالبومة العمياء ؟ لم لا جعلت نفسك صقراً تأكل من كسبك وتطعم غيرك[٥] ؟ انتهى .

---

(١) أى طوى له المسافات .

(٢) أى من الأبدال .

(٣) وسادتنا الصوفية جميعا يحضون على العمل والتكسب وإقتداءاً بسنة رسول الله ﷺ . وفى الحديث : أنه ذكر لرسول الله ﷺ رجلا زاهدا يستغرق الوقت كله فى تعبدة . وأن أخوه هو الذى ينفق عليه فقال : (أخوه أعبد منه) .

(٤) بومة .

(٥) وما أروع هذا التشبيه .

فإن قيل : فهل للعلوم والآداب التي يأخذها الولي عن رسول الله ﷺ على ما قررناه مرتبة الأحاديث الواصلة إلينا على يد الرواة من المحدثين[١] ؟

فالجواب : ليس لها مرتبة الشريعة الظاهرة لعدم عصمة الولي في كشفه ، لكن للولي العمل بها في نفسه بعد عرضها على قواعد الشريعة وليس له أن يأمر الناس بالعمل بها .

فإن قيل فإذن المدار على الشريعة الثابتة عندنا من طريق النقل ، فأي خصوصية لما أخذه الولي عن رسول الله ﷺ بلا واسطة ؟

فالجواب : وجه الخصوصية فيه زيادة اليقين بصحة ماقال بعض العلماء إنه ضعيف من الأحاديث مثلا أو النقول إذ لا يأتينا علم قط من طريق الكشف الصحيح إلا وهو مؤيد بالشريعة لأن سائر دوائر علوم الأولياء من باطن دائرة علم رسول الله ﷺ .

ومن المحال أن يوحي الحق تعالى إلى رسول الله ﷺ بأمر ثم يسارر أحدا من الأولياء من طريق الإلهام بخلافه . فافهم .

فهو فوق ما يراه النائم ودون شريعته الظاهرة .

وقد أجمع القوم كلهم على أن الشريعة التي بين أظهرنا أصح مما يأخذه الولي من طريق الإلهام عن الله تعالى بلا واسطة ، فإن إبليس قد يلبس على الولي ويقيم له سماء أو كرسيا أو عرشاً أو نداء مثلا بحسب ما يعرف أن مقام ذلك الولي يصل إليه في مقام الأخذ ، وما كل ولي يعرف الفرق بين السماء المتخيلة مثلا وبين المحققة .

وقد أقام إبليس مرة لسيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني[٢] عرشاً حين كان قلب الشيخ عرشيا وناداه منه : يا عبدي قد أسقطت عنك التكاليف .

---

(١) يشرح هنا الإمام الشعراني ما فهمه بعض الناس خطأ من أن السادة الصوفية إذا تعارضت عندهم الشريعة والحقيقة فضلوا الحقيقة بما يبين هنا خطأ هذا المفهوم .

(٢) هو عبد القادر بن موسى بن يحيي الجيلاني الحنبلي : يقول عنه صاحب الكواكب

فناداه سيدى عبد القادر : اخسأ يا لعين فاضمحل ذلك العرش[1] ، فلولا أن العناية حفت السيد عبد القادر لحصل له فتنة فى دينه .

وفى هذا القدر كفاية من التلويح بمقام سيدى إبراهيم وأصحابه فأقبل يا أخى على حسب التخلق بأخلاقه من غير توقف فإنها أخلاق رسول الله ﷺ بالأصالة والله أعلم .

وأما بيان الدهليز الذى يدخل العبد منه إلى مقام التخلق بأخلاق هذا الكتاب ، هو السلوك على يد الشيخ كامل فى علم الشريعة والحقيقة .

ومحال أن يقدر الإنسان على صعود السطح العالى بلا سلم إلا أن تحصل له جذبة إلهية فإذا عرفت ذلك فاعلم يا أخى أن المريد لا يؤمر بالتخلق بأخلاق الكمال إلا بعد نهاية سلوكه .

ومن هنا وجد الأشياخ وجوباً قصد المريد ونهوه عن الشركة فى القصد من حيث أن ذلك يقنطه ويبطىء سيره إلى المقصود الأعظم الذى هو معرفة الله عز وجل .

وتأمل فى قول العلماء بحرمة عقوق الوالدين يعنى مخالفتهما فيما يطلبانه من الولد من

---

(١) ... : من ذرية الحسن رضى الله عنه ، الذى طار ذكره فى الآفاق وأجمع على إمامته ... خلاف والوفاق .

كان جرىء اللسان ثابت الجأش والجنان ، وله إقدام وتمكن أقدام . وكان فى الفقه إماما فى التصوف لا يسام رفقه ولا يساما ، قد تضلع من الأصول والفروع ، وتقدم على غيره ... مشروع .

اعترف له الفقهاء فى عصره بذلك وكذلك الصوفية وحسبك قول العز بن عبد السلام (حتى بلغت الإمامة مبلغ القطب) ولد ببغداد سنة سبعين وأربعمائة ، ونشأ بها حتى شب ... طريق القوم وجد واجتهد . ولم يزل على ذلك الحال حتى طرقه الحال فنام فى البرارى ... إلى أن اتصف بالكمال ورزق القبول التام عند الخاص والعام ، فكان يأتيه الخليفة ... وعلى عدم زيارته إياهم يعاقبونه فيأبى ولا يجيب .

توفى رضى الله عنه سنة نيف وستين وخمسمائة ببغداد .

وهذا دلالة على عدم جواز التحلل من الشريعة عند الصوفية .

المباحات . ثم لما أوجبوا عليه تعلم العلم الشرعى لم يلتفتوا إلى قولهما لو منعاه من ذلك لكون معرفة العبد مما يصحح عباداته ويقيم به شعار شريعة نبيه مقدما على غرض الوالدين ، فما حرم على الولد العقوق إلا إذا كان مشتغلا بأمر مباح أو مستحب أو مفضولا بالنسبة إلى حق الوالدين .

وقد أجمع علماء الشريعة والحقيقة على وجوب مجاهدة النفس الأبية على يد شيخ حتى تخرج عن الرعونات النفسية وتنقاد إلى فعل الأوامر الشرعية على الوجه المأمور به شرعاً وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب اللهم إلا أن يحصل للعبد جذبة من جذبات الحق تعالى فإن مثل هذا قد لا يحتاج إلى شيخ . وكذلك أجمعوا على أن علاج الأمراض الباطنة[1] واجب بدليل ما ورد فى الآيات والأخبار عن عقوبة من كان قلبه شىء من أمراض الباطن من حسد ، ومكر ، وكبر ، ونفاق ، وخداع ، وعجب ، ورياء ، وغل ، ونحو ذلك فى الدار الآخرة ، مع ما فى ذلك من منعه من دخول حضرة الله تعالى فى دار الدنيا ، ولو فى صلاته .

فيجب جزماً على كل مكلف أن ينظف باطنه من صفات الشياطين ، ويحليها بصفات الأنبياء ، والعلماء ، والصالحين .

وسمعت سيدى على المرصفى رحمه الله يقول :

مقصود جميع الداعين إلى الله عز وجل من المريدين أن يطابقوا فى جميع عباداتهم بين ظاهرهم وباطنهم ليخرجوا عن صفات المنافقين ويتخلقوا بصفات المخلصين . فهذا معظم قصدهم . فطلبوا بتسليكهم أن يلحقوهم برائحة ما كان عليه السلف الصالح من الصدق والإخلاص فى جميع أعمالهم الظاهرة والباطنة مع رؤية التقصير واتهام نفوسهم فى دعوى الإخلاص بعد ذلك . وهذا الذى ذكرناه من التخلص من صفات النفاق أمر لا يهتدى

---

(١) يقصد بالأمراض الباطنة وجود أهواء النفس فإنها تمنع المريد من الوصول إلى الله تعالى .

الإنسان بغير شيخ إلى الخروج منه . كما أنه لا يهتدى إلى الترقى إلى مقامات العارفين ولو كان على عبادة الثقلين .

وسمعت سيدى عليا المرصفى رحمه الله يقول : لو أن مريدا عبدالله تعالى كما بين السماء والأرض بغير شيخ فعبادته كالهباء المنثور ، لأنه لا يهتدى لمعرفة تطهيره من دسائس الأعمال الظاهرة ، فضلا عن الباطنة . بل ولا يعرف الطريق الموصلة إلى ذلك ، حتى يطلب معرفة كيفية التطهير لأن طريق القوم غالبها غيب غير محسوس . ولا يكاد يدركها إلا من كشف الله تعالى حجابه .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول :

لو أن العبد قرأ ألف كتاب فى العلم ، ولا شيخ له فهو كمن حفظ كتب الطب مع جهله بالداء ، والدواء . فكل من سمعه ، وهو يدرس كلام الحكماء يقول : إنه لطبيب عظيم ، ثم إذا سأله عن اسم الداء وتنزيل الدواء عليه ، ولم يجد عنده معرفة بذلك يقول : إنه جاهل .

وكذلك حكم من يحفظ مثل كتاب الإحياء للغزالى بغير فهم ولا شيخ لا يعرفه يتداوى من مرضه ولا يداوى غيره ، فعلم : أن كل من لم يكن له شيخ فى هذا الزمان يخرجه من ظلمات الشكوك والأوهام ويبغضه فى شهوات الدنيا التى تحجبه عن الله تعالى ، فيبدو عليه الإخلاص فى شىء من أعماله بل يرى الأعمال الخالصة وهى تقع على أيدى الصالحين فلا يقدر على الوصول إلى العمل بمثلها . ولذلك جعلت لكل عهد من عهود كتابى المسمى بمشارق الأنوار القدسية فى بيان الأخلاق المحمدية دهليزاً يدخل منه من يريد التخلق بذلك العهد وكثيراً ما أقول فيه : وهذا العهد لا يصح لأحد التخلق بشىء من أخلاقه إلا بعد السلوك على يد شيخ صادق .

فإن غاية أمر من لا شيخ له فى الإخلاص مثلا أن يرى نفسه قد خلصت من الشوائب

الفادحة فى مقام الإخلاص من الرياء والعجب وحب الشهرة بالصلاح وغير ذلك ، لكنه يطلب من الله الثواب على عمله .

ولو أنه تعالى أحبط عمله ولم يعطه ثوابا لتكدر فى نفسه . وإيضاح ذلك أن كل من لم يسلك الطريق على يد شيخ حكمه حكم من يعبد الله على حرف[1] ، كما ورد فى حديث العابد[2] الذى عبدالله تعالى فى جزيرة خمسمائة عام وقال له الحق تعالى : ادخل الجنة برحمتى فقال : بل بعملى .

---

(١) لأن هناك كثير من الأمور التى لا يفهمها المريد ولا يستطيع إيجاد تعليل لها مثل أمور الكشف المفاجئ أو الكرامات غير المنتظرة ، كل هذه الأمور لا بد لها من مرشد أو خبير يوضحها لمريده ويأخذ بيده فى طريقه للوصول إلى الولاية ، وأغلب الأخطاء التى تقع لبعض الصوفية إنما تقع بسبب عدم وجود شيخ مرشد .

وتوجد عند الصوفية شروط كثيرة لهذا الشيخ لعل أهمها أن يكون عالما بأمور الدين تفسيراً وحديثاً وفقهاً ، وأيضاً ملتزماً لها ومتبعاً سنة رسول الله ﷺ فى جميع أموره ، ثم بعد ذلك أن يكون متمسكاً فى طريق القوم بما لا يناقض أحكام الشريعة الإسلامية .

(٢) حديث العابد الذى عبد الله خمسمائة سنة أخرجه الحاكم عن سليمان بن هرم عن محمد بن المنكدر عن جابر وقال : صحيح الإسناد . ونص الحديث :

عن جابر رضى الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : خرج من عندى خليلى جبريل آنفا . فقال : يا محمد والذى بعثك بالحق ، إن لله عبداً من عباده عبد الله خمسمائة سنة على رأس جبل فى البحر عرضه وطوله ثلاثون ذراعا فى ثلاثين ذراعا ، والبحر محيط به أربعة آلاف فرسخ من كل ناحية ، وأخرج له عينا عذبة بعرض الأصبع تفيض بماء عذب فيستنقع فى أسفل الجبل وشجرة رمان تخرج له فى كل ليلة رمانة ، يتعبد يومه فإذا أمسى نزل فأصاب من الوضوء وأخذ تلك الرمانة فأكلها ثم قام للصلاة فسأل ربه عند وقت الأجل أن يقبضه ساجداً وأن لا يجعل الأرض ولا لشىء يفسده عليه سبيلا حتى يبعثه الله وهو ساجد قال : ففعل فنحن نمر عليه إذا هبطنا وإذا عرجنا فنجد له فى العلم أنه يبعث يوم القيامة فيوقف بين يدى الله تعالى فيقول له الرب : أدخلوا عبدى الجنة برحمتى ، فيقول : رب بل بعملى . فيقول : أدخلوا عبدى الجنة برحمتى . فيقول : رب بل بعملى .

فلو أن هذا العابد كان سلك الطريق على يد عارف لعرف من أول ما دخل فى الطريق
ـ لعبد لا يدخل الجنة إلا برحمة الله دون عمله[1] ، وكان لزم الأدب مع الله تعالى فإن
ـ ما يتجلى العبد إذا اشتغل بالذكر ، توحيد الفعل لله ، ثم توحيد الملك لله ، ثم توحيد
توحيد لله ، فإذا تجلى له توحيد الفعل لله تعالى ، وخرج كشفاً ويقيناً عن شهود كون
ـ نه ، وخرج به أيضاً عن طلب الثواب عليه ، وعن الكبر ، والعجب ، والرياء ،
ـحن فى قضاء الإخلاص لله ، وما بقى له عمل يعتمد عليه .

وأما من يشهد الفعل لنفسه فمن لازمه غالباً الوقوع فى سائر الآفات المحيطة له ،
د لا يصدر عن الناقص إلا ناقص[2] .

وسيأتى فى مواضع من هذا الكتاب أن من شرط الكامل أن يشهد أعماله كلها
ـ لله تعالى وحده لا مدخل للعبد فيها سوى نسبة التكليف إليه لا غير .

ـ ـه : قايسوا عبدى بنعمتى عليه وبعمله . فتوجد نعمة البصر قد أحاطت بعبادة
ـ سنة ، وبقيت نعمة الجسد فضلا عليه . فيقول : أدخلوا عبدى النار فيجر إلى
ـ ـيـدى : رب برحمتك أدخلنى الجنة فيقول ردوه ، فيوقف بين يديه فيقول : ياعبدى
ـ حقت ولم تك شيئا ؟ فيقول : أنت يارب . فيقول : من قواك لعبادة خمسمائة سنة ؟
ـ ـنت يارب . فيقول : من أنزلك فى جبل وسط اللجة وأخرج لك الماء العذب من
ـ ـ وأخرج لك كل يوم رمانة وإنما تخرج مرة فى السنة ، وسألته أن يقبضك ساجداً
ـ فيقول : أنت يارب ، قال : فذلك برحمتى وبرحمتى أدخلك الجنة . أدخلوا عبدى
ـ ـعم العبد كنت يا عبدى فأدخله الله الجنة . قال جبريل : إنما الأشياء برحمة
ـ ـ .

بأن دخول الجنة يكون بالفضل ، وقول سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه :
ـ مكر الله ولو كانت إحدى قدمى فى الجنة » لأبرز دليل على هذا .

• ـ المقدمة التى وضعناها للكتاب قد شرحنا هذا القول فى مقام الإخلاص .

وتأمل يا أخي لو أن جارك قام الليل ، أو صام النهار وأنت نائم مفطر لا تُرائي وقد بفعله ، ولا تعجب ، ولا ترى ، نفسك على الناس به لشهودك إن ذاك الفعل لغيرك لا لك . فكذلك من يوحد الفعل لله كشفاً لا يصح له دعواه لنفسه أبداً . فلابد للكمل من عينين : عين ينظر بها كون الفعل لله ، وعين ينظر بها نسبة الفعل لنفسه ، فيشكر من جهة تلك النسبة ، ويستغفر الله من حيث كسبه لما فيه من النقص .

ولذلك قالوا : من نظر بعين البصيرة وجد أعماله كلها رياء ونفاقا وأحواله كلها دعاوى

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : لا يصح لعبد ذوق شيء من أحوال القوم إلا بعد أن يتجلى له التوحيد الكشفي (١) .

وهناك يطلب الشيخ ضرورة لترقيه إلى المقامات التي شم روائحها بالتوحيد . وما دام لم يتجل له التوحيد فهو واقف مع نفسه لا يرى فوقه مقاما لعدم شمه وزكامه . ولو أن أحد دعاه إلى الرقي لا يجيب لاستحسانه حاله فهو كمن كان سائراً في برية ومعه جراب من الفلوس الجدد ثم سار فإذا هو بكوم من فضة ، فأفرغ الجدد وملأه من الفضة . ثم لما سار وجد كوما من ذهب ، فأفرغ الفضه ، وملأه من الذهب ، ثم لما سار وجد كوما من جواهر ومعادن ، كل فص يساوى مائة ألف دينار مثلا ، فإنه يفرغ جرابه من الذهب ويملأه جواهر وفصوصا ومعادن ضرورة .

ولو أنك قلت له : لا تفرغ أبدا جرابك من الفلوس الجدد ودُم على حمله ولا تملأه فضه مثلا لا يجيبك ، وربما سفه عقلك . كما أنه يسفه عقلك لو قلت له قبل رؤيته كوم الفضة مثلا : أفرغ جرابك من هذه الفلوس رجاء أنك تعثر على كوم فضه .

وقد كان الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يقول : لا ينبغى لشيخ أن يأمر

---

(١) أى لا يرى نفسه فى أى شيء فلا فاعل إلا الله .

... الدنيا حتى يمهد له بساطا[1] قبل ذلك ويعصف عليه ريح الترفيق ، فإن مثال ... ما يدعوه الشيخ إليه من الخير مثال قوم ركبوا سفينة ومعهم أموالهم وأمتعتهم ... رئيس المركب : إن فى غد يهيج ريح شديدة كل من لم يرم متاعه غرق فارموا ... فى البحر فى هذا الوقت فلا يجيبه أحد . ثم إذا جاء الغد وهاجت الريح يصير كل ... متاع نفسه طلبا لسلامته من الغرق . ولو أنك قلت له : لا ترم متاعك ... ت فلا يجيبك .

... هذا مثال من وقف على قدم الحجاب من الفقهاء وغيرهم انتهى .

... سمعت سيدى عليا المرصفى رحمه الله يقول : لو لم يكن من شرف الطريق إلا أن ... يعرفها بغير شيخ ولو صار شيخ الإسلام لكان فيه كفاية فى علو مقدارها[2] .

... فى شرفها قول موسى للخضر عليهما الصلاة والسلام :

... أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشداً » .

... موسى عليه الصلاة والسلام مع سعة علمه وكونه نبياً ومرسلا طلب الإرشاد ... حقيقة من الخضر[3] . وكذلك مما يدل على شرفها أن الإمام أحمد بن حنبل[4]

... تمكنه فى طريق التصوف أولا فلا معنى لأمره بترك الدنيا وهو ممكن ... يصل فى التصوف إلى مقام يمكنه من تركها .

- وكان الإمام الشعرانى رغم علمه وفضله يتخذ سيدى عليا الخواص شيخا له ... معرفته بالقراءة والكتابة .

... سيدى العز بن عبد السلام رغم شهرته الكبيرة فى الفقه كان يتخذ سيدى أبى الحسن ... شيخا له .

... شيخ الإسلام الشيخ زكريا الأنصارى يتخذ سيدى إبراهيم المتبولى شيخا له .

- وكلا العلمين آت من عند الله سواء الشريعة أو الحقيقة .

... الإمام أحمد بن حنبل : صاحب المذهب المشهور فى الفقه وصاحب المسند فى

كان إذا توقف فى مسئلة سأل عنها الشيخ أبا حمزة البغدادى[١] ، وقال له : ما تقول فى هذه المسئلة يا صوفى ؟ فيحل أبو حمزة إشكالها فيتعجب الإمام أحمد من ذلك .

وكان يقول كثيرا : إن القوم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة وعلوا الهمة ، مع ... كان يقول لولده قبل اجتماعه بأبى حمزة : يا ولدى عليك بالحديث وإياك ومجالسة هؤلاء الذين يقولون إنهم صوفية فإنهم جهلة[٢] . ذكره ابن أيمن فى رسالته قال : ولما صحب الإمام أحمد أبا حمزة أرسل له أبو حمزة فى الليل ، جماعة من الفقراء الطيارة[٣] ، فنزلو له من دور القاعة ، فتحادث معهم طويلا ، وأظهروا له علوما ومعارف لم يسمع بها قط ، فاعترف بفضل أهل الطريق ، فلما أرادوا الانصراف قالوا له : يا أحمد اصعد معنا فى الهو ، فقال : لا أطيق ، فقالوا له : قد أثقلك أكل الشهوات ، ثم صعدوا وهو ينظر فصـ...

الحديث . رأى الله سبحانه وتعالى فى المنام ٩٩ مرة فلما كان فى المرة المائة قال : يارب ما أفضل ما تقرب به المتقربون إليك فقال : بكلامى يا أحمد . فقال الإمام أحمد بفهم ، بغير فهم . قال الله سبحانه وتعالى : بفهم وبغير فهم .

وكان رضى الله عنه إذا جاءه حديث وحده لم يحدثه حتى يكون معه غيره .

وكان رضى الله عنه يضرب به المثل فى اتباع السنة واجتناب البدعة .

وكان لا يدع قيام الليل قط .

(١) هو أبو حمزة محمد بن إبراهيم البغدادى البزار : صحب السرى السقطى وحـ... المسوحى . وكان فقيها عالما بالقرآن . وكان الإمام أحمد إذا جرى فى مجلسه شىء من كلام القوم يقول لأبى حمزة : ما تقول فى هذا يا صوفى ؟

ومن أقواله : من المحال أن تحبه ثم لا تذكره ، ومن المحال أن تذكره ثم لا يوجدك طعم ذكره ، ومن المحال أن يوجدك طعم ذكره ثم يشغلك بغيره .

توفى رضى الله عنه سنة تسع وثمانين ومائتين .

(٢) خوفا عليه أن يشتغل بطريق القوم ويترك الحديث وهو لا زال فى مقتبل عمره فإن علوم الحديث فى نظر الإمام أحمد أولى أن تتعلم ثم بعد ذلك له أن يدخل طريق الصوفية وهذا هو رأى الصوفية أيضا .

(٣) من الذين تطوى لهم الأرض .

يتأسف . قالوا : ولم يأكل أحمد بعد ذلك شهوة إلى أن مات . وكان إذا ضعف من الجوع يأتدم بالشحم والعدس ، يجعله فى جرة ويضعه فى النار ، حتى يستوى ، ثم يأكله .

وكان الإمام الشافعى : يجالس الصوفية كثيرا ، حتى صار يعرف اصطلاحهم ، فقيل له مرة : لم تجالس هؤلاء مع غنائك فى العلم عنهم ؟ فقال : إنى أسمع منهم فوائد لم أكن أعرفها . وقيل له مرة : ماذا استفدت من مجالسة الصوفية ؟ فقال : أستفدت منهم شيئين : قولهم : الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك . وقولهم : إن لم تشغل نفسك بالخير شغلك غيره من الشر . انتهى .

وكان شيخنا شيخ الإسلام زكريا[1] رضى الله عنه يقول : كل فقيه لا يعرف مصطلح القوم فهو كالخبز الحاف من غير إدام[2] . وكذلك يكفينا من شرف طريق القوم إذعان الإمام أحمد بن شريح للجنيد واعترافه بفضله . وذلك أن جماعة من طلبته تركوا حلقته وصاروا يحضرون حلقة الجنيد فتكدر من ذلك ، ثم إنه تنكر يوما وحضر الجنيد بين المغرب والعشاء فقالوا له : ماذا وجدت حال هذا الرجل ؟ فقال : لم أفهم من كلامه شيئاً إلا أن صولة كلامه ليست بصولة مبطل . ثم إنه أتى إليه بكرة النهار بقصد مناظرته ، فكان من جملة ما قال للجنيد : طريقنا أقرب إلى الله تعالى من طريقكم ، فقال له الجنيد : بلى طريق أصحابنا أقرب . فقال له ابن شريح : ما الدليل على ذلك ؟ فقال : إن كل إنسان لا ينطق إلا بما هو الغالب على قلبه فخذ هذا الحجر والقه فى حلقة هؤلاء الفقهاء فذهب بالحجر وألقاه فى حلقتهم على غفلة ، فصاحوا كلهم : هذا حرام عليك .

فلما أخبر بذلك الجنيد فقال له : ألقه فى حلقة هؤلاء الفقراء ففعل فصاحوا بأعلى صوتهم : الله الله الله .

فرجع ابن شريح إلى قول الجنيد واعترف بفضله وتلمذ له فقال له الجنيد : طريقكم

---

(١) يقصد الشيخ زكريا الأنصارى .

(٢) ومصطلحات القوم جمعها الإمام القشيرى فى رسالته : الرسالة القشيرية .

هى أساس الصوفية التى بنوا طريقهم عليه ، ولكنهم زادوا عليكم بكثرة الزهد والورع ومراعات أنفاسهم مع الله تعالى ، فلو راعيتم قلوبكم كما راعوا كنتم أنتم الصوفية وفهمتم اصطلاحهم من غير توقيف . انتهى .

وقد قالوا مرة لسيدى على بن وفا[1] رحمه الله : لم ساد الصوفية ؟ فقال لكونهم عملوا بما علموا ، فإن حقيقة الصوفى عالم عمل بعلمه على وجه الإخلاص لا غيره ، وكذلك يكفينا فى شرف الطريق طلب الإمام الغزالى له شيخا يدله على الطريق ، مع كونه كان قد لقب بحجة الإسلام . وكذلك الشيخ عز الدين بن عبد السلام طلب الشيخ مع تلقيبه بسلطان العلماء فكان شيخ الغزالى الشيخ أبو محمد الباذغانى ، وكان شيخ الشيخ عز الدين الشيخ أبو الحسن الشاذلى .

ولما ذاق الغزالى الطريق على يد شيخه قال : قد ضيعنا عمرنا فى البطالة يعنى بتأليفه الإحياء وغيره من كتب التصوف[2] .

---

(١) هو سيدى على بن محمد وفا : يقول عنه الإمام الشعرانى : كان فى غاية الظرف والجمال لم ير فى مصر أجمل منه وجها ولا ثيابا ، له نظم شائع وموشحات طريفة سبك فيها أسرار أهل الطريق . وله عدة مؤلفات شريفة وأعطى لسان الفرق والتفصيل زيادة على الجمع وقليل من الأولياء من أعطى ذلك ، وله كلام عال فى الأدب ووصايا نفيسة نحو مجلدات .

ومن قوله : كان يقول فى قوله تعالى ، (والله متم نوره ولو كره الكافرون) فيا صاحب الحق لا تهتم بإظهار شأنك إهتماما يحملك على الإستعانة بالخلق ، فإنك إن كنت على نور الحق فهو يظهر بالله وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا ، وإن كنت على ظلمة الباطل فلا تتسبب فى إظهار ذلك وإشاعته فإنك لا تتمتع بذلك إن متعت به إلا قليلا ، ثم الله أشد بأسا وأشد تنكيلا (أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع) (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه) فافهم .

ولد رضى الله عنه سحر ليلة الأحد حادى عشر من محرم سنة إحدى وستين وسبعمائة كما أخبر عن نفسه . وتوفى عام أحد وثمانمائة .

(٢) يقصد أن الإمام الغزالى قد ألف هذه الكتب قبل أخذه الطريق على يد شيخ

ولما ذاق الشيخ عز الدين الطريق على يد الشاذلى صار يقول : مما يدلك على شرف طريق القوم ما يقع على أيديهم من الكرامات والخوارق ولا يقع شىء من ذلك على يد فقيه ولو بلغ فى العلم ما بلغ إلا أن سلك طريقهم[1] .

وحكى اليافعى فى كتابه المنهاج له قال : مكثت خمس عشرة سنة وأنا فى نزاع من نفسى فداع يطلب منى الدوام على الاشتغال بالفقه ، وداع يدعونى إلى الاشتغال بالذكر وآداب الطريق ، فبينما أنا يوما أمشى فى شارع من شوارع مدينة زبيد إذ لقينى شخص من أرباب الأحوال فقال : إلى كم أنت فى علاج ؟ أقبل على طريق أهل الله فإنها تجمع طريق الفقهاء وزيادة ، وثمرتها أشرف ، فأجبته إلى ذلك . فقال : إذهب معى حتى أوضح لك ثمرة طريق منهما . قال : فمضيت معه إلى الزاوية ، فلما جلس أرسل النقيب إلى شخص من فقهاء البلد وأمر الفقراء أن لا يردوا عليه السلام على الفور . فلما جاءوا به قال : السلام عليكم فلم يرد أحد عليه السلام فقال : هذا حرام عليكم . فقال له الشيخ : اجلس معنا يسيرا فجلس فقال الشيخ : الفقراء فى نفوسهم منك شىء . فقال : وأنا أيضاً فى نفسى منهم أشياء وأشار بأصابع كفه كلها فقام وهو ساخط يسب الفقراء .

ثم إن الشيخ أرسل خلف فقير من فقراء البلد وأمرهم ألا يردوا عليه السلام ولا يفسحوا له . فلما جاء وقال : السلام عليكم فلم يرد أحد عليه السلام فتبسم وأعاد السلام ثانيا وثالثا كل ذلك وهو يتبسم ثم إنه جلس عند نعالهم فقال له الشيخ : يا أخى الفقراء فى نفسهم منك شىء . فقال : أنا أقول استغفروا لله . ثم علق النعال فى عنقه وعلى رأسه فقال الشيخ لليافعى : انظر ثمرة طريق الفقراء ورياضة نفوسهم ولومهم أنفسهم

---

[1] ... وضعها بعد أخذه للطريق لربما كانت أروع من هذا وعلى وجه العموم فإن ... الغزالى فى التصوف تعد من القمم فى هذا الباب .

مع أن السادة الصوفية يعتبرون ظهور الكرامات من علامات بدو الطريق

بمجرد إظهار إخوانهم التشويش وهى : تبسمه حين لم يردوا عليه السلام ثلاث مرات ، وجلوسه عند النعال ، ثم جعلها فى عنقه وعدم مطالبتهم بدليل على تشويشهم عليه ، بخلاف ما فعل الفقيه . قال : فمن ذلك الوقت أقبلت على الاشتغال بطريق الصوفية ، حتى كان من أمري ما كان . وكنت قبل ذلك أقول : وهل ثم طريق يتقرب به إلى الله غير ما عليه الفقهاء ؟

ولا أكاد أسلم للصوفية فى شىء . انتهى .

ووقع لسيدى مدين[1] تلميذ سيدى أحمد الزاهد[2] : أن جماعة من طلبة الشيخ عبادة المالكى[3] تركوا الشيخ عبادة وتلمذوا لسيدى مدين ، فتكدر الشيخ عبادة لذلك وصار يحط على الصوفية ويقول :

هذه طريق لم يأت بها كتاب ولا سنة .

فلما عمل الشيخ مدين مولده الكبير وامتلأت الزاوية من العلماء والأكابر أرسل

---

(١) هو الشيخ مدين بن أحمد الأشمونى رضى الله عنه : أحد أصحاب العارف بالله الشيخ أحمد الزاهد وكان طريقه هو طريق الإمام الجنيد رضى الله عنه وقد تفرعت عنه هذه السلسلة بمصر وقد أكمل سيدى مدين تلمذته على سيدى شمس الدين الحنفى رضى الله عنه بعد وفاة سيدى أحمد الزاهد .

وكانت له الكرامات الظاهرة بمصر وكان ينفق على مريديه ويجمعهم عنده فى جميع الأوقات لمجالس الذكر وتلاوة القرآن ودروس العلم .

(٢) هو العارف بالله : أحمد بن سليمان الزاهد : كان صاحب علم كبير بالفقه . وكان يقال : هو جنيد القوم — فقد كان أشهر صوفية عصره وقد أحيا كثير من علوم التصوف التى اندثرت فى ذلك الوقت .

وكان يمتحن المريد قبل أن يأخذ عليه العهد سنة أو أكثر .

وله أقوال كثيرة فى الوعظ فى المساجد فقد كان يكثر التردد عليها لوعظ الناس .

توفى رضى الله عنه سنة نيف وعشرين وثمانمائة .

(٣) أحد كبار علماء المذهب المالكى .

سيدى مدين خلف الشيخ عبادة ، وقال للقاصد : قل له : فلان يسألكم فى الحضور ليحصل له بركتكم ، فجاء الشيخ عبادة فأمر سيدى مدين الجماعة أن لا يفسحوا له ولا يقوموا له فجلس فى صحن الزاوية متكدرا نادما على مجيئه فرفع سيدى مدين رأسه وقام إلى الشيخ عبادة ومسكه بيده وأجلسه بجنبه ولاطفه حتى خمدت أخلاقه ، ثم قال له : ياسيدى هل يجوز لمسلم أن يقوم فى مذهبكم لمشرك مع عدم الخوف من شره ؟ فقال : عندنا لا يجوز ومن قام له فسق .

فقال له سيدى مدين : فالله عليك أما تكدرت من عدم القيام لك ؟ فقال : نعم . فقال : كيف تقوم لمن يقول لنا قوموا لى كما تقومون لله رب العالمين ؟

وقد قال رسول الله ﷺ : « من أحب أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار »[1] فدارت هذه الكلمة فيه ثم قام منتصبا ونادى بأعلى صوته : اشهدوا على يا جميع من حضر أنى أسلمت إسلاماً جديداً على يد سيدى مدين[2] .

ثم قبل رجل الشيخ وتلقن عليه فى ذلك المحفل ، ولم يزل يخدم الفقراء عنده وترك جميع وظائفه إلى أن حضرته الوفاة ، فأوصى أن يدفن تحت عتبة تربة فقراء سيدى مدين شرق الخشب ، ففعلوا . فهو مدفون تحتها الآن تواضعاً للفقراء وهضما لنفسه . وكان يقول فى حياته : لولا سيدى مدين لربما كنت من أهل النار الذين هم أهلها . انتهى .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : من فوائد الشيخ اختصار الطريق عن المريد وإراحته من شدة التعب من غير ترق . فهو كما قال سيدى عمر بن الفارض رحمه الله فى حق من لا شيخ له : رضوا بالأمانى ، وابتلوا بحظوظهم ، وخاضوا بحار الحب دعوى فما ابتلوا ، فهم فى السرى لم يبرحوا عن مكانهم ، وما ظعنوا فى السير عنه وقد كلوا :

---

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى وغيرهم عن سيدنا معاوية رضى الله عنه .
(٢) يقصد بذلك أن علوم القوم أفضل مما هو فيه وإلا فهو مسلم ما دام يشهد الشهادتين .

وقال سيدى علي بن وفا فى حقهم أيضاً تسبحوا من قبل أن يولدوا ، أى لأن أول عمر العبد ولادته فى الطريق ، فمن لم يدخل طريق القوم فكأنه فى بطن أمه لم يولد .

ومن كلام المسيح عيسى عليه الصلاة والسلام للحواريين : بحق أقول لكم : لن يلج ملكوت السموات والأرض من لم يولد مرتين انتهى .

فإذن حكم المريد بلا شيخ حكم من يريد أن يدخل فى زقاق لا يدرى هل ينفذ أم لا فهو يدخل فيه إلى آخره فإذا رآه مسدودا رجع . ولو أنه كان سأل أحداً ممن له معرفة بالزقاق لقال له من أول دخوله : ارجع فإن هذا زقاق مسدود ، فكان يريحه من التعب بغير منفعة . ومثل ذلك واقع المريد الذى لا شيخ له . فإن أعماله فى الغالب كالدرب المسدود لاحتفافها بالعلل والآفات القادحة فى الإخلاص المانعة من الترقى فافهم انتهى .

وكان سيدى إبراهيم الدسوقى رحمه الله يقول : طلب الشيخ فى الطريق واجب على كل مريد ولو كان من أكابر العلماء . وكان يقول : لو أن طالب العلم كان يأتى بالمأمورات الشرعية على وفق ما أمر به من الإخلاص لما احتاج إلى شيخ كما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، لكنه أتى بها محتفّة بآفات وعلل تقدح فى صحتها أو قبولها .

فلذلك احتاج المريد إلى شيخ يبين له العلل والآفات التى فى أعماله . فلا يقال : لو كان علاج هذه الأمراض الباطنة واجباً لوضع السلف الصالح من التابعين والأئمة المجتهدين كتبا فى ذلك ، ولم نر لهم كتابا واحداً فى ذلك لأنّا نقول : إن هذه الأمراض التى حدثت فى أهل زماننا لم تكن ظاهرة فى عصر السلف ولو أنها كانت ظاهرة فيه لاستنبط المجتهدون فى ذلك كتبا كما فعلوا فى أحكام الدين الظاهرة بل أولى لما هم عليه من الخشية لله ومراعاتهم أنفاسهم معه تعالى ولا يقول عاقل قط : إن أحداً من الأئمة ينظر عند أحد كبرا أو نفاقاً أو رياء ويقره عليه أبداً : بل كان يستنبط له

الدواء من الكتاب والسنة ليخرجه من تلك الكبائر التى توعد الله تعالى عليها بالنار.
وأيضاً فإن الأئمة المجتهدين رضى الله عنهم كانوا مشغولين بما هو أهم وأعم نفعاً للاسلام والمسلمين وهو جمع أدلة الشريعة وتحريرها بعد تفرقها فى البلاد وظهور تناقضها. وكان مع كل طائفة من الناس شىء منها.

ولا شك أن هذا أمر أهم من الاشتغال بعلاج بعض أمراض فى بعض الناس فلولا جمع الأئمة للأدلة والبحث عن ناسخ الأحاديث ومنسوخها وعامها وخاصها لما عرف أحد يمشى فى طريق الظاهر ولا الباطن. لأن تلك الأدلة هى مادة موازين الاعمال والاقوال فى طريق الشريعة والحقيقة. ثم لما تعددت أدلة الشريعة كما ذكرنا وتمهدت قواعدها قيض الله تعالى لطريق الباطن أقواماً كالحارث المحاسبي[1] وأبى طالب المكى[2] وأبى القاسم القشيرى[3] وغيرهم فصنفوا فى علاج أمراض الباطن كتباً

---

(١) كتاب الرعاية لحقوق الله : للحارث بن أسد المحاسبي.
وهو أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي.
يقول عنه صاحب الرسالة القشيرية (عديم النظير فى زمانه علماً ، وورعا ، ومعاملة ، وحالا.
ويقول عنه التميمى : هو إمام المسلمين فى الفقه ، والتصوف ، والحديث ، والتفسير والكلام.
ويقول عنه الإمام الغزالى : المحاسبي خير الأمة فى علم المعاملة . وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال.
ومن كلامه : فقدنا ثلاثة أشياء : حسن الوجه مع الصيانة وحسن القول مع الديانة. وحسن الإخاء مع الأمانة. وسمى بالمحاسبي ؛ لأنه كان يحاسب نفسه عملا بقول الرسول ﷺ (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا)

(٢) هو صاحب كتاب قوت القلوب وهو من أشهر المصنفات فى علوم التصوف وبيان أحواله ومقاماته.

(٣) هو الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى النيسابورى الشافعى : ٣٠٠ هـ) — (٤٦٥ م).

واستدلوا على بطلان عبادة كل من لم يوافق باطن لظاهره فيها بأدلة قاطعة كحديث : « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد » فشمل الأعمال الظاهرة والباطنة .

فكما أبطل علماء الشريعة الصلاة لمخالفة أفعال الصلاة الظاهرة كذلك أبطلها علماء الحقيقة بمخالفة الأعمال الباطنة ، فإن قوله ﷺ « ليس عليه أمرنا » شامل .

لذلك فهل كان صلى الله عليه وسلم يرائى بعبادته أن أو يتكبر بها أو يعجب ؟ لا والله .

فكما أنه معصوم : كذلك من يتبعه يكون محفوظا . فامتحن ياأخى جميع أحوالك بهذا الميزان تجد جميع ماورد من الثواب فى عمل من الأعمال إنما هو فى حق من أخلص فيه دون من دخله الدخل من الرياء والنفاق مثلا . فعلم من جميع ماقررناه أنه يجب على من غلب عليه مرض من الأمراض الباطنة من عجب أو كبر أو حسد أورياء أوغل أو حقد أو مكر أن يطلب له شيخاً .

وإن لم يجده فى بلده وجب عليه السفر إليه . وإن من رزقه الله تعالى سلامة الباطن من هذه الأمراض المهلكة كالأئمة المجتهدين وأضرابهم لايحتاج إلى شيخ فى الطريق لأن هذا قد عمل بما علم على وفق السنة . وهذا هو غاية مايطلب بالسلوك كما مر أول المبحث .

ولد رضى الله عنه سنة ست وسبعين وثلثمائة فى شهر ربيع الأول ؛ فى بلدة (إستوا) وكان سكانها من العرب الذين قدموا خراسان .

وهو عربى من قبيلة (قشير بن كعب) .

ولقد ألف الإمام القشيرى كتاب الرسالة القشيرية ، توضيحا وتصحيحاً للفكرة الصوفية فى سلامتها ونقائها .

وقد بين فى هذا الكتاب جانبين : الجانب الأول : سيرة رجال التصوف وبعض أقوالهم .

الجانب الثانى : مبادىء السلوك ومناهجه .

توفى رضى الله عنه فى السادس عشر من شهر ربيع الأول عام ٤٦٥ هـ .

قال الإمام القشيرى رحمه الله : وأول ماحدثت هذه الأمراض الباطنة أواخر المائة ثالثة لقوله صلى الله عليه وسلم : « خير القرون قرنى ثمّ الذين يلونهم ثم الذين يلونهم (١) » .

فمن شهد له صلى الله عليه وسلم بالخيرية فقد حاز رتبة الكمال انتهى . وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول : كان لأهل القرن الأول كمال الإيمان ولأهل القرن الثانى كمال العلم ، ولأهل القرن الثالث / كمال العمل ثم تغيرت الأحوال والمراسم فى أكثر الناس فاجتمع رأى العلماء العاملين على تسمية كل من جاهد نفسه وتبع سلفه الصالح فى الأعمال والأقوال صوفيا ، ومن نزل عنه فى المقام عابداً ، ومن نزل عن ذلك عامياً ، وقاريا يعنى حامل القرآن ولايطالب نفسه بالعمل بما فيه ، بل قنع فى الغالب بتلاوته والعمل ببعض أحكامه دون بعض ، ولم تزل الناس يتنازلون فى كل قرن إلى أن صاروا كما ترى ، وربما ادعى بعضهم أنه على قدم السلف فى أحواله لجهله بأحوالهم . بل سمعت بعضهم يقول فى نفسه : لوأدركت بحمد الله الفضيل بن عياض (٢) . وإبراهيم بن أدهم (٣) وسفيان

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك والطبرانى فى الكبير عن جعدة بن هبيرة .
ورواه الترمذى والحاكم عن عمران بن حصين . ورواه أحمد والترمذى عن ابن مسعود . وغيرهم .

(٢) هو الفضيل بن مسعود بن بشر التميمى : يقول عنه صاحب الرسالة القشيرية : كان الفضيل شاطراً : يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس .
وكان سبب توبته : أنه عشق جارية . فبينما هو يرتقى الجدران إليها سمع تاليا يتلو (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) فقال : يارب قد آن .
وأصبح بعد ذلك من كبار المحدثين والأئمة المهتدين . وجاور الحرم ومن كلامه : (من خاف الله لم يضره شىء ومن خاف غيره لم ينفعه شىء) و (يهابك الخلق على قدر هيبتك) و (جعل الله الشر كله فى بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا وجعل الخير كله فى بيت وجعل مفتاحه الزهد فيها) . و (لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت على ولا أحاسب بها لكنت أتقذرها . كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه .

(٣) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور : من كورة بلخ رضى الله عنه .

الثورى [١] ومالك بن دينار [٢] وبشر الحافى [٣] لسلكتهم الطريق ولكننا لم ندر فماتوا بحجابهم انتهى . وهذا القول من قائله زور وبهتان ، وهو فوق الجنون بطبقات

كان من أبناء الملوك ، خرج يوما للصيد ، فأثار ثعلبا أو أرنبا وهو فى طلبه ، فهتف هاتف : يا إبراهيم ، ألهذا خلقت ؟ أم بهذا أمرت ؟ ثم هتف به أيضاً من (قربوس سرجه : والله ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت . فنزل عن دابته .

وصادف راعيا لأبيه ، فأخذ جبة الراعى الصوف ولبسها وأعطاه فرسه وما معه ، ثم إنه دخل البادية ، ثم دخل مكة ، وصحب سفيان الثورى .

وكان من كلامه : أطب مطعمك ، ولا حرج عليك أن لا تقوم الليل ولا تصوم النهار

وكان عامة دعائه : اللهم انقلنى من ذل معصيتك إلى عز طاعتك .

فقال : أرخصوه . أى : لا تشتروه .

(١) هو سفيان بن سعيد الثورى ولد سنة ٩٧ هـ وتوفى بالبصرة سنة ١٦١ هـ وكان عالما زاهدا . وكان يسمى أمير المؤمنين فى الحديث . وكان إذا جالس العلم وأعجبه منطقه ، يقطع الكلام — خوفا من الغرور — ويقوم ويقول : أخذنا ونحن لا نشعر ، وكان يملى الحديث ويقول : والله لو رآنى عمر بن الخطاب لضربنى بالدرة وأقام لى ، وقال : « مثلك لا يصلح للحديث » وكان يقول للناس — اذا طلبوا منه الحديث — : والله ما أرى نفسى أهلا لإملاء الحديث ، وأنتم أهلا لأن تسمعوه ، وما مثلى ومثلكم إلا كما قال القائل : « افتضحوا فاصلحوا » .

(٢) هو أبو يحيي مالك بن دينار : كان يقول : لم يبق من روح الدنيا إلا ثلاثة : لقاء الإخوان ، والتهجد بالقرآن ، وبيت خال يذكر الله فيه .

وكان يقول فى دعائه : « اللهم لا تدخل بيت مالك بن دينار من الدنيا شيء » ، وقال له بعض الولاة : إدع لنا . فقال : كيف أدعو لكم وألف واحد يدعون عليكم .

وكان يقول : إذا تعلم العبد العلم ليعمل به كثر علمه ، وإذا تعلمه لغير العمل زاده فجوراً وتكبراً واحتقاراً للعامة .

توفى رضى الله عنه سنة إحدى وثلاثين ومائة .

(٣) هو أبو نصر بشر بن الحارث الحافى : أصله من مرو وسكن بغداد ، ومات بها توفى سنة سبع وعشرين ومائتين .

مع أنه أبلغنى أن هذا القائل يفطر فى شهر رمضان فى بيوت المكاسين (١) . ولو علمت أنه يهتدى لقول مثلى : لبينت له أنه لايصلح أن يكون تلميذا لأحد من هؤلاء الأشياخ الذين ذكرناهم ، وقد بلغ من ورعهم أن أحدهم كان لايأكل الطعام حتى يفتشه إلى عاشر يد يتداول عليه فى الحل فإن لم يجد الأيدى العشرة تداولت عليه فى الحل امتنع من أكله وطوى . وبلغ من ورعهم أن أحدهم لم يأكل من سمك الدجلة بعد أن نقص جندى سفرته فيها للسمك إلى أن مات .

وكان كل واحد يقول : يحتمل أن هذه السمكة أكلت من ذلك الفتات أو أحداً من أمهاتها . وبلغ من ورعهم : أن أحدهم كان لايأكل من زرع أرضه ، بعد أن دخلت بهيمته طين جاره فى المطر ورجعت إلى أرضه ، وفى قوائمها من طين الجار فاختلط بطينه . وبلغ من ورعهم أنهم كانوا لايمشون فى ظل عمارة أحد من الولاة أوحاشيتهم فضلا عن جلوس فيه أوفى ذلك البناء .

وبلغ من ورعهم أن أحدهم كان لايسقى دابته من بئر حفرها أحد من الظلمة لا لضرورة كآبيار طريق الحجاز ونحوها مما تركه يفضى إلى الهلاك . وبلغ من ورعهم أن جماعة إبراهيم بن ادهم كانوا يحصدون بالاجرة إلى آخر النهار ، ثم يردون تلك الأجرة على صاحبها ، ويقولون : نخاف أن تكون مابذلنا طاقتنا وجهدنا فى الحصاد هذا اليوم

قال أبو عبد الله بن الجلاء : رأيت ذا النون وكانت له عبارة ، ورأيت سهلا وكانت له إشارة ورأيت بشر بن الحارث وكان له الورع .

فقيل له : فإلى من كنت تميل ؟ فقال : لبشر بن الحارث أستاذنا .

ومن قوله : رأيت النبي ﷺ فى المنام ، فقال لى : يا بشر ، أتدرى لم رفعك الله من بين أقرانك ؟ قلت : لا ، يا رسول الله . قال : باتباعك لسنتى ، وخدمتك للصالحين ، ونصيحتك لإخوانك ، ومحبتك لأصحابى ، وأهل بيتى : هو الذى بلغك منازل الأبرار .

(١) رجال الضرائب والجمارك لأنهم كانوا يشتهرون بالظلم فى ذلك الوقت .

ثم يناموت طاويين . وجاءوا يوماً من الحصاد وكان باب فرنهم قد تهدم بعضه فوجدوا شخصا أصلحه لهم فلم يخبزوا فيه . بعد ذلك ، لأجل الطين الذى لطخه به .

وبلغ من ورعهم انهم تركوا الأكل مما وصلت إليه يد بنى آدم مطلقا وصاروا يأكلون من حشيش البرارى إلى أن صار بدن أحدهم ترى خضرة البقل من ظاهره .

وبلغ من عقوبة أحدهم على شربه من ركوة جندى فى طريق الحجاز ان قلبه قسى عليه ثلاثين سنة حتى صار لا يستلذ بعبادة مع صيامه الدهر ثم نودى فى سره بعد ثلاثين سنة الآن قد خلصت من تبعة تلك الشربة . وبلغ من ورعهم أنهم كانوا يقولون لأصحابهم: إياكم أن تقتدوا بنا فى جميع أحوالنا فاننا قد خلطنا فى أحوالنا وأعمالنا .

وبلغ من ورع جدى الشيخ على الشعراوى رحمه الله : أنه لم يأكل من عسل النحل ببلده إلى أن مات بعد أن قال له أهل البلاد المجاورة : ان نحل بلدكم يأكل زهر فواكهنا. فاستفتى له والدى شيخ الإسلام يحيى المناوى فقال : هذا تنطع .

فقال له جدى : بل هو ورع . فقال شيخ الإسلام : قد قال الله تعالى وهو المالك الحقيقى للنحل (كلى من كل الثمرات)[1]. فقال له جدى : إن هذا محمول على الثمرات المباحة دون المملوكة وقد رأيت أهل الزهد لا يسمحون بذلك .

فقال شيخ الإسلام : إن الحق أطلق فقال جدى : للعبد أن يترك الحلال إذا شاء .

وكذلك بلغ الناس من خوف السلف من الله تعالى : ان أحدهم كانوا يشمون من جوفه رائحة الكبد المشوى منهم أبو بكر وعمر المشهود لهما بالجنة . ومنهم سفيان الثورى

---

(١) وتمام الآيات : وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون .
سورة النحل الآيات من : ٦٨ إلى ٦٩

والحسن البصري[١]. وعطاء السلمي[٢] وكانوا إذا اسمعوا شيئا من أحوال الآخرة ويوم القيامة يمكث أحدهم الايام والليالي يبكي ولا يأكل ولا يشرب . وخرج الحسن البصري في جنازة فلما رآهم وهم ينزلون الميت صاح وخر مغشيا عليه فما رجعوا به إلى بيته إلا في النعش . وبكي عمر بن عبد العزيز[٣] ليلة حتى جرت دموعه ونزلت من ميزاب غرفته.

وكان يغلب عليه البكاء فيصير يرش دموعه على الأرض حوله حتى يأتي الرجل فيظن ان ذلك ماء الوضوء . وبكى الفضيل وبشر الحافي وسفيان الدم بعد نفاذ الدموع. ولما مرض سفيان ذهبوا ببوله إلى حكيم من اليهود فقال: هذا بول رجل قد قطع الخوف من الله تعالى كبده ، ثم مات سفيان بعد ثلاثة أيام .

وكان السري السقطي[٤] رضي الله عنه كلما استيقظ من نومه يبادر إلى مسح وجهه بيده

---

(١) هو أبو سعيد الحسن البصري : كان والده من أهل ميسان فسبي فهو مولى للأنصار .

وكان قد غلب عليه الخوف حتى كأن النار لم تخلق إلا له وحده .

وكان يقول : ذهبت المعارف ، وبقيت المناكر ومن بقي من المسلمين فهو مغموم .

وكان يقول : ما من وسواس نبذ فهو من إبليس وما كان فيه إلحاح فهو من النفس يستعان عليه بالصوم والصلاة والرياضة .

مات رضي الله عنه وهو صائم سنة أربع وتسعين .

(٢) وهو عطاء السلمي : غلب عليه الحزن والخوف حتى مكث أربعين سنة على فراشه لا يستطيع القيام .

وكان رضي الله عنه كثير الدموع ، حتى كان الناس يظنون البلل الذي حوله من آثار وضوءه وهو من آثار الدموع .

(٣) خامس الخلفاء الراشدين .

(٤) هو أبو الحسن سري بن المغلس السقطي : خال الجنيد وأستاذه .

وكان تلميذ معروف الكرخي . كان أوحد زمانه في الورع وأحوال السنة وعلوم التوحيد.

ومن كلامه : التصوف : إسم لثلاث معان :

فقيل له في ذلك : فقال : أخاف أن يكون الله تعالى قد مسخ صورتى لسوء ما أتعاطه من الأعمال .

وكان معه مرآة لم يزل كل قليل ينظر وجهه فيها ويقول : إني أخاف أن يحول الله صورتى صورة خنزير .

وكثيراً ما كان ينظر كل قليل إلى أنفه ويقول : إنى أخاف أن يكون وجهى قد اسود من المعاصى .

ولما مرض قال لأصحابه : أشتهى أن أموت ببلد غير بغداد مخافة أن لا يقبلنى قبرى فافتضح .

وكذلك بلغنا عن شيخه معروف الكرخى[1] .

وكان مالك بن دينار لا يخرج مع الناس فى الاستسقاء ويقول أخاف أن يمطر السماء عليهم حجارة بسببى .

وأخرجوه مرة مكرها فقال : أنتم تستبطئون المطر وأنا استبطىء الحجر ..

وهو الذى لا يطفىء نور معرفته نور ورعه .

ولا يتكلم بباطن فى علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب أو السنة .

ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله .

توفى السرى سنة سبع وخمسين ومائتين .

(١) هو أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخى : كان من المشايخ الكبار ، مجاب الدعوة ، يستشفى بقبره .

ومن كلامه : قال لى بعض أصحاب داود الطائى : إياك أن تترك العمل ؛ فإن ذلك يقربك إلى رضا مولاك . فقلت : وما ذلك العمل ؟

فقال : دوام طاعة ربك وخدمة للسلمين ، والنصيحة لهم .

وقيل له فى مرض موته : أوصى .

فقال : إذا مت فتصدقوا بقميصى ؛ فإنى أريد أن أخرج من الدنيا عريانا كما دخلتها عريانا . توفى رضى الله عنه سنة مائتين .

وكان سفيان الثورى إذا مرت به سحابة وهو يملى الحديث يقطع التحديث ، ويقول: اصبروا حتى تمر فإنى أخاف أن يكون فيها حجارة ترجمنا بها .

وطلب جماعة كرامة من سيدى عبد العزيز الديرينى[1] رضى الله عنه فقال : وهل ثم لعبد العزيز كرامة فى القرن السادس أعظم من أن الله تعالى يمسك الأرض تحت رجله إذا مشى ولم يخسفها به ؟ ثم قال : والله ما أرفع رجلي عن الأرض ثم أضعها وأرى الأرض ثابتة تحتها وفى عينى قطرة انتهى .

وكان آخر من أدركته أنا على هذا القدم ، سيدى على الضرير النبتيتى ، وشيخ الاسلام زكريا ، وسيدى على الخواص ، وسيدى محمد بن عنان ، والشيخ عبد الحليم بن مصلح ، والشيخ على النجدى ، وأخى أفضل الدين .

كان كل واحد من هؤلاء ، يغلب عليه البكاء والخوف ، فيصير يتمرغ فى الأرض ، كالطير المذبوح .

وبلغ من هضمهم نفوسهم ، مع شدة إخلاصهم ، وكثرة أعمالهم: أن أحدهم كان يقول: من أراد أن ينظر إلى مرائى فلينظر إلى .

وقالت امرأة لمالك بن دينار يوماً : يا مرآئى . فقال : لقد عرفت يا هذه إسمى الذى أضله أهل البصره فلم يعرفوه .

وقال له شخص يوماً : يا شيخ السوء فقال : ما أبعدت عن صفتى .

وبلغ من شدة مراقبتهم الله تعالى واقبالهم على عبادته : أن أحدهم كان يصلى الصبح بوضوء العشاء الأربعين سنة وأكثر .

وكان أحدهم يمكث السنه ، وأكثر لا يخطر فى نفسه الطعام ، إلا إن أحضروه بين يديه .

---

(١) هو العارف بالله سيدى عبد العزيز الدرينى رضى الله عنه : صاحب المصنفات الكثيرة فى التفسير ، والفقه ، واللغة ، والتصوف . توفى رضى الله عنه سنة سبع وتسعين وستمائة .

وقال أبو القاسم الجنيد مرة للشبلى[١] : يا أبا بكر إن خطر فى بالك من الجمعة إلى الجمعة غير الله فلا تمد قاتنا فإنه لا يجئ منك شىء فى الطريق .

وكان لا يجتمع بالجنيد إلا يوم الجمعة فقط .

وكان سهل بن عبد الله التسترى رحمه الله يقول لى : منذ ثلاثين سنة أكلم الله تعالى والناس يظنون أنى أكلمهم .

ومكث الشيخ عبد القادر الجيلى فى بداية أمره سنة لا يأكل ولا يشرب ولا ينـام كما أخبر بذلك عن نفسه .

وممن أدركته على هذا القدم الشيخ مرشد مكث خمسين سنة لم يزد على زبيبة كل يوم كما أخبر بذلك عن نفسه .

وكان الشيخ تاج الدين الذاكر[٢] يمكث على الوضوء الواحد من يوم الجمعة إلى الجمعة .

---

(١) هو أبو بكر دلف بن جحدر الشبلى : بغدادى المولد والنشأة . وأصله من (أسروشنة) .

صحب الجنيد ومن فى عصره ، وكان شيخ وقته : حالا ، وظرفا ، وعلما .

مالكى المذهب . عاش سبعا وثمانين سنة ، ومات سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وقبره ببغداد .

ومن كلامه : ليس من احتجب بالخلق عن الحق كمن احتجب بالحق عن الخلق .

وقال : إن أردت أن تنظر إلى الدنيا فانظر إلى نفسك ؛ فخذ كفا من تراب ، فإنك منه خلقت وفيه تعود .

وسأله رجل : أى الصبر أشد ؟ قال : الصبر فى الله ؟ قال : لا ، قال : الصبر مع الله ، قال : لا . قال : الصبر لله . قال : لا ، قال : فأى شىء . قال : الصبر عن الله . فصرخ الشبلى وأنشد :

الصبر يجمل فى المواطن كلها   إلا عليك فإنه لا يجمل

(٢) هو الشيخ تاج الدين الذاكر : كان ذا سمت حسن وتجمل بالأخلاق الجميلة .

وكان له كثير من المريدين والإعتقاد التام فى قلوب الناس جميعا ، وكان كثير الشفاعات لدى السلطان والأمراء ، وكان يمكث السبعة أيام بوضوء واحد .

وكان لا يدخل الخلاء إلا كل خمسة عشر يوما مرة ، وسائر وضوئه إنما هو تجديد كما أخبرني بذلك خادمه الشيخ عبد الباسط الطاخاوى .

وكان يقول : كان الإمام الأوزاعي[١] رضى الله عنه لا يدخل الخلاء إلا كل شهر مرة فرقت بطنه فصار يدخل كل خمسة عشر يوماً مرة ، فكانت والدته تقول لأصحابه : أدعوا لعبد الرحمن فإنه مبطون .

وكانت هي كذلك لا تدخل الخلاء إلا في كل ثلاثين أو أربعين يوماً .

وكذلك بلغنا عن الإمام مالك[٢] والإمام البخارى[٣] أنهما كانا لا يدخلان الخلاء

ومن كلامه : ليس القناعة أن يأكل الفقير كل ما وجد من يسير الخبز والأدم ، إنما القناعة أن لا يأكل إلا بعد ثلاثة لقيمات يقمن صلبه وأكثرها خمس .

وكان رضى الله عنه يقول : لا تصح الصحبة لشخص مع شيخه إلا إذا شرب من مشروبه واتحد به إتحاد الدم في العروق .

توفى رحمه الله سنة نيف وعشرين وتسعمائة .

(١) هو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي : ولد سنة ثمان وثمانين ومات سنة سبع وخمسين ومائة . وكان مولده ببعلبك ومات في بيروت .

وكان رضى الله عنه يقول : أدركنا الناس وهم أول ما يستيقظون ويصلون الصبح يتفكرون في أمر معادهم وما هم صائرون إليه ، ثم يفيضون بعد ذلك في الفقه والقرآن .

ودخل عليه المنصور وقال له : عظني : فقال ما أحد من الرعية إلا وهو يشكو بلية أدخلتها عليه ، أو ظلامة سقتها إليه .

(٢) هو الإمام مالك بن أنس : إمام دار الهجرة ومحدثها الكبير وصاحب المذهب المالكي المعروف . ولد سنة ثلاث وتسعين ومات سنة تسع وسبعين ومائة ، ودفن بالبقيع .

وكان رضى الله عنه يقول : لا ينبغي للعالم أن يتكلم بالعلم عنه من لا يطيعه فإنه ذل وإهانة للعلم .

وكان يمشي في أزقة المدينة حافيا ماشيا ، ويقول : أنا أستحي من الله تعالى أن أطأ تربة فيها قبر رسول الله ﷺ بحافر دابة .

ومناقبه أشهر من أن تعرف .

(٣) هو محمد بن إسماعيل البخارى : إمام أهل الحديث وصاحب الجامع الصحيح كتاب

إلا كل ثلاثة أيام ، وكانا يقولان : والله قد استحيينا من الله تعالى ، من كثرة ترددنا إلى الخلاء ، فى كل ثلاثة أيام .

وبلغ من حيائهم أنهم كانوا يرخون الطيلسان على وجوههم من الحياء ، حتى لا يراهم أحد من الناس ولا يرونه .

فيقال لهؤلاء المدعين الذين جلسوا فى زماننا هذا بغير إذن من أشياخهم: بالله عليكم هل شممتم رائحة من ورع هؤلاء القوم أو خوفهم من الله أو هضمهم نفوسهم ؟ لا والله ما شم أحد منهم ذلك ، إنما هى دعاوى كاذبة .

ولو أن هؤلاء كان لهم شيخ لبين لأحدهم عيوبه ونقائصه ، وكان يخاف من الله تعالى أن يدعى كمال مقام الإسلام فضلا عن غيره .

وقد درج السلف الصالح الذين لم ندركهم ، ومن أدركناهم من مشايخ مصر على هضم نفوسهم مع شدة الاجتهاد فى العبادة ليلا ، ونهاراً ، حتى لو أنه قيل لأحدهم : غداً تقوم القيامة ما وجد زيادة من استغراقه الزمان كله بالعبادة .

ومع ذلك كان الحسن البصرى يقول : والله لو حلف حالف أن أعمال الحسن أعمال من لا يؤمن بيوم الحساب لقلت له : صدقت يا أخى لا تكفر عن يمينك .

وسئل الإمام أبو حنيفة عن الأسود وعلقمة : أيهما أفضل ؟ فقال : والله ما نحن بأهل أن نذكرهم .

الحديث المتفق عليه بين جميع علماء المسلمين . ولد رضى الله عنه ببخارى سنة أربع وتسعين ومائة ، ومات رضى الله عنه ليلة عيد الفطر سنة ست وخمسين ومائتين ، ودفن بخرتنك قريه قريبة من سمرقند .

وكان رضى الله عنه يقول : المادح والذام من الناس عندى سواء .

ومن أقواله : أرجو أن ألقى الله تعالى ، ولا يطالبنى أنى اغتبت .

وربما قام فى الليل نحو العشرين مرة يقدح الزناد ويسرج ويكتب أحاديث .

ومناقبه أشهر من أن تعرف .

فكيف نفاضل بينهم ؟

وقال رجل لإبراهيم التيمى (١) : ما تقول فى هذه المسألة يافقيه؟ فقال إبراهيم : والله إن زمانا صار مثلى فيه ينادى بالفقيه لزمان سوء .

وبلغ مالك ابن دينار : أنّ بعض الناس يصفه بالصلاح ، فقال : والله إن زمانا صار مثلى فيه موصوفا بالصلاح ، لزمان ما بقى لأهله صلاح .

وكان ابن أبى رواد يقول : إذا ذكرت أحوال الصالحين بين أمثالنا افتضحوا .

فعلم من جميع ما قررناه من أحوال السلف الصالح : أنّ غالب هؤلاء المدعين الذين برزوا فى هذا الزمان عن طريق الصالحين بمعزل .

وما بسطت لك يا أخى هذا المحل إلا مبالغة فى زجر هؤلاء المدعين عن الدعوى لإرادة الطريق ، فضلا عن كونهم من المشايخ ، فضلا عن كون أحدهم قطبا .

وقد أفتى بعض المتأخرين بأنه لايجوز لنا الاقتداء بغالب هؤلاء المشايخ الذين ظهروا فى النصف الثانى من القرن العاشر ، ولا الوقوف عند أقوالهم لجهلهم بقواعد طريق القوم ، فإن من قواعدها التضلع من الكتاب والسنة حتى يصير يقطع مشايخ الإسلام بالحجج فى مجلس المناظرة .

وأما هؤلاء فهم كما ترى لعجز أحدهم أن يقرأ مثل كتاب أبى شجاع فى الفقه . وعلم التصوف الذين يزعمونه ، فقد أجمع مشايخهم على أنه مشيد بالكتاب والسنة كما سيأتى بيانه أوائل ذكر الأخلاق ، فى الباب الأوّل إن شاء الله تعالى . والحمد لله رب العالمين .

---

(١) هو إبراهيم التيمى : توفى فى سجن الحجاج سنة اثنتين وتسعين هـ .

قال الأعمش : قلت : لإبراهيم التيمى رضى الله عنه : بلغنى أنك تمكث شهر لا تأكل شيئاً . فقال : نعم وشهرين ، وما أكلت منذ أربعين ليلة إلا حبة عنب ناولنيها أهلى فأكلتها ولفظتها فى الحال .

وكان يقول : إذا رأيت الرجل يتهاون فى التكبيرة الأولى فاغسل يديك منه .

وأما بيان أن القوم يبلغون درجة الاجتهاد المطلق

فاعلم رحمك الله أنّ هذا المقام يبلغه المريد فى حال سلوكه قبل أن يصل إلى درجة الكمال كما صرح بذلك الشيخ محي الدين فى باب صلاة الجنائز من كتاب الفتوحات فقال : وإذا بلغ المريد مقام الاجتهاد هل يعمل بماظهر له أو يقف عند قول شيخه ؟ الذي أراه أنه يقف عند قول شيخه لإرتفاع شيخه عن الظن بوصوله إلى علم اليقين ، أوعين اليقين ، أو حق اليقين انتهى .

ثم أن المريد يرتقى من مقام الاجتهاد فى الأحكام الظاهرة إلى الاجتهاد المطلق و الأحوال الباطنة فلكل عبادة عنده شروط فى مقام الإسلام والإيمان والإحسان والإتقان يخالف شروط المقام الآخر ، كما أن لهم فى مقام الاجتهاد فى طريق علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين أركانا وشروطا وسننا وآدابا تخالف ما فى العلم الآخر فللوضوء والصلاة والزكاة والصيام والحج فى كل مقام شروط وأركان تخصه لا يمكن العبد أن يرقى لـ ما بعد ذلك المقام حتى يعرف تلك الشروط والأركان .

وهذا أمر ما رأيت أحداً نبه عليه إلا إن كان ذلك وقع ولم يبلغنا . ومن تأمله وجد كثيراً من مشايخ هذا العصر من قسم العوام . وإنما فتحت لك يا أخى هذا الباب ليقل إنكارك على القوم إذا رأيت لهم كلاما لم تفهم معناه فتجعله من جملة ما استنبطوه باجتهادهم فى طريق الباطن من علم اليقين ، أو عين اليقين ، أو حق اليقين .

ولما صنفت كتابى المسمى بأسرار الطريق لم أجد له ذائقا من إخوانى إلا القليل فأشعت فى مصر أنى غسلته ، حتى سكنت نفوسهم مع أنه كله حقائق .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : لا ينبغى لأحد الإنكار على شيء من كلام القوم إلا إن رآه مخالفا لصريح الأحاديث وقواعد الشريعة .

وكان شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول : لا يخلوا كلام القوم من ثلاثة أحوال : إما أن يوافق صريح السنة فهذا لا كلام لأحد فيه . وإما أن يخالف صريح السنة فهذا لا يجوز لأحد العمل به . وإما أن لا يظهر لنا موافقته ولا مخالفته فأحسن أحواله الوقف إنتهى .

وحيث علمت أن فى القوم مجتهدين فى طريقهم فسلم لهم يا أخى ما أدى إليه اجتهادهم كما تسلم للمجتهدين فى الشريعة الظاهرة من غير مطالبتهم بدليل ، لاسيما ما حكوا فيه الإجماع . وإياك أن تقول كما يقول القائل : هذا متنطع صوفى كهيئة المتبرى منه فإن ذلك سوء أدب .

وإن كنت ولابد قائلا ذلك فقل عقبه : لا نطيق المشى عليه فإن ما شرطوه محمود لا شك وكل عن مقام يتكلم .

فمما شرطوه فى صحة الوضوء والغسل أن لا يكون على عضو من أعضاء التطهير لمة من المعصية الباطنة والظاهرة ولا بقية ميل إلى معصية : وذلك بالتوبة النصوح عند غسل كل عضو ليطهر العضو باطناً وظاهراً .

ومن كان عليه بقية ميل إلى تلك المعصية المتعلقة بذلك العضو فوضوءه باطل عندهم .

ومما شرطوه فى الصلاة الخشوع ، وأن لا يشتغل عن شهود الحق تعالى بقلبه فيها إذا تدبر فى معانى الآيات .

وقالوا : إنما أمرنا الله تعالى بتدبر القرآن ليجمع بذلك قلوبنا عليه لا ليفرقها بوجه من الوجوه فآية تذهب بنا إلى الجنة ، وآية تذهب بنا إلى النار ، وآية تذهب بنا إلى تعجب قوم نوح ، وما جرى لهم ، وقوم موسى وما جرى لهم ، فإذا تخيلهم المصلى فى ذهنه حجب بذلك عن الله تعالى .

وإذا تعارض عندنا أمران راعينا الأفضل منهما . ولا شك أن الإقبال على مشاهدة الحق تعالى أعظم من الإقبال على أحكامه وعباده .

وقد قالوا : من شأن النفس عدم القدرة على اشتغالها بمراعاة شيئين معا فى وقت واحد بحيث لا يشغلها أحدهما عن الآخر . ا هـ فإن مد الحق تعالى بعض أوليائه بالقدرة على مراعاة شيئين فى آن واحد فذلك فضل عظيم من الله تعالى .

ومما شرطوه أيضاً فى صحة الصلاة : أن لا يكون فى باطن العبد غل ، ولا حقد ، ولا مكر ، ولا بغي ، ولا شحناء ولا رياء ، ولا نفاق ، ولا عجب ، ولا كبر ، بل يكون طاهراً مطهراً من هذه الأمراض كلها .

ويجمعها كلها محبة الدنيا . فكل من رجح الذهب على التراب فصلاته باطلة عندهم إلا إن كان ذلك الترجيح من حيث الحكمة التي جعلها الله فيه دون التراب ، فإن الله تعالى شرف الذهب على التراب من حيث المعاملة به لا غير ، وإلا فالتراب أب للذهب وغيره من سائر ما خلق منه أو استخلص منه .

ويتفاوت الناس فى هذه الطهارة ، فمنهم من يؤاخذ بخطور شيء من أمراض الباطن على قلبه فى الصلاة ، ومنهم من يسامح بيسير الحقد أو العجب مثلا[1] .

ومنهم من لا يسامح على صورة النجاسة الظاهرة على البدن على حد سواء بل مراعاة الطهارة منها فى الباطن أولى لأنها محل نظر الله عز وجل كما ثبت فى صحيح مسلم مرفوعا : إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم[2] .

ومنهم من يشترط فى صحة صلاته الحضور مع الله من حين يحرم إلى حين يسلم .

ومنهم من لا يشترط فى حقه إلا الحضور فى أكثرها فقط .

ومنهم من يسامح بالغفلة فى قيراط من أربعة وعشرين قيراطاً .

ومنهم من لا يسامح به وهكذا .

ومنهم من إذا سلم من صلاة الفرض يستمر معه الحضور مع الله إلى الصلاة التى بعدها

---

(١) ويكون السماح فى أول الطريق مثلا حتى تنتزع من المريد أمراض النفس تدريجيا .

(٢) وتمام الحديث (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسامكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) .

كالملامتية من الأولياء الذين هم على قدم أبي بكر الصديق رضى الله عنه .

ومنهم من يستمر معه الحضور بعد سلامه إلى أواخر وقت تلك الصلاة .

ومنهم إلى الدرجة أو الدقيقة .

فعلم ، أنه يصدق على من دام حضوره إلى الصلاة الآتية أنه من : « الذين هم على صلواتهم دائمون[1] » ويؤيده حديث (إن أحدكم فى صلاة ما انتظر الصلاة . كما أن المراد بالذين هم على صلاتهم يحافظون من يفتح صلاة أخرى كلما حصل عنده غفلة عن الله .

وعلم أيضاً أن من يستمر معه الحضور إلى الصلاة الآتية لا يطالب بكثرة النوافل لأنه لا معنى للاشتغال بالقيام والجلوس فى حضرة الشهود ومعلوم أن سائر العبادات ما شرعت بالأصالة . إلا ليحضر العبد فيها مع ربه ويصير مشاهداً له . وهذا المعنى قد حصل له بصلاة الفريضة ، ومن هذا قلت نوافل الملامتيه[2] .

وربما كان بعض من لا ذوق عنده بأحوال القوم يرجح العباد الذين يكثرون من النوافل على الملامتية ، مع أن كل ذرة من أعمال الملامتى يرجح على جبال العبادات من العباد .

اللهم إلا أن يكون من حصل له مقام الشهود داعياً إلى الله تعالى ، فله أن يقوم فى الحضرة ويصلى ، ويعمل جميع الأمور التى أمر الله تعالى بها مطلقاً ، ليقتدى به الناس فى ذلك . ويتلذذوا بنعيم مشاهدتهم له تعالى ، ويشكروه على تأهيله لهم فى الوقوف بين

---

(١) ويؤيده حديث (أن رسول الله ﷺ قال : ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات .

قالوا بلى : يا رسول الله قال : إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط) رواه مسلم .

وروى الشيخان (عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : لا يزال أحدكم فى صلاة مادامت الصلاة تحبسه لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاة) .

(٢) طائفة من الصوفية إلا أنهم يخفون أعمالهم من العبادة وغيرها عن الناس ويتسترون بها حتى لا يفرق بينهم وبين العامة فتبعد عنهم صفة الرياء .

يديه ، فإن ذلك أعظم نعيم فى الدارين ولولا نعيم مشاهدته فى الجنة ما أحبها أهل الله تعالى ، لأن غاية ما فيها أكل وشرب وجماع ونحو ذلك ، وليس هو مقصود القوم .

ولما علم ﷺ أن فى أمته من لا يطيق الدوام على الحضور مع الله تعالى من صلاة الفريضة إلى أختها : شرع لأمته النوافل فيما بين الفريضتين مصلحة لهم ليقع لهم شهوده بعد ذلك الحجاب الذى وقع لهم بعد سلامهم من الفريضة .

وشرع لهم قيام الليل وصلاة الضحى لبعد الزمن الذى بين صلاة العشاء ، والصبح وبين الصبح والظهر .

وأوجب الله تعالى ذلك على رسول الله ﷺ وجوب رحمة وتقريب لئلا يطول زمن الحجاب على أمته وليكون له ثواب كل من قام الليل أو صلى الضحى متحـلا فإنه رأس الدعاة إلى الله تعالى ، واعتياد باطنه ﷺ أنه لا يمكنه مفارقة حضرة ربه ، ولو لم يوجب الحق تعالى عليه ذلك ، لأن ذلك نعيمه ﷺ فالألف سنة عنده فيها كلمحة ، وجميع ما سماه العلماء تكليفاً هو نعيم للخواص والكلفة فيه من حيث ما يحصل للخواص من عظيم هيبة الله ، وإجلاله لا من حيث مطلق القيام ، والركوع ، والسجود مثلا فإنه لا يتكلف لذلك إلا المنافقون الذين خذلهم الله تعالى وأضلهم على علم ولم يكن عندهم رائحة محبة الله ، نسأل الله العافية فقد بان لك وجه تسميتها تكاليف فى حق الخواص . والله أعلم .

ثم لما كان جميع الدعاة إلى الله أمناء الرسل على الأمم كان لهم مقام الاستحسان والاستنان فلهم أن يستنوا لتلامذتهم ويستحسنوا لهم ما يرونه أصلح لهم مما هو داخل تحت أصل ورد فى الشريعة .

الإنكار على من أعاد صلاته بخلل ظاهر رآه فيها.

وفى الحديث « الصلاة خير موضوع فاستكثر من ذلك أو أقل[١] » فلا يسمى بدعة إلا ما لم يكن مندرجا تحت أصل لأن مثل ذلك ، هو الذى ينكر ، لأنه زيادة لم يأذن بها الله فصور يا أخى كمال عبادة عبد ثم انهه عن الزيادة على المشروع التى تشق .

وقد سن الشيخ أبو مدين بالمغرب لأصحابه صلاة ركعتين بعد الطعام فهم يفعلونها إلى الآن وأقره على ذلك علماء المغرب لأنهما شكر لله على تلك النعمة .

وسن الشيخ محيي الدين بن العربى صلاة الاستخارة صباحا ومساء لجميع ما يقع على يديه من الحركات والسكنات فى ذلك اليوم أو تلك الليلة ، وقال : من لم يقدر على فعلها كل يوم فليفعلها فى كل جمعة أو شهر أو سنة ويقول فى نيتها[٢] : اللهم إن كنت تعلم أن جميع ما أتحرك فيه أو أسكن من وقتى هذا ، إلى مثله ، من الغد ، أو من الجمعة ، أو الشهر ، أو السنة ، خيراً لى فى حق نفسى ، وحق غيرى ، أو يتحرك فيه غيرى ، أو يسكن فى حق نفسه ، وغيره خيراً لنا ، فى ديننا ، ومعاشنا ، وعاقبة أمرنا ، وعاجله ، وآجله ، فاقدره لنا ، ويسره لنا إلى آخر الدعاء .

ثم إن هذا الذى قررناه ، وبطلان الصلاة من الوضوء ، بعدم التوبة من الذنوب الظاهرة وتوبة القلب من الكبائر الباطنة ، هو فى مقام الإسلام الباطن ولهم فى مقام الإيمان ، والإحسان الباطن ، من شروط أخر أرقى من هذه كما أوضحناه فى كتابنا المسمى بالنور المبين فى بيان مقامات كمل العارفين[٣] . وهو كله يرجع إلى قولهم حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فما يتقرب به البر ، يستغفر منه المحسن .

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة : ونص الحديث : (الصلاة خير موضوع فمن استطاع أن يستكثر فليستكثر) .

(٢) روى الترمذى وحسنه عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع) .

(٣) يأتى ذكره فى المقدمة عند ترجمة الإمام الشعرانى .

وربما كان بعضهم يستغفر من حضوره مع الله تعالى ، وذلك لأن ما حضر مع ه
تعالى حتى مثله فى ذهنه وأقام ذلك فى مخيلته . وتعالى الله فى حق ذاته[1] عن
مثل ذلك . فالكمال أن العبد يعبد ربه على الغيب فإنه اللائق بالتنزيه .

ومن هنا قال المحققون فى حديث : (اعبد الله كأنك تراه[2]) أنها حالة التعليم ثم
يترقى منها إلى حالة الكمال وهو أن يعبده على أنه تعالى هو الذى يرى عبده فيبقى مع
نظره تعالى المحقق إليه لا مع نظره هو المتوهم .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول : إياكم أن تنكروا على شيخ
أمر تلميذه بتقديم صلاة النافلة على العلم لأنه طالب له الحضور مع الله تعالى حين رأى
قلبه قد مات من طول الحجاب[3] ، وقليل من الناس من تحصل له الحضور مع الله

---

(١) يقصد فى حق ذاته .

(٢) وتمام الحديث : روى الإمام البخارى : قال : حدثنا مسدد ، قال حدثنا إسماعيل
ابن إبراهيم ، أخبرنا أبو حيان القيمى عن أبى زرعة عن أبى هريرة قال : كان النبى ﷺ
بارزا يوما للناس فأتاه جبريل فقال : ما الإيمان ؟

قال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث .

قال : ما الإسلام ؟

قال : الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به ، وتقيم الصلاة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ،
وتصوم رمضان .

قال : ما الإحسان ؟

قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

قال متى الساعة ؟ قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، وسأخبرك عن أشراطها :
إذا ولدت الأمة ربها ، وإذا تطاول رعاة الإبل البهم فى البنيان ، فى خمس لا يعلمهن إلا الله ،
ثم قال النبى ﷺ (إن الله عنده علم الساعة) الآية .

ثم أدبر ، فقال ردوه فلم يروا شيئاً .

فقال : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم .

(٣) فترقيق للقلب وتصفيته أولى لكى يصبح وعاءً صالحا لذلك العلم .

تعالى حال مطالعة العلم أو الحضور مع الله تعالى فى العلم ولا يكون إلا للكمل الذين انتهى سلوكهم وعرفوا الله تعالى ، وثم من المريدين من لا يقدر على طول المكث فى حضرة الله تعالى ، فهو طول الليل والنهار يخرج ثم يدخل فيؤمر بالصلاة كلما دخل الحضرة ، كما قالوا فى الداخل إلى مكة : أنه يستحب له الإحرام بلبيك كلما دخل إلا أن يتكرر دخوله كحطاب وصياد . ومنهم من يطول مكثه فى الحضرة ، ثم مرادنا بالحضرة الإلهية التى يدخلها الفقراء هو شهودهم أنهم بين يدى الله تعالى ، وهو ناظر إليهم ، فما دام أحدهم يشهد ذلك فهو فى الحضرة ، فإذا احتجب عنه هذا الشهود خرج من الحضرة فافهم .

ومما شرطوه فى قبول الزكاة والصدقة عدم المن بها على من يأخذها من الفقراء والمساكين وبقية الأصناف ولو بالقلب . فمتى خطر له أن له فضلا على ذلك الآخذ ولو بالقلب فقد منّ وحبط عمله كما أطلقته الشريعة .

ومما شرطوه فى صحة الاعتكاف عدم خروج القلب من حضرة الله تعالى ، من حين يدخل فى الاعتكاف إلى أن يخرج ، ومتى مال إلى شهوة بقلبه وهو بين يدى الله ، وحجب عن شهود أن الله يراه ، فقد بطل اعتكافه فيجب عليه تجديد النية إلا أن يكون ممن أعطاه الله تعالى القوة على الاشتغال بالله وبالخلق معاً لا يشغله الخلق عن حق ، وعكسه بحكم الإرث لرسول الله ﷺ والله أعلم .

ومما شرطوه فى صحة الصوم عدم ارتكاب العبد مكروها فضلا عن المحرم ، لأن شرط صحة الصوم أن لا يخرقه صاحبه بارتكاب ما يكرهه الله ، فيدخل الشيطان حرفه فينجسه ومعلوم ان الصوم صفة صمدانية مطهرة من الشوائب النفسانية والشيطانية مبعضها كل شىء ليس هو من جنسها على حكم وزان[1] الصلاة عندهم فكما تقدم الصلاة

(١) على قياس الصلاة عندهم .

نية الخروج منها كذلك يبطل الصوم الميل إلى فعل مكروه فيه فضلا عن فعله المحقق .

وقد أجمع القوم على أن الله تعالى ما فرض صوم رمضان ، إلا ليحفظ العبد من دخول الشيطان جوفه من العام إلى العام ، ومتى وقع الشخص فى مكروه أو حرام فقد خرق الشيطان خرقا يدخل منه إلى قلبه فيهلكه .

ثم لا يخفى أن الله تعالى ما فرض صوم رمضان إلا طهرة لبنى آدم وحفظا من دخول الشيطان جوفهم بخرقه صومهم .

وأما الأنبياء وأكابر الأولياء فهم فى حجاب عن إبليس لعصمتهم أو حفظهم كما سيأتى إيضاحه فى الجواب عن أهل الحضرة الآلهية إن شاء الله تعالى .

ومما شرطوه فى صحة الإحرام بالحج وفعل تلك المناسك أن يفتح لعقدة الإحرام(١) كل عقد يضاده مما فعله منذ وعى على نفسه فلا يبقى عنده ميل من شهوة من الشهوات . وأن يتجرد عن كل شىء دون الله حين ينزع المخيط ، وأن يزول عنه كل علة ظاهرة وباطنة بالغسل للإحرام ، وأن يجد فى نفسه جواب التلبية بقوله تعالى : لبيك عبدى .

وأن يجزم إذا دخل الحرم بترك كل محرم أبداً ما عاش .

وأن يشرف عليه من الحق تعالى إذا أشرف على مكة حال يغيبه عن حسه إذا دخل البيت أو المسجد أو الحجر بحيث يصير لا يشهد سوى ربه من شدة القرب .

وأن يشهد عند رؤية الكعبة ما قصدت له وما مقامها فى الموجودات .

وأن يشهد فى رمله ثلاثا : هروبه من الدنيا حتى ينفصل عنها وينقطع عن محبتها بحيث يصير يتكدر كلما دخلت عليه . ويشهد عند مشيه أربعاً الأمن مما هرب منه ليزداد شكراً بذلك .

وأن يجد فى نفسه الأمان من العذاب ، ومن الحجاب عن الله تعالى فى الدنيا والآخرة إذا صافح الحجر الأسود .

---

(١) نية الإحرام .

وأن يطلع على مكانته من ربه وقبول قصده حين يصلى ركعتين خلف المقام ويعرف معنى كون الحجر يمين الله حين يقبله .

وأن يسمع تكبير الملائكة إذا كبر الله سبعا على الصفا حتى يكبر معها ، ويجد حقيقة التكبير ذوقا ، وأن يتصفى من كل علة إذا نزل من الصفا إلى بطن الوادى .

وأن يرى فى هرولته فراره من السكون إلى الحق ، ثم يفر من فراره بوصوله إلى وجوده ، وأن يرى السكينة على المروة إذا وصل إليها فيأخذ منها حظه إن لم تكن تنزل عليه . وأن يتمنى على الله غير الحالة التى كان عليها من المعاصى وسوء الأدب إذا خرج إلى منى .

وأن يجد من الخوف من الله ما لم يكن عنده قبل ذلك إذا دخل إلى مسجد الخيف . وأن يعرف الحالة التى خلق لأجلها ، والحالة التى تصير إليها إذا وقف بعرفات ، ويعرف المعرف له هذه الأحوال ويرى المكان الذى إليه الإشارات وتقيس الأنفاس ... هناك فى كل حال .

وأن يذكر الله تعالى عند المشعر الحرام ذكراً ينسيه ذكر ما سواه فى الدنيا والآخرة حتى يصير لا شغل له بما سواه .

وأن يذبح نفسه بسيف المخالفة إذا رجع إلى منى تقرباً إلى الله تعالى . وأن يرمى ... عنه بزيادة العلم الذى ظهر عليه عند رمى الجمرات ، وأن يحس بنقص أمله إذا حلق ... أو قصره .

وأن يكاشف بشىء من الحقائق عند طواف الزيارة ، ويرى زيادة الكرامات عليه ... زار فإن فى الحديث « الحجاج والعمار زوار الله وحق على المزور أن يكرم زواره[1] » .

---

(1) فى الحديث (الحاج والغازى وفد الله عز وجل ، إن دعوه أجابهم ، وإن استغفروه غفر لهم) رواه ابن ماجه عن أبى هريرة .
ويؤيد حديث : الحاج والمعتمر والغازى فى سبيل الله والجمع فى ضمان الله دعوه دعاهم

وأن يعزم حين يحل من إحرامه، على أكل الحلال الخالص أبداً ما عاش.

وأن يخرج عن نفسه وروحه بالكلية إذا طاف طواف الوداع انتهى.

فانظر فى نفسك يا أخى هل فعلت بهذه الشروط حين حججت أم أخللت بها فيكون عليك الحج ثانيا لتأتى بهذه الشروط ؟ وهذه شروط ذكرها السبكى[١]، وهى على قدر مقامه حين حج وإلا فللحج شروط أخر أعلى من هذه الشروط فإن الأذواق تتفاوت وما أعلمتك بذلك إلا لتعرف أنى لم أبتدع هذه الشروط التى ذكرتها فى الوضوء والصلاة والزكاة والصوم والحج وإنما أنا تابع لغيرى فى ذلك من القوم وأنى لم أخترع من عند نفسى شيئاً لم يذكره غيرى.

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول : غاية صوفية زماننا هذا أن يصلوا إلى العمل بظاهر الشريعة فضلا عن باطنها على وجه الظن.

وأما علمهم بالشريعة على وجـــه علم اليقين أو عين اليقين أو حق اليقين فذلك كالمحال[٢].

وسمعته مرة أخرى يقول : ما ثم كامل فى طريق الولاية إلا وقد خرج عن تقليد غيره فى العلم ما عدى[٣] رسول الله ﷺ فيصير يأخذ العلم بالأحكام من حيث يأخذها المجتهدون.

وبعضهم لا يقنع بالظن فى علمه إنما يطلب الوصول إلى علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين التى هى علوم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فيصلون إليها بحكم الإرث للأنبياء

فاجابوه وسألوه فأعطاهم) الشيرازى فى الألقاب عن أبى هريرة.

(١) من كبار علماء الشافعية

(٢) يقصد بذلك أنهم غير موقنين إيقانا كاملا يصل إلى مرتبة علم اليقين أو عين اليقين أو حق اليقين أى لم يصلوا فى الولاية إلى اليقين الكامل.

(٣) ما عدا.

لا استقلالا وهناك لاتزلزلهم الأدلة ولا يرجعون عن قول قالوه لظهور دليل آخر ولا يبدوا لهم فى الآخرة علم آخر خلافه لم يكن فى حسابهم .

وسمعت سيدى على المرصفى رحمه الله يقول : إياكم أن تبادروا إلى الإنكار على أحد من أهل الطريق إذا رأيتموه يتكلم بكلام يخالف ما فهمه بعض العلماء فإن دائرة الفهم واسعة وتربصوا فى ذلك القول وانظروا فيه فربما كانوا أخذوه من مفهوم الأدلة أو لغة العرب تشهد لذلك[1] .

وقد روى الطبرانى مرفوعاً (أن شريعتى قد جاءت على ثلاثمائة وستين طريقة ما من طريق يسلكها العبد المؤمن إلا نجا من النار[2]) انتهى .

كل ذلك فتحا لباب التسليم للأئمة المجتهدين والعلماء العاملين فى طريق الظاهر والباطن ، فإن أعطاك الله تعالى يا أخى العلم بهذه الطريق كلها على وجه الكشف واليقين ونظرت فيها ولم تجد لذلك الكلام الذى قاله ذلك الشخص مستنداً يشهد له من جميع هذه الطريق فأنكره حينئذ كما تنكر على من خرق الإجماع على حد سواء .

واعلم يا أخى أن علم التصوف ليس هو بأمر زائد على السنة ، وأقوال الأئمة . هو مشيد بالأدلة ولكن غالب الناس لما قل اعتناؤهم بالعمل بمخالفة النفوس لم يمعنوا النظر فى أدلة كلام القوم كما يمعنون النظر فى المسائل الفقهية ، وإن كان عين الفقه هو عين التصوف ، وما ثم تمييز بين الطريقين إلا بالمقاصد فى الأعمال .

فالفقيه مثلا يطلب بعمله الثواب من الله عز وجل على أعماله من دخوله الجنة ، والحور ، والقصور ، والمآكل ، والمشارب .

والقوم يطلبون من الله ما يطلبونه إظهار الكفاءة والحاجة من باب المنة والفضل لا من باب مقابلة الأعمال بالثواب .

---

(١) فيجب التأنى فى ذلك وعدم الأخذ بظاهر القول فقد يكون له وجه آخر فى العربية أو غيرها من العلوم .

(٢) رواه الطبرانى مرفوعا .

ثم إن منهم من يطلب من الحق مجالسته لا غير ، ومنهم من يستحي من ذلك ويقول أنزه ذلك الجمال البديع عن مجالسة مثلي[١] .

وسمعت سيدي على الخواص رحمه الله يقول : ما ثم عند المحققين حقيقة تخالف شريعة أبداً إنما كل واحدة تأتي مؤيدة للأخرى في نفس الأمر . حتى أنهم أجمعوا على قولهم : حقيقة بلا شريعة باطلة ، وشريعة بلا حقيقة عاطلة .

وكل من رأى بين الشريعة والحقيقة مخالفة فإنما هو لقصوره عن درجة الكمال كما هو مشهود بين القاصر من الفقهاء وبين القاصر من الفقراء ، فإن الحقيقة غاية مراتب الشريعة ولا يكمل الشريعة إلا بمراعاة الحقيقية .

فإذا صلى الإنسان ظاهراً وهو غير مقر بوجوبها عليه حملناه على المحامل الحسنة وأنه مقر بها . ولو أنه قال لنا : أنا لا أقر بوجوبها عليّ أبطلناها في الحقيقة والشريعة .

ويظهر لك ذلك أيضاً في بينة الزور في نفس الأمر . فإنه ينفذ فيها حكم الحاكم بها . ولو أنه صرح له الشهود بأنهم شهدوا زوراً لم ينفذ حكمه لا ظاهراً ولا باطناً .

وإذا كانت البينة صادقة نفذ حكمه ظاهراً وباطناً نظير الأعمال الخالصة والأعمال التي دخلها الرياء إذا جوزى العبد بها في الآخرة ، فلا تخالف الشريعة الحقيقة إلا من حيث القصد في الباطن لا غير . ولم يتعبدنا الله تعالى بالاطلاع على القلوب فافهم .

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي رضي الله عنه يقول: الشريعة كالشجرة والحقيقة كالثمرة فلا بد لكل واحدة من الأخرى .

ولكن لا يدرك ذلك إلا من كمل سلوكه ، وأما غالب الناس فيشهدون الحقيقة مخالفة للشريعة كما نبه على ذلك السيد موسى عليه الصلاة والسلام بإنكاره الصوري أولا على الخضر عليهما السلام .

---

(١) فإن الصوفية يعبدون الله لذاته ولا يطلبون شيئاً من الثواب .

ثم إنه لما ترقى فى درجة الحقيقة أقره ولم ينكر عليه ليعلم قومه بمرتبة الكمال فإن ظاهر الشريعة لا يبيح لنا خرق سفينة غيرنا بغير إذنه إذا خفنا أن يغصبها منه ظالم ولا قتل غلام إن خفنا أن يرهق أبويه طغياناً وكفراً فى المستقبل .

وكذلك القول فى الجدار ، فلولا أن موسى عليه الصلاة والسلام علم أن ما فعله الخضر له وجه فى الشريعة وإلا كان دام على إنكاره عليه وكان لا يقبل للخضر عذراً .

فتأمل فى هذا المبحث فإنك لا تجده فى كتاب والحمد لله رب العالمين .

بيان نبذة صالحة من مصطلح القوم من حيث أخذهم بالعزائم دون الرخص ذكرناه هنا ليطلع عليه من يطالع هذا الكتاب قبل الخوض فيه بغير علم ، فربما بادر من لا يعرف مصطلحهم إلى الإنكار عليهم بغير علم

قال الله تعالى : « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتيهم تأويله » .

وقال تعالى : « وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم » .

وليكون على علم كل من طالع فى هذا الكتاب أن طريق القوم محرره على الكتاب والسنة تحرير الذهب والجوهر كما مر أوائل الكتاب .

ولكن سبب مبادرة بعض المجادلين إلى الإنكار بعدهم عن مخالطة أهل الله عز وجل ، وإقبالهم على العلوم المتعلقة بالأحكام الظاهرة دون العلوم المتعلقة بأمراض القلوب ودوائها ، حتى لا تكاد تجد أحداً من طلبة العلم يتطلبها ، خلاف ما كان عليه السلف الصالح ممن أدركناهم كشيخ الإسلام زكريا وشيخ الإسلام برهان الدين بن أبي شريف[1] والشيخ شمس الدين السمانودى والشيخ جلال الدين بن قاسم المالكى[2] .

وكانوا لا يقرءون أحداً العلم إلا أن رأوا نيته صالحة فى طلبه .

وكان الشيخ شمس الدين السمانودى يسأل الطالب ماذا تريد بالاشتغال بالعلم ؟ فإن قال له : أريد أتولى القضاء يكف عن تعليمه ويقول له : إذهب فاقرأ على غيرى .

---

(١) هو الشيخ برهان الدين بن أبي الشريف الشافعى رضى الله عنه : كان شيخاً للإسلام وكان عالما ورعا زاهدا عابدا ، متمكنا فى علوم الظاهر والباطن .

(٢) هو شيخ الإسلام الشيخ جلال الدين بن القاسم المالكى رضى الله عنه .
كان كثير المراقبة لله فى أحواله ، وكانت أوقاته كلها معمورة بذكر الله عز وجل .
وكان يحفظ مدونة الامام مالك وشرح مذهبه عن ظهر قلب .
وقد شرح مختصر خليل ورسالة أبى زيد القيروانى فى الفقه المالكى .

وهذا أمر قد أغفله غالب أهل هذا الزمان الآن لأمور يطول شرحها .

ومعلوم أن كل علم أو عمل لا يبتغي به صاحبه وجه الله أى مرضاته فهو مضمحل .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول : جميع ما ورد فى ثواب الأعمال إنما هو فى حق المخلصين فيها .

وأما غير المخلصين فقد توعدهم الشارع ﷺ بالنار . فمن زعم أن له ثوابا فى علمه أو عمله الذى دخلته النية الفاسدة فقد افترى على الله الكذب ومثاله مثل التجار الذين يبيعون بالفلوس طول عامهم ثم ينادى عليها السلطان بابطالها .

فلا تسأل يا أخى عما يقع لهم من شدة الندم .

فهذا مثال من يقصد بعلمه وعمله غير الله إذا ظهر له فساد نيته يوم القيامة انتهى .

إذا علمت ذلك فأقول وبالله التوفيق : من مصطلح القوم الذى ربما بادر المجادل إلى إنكاره أخذهم العهد على المريد بتركه للمباح .

ويقول المجادل : كيف يأخذ هؤلاء العهد بترك المباح الذى جعله الشارع مباحاً ويخرجونه عن حكمه إلى حكم المنهيات ؟ انتهى .

وهو إنكار بغير علم ، لأن جميع مشايخ الطريق إنما هم معدون لترقية المريدين إلى المقامات العالية .

ومعلوم أن المباح من حيث هو مباح لا ترقى فيه لأحد لأنه حظ النفس تتنفس فيه من مشقة التكاليف وحصول الملل من الطاعات .

ومن شأن النفس أنها تحب كل حالة لا تكون فيها تحت حكم أمر ولا نهى .

وفى المثل السائر يشيب العبد وفى خاطره أن يهرب من تحت حكم سيده هربة يكون فيها مطلق العنان لا تحجير عليه[1] .

---

(١) فيكون تركهم المباح هو بمحض إرادتهم فلا يشعرون بالاجبار الذى تكرهه النفس .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول : ما جعل الله تعالى المباح إلا تنفيساً لبنى آدم من مشقة التكاليف حين ركب الله تعالى فى ذواتهم الملل من التكاليف .

ولو أن الله تعالى لم يركب فى ذواتهم الملل لم يشرع لهم المباح كما فعل بالملائكة لأنهم لا يعرفون الملل طعماً فلذلك كانوا يسبحون الليل والنهار لا يفترون .

قال : ولما كان القوم من شأنهم الأخذ بالعزائم دون الرخص طلباً للترقى كما هو معلوم من أحوالهم طلبوا من المريدين العمل على تقليل المباحات جهدهم ويجعلون مكان ذلك طاعة يثابون عليها .

فإن لم يجدوا طاعة نووا بالمباح خيراً من أكل وكلام ونحو ذلك . كالتقوى على العبادات بأكل تلك الشهوة أو زوال العبوسة بمباسطة إخوانهم ببعض كلام ، ونحو ذلك .

وقد أجمعوا على أن كل من مهد لنفسه ارتكاب الرخص دون العزائم لا يجىء منه شىء فى الطريق .

وسمعت سيدى على المرصفى رحمه الله يقول : لا يصح لمريد قدم فى الإرادة حتى يترك فعل المباحات ويجعل مكان كل مباح تركه مأموراً شرعياً من مندوب أو أولى ويجتنب المباح كأنه منهى عنه كراهة تنزيه ويجتنب المكروه كأنه حرام .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول : لايبلغ المريد مقام الصدق حتى يزيد فى تعظيم أمر الله ونهيه فيفعل المندوب كأنه واجب ويجتنب المكروه كأنه حرام ويجتنب الحرام كأنه كفر وينوى بجميع المباحات خيراً ليثاب علي ذلك فينوى بالنوم فى القيلولة التقوي على قيام الليل ويتناول بعض الشهوات للمداواة لنفسه إذا نفرت من العبادات بالكلية فإن لسان حال النفس يقول لصاحبها : كن معى فى بعض أغراضى وإلا صرعتك .

وفى الحديث مرفوعاً : « المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » .

والمراد بالمنبت : هو الذى حمل دابته فوق طاقتها فى السفر حتى رقدت فلا هو قطع الأرض ولا هو أبقى معها قوة يسير بها .

وكذلك ينوى بلباس الثياب الفاخرة إظهار نعمة الله عليه دون الحظوظ النفسانية .
وكذلك يأكل اللذيذ من الطعام والبارد الحلو من الشراب لأجل استجابة أعضائه بشكر الله تعالى بعزم .

وقد كان الشيخ أبو الحسن الشاذلى رحمه الله يقول لأصحابه : كلوا من أطيب الطعام واشربوا من ألذ الشراب وناموا على أوطأ الفراش والبسوا ألين الثياب فإن أحدكم إذا فعل ذلك وقال الحمد لله يستجيب كل عضوا فيه للشكر بخلاف ما إذا أكل خبز الشعير بالملح ولبس العباة ونام على الأرض وشرب الماء المالح السخن وقال : الحمد لله : فإنه يقول ذلك وعنده اشمئزاز وبعض سخط على مقدور الله عز وجل .

ولو أنه نظر بعين البصيرة لوجد الاشمئزاز والسخط الذى عنده يرجح فى الإثم على من تمتع بالدنيا بيقين ، فإن المستمتع بالدنيا فعل ما أباحه الله .
ومن كان عنده اشمئزاز وسخط فقد فعل ما حرم الله .

وسمعت سيدى على الشاذلى رحمه الله ربيب الشيخ أبى المواهب يقول : طريقنا إظهار النعمة فى الملبوس وغيره دون التقشف لما فيه من رائحة عدم انشراح النفس به ، فثياب أحدنا كثياب الأغنياء وقلبه من أفقر الخلق إلى الله تعالى . فلا يكاد أحد ينسبه إلى الفقر لما هو عليه من الفخامة وأكل الأطعمة الفاخرة .

وقد كان سيدى إبراهيم المواهبي رضى الله عنه إذا أتاه دينار مثلا يشترى به لحماً ويطبخ ذلك اليوم ويدعو إخوانه فيأكلون ، فربما حضر أحد معهم فرأى طعامه أوسع من طعام التجار فيبسط لسانه فيه بغير حق ، والحال أنه أطيب نفساً وأخرج من صاحب خرقة وفى الحديث : المعونة من الله تأتى على قدر المؤنة[1] .

---

(١) وفى الحديث : عن أبى هريرة رضى الله عنه : قال : قال رسول الله ﷺ مامن يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما ، اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا .

فربما أنت مثل هذا المعونة من الله السنة المتوالية لكونه يطعم الناس بكل ما دخل له بكل يوم بيومه لا يبيت على دينار ولا درهم .

وكان سيدى محمد بن عنان رحمه الله يقول : لا يكمل الفقير حتى يكثر من الطاعات بحيث لا يجده ساعة فى ليل أو نهار إلا وهو فى واجب وما ألحق به من المندوب والأولى أو فى اجتناب حرام وما ألحق به من المكروه وخلاف الأولى .

وسمعته مرة أخرى يقول : من شرط الصادق من الفقراء أن لا تجده فى غفلة عن عبادة ربه ، فإن سكنت جوارحه تحرك قلبه ، فلم يزل فى عبادة ظاهرة وباطنة .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : يحتاج صاحب المباح أن يكون له عدة أعين : عين ينظر بها أنه من صدقات الحق تعالى عليه فيشكره على ذلك ، وعين ينظر بها إلى أنه يكون استدراجاً وحبالة للمكر الإلهى به فى هذه الدار فيخاف من فعله ، وعين ينظر بها إلى رؤية كونه استدراجاً وحبالة المكر من باب سوء الظن بالله عز وجل فيستغفر منه ، وعين ينظر بها إلى أن المباح من جملة ما أختص به الحق جل وعلا فإنه هو الذى يفعل ما يشاء ولا يدخل تحت التحجير .

وأما العبد فشرفه كونه تحت تحجير سيده إما فى فعل مأمور به أو فى اجتناب منهى عنه .

وقد درج السلف الصالح كلهم على الخوف من المباح لكونها حالة يكون العبد فيها مع نفسه لا مع ربه غالباً فيكون كالبهيمة السارحة انتهى .

فاعلم ذلك وتأمله فإنك لا تجده فى كتاب .

وبعد أن علمت أن للقوم أخذ العهد على المريد بترك المباح لكونه لا ترقى فيه علمت من باب أولى أن لهم كذلك أخذ العهد على المريد أو فعل ما سكت عنه الشارع ﷺ ولم يصرح فيه بحل ولا إباحة ، لأن الشارع قد أمنهم على شريعته بعده ، وجعلهم نواباً عنه فى إرشادات الأمة ، فكثيراً ما ينهون المريد عن المباح تنزيهاً كما نهى رسول الله

ﷺ فاطمة رضى الله عنها عن لبس الحرير والتحلى بالذهب تنزيهاً من حيث أن ذلك من زينة الدنيا الفانية وقال لها : يا فاطمة من لبس الحرير والذهب فى الدنيا لم يلبسهما فى الآخرة[١] مع أنه ﷺ صرح فى الأحاديث الصحيحة بحل الذهب والحرير لأناث أمته.

وكما نهى ﷺ عائشة رضى الله عنها عن الأكل فى يوم واحد مرتين وقال لها : يا عائشة أكلتان فى نهار واحد سرف والله لا يحب المسرفين .

مع أنه ﷺ أباح لأمته الجمع بين الغداء والعشاء فى اليوم الواحد كثيراً .

وممن بلغنا أنه كان يأخذ بالتشديد من الصحابة عبد الله بن عباس وأبو ذر رضى الله عنهم فشدد عبد الله بن عباس[٢] على نفسه لما نزل الماء فى عينيه وقال له الأطباء : إن تركت السجود أمكننا مداواتك فاختار العمى على ترك السجود مع أنه لو أومأ بالسجود لكان ذلك كافياً له .

وحرم أبو ذر[٣] الادخار للقوات مع علمه بأن رسول الله ﷺ أدخر قوت عامهم . وتبعهما أشياخ الطريق على ذلك التشديد فى حق أنفسهم وفى حق تلامذتهم فآخذوا المريد بأكله الشهوات المباحة لكونها توقفه عن الترقى .

وآخذوه بالنوم من غير ضرورة وبالأكل من غير جوع وبالكلام من غير حاجة

---

(١) وفى الحديث : عن حذيفة رضى الله عنه قال : إن النبي ﷺ نهانا عن الحرير والديباج والشرب فى آنية الذهب والفضة . وقال : هن لهم فى الدنيا وهى لكم فى الآخرة متفق عليه .

(٢) هو الصحابى الجليل (عبد الله بن عباس) وكان يطلق عليه (حبر الأمة) لشدة علمه وفضله وجهاده فى سبيل الحق ، ويؤثر عنه كثير من الأحاديث عن سيدى رسول الله ﷺ وله تفاسير مشهورة لآيات القرآن الكريم يظهر فيها العلم والذكاء وسعة الافق .

(٣) هو الصحابى الجليل أبو ذر الغفارى : قال عنه سيدى رسول الله ﷺ : رحم الله أبو ذر يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويبعث يوم القيامه وحده .
وكان زاهداً عفيفا يقول كلمة الحق ولا يخشى فى الله لومة لائم .

و بمخالطة الناس إلا لضرورة فأرادوا أن يثاب مريدهم ثواب الواجبات فى سائر أحواله .

فيأكل حين يجب عليه الأكل ويتكلم حين يجب عليه الكلام ، مثلا فإن نزل عن ذلك فلا ينزل عن الاستحباب فيأكل حين يستحب الأكل ويتكلم حين يستحب الكلام .

وكذلك آخذوا المريد بالنسيان وبالاحتلام وبمد الرجل فى ليل أو نهار إلا لحاجة . وآخذوه بالخواطر ولو لم تستقر وغير ذلك مما هو مذكور فى كتبهم كرسالة القشيرى وعوارف المعارف ونحوهما .

ومما استدلوا به على مؤاخذتهم المريد بأكل الشهوات المباحة كون الحق جل وعلا نعى على الكفار شهواتهم بقوله : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون الآية » وقالوا : ما نعاه الله على أهل النار وأدخلهم إليها بسببه فنحن أولى بتركه والتباعد عنه .

ويؤيد ذلك ما قاله ابن مسعود[1] رضى الله عنه فى تفسير قوله تعالى : « فسوف يلقون غيا » قال : هو واد فى جهنم يقذف فيه الذين يتبعون الشهوات .

وفى زبور داود عليه الصلاة والسلام : يا داود حذر وأنذر قومك أكل الشهوات فإن قلوب أهل الشهوات غير محجوبة وكما أن أكل الشهوات يطرد العبد عن حضرة الله عز وجل فكذلك مد المريد رجله من غير حاجة بجامع سوء الأدب[2] .

ومما اشتدوا إليه فى مؤاخذة المريد بالنسيان : كون المريد لا يقع فى النسيان إلا لتساهله

---

(١) هو الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود : كانت له صحبة طويلة بالرسول ﷺ واشتهر بأنه أحد القراء الكبار للقرآن الكريم . وكان من الصحابة الذين أدلوا بنصيبهم فى كثير من أمور الفقه والتفسير والحديث .

(٢) إذا كان يريد للترفع والتكبر ، وأيضا كون العبد بين يدى الله عز وجل .

في المقدمات ، بدليل أن الإنسان لما تتوجه همته إلى تحصيل أمر يصير لا يكاد يأخذه نوم بل ينام يحلم بذلك طول لياته .

ويؤيد ذلك قول علمائنا في التيمم : إذا نسى الماء في رحله أو أضله فيه وفتش عليه فلم يجده فتيمم أنه يقضى في الأظهر ونسبوه إلى التقصير في نسيانه أو اضلاله .

وكذلك يؤيده قولهم أيضاً : ولو صلى بنجس كان علمه ثم نسيه وجب القضاء على المذهب . وقالوا : لو أتلف إنسان مال إنسان أو أكل طعامه نسياناً وجب عليه ضمانه والنظائر في ذلك كثيرة . مع أن قاعدة الشريعة التي أتى بها الشارع رفع حكم الخطأ والنسيان والإكراه عن الأمه إلا فيما استثنى .

وأجابوا عن حديث : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان والأمر يستكرهون عليه[1] » بأن المراد رفع الإثم لا رفع الضمان .

والعلماء رضى الله عنهم أمناء الرسل على الشرائع والناس لهم تبع .

وذكر الشيخ محي الدين بن العربي في الفتوحات المكية ما نصه : إنما آخذ القوم المريد بالنسيان ، لأن مبنى طريقهم على الحضور الدائم مع الله تعالى ، والنسيان فيها نادر ، والنادر لا حكم له . مع أن قاعدة الشريعة رفع حكم النسيان عن الأمة إلا ما استثناه العلماء من ذلك لتذكرك ما نسيته من الصلاة وأركانها انتهى .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : نسيان الأكابر تشريع لقومهم كما ... ر إلية خبر : إنما أنسى ليستن بي ليتسنن[2] .

وأما نسيان الأصاغر فقد يكون للتساهل في ذلك الأمر ، وقد يكون لغيره ، قال : ويتأمل من يعتذر من المريدين عن النسيان ، وأنه لم ينس ذلك الأمر استهانة به لو أن

(١) وتمام الحديث : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهو عليه » رواه الطبراني في الكبير عن ثوبان .

(٢) وفي الحديث « إنما أنا بشر أنس كما تنسون ، فإذا نسى أحدكم فليسجد سجدتين وهو جالس » رواه الإمام أحمد في مسنده .

شخصاً من الأكابر الصادقين وعده بألف دينار إن قام تلك الليلة للتهجد ، وإن لم يقم لم يعطه شيئاً : كيف يصير يحدث نفسه بذلك فى نومه ويقظته ؟ وإن خاف استغراقه فى النوم أوصى من يوقظه ولو بأجرة ، كل ذلك حرصاً على الدنيا الفانية ولا شك ولا خفاء أن ما وعد الله تعالى به قائم الليل من الأجر والثواب أفضل . بل كل ذرة منه لا يقاومه ملك الدنيا كلها لأن كل مافيه مرضاة الله لا يقابل بالإغراض الدنيوية وكم فات النائم من الغنائم وكأن غرض القوم من رياضة المريد والتضييق عليه : أن يحولوا قلبه إلى محبة الله والدار الآخرة ، ويقلب تلك الداعية التى عنده للدنيا إلى مرضاة الله عز وجل .

وكما أنه يعطى الأجرة لمن يوقظه للتهجد مثلا لأجل الألف دينار : كذلك من باب أولى أن يعطى الأجرة لمن يوقظه ليناجى ربه عز وجل بارتفاع الوسائط وتبارز بذلك النعيم الذى لا يقاومه نعيم فى الدارين . فإن قال قائل : فما حكم من يقدم أعمال الدنيا على أعمال الآخرة فى اليقظة ؟ فالجواب : أن هذا لم يصح له قدم فى محبة الآخرة ، فلا يجىء منه شىء فى بدايات الطريق فضلا عن نهاياتها .

وقد سمعت سيدى محمد المغربى الشاذلى رحمه الله يقول : لا يصح لمريد عندنا قدم فى طريق الله عز وجل إلا بعد أن يزهد فى شهوات الدارين ونعيمها ، وهناك أول سيره فإن الناس ثلاثة أقسام : عوام وخواص وخواص الخواص فالعوام هو كل من يصبح والدنيا أكبر همه ، فلا يلتفت لورد بعد الصبح ولا غيره ، والخواص من يقدم أعمال الآخرة على الدنيا طلباً للثواب الذى وعده الله به ، وخواص الخواص من يعمل لله امتثالا لأمره لا خوفاً من عذابه ولا طمعاً فى ثوابه انتهى .

ومما استندوا إليه فى مؤاخذتهم المريد بالاحتلام كون الاحتلام لا يقع من مريد إلا بعد إطلاقه بصره فى النظر لما لا يحل له والتفكر فيه ، وإن وقع الاحتلام فى حلاله فلا بد له كذلك من إطلاق البصر إليهن والتفكر فى كيفيه الاستمتاع بهن . ثم إن إبليس إذا رآه متفكراً فى ذلك وحيل بينه وبين شهوته أتاه بذلك الذى تعلق خاطره به فى

النوم ليسخر به ويمنعه من الصلاة وتلاوة القرآن حتى يصح له التطهر وربما منعه من ذلك الليلة كلها لكونه احتلم بعيد العشاء ولم يجد ما يتطهر به أو ما يصلح أن يتطهر به . فعلم أن كل من لا يطلق بصره لا يقع منه احتلام .

وكذلك لم يبلغنا أن أحداً من الأنبياء احتلم . وكذلك من حفظ من الأولياء وذلك لعصمة الأنبياء وحفظ الأولياء من أن يلعب بهم الشيطان فى يقظة أو منام ، لكن لا يخفى أن لعبه بالمريدين فى النوم أخف من لعبه بهم فى اليقظة ، فينبغى لهم شكر الله على ذلك فافهم .

ثم إن قدر أنه وقع من أحد الأولياء احتلام فإنما يكون ذلك فى حليلته دون ما يحل له . وسبب ذلك ما يتجلى لقلوبهم من عظمة الله عز وجل ، فيذهلون عن تدبير أبدانهم . وقد وقع أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه احتلم مرة فى جارية له فاغتسل وقال: لقد ابتلينا بهذا الأمر منذ ولينا أمر المسلمين واشتغلنا بمصالحهم انتهى .

وذكر سيدى على الخواص رضى الله عنه : أن سيدى إبراهيم المتبولى لم يحتلم قط إلى أن مات بعد مائة وسبع سنين ، وكان يقول : من زعم أنه تاب من الزنا ثم احتلم بعد ذلك فيما لا يحل له فهو دليل على عدم توبته النصوح . إذ من شرط التوبة النصوح أن لا يصير فى قلبه حلاوة لتلك المعصية التى تاب منها واحتلامه يدل على بقاء حلاوة تلك المعصية فى قلبه . فلولا وجود تلك الحلاوة فى قلبه لما تفكر ولا احتلم انتهى .

ومما استندوا إليه فى مؤاخذتهم المريد بمد رجله بغير حاجة فى ليل أو نهار : كون العبد دائما بين يدى الله عز وجل إيماناً أو شهوداً شعر بذلك أم لم يشعر فطالبوا من المريد أن يواظب على عدم مد رجله بغير حاجة بحكم الإيمان بأنه بين يدى الله عز وجل حتى ينكشف عنه الحجاب بعد انتهاء سلوكه ويصير حجاب إيمانه كلا حجاب ، وهناك يكون دخول النار عليه أو ضربه بالسيف أهون عليه من مد رجله بغير حاجة .

وقد بلغنا عن السيد إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه أنه مد رجله فى ليلة بغير حاجة فسمع هاتفاً فى الحال يقول : يا إبراهيم تأدب فإنك بين يدى ربك جالس وما هكذا أحد يجالس الملوك . فقال : فما مد إبراهيم بعد ذلك رجله فى ليل أو نهار حتى مات انتهى .

وقد أخبرنى أخى أفضل الدين رحمه الله : إنه وقع له فى بدايته رقة حجاب[١] فصار يرى نفسه بين يدى الله لا يتحجب ذلك عنه قال : فصرت لا أنجوا[٢] أن أدخل الخلا ولا أكشف لى عورة عند الاستنجاء ولا يخرج لى بول ولا غائط من شدة الحياء من الله تعالى فما كنت إلا هلكت[٣] . ثم إنى استغثت بالله عز وجل أن يسدل على الحجاب فأسدله علي رحمة بى . وكان رحمه الله بعد ذلك يقول : لولا أن الله تعالى حجب الخلق عن شهوده لما وقع أحد فى معصية ولكادوا يموتون كلهم من هيبته تعالى نحو يوم واحد انتهى .

وسمعت شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول إنما آخذ الفقراء المريد بتهمة الخلق له بالسرقة مثلا — وإن كان الشرع يقضى بعدم المؤاخذة على ذلك — لأنهم إنما آخذوه بتعاطى مقدمات التهاون بحقوق الناس فما آخذوه إلا بأمر محقق وقع منه ولو أنه خاف من حقوق الناس وتكرر منه ذلك لشهد الناس ببراءته وكذبوا من اتهمه انتهى.

فعلم من جميع ما قررناه إن طريق القوم كلها أدب وخير وأنها أجل الطرق ، خلاف ما يظنه بعض الأجلاف « الذين كشف حجابهم فالله تعالى يتفضل عليهم بالعفو »[٤] .

فإن الطعن فى طريق أهل الله طعن فى أخلاق الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين.

وقد قدمنا عن أبى تراب النخشبي رضى الله عنه أنه كان يقول : إذا ألف القلب

---

(١) حال من أحوال الكشف ورفع الحجاب .
(٢) لا يستطيع دخول الخلاء .
(٣) كاد أن يهلك .
(٤) عبارة فى مدح الصوفية .

الإعراض عن الله صحبته الوقيعة فى أولياء الله ، أى لأنه لا يحترم جلساء الملك إلا من أقبل على الله ودخل حضرته من المتطهرين من الأدناس .

أما المتلطخون بشىء من المعاصى الظاهرة أو الباطنة من حسد ، وكبر ، وعجب ، ونفاق ، ورياء ، وحقد ، ومكر ، وحرص على الدنيا ، فلا يمكن الملائكة أحداً منهم يدخل حضرة الله أبداً .

ومعلوم أن أهل حضرة الله عز وجل ثلاثة أصناف : أنبياء وملائكة وأولياء .

وليس أحد من هؤلاء يحب الدنيا ويقع فى الحرص عليها أبداً وإن وقع من أحد من الأولياء شىء من ذلك فهو قبل كماله أو بعده ويتوب منه على الفور ليدخل حضرة الله تعالى التى هى قوت قلوبهم .

وقد انعقد إجماع أهل الله قاطبة على أن المعاصى الباطنة كالنجاسة الظاهرة على حد سواء فكما لا يصح صلاة من فى ثوبه أو بدنه نجاسة : كذلك لا تصح صلاة من فى قلبه نجاسة إلا ما عفى عنه العلماء فى دولة[1] الظاهر والباطن ليسير كبر أو عجب قياساً على يسير دخان نجاسة أو غبار زبل .

لكن هذا العفو إنما هو فى حق العوام من أهل الطريق .

أما الخواص فلا يسامحون نفوسهم بمثل ذلك كما لا يسامحونها فى ارتكابها المكروه أو خلاف الأولى .

فالكامل من طابق بين الظاهر والباطن فى التطهير من الأدناس .

وسيأتى فى الكتاب أن الشيخ أبا الربيع المالقى رحمه الله سمع تلميذه الشيخ الكامل أبا عبد الله القرشى يقول : اللهم لا تفضحنى بسريرتى على رءوس الخلائق فى الدنيا أو الآخرة .

فقال له : ولأى شىء تجعل لك سريرة تفتضح بها لم لا تطهر سريرتك كما تطهر ظاهرك

(١) فى دولة .

لتطابق بين باطنك وظاهرك وتخرج عن صفة المنافقين انتهى .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول كثيراً : قد أجمع المحققون من أهل الله عز وجل على أن حضرة الله محرم دخولها على من بقى عليه بقية من ارتكاب المحظورات إلا بقدر ما يعفى عنه من النجاسة الظاهرة .

فكما أجمعوا على أن من صلى وفى ثوبه أو بدنه نجاسة لا يعفى عنها أو ترك لمعة من غسل أعضاء طهارته لا تصح له صلاة وكذلك من صلى وفى باطنه صفة تخفيه[1] بل النجاسة الباطنة عندهم أولى بالبطلان لأن القلب محل نظر الله تعالى من العبد .

وكان رضى الله عنه يقول : من صلى وفى قلبه غل ، أو مكر أو حقد ، أو محبة الدنيا فينبغى له إعادة تلك الصلاة لأن أهل الله لا يعتدون بمثل هذه الصلاة لأنهم يشهدون أن تلطخ باطنهم بشىء من المعاصى الباطنة لتضمخهم بالنجاسة الظاهرة على حد سواء فلا يسقط عنهم الفرض فهى صلاة صورية لا حقيقية .

ولكن لما كان مبنى أحكام العامة على ظاهر الشريعة رحمة بهم حكمنا بصحة صلاتهم فى الظاهر وحسناتهم على الله تعالى بخلاف مبنى طريق القوم فإن مبناها على مطابقة الظاهر للباطن فى الدنيا والآخرة فإنهم قد خرقوا ببصرهم إلى الدار الآخرة ورأوا بنور الكشف الأعمال التى تقبل هناك والأعمال التى لا تقبل حتى كأنه رأى عين لهم من هذه الدار . ولكل مقام رجال .

فإن قال قائل : ما مرادكم بحضرة الله تعالى التى يمنع من دخولها من تلطخ بنجاسة ظاهرة أو باطنة ؟ فالجواب : المراد بحضرة الله تعالى حيث أطلقت بين القوم هى شهود العبد أنه بين يدى ربه عز وجل وبصير تعالى يراه ، فما دام يشهد ذلك فهو فى حضرة الله فإذا حجب عن هذا الشهود خرج من الحضرة سواء كان فى الصلاة أم خارجها .

وإذا خرج من الحضرة بطلت صلاته ، لأن من شروط صحة الصلاة عند أهل الله عز

(١) صفة مخفية .

وجل دوام الحضور معه تعالى من حين يحرم بها إلى أن يسلم منها قال : وهذه هى حضرة الإحسان المشار إليها بحديث : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك[١] » .

كما مر تقديره مراراً .

فعلم أن دخول هذه الحضرة إنما هو بالقلوب والأجسام تبع لها ، وعلم أيضاً أن من لم يتطهر من النجاسات الظاهرة والباطنة لا يقدر على دوام استحضاره أنه بين يدى الله تعالى أبدا ولو قدر أنه تكلف ذلك زهقت روحه من تلك الحضرة وخرجت قهراً عليه بواسطة الملائكة الواقفين فى تلك الحضرة يعلمون الناس الأدب مع الله ، فلا يمكنون أحداً يشهده تعالى وهو متلطخ بحدث ظاهر أو باطن غيرة على جناب الحق جل وعلا ، بل لو خالف ولحظ جمال نور الحق تعالى فى تلك الحضرة من غير علم الملائكة مثلا احترق بشهاب من شهب الحضرة . أو طرد منها لو بقى جسمه كما يطرد الشياطين حين ترمى بالشهب من السماء ، فلهذا تسارع أهل[٢] تعالى إلى تطهير قلوبهم ولم يعبأوا بطهارة ظاهرهم فقط دون باطنهم بل طهروا باطنهم من كل صفة نهاهم الشرع عنها ولو تنزيهاً ، حتى أن منهم من دخله عمل على عدم خطور معصية على قلبه السنه والسنتين .

وكان الشيخ سليمان الديلمى رضى الله عنه يقول لى : منذ خمسين سنة ما أظن أنى ملت إلى معصية ظاهرة ولا باطنة انتهى .

وذلك لأن العبد ما دام عنده ميل إلى المعاصى فهى تخطر على قلبه ضرورة .

فإذا لم يكن عنده ميل ذهب الخطور ضرورة كما هو مقـــام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ثم من ثمرة تطهير العبد من المعاصى الباطنة عدم وقوعه بعد ذلك فى سوء الظن بأحد من المسلمين ، قياساً على نفسه هو فإن كل صفة لم يتطهر العبد منها فمن لازمه

---

(١) ذكرنا الحديث بالكامل فيما سبق .
(٢) أهل الله .

سوء الظن بالناس غالباً إذ لو تطهر منها لم يبق عنده تصور لها .

وقد سمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول مراراً : لا يكمل العبد حتى يصل إلى مقام لا تخطر الفحشاء فيه على قلبه . قال : ومن هنا أجمع الأشياخ على أنه لا يشترط فى الشيخ أن يكون يطلع على معاصى المريد الباطنة حتى يكاشفه بها . بل أوجبوا على المريد أن يذكر هو أمراضه للشيخ ولا يحوجه إلى المكاشفة بها ، وأن قدر أن أحداً من الكمل أخبر مريده بشىء من عيوبه الباطنة فليس ذلك من باب قياس الشيخ المريد على نفسه وإنما ذلك من باب الإلهام إلى الله تعالى بواسطة صدق المريد فى الطريق فافهم .

وسمعت سيدى عليا المرصفى رحمه الله يقول : محل حسن الظن بالناس إنما هو فى الأعمال التى يحتمل الخير والشر من الأعمال القلبية المتعلقة بالنيات ، أما الأقوال التى صرح الشارع بتحريمها فلا يجوز لمؤمن أن يحمل صاحبها على محمل حسن كشرب الخمر والأكل من الحرام فافهم .

وقد أجمع علماء الشريعة وعلماء الحقيقة على وجوب مجاهدة النفس الأبية حتى تنقاد لما يأمرها به أهل الله تعالى وينهونها عنه مما يمنع صاحبه دخول حضرة الله عز وجل ، ويصير يؤدى المأمورات من غير خلل فيها ظاهراً وباطناً بحسب مقامه ، ولا يصح له ذلك إلا بأحد شيئين : إما جذب إلهى من الله تعالى بلا واسطة شيخ أو بواسطة شيخ قد تضلع من علوم الشريعة والحقيقة ، وهذا من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

وسمعته رضى الله عنه يقول أيضاً : قد أجمع العلماء كلهم على وجوب علاج أمراض الباطن حتى تخمد حركتها عن الاستعمال .

وأما زوالها فلا يصح إلا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأن الحق تعالى قد طهر طينتهم عن الأكدار بسابق العناية لا بعمل عملوه ولا بخير قدموه .

وقد أنشد سيدى على بن وفاء فى حق الأنبياء رحمه الله عليهم الصلاة والسلام وقال :

عبادك يا مولى الموالى الذين هم   عبادك محفوظون حفظ الحبايب
من الذر لم يظهر بصافى ذواتهم   سوى نورك الماحى لجنح الغياهب

مياه صفت ذاتاً ومجرا ومنبعاً وصينت عن الأكدار من كل جانب. انتهى

وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله يقول : قد جعل الله تعالى فى طينة بنى آدم سائر الأضداد لجميع الصفات الحسنة والقبيحة تشرق وتغرب فى ذاتهم ، ولكن ما دامت العناية الربانية تحف العبد لجميع الصفات القبيحة خامدة متعطلة عن الاستعمال فإذا تخلفت عنه العناية تحركت للاستعمال وجمدت صفاته الحسنة ، ولذلك قال الله تعالى فى حق جميع الخلق ما عدا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ، لم يقل تعالى ومن يزول شح نفسه بل أبقى الشح فيها إلا أن العبد يوق العمل به بعناية الله عز وجل انتهى .

وسيأتى بسط ذلك فى الأخلاق إن شاء الله تعالى والحمد لله رب العالمين ، وليكن ذلك آخر المقدمة .

ولنشرع بعون الله فى أخلاق رسول الله ﷺ الذى أخذها سيدى إبراهيم المتبولى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ من طريق الكشف مصدّرين ذلك بنبذة من أخلاقه ﷺ الثابتة من طريق النقل الظاهر استئناساً وتبركاً وتعطيراً للأكوان ، فأقول بالله التوفيق .

الباب الأول

الباب الأول

في ذكر جملة من الأخلاق

كان رسول الله ﷺ، أورع الناس[1]، وأزهد الناس[2]، وأعف الناس[3]،

(١) روى الإمام مسلم، عن سعد بن هشام أنه قال: قلت لعائشة رضى الله عنها: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى! قالت: فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن. قال: فهممت أن أقوم ولا أسأل أحداً عن شيء حتى أموت، ثم بدا لي فقلت: أنبئني عن قيام رسول الله ﷺ؟ فقالت: ألست تقرأ «يا أيها المزمل»؟ قلت: بلى! قالت: فإن الله عز وجل افترض قيام الليل من أول هذه السورة، فقام نبي الله ﷺ وأصحابه حولا، وأمسك الله خاتمتها — أي آخر سورة المزمل — اثنى عشر شهراً في السماء، حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف — أي في قوله تعالى «فاقرؤا ما تيسر منه» فصار قيام الليل تطوعا بعد فريضة.

(٢) روى الطبراني بإسناد حسن عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ ذات يوم وجبريل عليه السلام على الصفا، فقال رسول الله ﷺ: «يا جبريل والذى بعثك بالحق ما آسى لآل محمد سفة من دقيق، ولا كف من سويق».

فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هده من السماء أفزعته، فقال رسول الله ﷺ: «أمر الله القيامة أن تقوم؟» فقال — جبريل — لا، ولكن أمر إسرافيل فنزل إليك حين سمع كلامك، فأتاه إسرافيل، فقال: إن الله تعالى سمع ما ذكرت، فبعثني إليك بمفاتيح خزائن الأرض، وأمرني أن أعرض عليك أن أسير معك جبال تهامة زمرداً، وياقوتاً وذهباً وفضة! فإن شئت نبياً ملكاً، وإن شئت نبياً عبداً؟ فأومأ إليه جبريل أن تواضع، فقال ﷺ: «بل نبياً عبدا» ثلاثا.

وقد ورد ما يشابهه في ترغيب المنذرى وقال: رواه البيهقي في الزهد وغيره، قال: ورواه ابن حبان في صحيحه مختصراً من حديث أبي هريرة.

(٣) روى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال: لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً، وكان يقول «إن خياركم أحاسنكم أخلاقاً».

وأعلم الناس[١] ، وأكرم الناس[٢] ، وأحلم الناس[٣] ، وأعبد الناس[٤] . وأبعدهم عن مواطن الريب ، لم يمس بيده يد امرأة اجنبية قط تشريعاً لأمته واحتياطاً لهم[٥]

---

(١) وفى الصحيحين — واللفظ — عن أنس رضى الله عنه : أن الناس سألوا نبى الله ﷺ حتى أحقوه بالمسألة ، فخرج ذات يوم فصعد المنبر فقال : « سلونى ، لا تسألونى عن شىء إلا بينته لكم » فلما سمع القوم أرموا أن يكون بين يدى أمر قد حضر ، فجعلت ألتفت يمينا وشمالا ، فإذا كل رجل لاف رأسه فى ثوبه يبكى ، فانشأ رجل من المسجد كان يلاقى فيدعى لغير أبيه ، فقال : يا نبى الله من أبى ؟ قال : « أبوك حذافة » . ثم أنشأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : رضينا بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد رسولا ، عائذا بالله من سوء الفتن .

فقال رسول الله ﷺ : « لم أر كاليوم قط فى الخير والشر ، إنى صورت لى الجنة والنار فرأيتهما دون هذا الحائط » .

(٢) قال أنس رضى الله عنه : كان رسول الله ﷺ أحسن الناس ، وأجود الناس ، وأشجع الناس . رواه الشيخان .

وروى مسلم عن أنس رضى الله عنه قال : ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً إلا أعطاه ، فجاء رجل — وهو صفوان بن أمية — فأعطاه غنما بين جبلين ، فرجع إلى قومه فقال : يا قوم أسلموا ، فإن محمداً يعطى عطاء من لا يخاف الفقر . وفى رواية : من لا يخشى الفقر .

(٣) جرح سيدنا رسول الله ﷺ فى غزوة أحد وشج فى جبهته الشريفة ، وكسرت رباعيته ، وسال منه الدم ، ومع ذلك رفض أن يدعوا على المشركين عندما طلب منه الصحابة ذلك وقال : « إنما لم أبعث لعانا ، ولكن بعثت داعيا ورحمة . اللهم اغفر لقومى — وفى رواية : اللهم اهد قومى — فإنهم لا يعلمون » .

(٤) روى الشيخان عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه .

وفى رواية عنها : أن نبى الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تفطرت قدماه .

وجاء فى رواية الصحيحين قالت عائشة : فقلت له : لم تصنع هذا يا رسول الله ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك ، وما تأخر ؟ قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً » .

(٥) وهذا من المؤكد لمن عصمه الله سبحانه وتعالى عن كل سوء ولا تغيب عن بالنا قصته عندما حاول شهود بعض اللهو فى مكة فعصمه الله سبحانه وتعالى من ذلك ، فكان

وكان ﷺ إذا وعظ الناس يرسل الكلام فى حق كل الناس ، ولم يكن ينص فى وعظه على أحد معين خوفاً أن يخجله بين الناس فيقول : ما بال أقوام يفعلون كذا[١] .

وكان ﷺ أقنع الناس باليسير من الدنيا ، وأيسرهم بلغة كان يكفيه اللعقة من الطعام والكف من الحشف[٢] .

وكان يستحي من الله إذا أراد دخول الخلاء ، حتى كان يتقنع بردائه من شدة حيائه ﷺ ، وكانت الأرض تبتلع ما يخرج منه ﷺ[٣] .

وكان ﷺ أشفق الناس على أمته[٤] .

وكان يقول :

اللهم لا ترنى فى أمتى سوءا . وقد فعل الحق تعالى معه ذلك ، فلم يره فى أمته سوءاً حتى توفاه الله عز وجل .

وكان ﷺ مغضاً عينيه عن رؤية زينة الدنيا ، فلم يمد عينيه إلى زينتها قط[٥] .

رسول الله ﷺ دائماً الأمين على نفسه فلم يدنسها بسوء ، والأمين على غيره فما اعتدى على أحد قط إلا فى حد من حدود الله تعالى .

(١) وهذا هو الملاحظ فى غالب أحاديث سيدى رسول الله ﷺ مثل قوله : يامعشر إياكم ـ أوصيك ـ احضروا ـ يا أيها الناس ـ نضر الله عبداً ـ استحيوا ـ يا غلام

(٢) سبق ان ذكرنا حديثاً فى زهده ﷺ واختياره أن يكون نبياً عبداً .

(٣) كان معروفاً عن الرسول ﷺ شدة الحياء من الله سبحانه فكان لا يكشف عورته على الإطلاق وقد ذكر الإمام السيوطى فى كتابه الخصائص الكبرى بعض ما يتعلق بهذا الشأن .

(٤) روى الطبرانى والبيهقى فى الدلائل عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : « إنما أنا رحمة مهداة » وعند الطبرانى : « بعثت رحمة مهداة » .

(٥) روى الترمذى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبى فقال : كن فى الدنيا كأنك غريب ، أو عابر سبيل ، وعد نفسك من أهل القبور .

وكان معصوماً من خائنة الأعين .

وكان ﷺ يستتر فى غسله من الجنابة وغيره ولم يغتسل عرياناً قط حياء من الله عز وجل ، وكان إذا طلب البراز يبعد عن الناس حتى لا يرى شخصه ﷺ[١] .

وكان ﷺ يلبس ما وجد فمرة شملة ومرة برد حبرة يمانيا ومرة جبة صوف ما وجد من المباح لبس . وكان إذا كساه أحد ثوبا لا يغيره عن هيئته من سعة أو ضيق ، ولبس مرة جبة ضيقة الكمين لا يستطيع أن يخرج يده من كمها إلا بعسر .

وكان إذا توضأ فيها أخرج يده من ذيلها ليغسلهما[٢] .

وكان ﷺ يردف خلفه عبده وصاحبه . وتارة يردف خلفه وأمامه وهو فى الوسط لكن فى الأطفال كالحسن والحسين ، وأولاد جعفر رضى الله عنهم[٣] ، ومن هنا نعلم أن محل جواز الإرداف ما إذا احتمله ذلك المركوب ، وكان ﷺ يركب ما وجد ، فمرة فرسا ، ومرة بعيرا ومرة حماراً ، ومرة بغلة ، ومرة يمشى حافياً راجلا بلا رداء ولا قلنسوة ليعود المرضى فى أقصى المدينة[٤] .

---

(١) وفى الصحيح : أنه حمل الحجر وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة فجعلهما فى إزاره فانكشف فسقط مغشيا عليه حتى استتر بإزاره .

(٢) دلالة على أنه ﷺ كان سهلا هينا لينا .

(٣) عن عبد الله بن جعفر رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا قدم من سفر تلقى بالصبيان من أهل بيته ، قال : وإنه قدم مرة من سفره فسبق بى إليه ، فحملنى بين يديه ، ثم جىء بأحد ابنى فاطمة رضى الله عنها ، إما الحسن أو الحسين ، فأردفه خلفه ، فدخلنا المدينة ثلاثة على دابة .

(٤) ورد فى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ عاد سعد بن عبادة ومعه عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهم ، فبكى رسول الله ﷺ ، فلما رأى القوم بكاء رسول الله ﷺ بكوا ، فقال : « ألا تسمعون ؟ إن الله لا يعذب بدمع العين ، ولا بحزن القلب ، ولكن يعذب بهذا أو يرحم » وأشار إلى لسانه .

وكان ﷺ يحب الطيب ويكره الرائحة الردية[١] .

وكان ﷺ يأكل مع الفقراء والمساكين والخدم . وكان يفلى للمساكين ثيابهم ورءوسهم[٢] .

وكان ﷺ يكرم أهل الفضل على اختلاف طبقاتهم ، ويتألف أهل الشرف بالإحسان إليهم[٣] .

---

(١) روى الطبرى والبيهقى عن وائل رضى الله عنه قال : لقد كنت أصافح رسول الله ﷺ أو يمس جلدى جلده ، فأتعرفه بعد فى يدى ، وإنه لأطيب رائحة من المسك .

و روى أبو نعيم والبيهقى عن عائشة رضى الله عنها قالت : كانت كف رسول الله ﷺ ألين من الحرير ، وكأن كفه كف عطار ، مسها بطيب ، أو لم يمسها ، يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحها ، ويضع يده على رأس الصغير فيعرف من بين الصبيان بريحها .

(٢) عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله » .

وعن أبى موسى — رضى الله عنه — : أنه سمع النبى ﷺ ، يقول : « لن تؤمنوا حتى تراحموا ، قالوا : يا رسول الله ، « كلنا نرحم» قال : « إنه ليس برحمه أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة العامة » .

(٣) روى البزار والطبرانى بإسناد حسن عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ : لم يكن أحد يأخذ بيده فينزع يده حتى يكون الرجل هو الذى يرسله ، ولم يكن يرى ركبتيه — أو ركبته — خارجا عن ركبة جليسه ، ولم يكن أحد يصافحه إلا أقبل عليه بوجهه ، ثم لم يصرفه عنه حتى يفرغ من كلامه .

وروى الطبرانى بإسناد حسن عن عمرو بن العاص قال : كان رسول الله ﷺ يقبل بوجهه حديثه على شر القوم ، يتألفه بذلك ، وكان يقبل بوجهه وحديثه على حتى ظننت أنى خير القوم ، فقلت : يا رسول الله أنا خير أم أبو بكر ؟ فقال : « أبو بكر» قلت : يارسول الله أنا خير أم عمر ؟ قال : « عمر » قلت : يا رسول الله أنا خير أم عثمان ؟ قال : « عثمان » .

وروى الترمذى وابن ماجه والبخارى فى الأدب المفرد عن على كرم الله وجهه قال : استأذن عمار على النبى ﷺ فعرف صوته فقال : « مرحبا بالطيب المطيب » .

وكان يكرم ذووا رحمة من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم .

وكان ﷺ لا يقطع على أحد حديثه ، ولا يجفوا على أحد بكلام ولا غيره ، ولو فعل معه ما يوجب الجفاء .

وكان ﷺ يقبل عذر المعتذر وإن كان مبطلا ويقول : « من أتاه أخوه متنصلا من ذنب فليقبل ذلك محقاً كان أو مبطلا ، فإن لم يفعل لم يرد على الحوض [١] » .

وكان ﷺ يمزح مع النساء والصبيان [٢] ولا يقول إلا حقاً لقوله للعجز وهو مبتسم : « لا يدخل الجنة عجوز أى لأن أهل الجنة أبكار عرب [٣] » .

وكان ضحكه ﷺ التبسم فقط ، من غير رفع صوت [٤] .

وكان ﷺ يرى اللعب المباح فلا ينكره [٥] .

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك .

(٢) عن خارجة بن زيد أن نفراً دخلوا على أبيه زيد بن ثابت رضى الله عنه فقالوا : حدثنا ببعض حديث النبي ﷺ فقال : وما أحدثكم ؟ كنت جاره ﷺ ، فكان إذا نزل عليه الوحى بعث إلى فآتيه ، فأكتب الوحى ؛ فكنا إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا ، كل هذا أحدثكم عنه ﷺ

وفى الصحيحين عن أنس رضى الله عنه قال : إن كان النبي ﷺ ليخالطنا — أى ليلاطفنا ويمازحنا — حتى يقول لأخ لى : « يا أبا عمير ما فعل النغير » .

(٣) رواه الترمذى عن الحسن البصرى .

وعربا : جمع عروب ، وهى المفصحة عن محبة زوجها .

(٤) روى الإمام أحمد عن جابر بن سمرة رضى الله عنه قال : كان رسول ﷺ طويل الصمت ، قليل الضحك ، وكان أصحابه يذكرون عنده الشعر وأشياء من أمورهم ، فيضحكون ، وربما تبسم معهم . وروى الترمذى نحوه .

(٥) روى أبو داود وأحمد عن عائشة رضى الله عنها قالت : خرجت مع رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره وأنا جارية — أى حديثة السن — لم أحمل اللحم ولم أبدن ، فقال للناس : « تقدموا » فتقدموا ، ثم قال لعائشة رضى الله عنها : « تعالى حتى أسابقك »

وكان الأعراب يرفعون عليه الأصوات بالكلام الجافى فيحتمله[١] » .

وكان ﷺ لا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفوا ويصفح[٢] .

ولم يكن له أناء يختصُّ به عن خدمه وإمائه ، بل كان يأكل معهم فى أناء واحد تواضعاً معهم وتشريعاً للمتكبّرين من أمته[٣] .

وكان يجيب إلى الوليمة كلّ من دعاه ويشهد جنائز المسلمين من عرفه ، ومن لم يعرفه وكان منديله باطن قدميه صلى الله عليه وسلم إذا[٤] إذا أكل .

فسابقته ﷺ فسبقته ، فسكت عن ، حتى حملت اللحم وبدنت وسمنت ، خرجت معه ﷺ فى بعض أسفاره ، فقال ﷺ : « تقدموا » فتقدموا ، ثم قال : « تعالى أسابقك » قالت عائشة رضى الله عنها : فسبقى ، فجعل يضحك ﷺ ويقول : هذه بتلك » .

(١) ورد فى الصحيحين عن أنس رضى الله عنه قال : مشيت مع رسول الله ﷺ وعليه برد — أى ثوب — نجرانى غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابى فجبذه — أى جذب الثوب — جبذه شديدة ، حتى نظرت إلى صفحة عنق رسول الله ﷺ وقد أثر فيه — أى فى عنقه — حاشية البرد ، من شدة جبذته . ثم قال — الأعرابى — يا محمد : مر لى من مال الله الذى عندك ، فالتفت إليه النبى ﷺ وضحك ، ثم أمر له بعطاء !

(٢) كان ﷺ يعفو ويصفح إلا إذا انتهكت حرمات الله فإنه يطبق حدود الله على الفور ، ومن عفوه وصفحه قوله يوم أحد بعد أن شج المشركون وجهه الشريف « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » .

(٣) ورد فى الصحيحين عن أنس رضى الله عنه قال : خدمت النبى صلى الله عليه وسلم — وفى رواية أحمد : فى السفر والحضر — عشر سنين — وفى رواية لمسلم ، تسع سنين — فما قال لى أف قط ، ولا قال لشىء صنعته : لم صنعته ؟ ولا لشىء تركته : لم تركته ؟

وفى رواية أبى نعيم : قال أنس : فما سبنى صلى الله عليه وسلم قط ، ولا ضربنى من ضربة ، ولا انتهرنى ، ولا عبس فى وجهى ، ولا أمرنى أمر فتوانيت فيه فعاتبنى عليه ، فإن عاتبنى عليه أحد من أهله قال : « دعوه ، لو قدر شىء كان » .

(٤) روى الإمام أحمد عن عبد الله بن قيس رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله

وكان له صلى الله عليه وسلم إماء وخدم . وكان لا يرتفع عليهم فى مآكل ولا مشارب .

وكان ﷺ مقبلا على عبادة ربه ليلا ونهارا لا يمضى له وقت إلا فى عمل طاعة لله عزوجل أو فيما لا بدله منه مما يعود نفعه عليه وعلى المسلمين [١] .

وكان ﷺ يخرج إلى بساتين أصحابه فيأكل من ثمارها ويحتطب ثم يحمل ﷺ الحطب إلى بيته تواضعا منه [٢] ﷺ .

وكان لا يحقر مسكينا لفقره ، ولا يهاب ملكا لملكه ، يدعوا هذا وهذا إلى الله عزوجل دعاء [٣] واحدا .

عليه وسلم كان يكثر زيارة الأنصار ، خاصة وعامة ، فكان إذا زار خاصة أتى الرجل فى منزله ، وإذا زار عامة أتى المسجد .

وروى الترمذى والنسائى عن أنس رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزور الأنصار ويسلم على صبيانهم ، ويمسح رؤوسهم .

وروى البخارى فى الأدب المفرد عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم زار أهل بيت من الأنصار ، فطعم عندهم طعاما ، فلما خرج – أى لما أراد أن يخرج – أمر بمكان من البيت فنضح له على بساط فصلى عليه ، ودعا لهم .

وروى الشيخان عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إنى لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالليل حين يدخل ، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل ، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار » .

وعن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انطلقوا بنا إلى بن واقف نزور البصير » كان رجلا مكفوف البصر .

(١) ولعل قراءة متأملة لكتب السيرة تظهر لنا بوضوح هذا القول .

(٢) عن أم المؤمنين عائشة رضوان الله عليها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخيط ثوبه ، ويخصف نعله ، ويعمل ما يعمل الرجال فى بيوتهم .

وفى رواية : ويرقع دلوه ، ويفلى ثوبه ، ويحلب شاته ، ويخدم نفسه . رواه أحمد وابن حبان وصححه ابن سعد .

(٣) روى الترمذى من حديث هند بن أبى هالة يصف النبى صلى الله عليه وسلم : لا

وكان ﷺ أرحم خلق الله على الاطلاق ، وأشفقهم على دين أمته . وكان إذا سبق لسانه إلى شتم لأحد قال اللهم اجعلها عليه طهوراً وكفارة ورحمة . ولم يلعن ﷺ قط امرأة معيبة ولا خادما ولا بعيراً . وكان إذا سئل أن يدعوا على أحد عدل عن الدعاء عليه ودعا له وما ضرب ﷺ قط امرأة ولا خادماً ولا غيرهما إلا أن يكون فى الجهاد أوفى حد من حدود الله فيأمر الجلاد بذلك تطهيراً للمجلود . ودعى مرة خادماً له فلم يجبه فقال : « والله لولا خشية القصاص يوم القيامة لأوجعتك بهذا السواك [1] » .

وكان ﷺ لا يأتيه أحد من حر ولا عبد ولا أمة ولا مسكين يسأله فى حاجة إلا قام معه وقضى حاجته ولو فى أقصى المدينة أوفى القرى التى خارجها جبراً لخاطره [2] .

وكان ﷺ لا يعيب قط مضجعاً وكانوا إن فرشوا له شيئاً جلس عليه واضطجع وان لم يفرشوا له شيئاً جلس على الأرض واضطجع عليها .

وكان ﷺ هيناً لينا مع جميع أصحابه ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخاب ، فى الأسواق . أى صياح فيها .

وكان ﷺ يبدأ كل من لقيه بالسلام من المسلمين . وكان إذا أخذ بيده ﷺ وسلم أحد سايره حتى يكون ذاك الشخص هو الذى ينصرف .

وكان ﷺ إذا لقى أحداً من أصحابه صافحه ثم شابكه وشد قبضته على يده على عادة العرب .

تغضبه الدنيا وما كان لها ؛ فاذا تعرض للحق لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر لله ، لا يغضب لنفسه ، ولا ينتصر لها . . الحديث .

(١) ويكفى قول الله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

(٢) عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الساعى على الأرملة والمسكين - أى الذى يسعى فيما ينفعهما - كالمجاهد فى سبيل الله ؛ وأحسبه قال : وكالقائم لا يفتر ؛ وكالصائم لا يفطر » رواه الشيخان ؛ وابن ماجه بلفظ : « الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله ؛ وكالذى يقوم الليل ويصوم النهار » .

وكان ﷺ لايقوم من مجلس ولايجلس إلا على ذكر الله عز وجل .

وكان ﷺ إذا جاء أحد وهو يصلى خفف ﷺ صلاته ثم سلم منها وقال له : « ألك حاجة » فإن قال : لا عاد إلى صلاته . وإن كان له حاجة قضاها له بنفسه أو بوكيله .

وكان أكثر جلوسه ﷺ أنه ينصب ساقيه جميعاً ويمسك بيده عليهما شبه الحبوة .
وكان ﷺ يجلس حيث انتهى به المجلس . حتى أنه لم يكن يعرف من بين أصحابه : قال أنس رضى الله عنه : ومارؤى ﷺ قط مادا رجليه يضيق بهما على أحد . ولم يكن يمدهما إلا إن كان المكان واسعاً . ولما كان ﷺ لايعرف من بين أصحابه كان الأعرابى إذا جاء يسأل عن دينه ، لا يعرفه حتى يصير يسأل عنه فتكلم الصحابة فى عمل شيء يميزه ﷺ حتى تصير الأعراب تأتى إليه وتسأله ولاتحتاج إلى من يعرفه به ، فاتفق رأيهم على أن يبنوا له دكانا من طين ثم فرشوا له حصيراً من خوص النخل .

وكان ﷺ يجلس عليها حتى مات . وكان ﷺ أكثر جلوسه إلى القبلة ويقول « هو سيد المجالس » . وكانوا يجلسون بين يديه متحلقين .

وكان ﷺ يكرم كل من دخل عليه ، ويؤثره بالوسادة التى تكون تحته [1] ، فإن أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يقبلها ، وربما بسط ﷺ ثوبه أورداءه لمن لم يكن بينه وبينه معرفة ولا قرابة ، ليجلسه عليه تاليفاً لقلبه .

على أن الذى يبين لنا خلق سيدنا رسول الله صلى الله عليه عليه وسلم بصورة موجزة وواضحة هى النصوص التالية :

روى الترمذى عن الحسن بن على رضى الله عنهما أنه قال : سألت خالى هند بن أبى هالة ، وكان وصافا عن حلية رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وأنا أشتهى أن يصف لى منها شيء أتعلق به فقال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فخما مفخما يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر ؛ أطول من المربوع ؛ وأقصر من المشذب ؛ عظيم الهامة رجل الشعر ، إذا انفرقت عقيقته =

(١) زيادة فى إكرامه .

وكان ﷺ لايدخر عن الضيف شيئا . بل يخرج إليه كلما وجد وكان ربما لم يجد له مايكرمه به فيصير يعتذر إلية تطييباً لخاطره .

وكان كثيرا مايخرج إلى بيوت أصحابه من غير دعوة ويتفقدهم إذا انقطعوا عن مجلسة وإذا رأى عند أحد منهم جفاء أرسل إليه بهدية .

وكان ﷺ يداعب الحسن والحسين وربما أركبهما على ظهره وصار يمشي على يديه ورجليه ويقول : نعم الجمل جملكما ونعم العدلان أنتما . وأخذ ﷺ مرة بيد الحسن بن علي ووضع رجليه على ركبتيه وهو يقول حزقه خزقه برقه عين بقه هكذا كان أبو هريرة رضى الله عنه يقول .

وكان ﷺ يعطي كل من جلس إليه حظه من البشاشة حتى يظن ذلك الجالس أنه أكرم عليه من جميع أصحابه .

= فرقها وإلا فلا ، يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفره ، أزهر اللون ، واسع الجبين ، أزج الحواجب ، سوابغ فى غير قرن ، بينهما عرق يدره الغضب ، أقنى العرنين ، له نور يعلوه يحسبة من لم يتأمله أشم .

كث اللحية سهل الخدين ، ضليع الفم مفلج الأسنان دقيق المسربة كأن عنقه جيد دمية فى صفاء الفضة .

معتدل الخلق ، بادن متماسك ، سواء البطن والصدر ، عريض الصدر ، بعيد ما بين المنكبين ، ضخم الكراديس ، أنور المتجرد ، موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجرى كالخط ، عار الثديين والبطن مما سوى ذلك ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالى الصدر .

طويل الزندين ، رحب الراحة ، شثن الكفين والقدمين ، سائل الأطراف – أو قال : شائل الأطراف .

خمصان الأخمصين ، مسيح القدمين ينبو عنهما الماء إذا زال زال قلعا ، يخطو تكفيا ، ويمشى هونا ، ذريع المشية إذا مشى كأنما ينحط من صبب وإذا التفت التفت جميعا .

خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جل نظره الملاحظة ، يسوق أصحابه ، ويبدر من لقى بالسلام .

قال الحسن رضي الله عنه : فقلت : صف لى منطق رسول الله ﷺ ، فقال : =

وكان ﷺ يكنى أصحابه ويبتدئهم بالكنا (١) ويدعوهم بها إكراماً لهم واستمالة لقلوبهم وكان يكنى النساء اللاتى ولدن واللاتى لم يلدن . ويكنى الصبيان يستلين بذلك قلوبهم .

وكان ﷺ أبعد الناس غضباً ، وأسرعهم رضى ، وكان أرأف الناس بالناس ، وخير الناس للناس ، وأنفع الناس للناس .

وكان إذا قام من مجلسه يقول : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ثم يقول : علمنيهن جبريل عليه السلام وقال : « هن كفارة لما وقع فى ذلك المجلس » .

وكان ﷺ قليل الكلام سمح المقالة ، يعيد الكلام مرتين أو أكثر ليفهم . وكان كلامه كخرزات النظم . وكان يكنى عن الأمور المستقبحة فى العرف إذا اضطره الكلام إلى ذكرها (٢) ويعرض عن كل كلام قبيح .

وكان ﷺ إذا سلم سلم ثلاث مرات . وكان كثير البكاء ، لم تزل عيناه تهملان من الدموع كأنه حديث عهد بمصيبته ، قال أنس رضى الله عنه : وكسفت الشمس مرة فجعل ﷺ يبكى فى الصلاة وينفخ ويقول : يارب الم تعدنى ان لاتعذبهم وأنا فيهم ، وان لاتعذبهم وهم يستغفرون ونحن نستغفرك يارب » .

= كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، طويل السكت ، لا يتكلم فى غير حاجة ، يفتتح الكلام ويختتمه باسم الله تعالى ، ويتكلم بجوامع الكلم ، كلامه فصل لا فضول ولا تقصير ، ليس بالجافى ولا المبين ، يعظم النعمة وإن دقت ، لا يذم منها شيئاً ، غير أنه لم يكن يذم ذواقا ولا يمدحه ، ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها ، فإذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له ؛ ولا يغضب لنفسه ؛ ولا ينتصر لها . =

(١) يقصد الكنية مثل يا أبا فلان .

(٢) من كمال أدبه ﷺ مع أنه لا حياء فى الدين .

وكان ضحك أصحابه عنده التبسم من غير صوت اقتداء به ﷺ وتوقيراً له . وكانوا إذا جلسوا بين يديه كأنما على رءوسهم الطير من الهيبة والوقار . وكان ﷺ أكثر الناس تبسما مالم ينزل عليه قرآناً ، أو يذكر يوم القيامة ، أو يخطب خطبة موعظة .

وكان ﷺ إذا نزل به أمر فوض أمره فيه إلى الله عز وجل وسأله الهدى واتباعه والبعد من الضلال واجتنابه ، ويبرأ من حوله ومن قوته [١] .

وكان أحب الطعام إليه ما كثرت عليه الأيدي [٢] . وكان ﷺ يجلس للأكل كالعبد فيجمع بين ركبته وبين قدميه كما يجلس المصلى إلا أن الركبة تكون فوق الركبة والقدم فوق القدم . وكان كثيرا مايقول إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد . وكان ﷺ لايأكل الطعام الحار ويقول : « لأنه غير ذى بركة فابردوه » « وان الله لم يطعمنا ناراً » . وكان ﷺ يأكل مما يليه ، ويأكل بأصابعه الثلاث ،وربما استعان بالرابع وكان لايأكل قط بأصبعين ويقول : « إنه فعل الشيطان » . وكان ﷺ يأكل القثاء بالرطب وبالملح . وكان أحب الفاكهة الرطبة إليه الرطب والعنب . وكان ﷺ يأكل البطيخ بالخبز وبالسكر وربما أكله بالرطب ويستعين باليدين جميعاً . وكان ﷺ يأكل العنب خرطا يرى زواله على لحيته كحدر اللؤلؤ وهو الماء الذى يتقاطر منه .

= إذا أشار أشار بكفه كلها ؛ وإذا تعجب قلبها ؛ وإذا تحدث اتصل بها وضرب براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى ؛ وإذا غضب أعرض وأشاح ؛ وإذا فرح غض طرفه ؛ جل ضحكه التبسم ؛ يفتر عن مثل حب الغمام .

قال الحسن رضى الله عنه : فكتمتها الحسين بن على زمانا ثم حدثته فوجدته قد سبقنى إليه فسأله عما سألته عنه ووجدته قد سأله عن مدخله صلى الله عليه وسلم ومخرجه ومجلسه وشكله فلم يدع منه شيئاً . =

(١) هذا بعد اتخاذ الأسباب التى توصل إلى نجاح مقصوده بكل الوسائل والإمكانيات وبعد ذلك يفوض أمره إلى الله فى النتيجة ويدعوا الله ليسير تحقيقها .

(٢) فقد كان من شدة كرمه ﷺ يدعو الناس إلى طعامه .

وكان اكثر طعامه ﷺ التمر والماء وكان يجمع بين التمر واللبن ويسميهما : « الأطيبين » وكان أحب الطعام إليه ﷺ اللحم ويقول : « إنه يزيد فى السمع ، وهو سيد الطعام فى الدنيا والآخرة » . وكان يكره إدمان أكل اللحم ويقول : إنه يقسى القلب. وكان ﷺ يأكل الثريد باللحم والقرع ، ويحب القرع ويقول » : إنه شجرة أخى يونس » . وكثيراً مايقول لعائشة . « إذا طبختى دباء فأكثرى من مرقتها فإنه يشد قلب الحزين » .

وكان ﷺ وسلم لايستكبر عن إجابة الأمة والمسكين . يقول له : « لبيك » . ولا يغضب لنفسه ، وإنما يغضب إذا انتهكت حرمات الله عز وجل . وكان ﷺ ينفذ الحق حيث كان ، وإن عاد ذلك عليه بالضرر ، أو على أصحابه ، وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع ، ويكتم ذلك عن أصحابه وأهل بيته تحملا للمشقه عنهم إذا علموا بجوعه ﷺ . وكان ﷺ يأكل ماوجد ولا يرد ماقدم إليه من الحلال وكان لايتورع قط عن مطعم حلال بل يأكل منه توسعة على أمته . وكان ﷺ يأكل ماوجد فإن وجد تمراً دون خبز أكل أو لحماً مشويا أكل أو خبز بر أكل أو خبز شعير اكل أو حلوى أو عسلا أكل أو لبناً دون خبز أكل واكتفى به ويقول . « ليس شي يجزى عن الطعام والشراب غير اللبن » . وكان ﷺ يأكل البطيخ ، والرطب ، ولحم الدجاج ، والطير الذى يصاد : وكان لايشترى الصيد ولا يصيده ويحب أن يصاده فيؤتى به فيأكله . وكان ﷺ إذا أكل اللحم لم يطأطىء رأسه إليه بل يرفعه إلى فيه ثم يأكله . وكان صلي

قال الحسين رضى الله عنه : فسألت ـ علياً رضى الله عنه ـ عن دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : كان صلى الله عليه وسلم إذا أوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء : جزءاً لله ، وجزءاً لأهله ، وجزءاً لنفسه ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس ، فيرد ذلك بالخاصة على العامة ، ولا يدخر عنهم شيئاً .

وكان من سيرته فى جزء الأمة إيثار أهل الفضل باذنه وقسمه على قدر فضلهم فى الدين: فمنهم ذو الحاجة ، ومنهم ذو الحاجتين ، ومنهم ذو الحوائج فيتشاغل بهم ، ويشغلهم فيما يصلحهم والأمة من مسألتهم عنه وإخبارهم بالذى ينبغى لهم ويقول : « ليبلغ الشاهد منكم

الله عليه وسلم يأكل الخبز والسمن . وكان يحب من الشاة الذراع والكتف . وكانت عائشة تقول : لم يكن الذراع أحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما ذلك لكونه أعجل الأشياء نضجاً . وكان يعجل به إليه لكونه كان لايجد اللحم إلا غبا .

وكان صلى الله عليه وسلم يعجبه طعام الدباء ويحب من التمر العجوة ، ودعى فى العجوة بالبركة وقال انها من الجنه وشفاء من السم والسحر .

وكان صلى الله عليه وسلم : يحب من البقول الهندبا والشمار والرجلة .

وكان يكره اكل الكليتين لمكانهما من البول . وكان لا يأكل من الشاة سبعاً الذكر ، والأنثيين ، والفرج ، والدم ، والمثانة والمرارة ، والغدد ويكره لغيره أكل هذه المذكورات .

وكان يقول : « أطيب اللحم لحم الظهر » . وكان صلى الله عليه وسلم لايأكل الثوم ، ولا البصل ، ولا الكرات وقال لعلى : « ياعلى كل الثوم نيا فإنه شفاء من سبعين داءولولا أن الملك يأتينى لأكلته » .

وماذم صلى الله عليه وسلم طعاما قط بل إن اشتهاه أكله وإلا تركه .

وكان له صلى الله عليه وسلم قصعة يقال لها الغرالها أربع حلق يحملها أربعة رجال بينهم وكان له صاع ومد وسرير قرائمه من ساج . وكان له صلى الله عليه وسلم ربعة يجعل فيها المرآة والمشط والسواك والمقراضين « وهما المقص والملقاط » .

الغائب وأبلغونى حاجة من لا يستطيع إبلاغها ؛ فانه من أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع إبلاغها : ثبت الله قدميه يوم القيامة لايذكر عنده إلا ذلك ولا يقبل من أحد غيره .
يدخلون رواداً ، ولا يفترقون إلا عن ذواق ، ويخرجون أدلة يعنى على الخير .
قال الحسين رضى الله عنه .فسألت أبى — عليا رضى الله عنه — عن مخرجه ، كيف كان يصنع فيه ؟

قال : كان رسول الله ﷺ يخزن لسانه إلا فيما يعنيه ، ويؤلفهم ولا ينفرهم ، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم

وكان له ﷺ سبع أعنز منائح ترعاهن له أم أيمن حاضنته ﷺ .

وكان ﷺ يعاف الضب والطحال ولا يحرمها ، ويقول : « إن الضب لم يكن بأرض قومى فأجدنى أعافه » . وأما الطحال فإنما كرهه ﷺ لأنه مجمع أوساخ البدن .

وكان يلعق الصحفة بأصابعه ويقول : « آخر الطعام أكثر بركة » .

وكان يلعق أصابعه حتى تحمر .

وكان لا يمسح أصابعه بالمنديل حتى يلعقها واحدة واحدة . وكان يقول: « إنه لا يدرى فى أى الأصابع البركة .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا أكل اللحم والخبز خاصة غسل يديه بالماء غسلا جيداً ، ثم يمسح بفضل الماء على وجهه .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا شرب لا يتنفس فى الأناء . وإنما ينحرف عنه ، وأتوه مرة بإناء فيه لبن وعسل فأبى أن يأكله وقال : « شربتان فى شربة » ، وإدامان فى إناء واحد لا حاجة لى بهما ، أما إنى لا أحرم ذلك ولكنى أكره الفخر بفضول الدنيا ، والحساب على ذلك . وأحب التواضع لربى عز وجل فى جميع أحوالى فإن من تواضع لله رفعه الله .

بشره وخلقه ، ويتفقد أصحابه ، ويسال الناس عما فى الناس . يحسن الحسن ويقويه ، ويقبح القبيح ويوهيه معتدل الأمر غير مختلف ، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا ، لكل حال عنده عتاد ، لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه ، الذين يلونه من الناس خيارهم ، أفضلهم عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة .

قال الحسين : فسألته — أى عليا رضى الله عنه — عن مجلسه صلى الله عليه وسلم كيف كان ؟ فقال :

كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر الله تعالى ، ولا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها ، وإذا انتهى إلى قوم : جلس حيث ينتهى به المجلس ويأمر بذلك .

يعطى كل جلسائه نصيبه ، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه . من جالسه او

وكان صلى الله عليه وسلم فى بيته أكثر حياء من العاتق فى خدرها[1] ، كان لا يسألهم طعاماً ولا يتشهاه عليهم ، إن اطعموه أكل وأطعم غيره وما أطعموه قبل ، ولو كان قليلا.
وكثيراً ما كان صلي الله عليه وسلم يقوم ، فيأخذ ما يأكل ، وما يشرب بنفسه .
وكان صلى الله عليه وسلم إذا اعتم أرخى عمامته بين كتفيه ، وفى أوقات كان يغرزها فى عمامته ، وفى أوقات كان لا يرخيها جملة ، هكذا قال بعضهم ، والجمهور علي أنه صلى الله عليه وسلم لم يترك المذبة حتى مات .

وكان كمه صلي الله عليه وسلم إلى الرسغ ، وهو المفصل بين الكف والساعد .
ولبس صلي الله عليه وسلم القبا ، والفرجية ، والجبة الضيقة الكمين فى سفره .
وكان صلى الله عليه وسلم إذا أهدى إليه ثوب يخالف هيئة ثيابه لا يغيره عن هيئته، بل يلبسه على هيئته توسعة على أمته صلى الله عليه وسلم كما مر فى الجبة الضيقة الكمين .
وكان له رداء طوله ستة أذرع فى عرض ثلاثة أذرع .
وكان إزاره صلى الله عليه وسلم أربعة أذرع وشبرا فى عرض ذراعين وشبر .
وكان صلى الله عليه وسلم يلبس الأبراد التى فيها خطوط حمرا[2] . وخضر[3] . وكان ينهى عن لبس الأحمر الخالص .

فاوضه فى حاجة : صابره حتى يكون هو المنصرف ، ومن ساله حاجة لم يرده إلا بها ، أو بميسور من القول .
وقد وسع الناس منه بسطه وخلقه ، فصار لهم أبا ، وصاروا عنده فى الحق سواء . مجلسه مجلس : علم وحياء ، وصبر ، وأمانة ، لاترفع فيه الأصوات ، ولا تؤبن فيه الحرم ، ولا تنثى فلتاته .
متعادلين ، بل كانوا يتفاضلون فيه بالتقوى متواضعين يوقرون فيه الكبير ويرحمون فيه الصغير ويؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب .
قال الحسين رضى الله عنه : وسالت أبى — عليا رضى الله عنه — عن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فى جلسائه ؟ فقال :

(١) يقصد فى خدرها . (٢) حمراء . (٣) خضراء .

وكان له صلى الله عليه وسلم[1] سراويل ولبس النعل التى يسميها الناس الناسومه .

وكان له صلى الله عليه وسلم بردان أخضران يصلى فيهما الجمعة والعيدين .

قال بعض العلماء . ولم يلبس صلى الله عليه وسلم البرد الأخضر الخالص للخضرة أبداً قالوا : وكان أكثر لباسه صلى الله عليه وسلم فى الجمعة البياض . قالوا : وقوله أخضران أى فيهما خطوط .

وكان صلى الله عليه وسلم يلبس الخاتم ويجعل فصه مما يلى كفه .

وكان صلى الله عليه وسلم يتقنع بردائه تارة ، ويتركه أخرى ، وهو الذى يسميه الناس الآن الطيلسان أو البشنقة .

وكان أكثر لباسه صلى الله عليه وسلم ولباس أصحابه ثياب القطن .

وكان له صلى الله عليه وسلم عمامة قطرية وهى الغليظة من القطن .

وكان صلى الله عليه وسلم يلتحى كثيراً بالعمامة من تحت الحنك على طريق المغاربة الأن فى بلاد مصر ، وكان يلبس الشعر الأسود .

ولبس صلى الله عليه وسلم مرة بردة من الصوف ، فوجد لها رائحة الضأن فتركها .

قال أنس : وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وله بردة تنسج عند النساج .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائم البشر ، سهل الخلق لين الجانب ، ليس بفظ ، ولاغليظ ، ولا صخاب ، ولا فحاش ولا عياب ولا مشاح ـ وفى نسخة صحيحة : ولامداح ولا مزاح ـ يتغافل عما لا يشتهى .

ولا يؤيس منه راجيه ، ولا يخيب فيه ، فقد ترك نفسه من ثلاث : المراء . والإكثار وما لا يعنيه .

وترك الناس من ثلاث : كان لا يذم أحداً ، ولا يعيبه ، ولا يطلب عورته ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه .

(١) يقصد وكان ﷺ (له) سراويل .

وكان صلى الله عليه وسلم يحب الرائحة الطيبة، ويكره الرائحة الخبيثة[1].

وكان صلى الله عليه وسلم يأكل من الكبد إذا شويت.

وكان مع أهل بيته فى الخدمة كأنه واحد منهم من حسن خلقه وحسن معاشرته.

وكانت عائشة رضى الله عنها تقول: لم يكن أحد أحسن خلقاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت إذا هويت شيئاً تابعنى عليه. قالت: وكنت إذا شربت من السقاء يأخذه فيضع فمه على موضع فمى ويشرب.

وربما كنت حائضاً وكان ينهش فضلتى من اللحم الذى على العظم.

قالت: وكان صلى الله عليه وسلم يتكى فى حجرى ويقرأ القرآن.

قالت: وربما أكون حائضاً.

وكان صلى الله عليه وسلم له غنم، وكان لا يحب أن يزيد الغنم على مائة فإن زادت ذبح الزائد.

وكان صلى الله عليه وسلم يبيع ويشترى ولكن كان شراؤه أكثر من بيعه.

وآجر صلى الله عليه وسلم نفسه قبل النبوة فى رعاية الغنم.

وكذلك آجر نفسه لخديجة رضى الله عنها فى سفره لتجارتها[2].

واستدان صلى الله عليه وسلم برهن، وبغير رهن. واستعار وضمن ووقف أرضاً له.

وحلف صلى الله عليه وسلم بالله تعالى فى أكثر من ثمانين موضعاً توسعة بذلك على أمته، مع أنه كان أكثر الخلق تعظيماً لربه عز وجل.

ولولا توسعته على أمته ما حلف صلى الله عليه وسلم بالله قط تعظيماً له.

وإذا تكلم أطرق جلساؤه، كأنما على رؤوسهم الطير، فإذ سكت تكلموا، لا يتنازعون عنده الحديث، ومن تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم عنده حديث أولهم؛ يضحك مما يضحكون منه ويتعجب مما يتعجبون منه.

(١) سبق أن تحدثنا عن ذلك من قبل.

(٢) وكل هذا موجود فى كتب السيرة بتوسع.

وكان صلى الله عليه وسلم يستثنى فى يمينه تارة ويكفرها أخرى ويمضى فيها أخرى[١].

وكان صلى الله عليه وسلم يثيب الشاعر على شعره إذا مدحه وضع الثواب[٢] فى حق غيره لئلا يتجرأ الشعراء على المدح ويبالغوا فيه فيؤدى إلى الكذب بغير حق وأمر أن يحثى فى وجوه المداحين التراب وصورة ذلك أن الممدوح يأخذ تراباً بأصابعه من الأرض ثم يدريه بين يدى المادح على الأرض ويقول له « ماذا تمدح فيمن خلق من هذا » ؟ لا أنه يرمى التراب فى وجه الشاعر فيوذيه بذلك كما فهمه بعضهم[٣].

وكان صلى الله عليه وسلم يصارع لأجل معرفة مكايد حرب العدو[٤]، وصارع ركانه كما قاله بعضهم.

وكان صلى الله عليه وسلم يفلى ثوبه من القمل الذى يصعد على ثيابة من مواضع الفقراء. ولم يكن ثوبه صلى الله عليه وسلم يقمل[٥].

وكان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس مشياً وأسرعهم فيه إذا مضى للصلاة حتى كأنه

ويصبر للغريب على الجفوة فى منطقه ومسألته ؛ حتى إن كان أصحابه ليستجلبونهم ؛ ويقول : « إذا رأيتم طالب حاجة فأرفدوه ».

ولا يقبل الثناء إلا من مكافىء ؛ ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز فيقطعه بنهى أو قيام.

وروى الطبرانى وغيره : قال الحسين رضى الله عنه : فسالت أبى عليا رضى الله عنه ! كيف كان سكوته صلى الله عليه وسلم ؟

(١) يريد بذلك التشريع لأمته ﷺ والتيسير عليهم.

(٢) ربما يقصد المؤلف بذلك أنه يحول المدح على الآخرين.

(٣) ولم يفعلها رسول الله ﷺ : فإنه كان صاحب خلق رفيع وكيف بمن يستحى من المدح ويتواضع لله أن يفعل ذلك.

(٤) فيضع خطط الحرب ويبعث الرسل لمعرفة أخبار عدوه.

(٥) فإن القمل كان يأتى ثوبه ﷺ من جلوسه مع الفقراء الناس وقضائه حوائجهم وأكرم به من قائد وراعى.

ينحط من صبب من غير التراب[١] ولا تعب منه صلى الله عليه وسلم وكان أصحابه يمشون بين يديه وهو خلفهم ويقول « دعوا ظهرى الملائكة » إذا سافر يكون ساقه أصحابه لأجل المنقطعين وإردافهم والنظر فى حالهم[٢] .

وكانت ثيابه صلى الله عليه وسلم كلها مشمرة فوق الكعبين يشد وسطه إذا كانت طويلة وأكثر أحوالها أنه كان يفصلها قصيرة فلا يحتاج إلى تشمير .

وكان إزاره فوق ذلك إلى نصف الساق[٣] .

وكان قميصه ﷺ مسدود الإزرار وتارة كان يتزرر بالازرار المعهودة وتارة بشوكة أو إبرة وربما أحدث التزرر فى الصلاة .

وكان له ﷺ ملحفة مصبوغة بالزعفران وربما صلى بالناس فيها وحدها ، وربما لبس الكساء الأسود ، أو المخطط ، وما عليه غيره ، وكان يلبس الكساء المرقع ويقول : « إنما أنا عبد ألبس كما يلبس العبد » .

وكان له ثوبان للجمعة خاصة كما مر سوى ثيابه فى غير الجمعة .

فقال : كان سكوته على أربع : الحلم . والحذر . والتقدير . والتفكر . وفى رواية : الحكم . والحذر . والتدبر . والتفكر .

فأما تقديره صلى الله عليه وسلم: ففى تسوية النظر . والإستماع بين الناس . وأما تذكره — أو قال تفكره — ففيما يبقى ويفنى .

وجمع له ﷺ الحلم والصبر . فكان لا يغضبه شيء ولا يستفزه .

وجمع له الحذر فى أربع : أخذه بالحسن . والقيام لهم فيما جمع لهم الدنيا والآخرة .

وفى رواية للطبرانى : وجمع له الحذر ﷺ فى أربع : أخذه بالحسن ليقتدى به . وتركه القبيح ليتناهى عنه . واجتهاده الرأى فيما أصلح أمته . والقيام فيما جمع لهم الدنيا والآخرة .

(١) ربما يقصد من غير إثارة للتراب .

(٢) أى يسير فى القافلة يتتبع أحوال الضعفاء فيها .

(٣) لكى لا تتلوث بالنجاسات أو الأقذار .

وربما لبس ازاراً واحداً ليس عليه غيره يعقد طرفيه بين كتفيه .

وربما أم به الناس على الجنائز . وربما صلى به فى بيته ويلتحف به إذا كان واسعاً ، وربما كان ذلك الإزار هو الذى جامع فيه يومئذ ، وربما صلى فى الليـل فى وسطه ازار يرتدى بطرفه مما يلى هدبه ويلقى البقية على بعض نسائه لطوله ويصلى فيه .

وكان لا يتحرك بحركة ركوعه ولا سجوده . وكان له كساء أسود ليس عنده غيره فاستكساه شخص فـكساه له صلى الله عليه وسلم .

وكان له صلى الله عليه وسلم ، ملاءة مصبوغة بالزعفران كما مر وكانت تنقل معه إلى بيوت زوجاته فترسلها المرأة التى كان نائماً عندها لصاحبة النوبة[1] فترشها بالماء فيظهر رائحة الزعفران فينام معها فيها ﷺ .

وكان صلى الله عليه وسلم كثيراً مايخرج وفى أصبعه الخيط المربوط فى خاتمه فيستذكر به الشىء .

وكان يختم بخاتمه على الـكتب ويقول : الخاتم على الـكتاب خير من التهمة[2] .

وكان ﷺ يلبس القلانس تحت العمائم ، وتارة يلبسها من غير عمامة وربما نزع قلنسوته من رأسه فجعلها سترة بين يديه ، وصلى إليها ، وكانت صوفاً ، وتارة كان يجعلها قطناً محشوة مضربة ، ولم يبلغنا : أنه ﷺ لبس الزنط . قال العلماء : وهذا يؤذن بأن طولها كان ثلثى ذراع حتى يصح كونها سترة للمصلى .

النص الثانى :

بعد وفاة رسول الله ﷺ . سمع سيدنا عمر بن الخطاب يبكى ويقول :

« بابى أنت وأمى يا رسول الله . لقد كان جذع تخطب الناس عليه . فلما كثر النـاس اتخذت منبراً لتسمعهم . فحن الجذع لفراقك .. حتى جعلت يدك عليه فسكن . فأمتك كانت أولى بالحنين إليك لما فارقتها » .

(١) الزوجة التى سيبيت عندها ليلته تلك .

(٢) لأ لا يحدث تزوير فى المـكتوب .

وكان له صلى الله عليه وسلم عمامة تسمى السحاب فوهبها لعلى رضى الله عنه فربما طلع على رضى الله عنه وهى على رأسه فيقول صلى الله عليه وسلم (أتاكم على فى السحاب)

وكان له صلى الله عليه وسلم فراش من أدم حشوه ليف ، وطوله ذراعان أو نحوهما ، وعرضه ذراع وشبر ونحوه .

وكان له ﷺ عباءة تفرش له حيثما تنقل تثنى له طاقين فيجلس عليها . وفرشتها له عائشة مرة بعد أن ثنتها أربع طاقات فنام صلى الله عليه وسلم تلك الليلة عن الوقت الأول من ورده . فقال : أعيدوها طاقين فإن لينها أو وطئها[1] كادان يمنعني قيام ليلتى . وكثيراً ما كان صلى الله عليه وسلم ينام على الحصير وحده ليس فوقه شىء .

وكان له صلي الله عليه وسلم مطهرة من فخار يتوضأ منها ويشرب .

وكان الناس يرسلون أولادهم الذين لم يبلغوا الحلم فيدخلون عليه صلى الله عليه وسلم فلا يمنعون ، فإذا وجدوا فى المطهرة ماء شربوا منه ومسحوا منه على وجوههم وأجسامهم يبتغون بذلك البركة[2] .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا صلى الغداة جلس فى مجلسه فيجىء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء فسألوا به صلى الله عليه وسلم أن يضع يده فى أوانيهم فيفعل وربما جاءوه فى الغداة الباردة فيغمس يده فى الماء .

روى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما . قال : « كان النبي ﷺ يخطب الى جذع . فلما اتخذ المنبر تحول إليه . فحن الجذع . فأتاه فمسح يده عليه » .

« بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده : أن جعل طاعتك طاعته . فقال عز وجل .

« من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

(١) ومعناها وطأها .

(٢) دليل على جواز التبرك بآثار الصالحين .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا بصق يتسارع الناس إلى تلقى بصاقه ونخامته بأكفهم ولا يقع له صلى الله عليه وسلم نخامة على الأرض فكانوا يدلكون بتلك النخامة وجوههم وجلودهم طلباً أن لا يمسهم النار يوم القيامة(١). وكانوا يقتتلون على غسالة ماء وضوئه.

وكان أصحابه يتكلمون عنده بخفض صوت مع الهيبة والإطراق. وكانوا لا يحدقون النظر إليه صلى الله عليه وسلم، ولا يحدون بصرهم إليه تعظيما له وتوقيراً(٢).

وكان صلى الله عليه وسلم لا يؤذى من يؤذيه ولا يتكلم فيما لا يعنيه، ولا يذكر أحداً بغيبة ولا يشمت بمصيبة.

وكان إذا بالغ أحد فى إيذائه صبر واحتمل ولم يقابله بنظيره، وربما قال: (رحم الله أخى موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر).

وكان صلى الله عليه وسلم يكره من يبلغه السوء عن أصحابه ويقول: (لا تبلغونى عن أصحابى إلا خيراً فإنى بشر أغضب كما يغضب البشر) وقسم مرة قسما بين أصحابه فلما انصرف قال شخص من القوم: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله تعالى. فلما رجع صلى الله عليه وسلم أخبره شخص بما قيل فى حقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تبلغونى عن أصحابى إلا خيراً فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر).

بأبى أنت وأمى يا رسول !! لقد بلغ من فضيلتك عنده أن بعثك آخر الأنبياء. وذكرك فى أولهم فقال عز وجل:

« وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم ».

بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده: أن أهل النار يودون أن يكونوا قد أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون.

(١) فهى من أزكى روح وأزكى جسد.

(٢) (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً. وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً) الأحزاب: ٥٤، ٤٦ (من يطع الرسول فقد أطاع الله، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً) النساء آية: ٨٠.

(قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) آل عمران: ٣١

وكان صلى الله عليه وسلم إذا رأى أحداً يفعل مالا يليق لايبادر إلى الإنكار عليه ولكن يثبت[1] وينظر فإن رآه جاهلا علمه برفق ورحمة كما فى قصة الأعرابى الذى دخل فبال فى المسجد فإنه نهى أصحابه أن يزعجوه عن بوله وقال : (إنما بعثتم مبشرين ولم تبعثوا معسرين) فلما فرغ الأعرابى من بوله كلمه بخفض صوت ، وقال : (إنما جعلت المساجد للصلاة ، ولم تجعل للبول).

وكان صلى الله عليه وسلم يركب الحمار موكوفاً وعليه قطيفة ، وإذا مر على الصبيان سلم عليهم وباسطهم .

وأتوه مرة برجل فأرعد من هيبته صلى الله عليه وسلم فقال : « هون عليك يا أخى فلست بملك ولا جبار ، إنما أنا بن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » .

وكان ﷺ إذا جلس لايتميز عن أصحابه بشىء ، فربما أتى الغريب فلا يعرفه تواضعاً مع أصحابه وإجلالا لهم ، فأتاه يوماً أعرابى يسأله عن أمر دينه فصار يسأل ويقول : أين محمد ؟ فتكلم الصحابة رضى الله عنهم فى شىء يميزه حتى لايحتاج الغريب إلى سؤال فأدى رأيهم أن يجعلوا له دكاناً من طين يجلس عليه ففعلوا وفرشوا له عليه حصيراً من خوص كما مر .

وكان من تواضعه ﷺ أنه لايدعوه أحد من أصحابه إلا قال له : لبيك .

« يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول »

بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لئن كان موسى بن عمران أعطاه الله حجرا تتفجر منه الأنهار ، فماذا ؟ أى فليس ذلك ـ بأعجاب من أصابعك حين نبع الماء منها .

روى البخارى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما : عطش الناس يوم الحديبية والنبى ﷺ ، بين يديه ركوة ، فتوضأ فجهش الناس ، فأسرعوا وتكاثروا نحوه .

فقال ما لكم ؟ قالوا : ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك . فوضع يده فى الركوة ، فجعل الماء يثور بين أصابعه ، كأمثال العيون ، فشربنا وتوضأنا » قلت : كم كنتم ؟ قال : لو كنا مائة ألف لكفانا !! كنا خمس عشرة مائة » :

(١) يتأنى .

وكان ﷺ مع أصحابه على مايريدون ويحبون فإن تكلموا فى أمر الآخرة تكلم معهم أو فى أمر الدنيا تكلم معهم ، أو فى طعام أو شراب تكلم معهم رفقاً بهم واستمالة لخواطرهم .

وكان هيناً ليناً صلى الله عليه وسلم .

وكان لايزجر أصحابه إلا عن حرام أو مكروه .

وكان صلى الله عليه وسلم يسابق عائشة بالعدو والهرولة فيسبقها فإذا رآها غضبت تثاقل لها حتى تسبقه .

وكان صلى الله عليه وسلم معتدل الخلق فى السمن ، ثم بدن فى آخر عمره . ومع ذلك كان[1] لحمه متماسكا يكاد يكون على الخلق الأول لم يضره السمن قالت عائشة رضى الله عنها : وما مات صلى الله عليه وسلم حتى كان أكثر صلاته النفل جالساً .

وكان إذا تعب من القيام يجلس فيقرأ وهو جالس فإذا قارب الركوع قام فقرأ ما كتب له ثم ركع .

بأبى أنت وامى يا رسول الله !! لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله الريح غدوها شهر ورواحها شهر فماذا بأعجب من البراق حين سريت عليه إلى السماء السابعة ، ثم صليت الصبح من ليلتك بالأبطح !!

بأبى أنت وامى يا رسول الله !! لئن كان عيسى بن مريم قد أعطاه الله إحياء الموتى ، فما بأعجب من الشاة المسمومة حين كلمتك وهى مشوية ، فقالت لك الذراع : لا تأكلنى فإنى مسمومة .

يروى ابن سعد فى طبقاته :

(أخبرنى سعيد بن محمد الثقفى ، عن محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة قال : كان رسول الله ﷺ ، لايأكل الصدقة ويأكل الهدية ، فأهدت إليه يهودية شاة مصلية فأكل رسول الله ﷺ منها هو وأصحابه ، فقالت : إنى مسمومة ، فقال لأصحابه : ارفعوا أيديكم ، فإنها قد أخبرت أنها مسمومة .

(١) لعلها كان .

وكان كثيراً مايفتتح قيام الليل بركعتين خفيفتين ، ثم يطيل بعدهما ما شاء ، ويجعلهما كالنافلة التي قبل الفريضة ويكثر فيهما من الاستغفار أدباً مع ربه وتشريعاً لأمته ﷺ : انتهى ما ذكرناه من أخلاقه مع أصحابه ﷺ .

وكان من خلقه ﷺ تسمية دوابه وسلاحه ومتاعه .

وكان اسم رايته ﷺ العقاب ، وكانت سوداء . وكان له راية أخرى صفراء ، وأخرى بيضاء فيها خطوط سود .

وكان اسم جفنته ﷺ الكافور ، واسم السكن[1] ، واسم قضيبه المشوق ، واسم قدحه الريان ، واسم ركوته الصادر ، واسم سرجه الراح ، واسم مقراضه الجامع ، واسم سيفه الذي يحضر به الحروب ذو الفقار ، وكان له أسياف أخر .

وكان له ﷺ منطقة من أدم فيها ثلاث حلق فضة .

وكان اسم ناقته القصوى[2] وهي التي يقال لها العضبا .

وكان اسم بغلته ﷺ دلدل ، واسم حماره يعفور واسم شاته التي كان يشرب لبنها عنبة .

قال : فرفعوا أيديهم ، قال : فمات بشر بن البراء ، فأرسل إليها الرسول ﷺ فقال : ما حملك على ما صنعت ؟؟ فقالت : أردت أن أعلم إن كنت نبيا لم يضرك ، وإن كنت ملكا أرحت الناس منك ، قال : فأمر بها فقتلت » اهـ .

بأبي أنت وأمي يا رسول الله !! لقد دعا نوح على قومه فقال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » .

ولو دعوت علينا بمثلها لهلكنا كلنا : فلقد وطىء ظهرك . وادمي وجهك . وكسرت رباعيتك . فأبيت ان تقول إلا خيراً . فقلت : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » .

بأبي انت وامي يا رسول الله !! لقد اتبعك في قلة سنك . وقصر عمرك ما لم يتبع نوحا في كثرة سنه . وطول عمره ولقد آمن بك الكثير وما آمن معه إلا القليل .

بأبي انت وامي يا رسول الله . لو لم تجالس إلا كفئا لك ما جالستنا . ولو لم تنكح

(١) غير موجوده بالأصل .   (٢) يقصد ناقته القصواء .

وأما صفته ﷺ فلم يكن بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد، بل كان ينسب إلى الربعة إذا مشى وحده، وإذا مشى مع الطويل ساواه .

وكان يقول : جعل الخير كله فى الربعة .

وكان لونه ﷺ أزهر ، ولم يكن بالأسود ولا شديد البياض . والأزهر هو الأبيض المشرب بحمرة .

وكان عرقه ﷺ أطيب من المسك الأذفر يعنى الخالص .

وكان شعره ﷺ يضرب إلى منكبيه ، وفى بعض الأوقات إلى شحمة أذنيه . وكان مائلا إلى الصهوبة . وكان شيبه ﷺ فى رأسه ولحيته نحو ثمان عشرة شعرة .

وكان ﷺ صافى البشرة .

وكان إذا غضب أو رضى يرى رضاه وغضبه فى بشرته ووجهه .

وكان له ﷺ أواخر عمره ثلاث عكن : يغطى الازار منها واحدة .

إلا كفئا لك ما نكحت إلينا . ولو لم تواكل إلا كفئا لك ما آكلتنا . فقد والله جالستنا ونكحت إلينا . وآكلتنا ولبست الصوف وركبت الحمار واردفت خلفك . ووضعت طعامك على الأرض تواضعا منك صلى الله عليك وسلم .

النص الثالث :

بعد ان انتهى هرقل من اسئلته إلى ابى سفيان قال له :
سألتك عن نسبه ؟ فذكرت أنه فيكم ذو نسب .
وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها .
وسألتك « هل قال احد منكم هذا القول ؟
فذكرت ان : لا
فقلت : لو كان احد قال هذا القول قبله . لقلت : رجل يأتسى بقول قيل قبله .
فذكرت ان : لا .
قلت : لو كان من آبائه من ملك . قلت : رجل يطالب ملك ابيه .
وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل ان يقول ما قال ؟

وكان كفه ﷺ ألين من الحرير ، وكانت رائحتها كرائحة كف العطار مسها بطيب أم لم يمسها ، إذا صافح شخصا يظل يومه ذلك كله يجد ريحها .

وكان ﷺ معتدل الخلق فى السمن ثم بدن أواخر عمره كما مر . وكان مع ذلك لحمه متماسكا يكاد يكون على الخلق الأول لم يضره السمن انتهى .

وفى هذا القدر كفاية فى فتح باب التأسى به وبأخلاقه ﷺ والحمد لله رب العالمين .

إذا علمت فأقول وبالله التوفيق :

فذكرت ان : لا

فقد اعرف انه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله !

وسألتك اشراف الناس اتبعوه ام ضعفاؤهم ؟

فذكرت : ان ضعفاؤهم اتبعوه .

وهم اتباع الرسل .

وسألتك : ايزيدون ام ينقصون ؟

فذكرت : انهم يزيدون .

وكذلك امر الإيمان حتى يتم .

وسألتك : ايرتد احد سخطه لدينه بعد ان يدخل فيه ؟

فذكرت ان : لا

وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب .

وسألتك : هل يغدر ؟

فذكرت ان : لا

وكذلك الرسل لا تغدر .

وسالتك : بما يأمركم ؟

فذكرت : أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف .

فإن كان ماتقول حقا ؟ فسيملك موضع قدمى هاتين .

وقد كنت أعلم أنه خارج .. لم أكن أظن أنه منكم . فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه . ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه .. » .

من أخلاق سيدى إبراهيم المتبولى وأخلاق أصحابه رضى الله عنهم أجمعين

أن يربوا أصحابهم بالتدريج رحمة بهم ، فيشغلوا المريد أولا بالعمل على جلاء مرآة قلبه من الصدأ بكثرة ذكر الله تعالى ، وبالجد والاجتهاد فى السير إلى الحضرة الآلهية بالأعمال المرضية .

ولا يأمروه بالتخلق بالأخلاق العظيمة التى لا يقدر فى بدايته على التخلق بها ، فإنها تبطئ عليه السير إلى مقام الكمال .

ثم إذا انتهى سلوك المريد إلى مقام الكمال فهناك يُصْبَغ فى تلك الحضرة بالأخلاق المحمدية بالخاصية[1] من غير كلفة ولا مشقة .

ثم إذا أُمر بالرجوع إلى السكون فلا يشغله بعد ذلك شىء منه ، لشهوده أن الحق تعالى هو القائم بكل شىء ومع كل شىء ، فلا يعتزل عن شىء ولا يهرب من شىء ويقضى على نفسه بالجهل فى حال سيره[2] .

وقد كان الحق تعالى قادراً على أن يعطى العبد هذه الأخلاق بغير انتهاء سلوك ، ولكن ذلك لم يسبق به علمه ، إنما سبق أن يكون السَّيْر والترقى على هذه الحالة[3] .

ولو أن العبد كان يشهد الحق تعالى خالقاً لكل شىء فى أحسن تقويم ومع كل شىء

---

(١) أى أخلاق الصوفية الكبار (الخاصة) .

(٢) كما فعل سيدى رسول الله ﷺ بالنسبة للتشريع فقد كان فرضه على المسلمين الأول بالتدريج مثل تحريم الخمر وغيرها من أمور التشريع .

(٣) فإن السعى للوصول إلى الكمال مطلوب فى الشرع والأخلاق الفاضلة لا توهب ، صحيح أن للبيئة والمجتمع تأثير ولكن المطلوب من المسلم الدفاع عن دينه وأخلاقه ضد المجتمع المنحرف والبيئة المنحرفة .

ما فر فى بدايته من شىء وصورة المنتهى[١] صورة المبتدى[٢] ، ولـكن المشهد مختلف .

ومن هنا جهل الناس مراتب الـكاملين ، وظهر لهم الناقصون لتميزهم بالأعمال البدنية بخلاف الـكاملين فإنهم إنما يتميزون بالأخلاق القلبية .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : إنما لم يؤمر المريدون بالتخلق بأخلاق القوم فى بداياتهم ، لضيقهم وعسر ذلك عليهم[٣] بخلافهم بعد انتهاء كما لهم ومجاهداتهم وفطامهم على يد شيخ صادق ناصح[٤] ، فلذلك كانوا لا يشغلون المريد فى بداية أمره إلا بالتوحيد سراً وجهراً ليلا ونهاراً[٥] ، فلا يزال أفراد العـالم ينقص فى شهوده[٦] شيئاً فشيئاً كلما أكثر من الذكر إلى أن يصير لا يشهد إلا الله وحده ، كما هو الحال فى صورة وجود الله تعالى قبل خلقه الخلق[٧] ، فإن الله تعالى كان ولا شىء معه أصلا ، ثم إنه لما خلق أول مخلوق رأى ذلك المخلوق نفسه مع ربه فقط ، ثم لما خلق المخلوق الثـانى صار يرى نفسه ، ورفيقه مع الحق ، ثم لمـــا خلق المخلوق الثالث صار يرى نفسه ، ورفيقيه مع الحق .

وهكذا إلى انتهاء الأعداد فى الذهن ، ثم كلما صارت دائرة الخلق تتسع فى شهود العبد كذلك صارت دائرة الحق تضيق فى شهوده ، إذ لا حلول ولا اتحاد[٨] ، حتى ربما صار العبد لا يشهده إلا الخلق[٩] .

فلما انتهى الأمر إلى شهود هذه الـكثرة التى حجبت العبد عن شهود عظمة ربه

---

(١) لعله يقصد : وتـكون صورة المنتهى هى صورة المبتدى .

(٢) أى صورة الـكامل فى الطريق إلى الله تعالى وصورة المبتدىء فيه .

(٣) فإنهم لم يتخلصوا من شهوات الدنيا بعد .

(٤) فإنه يأخذ بيدهم ويرشدهم فى جميع المجالات .

(٥) أى ذكر الله تعالى (٦) فى وعيه (٧) فلا يرى إلا الله تعالى

(٨) نفى للحلول والإتحاد .

( ) من إنصرافهم عن الله تعالى .

تعالى ، أرسل الله تعالى رسله إلى الناس وأمرهم بالسلوك على مدرجة شرائع الرسل بالأعمال المرضية والأخلاق الزكية ، فصارت أفراد العالم تنقص فى شهودهم شيئاً فشيئاً ، حتى رجع العبد إلى حالته الأولى التى لم يكن معه هناك أحد إلا الله تعالى ، وهناك صحت له مراقبته ومعاملته فإن المحجوب عن الله بشهود الخلق لا يهتدى لمعاملته ولا مراقبته انتهى[1] .

وسمعت سيدى على المرصفى رحمه الله يقول : لو أن الأشياخ أمروا المريد بتأدية حقوق العباد فى حال سلوكه إلى حضرة ربه لا يقطع عن السير ، لأن حكم ذلك حكم من يحمل فى عنقه صخرات عظيمة ويطلب سفراً بعيداً نحو عشرين سنة مثلا ، فربما تقطع على عدد حقوق العباد عمره كله ولم يصل إلى حضرة ربه ، فلذلك قالوا له : لا يعول على حق أحد من الخلق إلا إن كان عونا لك على السير وإياك أن تخالط الخلق ، أو تشبع ، أو تنام ، أو تكثر من الكلام ، أو تمسك شيئاً من الدنيا إلا لضرورة ، أو تأكل شهوة من الشهوات ، فإن ذلك كله يحجبك عن الله عز وجل[2] .

ولكن إذا انتهى سيرك وعرفت الله تعالى المعرفة المعروفة بين القوم ، فهناك لا يشغلك شىء عن الله تعالى ، فترجع تخالط الناس ، وتأكل الشهوات ، وتملك الدنيا بحذافيرها ، وتتكلم باللغو مع الخلق ، وغير ذلك مما كنت منهياً عنه فى حال بدايتك وتصير ترى الملك فى الأمور كلها لله تعالى . انتهى .

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : إياكم أن تنكروا على عارف بالله تعالى إمساكه الدنيا أو نكاحه المنعمات ، أو بناءه الدور ، أو غرسه البساتين ، أو ركوبه

---

(١) وهذه هى مهمة الطريق الصوفى « صرف العباد عن شهود غير الله تعالى » .

(٢) وهذا كله فى مبتدأ الطريق إلى الله تعالى وقد يكون ذلك عند دخول المريد الخلوة ولكن الأمر لا يستمر فبعد أن تتم تصفية النفس يعود المريد لمباشرة المصالح الدنيوية ولكن فى هذه الحالة يكون قضاء هذه المصالح لله تعالى وليست بغرض شخصى وهذا يكون أكمل حيث تكون النية كلها لله تعالى .

الخيول المسومة ، أو أكله اللذيذ من الطعام أو الشراب ، ونحو ذلك فإن له مشاهد صحيحة فى ذلك[1] بخلاف المبتدى فإن كل شيء من هذه الأمور تحجبه عن الله وتوقفه عن السير إلى حضرته لضيقه وضعفه انتهى[2] .

واعلم ذلك يا أخى واعمل عليه واعرضه على مريدى زمانك تعرف حالهم ولا تنس نفسك والحمد لله رب العالمين .

---

(١) وجهة نظر شرعية فى ذلك حيث أنه يكون من الكاملين فنيته كلها لله ولا يشهد غيره ولا يقصد هذه الشهوات لذاتها .

(٢) فقد تطغيه هذه الأمور وتبعده عن الله تعالى .

ومن أخلاقهم أن يشهدوا نفوسهم وتلامذتهم حال تربيتهم
لهم أنهم كلهم من جملة تلامذة رسول الله ﷺ
وهو الشيخ الحقيقي لهم

فإن جميع مايربون به التلامذة إنما هو شرعه ﷺ صريحاً أو استنباطاً كما مر في خطبة الكتاب .

وكأن لسان حال كل شيخ يقول لمريديه : يا أولادى إنما أربيكم بشرع نبيكم ﷺ ، وأنا مبلغ لكم شرعه الصحيح وما استنبط منه فأقول لكم : قال نبيكم ﷺ: كذا، أو قد استنبط العلماء من شرع نبيكم كذا ، وليس لى من ذاتى شرع أمشيخ عليكم به .

وكان سيدى ابراهيم الدسوقى رضى الله عنه يقول لتلامذته : قد أمركم نبيكم بكذا ، أو نهاكم عن كذا .

فعلم أن كل شيخ غاب عن هذا المشهد الذى ذكرناه من شهوده وتلامذته من جملة تلامذة رسول الله ﷺ فهو جاهل قليل الأدب ، وإنما الواجب عليه أن يجعل جميع استمداده من رسول الله ﷺ بالأصالة ، ثم يصير يمد تلميذه من مدد رسول الله ﷺ كما أن رسول الله ﷺ أعطى علم الأولين والآخرين ، ومع ذلك كان يأتيه جبريل بالوحى فيصغى إليه كأنه ماعلمه إلا منه إثباتاً للأسباب ، والوسائط[1] .

وكذلك قال الله تعالى : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه[2] » ، أى لا تسابق جبريل بما تعلمه منا سابقاً من الوجه الخاص بيننا وبينك ، بل اصغ إليه

---

(١) فكل طريق فيه تحلل من الشريعة لا يسمى تصوفا بل هو بعد عن الله تعالى وكفر به ، والإمام الجنيد شيخ هذه الطائفة وإمامها يقول « علمنا هذا مشيد بالكتاب والسنة » .
(٢) سورة مريم آية : ١١٤

كأنك ماعلمته إلا منه ، هكذا رأيته فى كلام بعض العارفين[١] انتهى .

وكان سيدى ابراهيم الدسوقى رضى الله عنه يقول للمريدين : استمعوا لأشياخكم ولا تطالبوهم فى قبولكم قولهم بدليل كما لاتطالبون بذلك من قلدتموه من المجتهدين رضى الله عنهم ، فإن شيخكم له مقام الأخذ عن رسول الله ﷺ بلا واسطة فإن فاته الأخذ من طريق النقل أخذ من طريق الكشف[٢] .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول : ما من شيخ تحق له قدم الولاية المحمدية إلا ويرى نفسه نائباً لرسول الله ﷺ فى جميع ما يأمر به وينهى عنه[٣] ، ويرى الفضل فى ذلك لرسول الله ﷺ لا لنفسه .

ومنهم من يصير يربى مريده وهو يشهد فى نفسه أنه دون ذلك المريد فى الدرجة كما هو معروف بين أهل الذوق منهم .

فاعلم ذلك واعرضه على مريدى زمانك تعرف حالهم ولا تنس نفسك والحمد لله رب العالمين .

---

(١) التفسير الظاهر المعروف هو لاتعجل به لكى تستطيع حفظه وتلقيه .

(٢) ولذلك يجب التسليم للشيخ تسليما كاملا فإنه كالطبيب أعرف بدخائل الأمراض من صاحبها نفسه .

(٣) أى خليفة له فى هذه الأوامر والنواهى .

ومن أخلاقهم رميهم الدنيا وشهواتها من يدهم ومن قلبهم أول دخولهم فى الطريق

فلا يصير لهم ميل إلى شىء من الدنيا ، وذلك ليحصل لهم صحة بناء الأعمال الأخروية فإنه لايصح لمريد أن يبقى فى الآخرة شيئاً من أعماله إلا بعد كمال الزهد فى ضرتها التى هى الدنيا وكل من تلون[1] على شيخ أو أخذ عنه العهد وهو يميل إلى الدنيا فلا بد أن يرجع من حيث جاء ، وترفضه الطريق[2] .

وكان سيدى محمد المغربى الشاذلى شيخ الجلال السيوطى رضى الله عنهما يقول :لايصح لمريد قدم فى طريق أهل الله عز وجل إلا بعد أن يزهد فى الدنيا ونعيم الآخرة[3] ، وهناك يبتدى فى سيره فى الطريق .

فإذا رأيتم شيخاً يطلب الدنيا ويزاحم عليها ويتكدر لمفارقتها فاعلموا أنه لم يشم من طريق أهل الله تعالى رائحة ، بل هو مدع كذاب ، انتهى .

فاعرض يا أخى ماذكرناه على مريدى عصرك ، تعرف حالهم ، ولا تنس نفسك .

---

(١) لعله يقصد من تلقى .

(٢) فإذا كان هذا فى أول تصوفه فكيف يستمر بعد ذلك .

(٣) أى لا يطلب شيئاً إلا الله تعالى سبحانه وتعالى .

ومن أخلاقهم أن لا يتصدوا[١] لأخذ العهد ولا لإلباس الخرقة ولا لتلقين الذكر إلا بعد اجتماع شروط هذه المراتب

وكثيراً ما سمعت سيدى علياً الخواص رحمه الله يقول : أربع مراتب زاحم الناس عليها فى هذا الزمان من غير قيام بشروطها : وهى أخذ العهد علي المريدين ، وتلقينهم الذكر ، وإلباسهم الخرقة ، وإرخاؤهم العذبة[٢] .

فقلت له : وما شرط من يأخذ العهد على المريدين ؟ فقال : من شرطه أن يزهد فى الدنيا ، ويتوب عن كل شىء يكرهه الله تعالى ظاهراً وباطناً . وذلك ليقتدى به المريد ويهتدى بهديه ، فإن الراغب فى الدنيا الواقع فى المعاصى لا يصلح أن يكون داعياً إلى طريق الله عز وجل .

ومن هنا أجمعنا على عصمة الأنبياء لكونهم مشرعين بجميع أفعالهم وأقوالهم فلو أنهم صح فى حقهم شىء من المعاصى الحقيقية لصدق عليهم بشرايع المعاصى لقومهم[٣] ، ولا قائل بذلك .

فقلت له : هذا مقام عزيز فى غالب مشايخ هذا الزمان .

فقال : نعم هو مقام عزيز لأن صاحبه نائب لرسول الله ﷺ وخليفة له ، ومن شرط الخليفة أن يكون علي صورة من استخلفه فى التنزه عن الرذايل الظاهرة والباطنة ، وإن لم يلحق به[٤] . وجميع مانقل عن بعض الأنبياء من اسم المعصية فهى أمور صورية لا حقيقية[٥] . فيجرى الله تعالى على يديهم أموراً تشابه بعض ما يقع فيه قومهم ليروا

---

(١) لعله يقصد أيعطوا العهد ولا إلباس الخرقة .
(٢) فإن الواجب إختبارهم قبل التكالب عليهم .
(٣) لعله يقصد لو قعت عليهم شرائع المعاصى فى قومهم .
(٤) فإنه يحاول الوصول إلى كمال خلق رسول الله ﷺ .
(٥) بقصد التشريع والتيسير على الأمة .

قومهم كيف يتخلصون من المعاصى ، إذا وقعوا فيها ، مع كون الأنبياء منزهين عن سائر الرذايل بإجماع الأمة هذا اعتقادنا الذى نلقى الله تعالى به انتهى .

وقلت وسيأتى بسط ذلك قريباً فى الجواب عن أكابر أهل الحضرة الآلهية والله أعلم .

وسمعت سيدى محمد الشناوى[1] رحمه الله يقول : من شرط الداعى إلى الله تعالى أن تتساوى سريرته وعلانيته ، بل ترجح سريرته فى الخير على نيته (علانيته) ، وكذلك من شرطه أن يكون عفيفاً عن الدنيا غير ناظر إلى مافى يدى من يدعوهم منها ، وهى الحكمة المشار إليها بقوله تعالى : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة »[2] .

قال بعض العارفين : الحكمة هى غناء الداعى عن مال المدعو فإنه إذا كان محتاجا إليه هان فى عينه ، ولم يبق لكلامه فى قلبه موقع .

وأما الموعظة الحسنة فهى أن يمهد الداعى المدعو بساطاً قبل أن يدعوه[3] . ويعلمه بما له فى ذلك من المصلحة فى الدنيا والآخرة ، حتى يكون ذلك للمريد يشكر فضل مربيه على ما يرشده به من الخير ، لما يرى لنفسه فيه من الحظ والمصلحة . واعلم ذلك فإنه نفيس ولنرجع إلى تمام بقية الشروط .

فنقول قال سيدى على الخواص : وأما شرط من يلقن المريد كلمة لا إله إلا الله على وجه التحقيق دون التبرك : فهو أن يقدره الله تعالى على أن يفرغ على المريد حال قوله

---

(١) هو العارف بالله تعالى الشيخ محمد الشناوى : كان من الأولياء الراسخين فى العلم أهل الإنصاف والأدب .

ومن أقواله : مادخلت على فقير إلا وأنظر لنفسى دونه وما امتحنت قط فقيراً .

وكان رضى الله عنه إذا افتتح مجلس الذكر بعد صلاة العشاء لا يختمه فى غالب أمره إلا الفجر فإذا صلى الفجر جلس فى الذكر حتى الضحى .

توفى سنة إثنين وثلاثين وتسعمائة ودفن بزاويته .

(٢) سورة النحل آية : ١٢٥

(٣) أى يمهد السبيل لدعوة المريد .

له قل : لا إله إلا الله جميع أحكامها ، فلا يصير يحتاج بعد التلقين إلى مطالعة كتاب ، بل يصير يعرف جميع أحكام الشريعة المتفرقة فى جميع مذاهب المجتهدين ويدرس الناس فيها ، وأما شرط من يرخى العذبة للمريد فى عمامته بأن يقدره الحق تعالى على أن يعطى ذلك المريد الذى أرخى له العذبة سر النمو والزيادة فى كل شىء نظر إليه أو مسه ، حتى أنه لو مد العمود ، أو الخشب امتد معه ، فيكون إرخاء العذبة له إشارة إلى أنه من أصحاب هذا المقام من باب التحدث بالنعمة[1] .

قلت : ومما يشهد لمشروعية العذبة ومقدارها ولبس الخرقة ماورواه البيهقى عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ رأى على عبد الرحمن بن عوف من كرابيس مصبوغة بسواد ، لما أمره على سرية عقد له اللواء فأخذها ﷺ فحلها ثم عممه بيده ، وأفضل موضع أربع أصابع أو نحو ذلك . وقال : هكذا فاعتم فإنه أحسن وأجمل » . وروى أبو داود عن عبد الرحمن بن عوف قال : عممنى رسول الله ﷺ فسدلها بين يدى ومن خلفى[2] . انتهى .

وأما شرط من يلبس المريد الخرقة من ثوب أو عمامة أو طاقية ، أو قلنسوة ، أو رداء فأن يقدره الله على نزع جميع الأخلاق الردية من ذلك المريد حال أمره له بنزع شىء مما عليه من الثياب[3] ، ثم يفرغ عليه حال إلباسه له تلك الخرقة جميع الأخلاق المحمدية التى هى من مقامه ، فلا يصير يحتاج بعد ذلك إلى علاج فى تحصيل خلق من الأخلاق انتهى .

قال السهروردى : والبس الخرقة الزرقاء للمريد أولى عند الجمهور ، ولكن إن اختار

---

(١) يقصد بذلك أن يكون الشيخ من الكمال والقوة بحيث يوصل مريده إلى هذه الأمور .
(٢) مذكور فى كتب السيرة والمغازى .
(٣) ويقصد الامام الشعرانى من ذكر ذلك أنه مأخوذ عن سيدى رسول الله ﷺ .
(٣) فلا يقصد بذلك المعنى الظاهر وهو مجرد التغيير فقط .

الشيخ أن يلبس المريد غير الأزرق فلا اعتراض عليه ، لأن الأشياخ[1] بحكم الوقت في كل ما لم يرد في الشرع تصريح به . وللشيخ أن يلبس المريد خرقاً على دفعات . انتهى .

فعلم أن كل من لم يقدره الله تعالى على ما ذكرناه في هذه المراتب : فليس له المزاحمة على مراتب العارفين[2] . اللهم إلا أن يقصد بذلك التبرك أو التشبه بالقوم بشرط أن يعلم الناس بأنه متشبه بأهل الطريق لا متحقق بمقامهم فلا بأس بذلك .

وقد كان شيخنا الشيخ محمد الشناوى رحمه الله إذا لقن أحداً يقول له : اسمع منى يا ولدى قولى ثلاث تشبهاً وتبركا برسول الله ﷺ وبالسلف الصالحين رضى الله عنهم . ثم يلقنه بعد ذلك[3] انتهى .

قلت : قد اختلف المحدثون في إثبات لبس الخرقة من طريق الحسن البصرى عن على بن أبى طالب ، حتى أن الشيخ محيي الدين بن العربى لبسها من يد الخضر عليه السلام ، ومن يد رسول الله ﷺ ، ليتصل سنده بها . ولكن قد صحح الحافظ ضياء الدين المقدسى والجلال السيوطى اتصال سندها من على ، وأن رسول الله ﷺ ألبس أم خالد خميصة فيها خطوط صفر وسود وقال لها : « إبلى وأخلقى » . وثبت في الحديث : أنه ﷺ ألبس عبد الرحمن بن عوف عمامة . وكذلك على رضى الله عنهما كما مر والحمد لله رب العالمين .

---

(١) يقصد بذلك أن الأشياخ يحكون العصر في الأمور التى لم يرد فيها نص ولا كتاب من لدن الله تعالى أو رسوله ﷺ .

(٢) إستبعاد لكل من لا يقدر على هذه الشروط من جملة المشايخ المرشدين .

(٣) وذلك في مبتدأ طريقه .

ومن أخلاقهم كراهتهم لتقبيل أحد يدهم فضلا عن رجلهم

فإن فى محبتهم لمثل ذلك إزدراء بإخوانهم ورضى بإظهار السيادة عليهم ، وما هكذا درج السلف الصالح رضى الله عنهم كما سيأتى بسطه فى مواضع من هذا الكتاب .

وقد كان سيدى إبراهيم المتبولى رضى الله عنه يقول : لا ينبغى لفقير أن يمكن أحداً من تقبيل يده أو التمسح بثيابه ، إلا إن صار فى مقام الحجر الأسود . فقيل له وما مقام الحجر الأسود ؟ فقال : من مقام حفظ عهود جميع من استلمه ، ويحمل خطايا بنى آدم عنهم ، وفداؤهم بنفسه ، ولو اسود بذلك وجهه بين الناس .

ومن مقامه: أن يتطهر من تلويث قلبه بشىء من الأوهام ، حتى لا يصير يلتبس عليه أمر فى الدنيا والآخرة . وأن يتحقق بترك الشهوات كلها ، حتى لا يصير يقع فى شهوة تحجبه عن شهود الحق تعالى فى ساعة من ليل أو نهار .

ومن مقامه أن يكون مجالسته للناس مذكرة لهم بربهم وبنعمته عليهم ، حتى يبيض بذلك وجوههم وقلوبهم(١) . ومن مقامه أن لا يخطر فى باله أن له مزية على من يقبل يده مثلا من جميع العصاة ، إلا من حيث الشكر لله الذى حماه مما وقعوا فيه ، ومتى غفل عن هذا المشهد فلا ينبغى له أن يمكن أحداً من تقبيل يده انتهى .

فلينظر الذى يمكن الناس من تقبيل يده فى نفسه ، فإن رأى فيها هذه الشروط فله أن يمكن الناس من تقبيل يده ، وإن كان الأولى له المنع من ذلك .

وسمعت محمد بن عنان وسيدى عليا الخواص رحمهما الله يقولان : لا ينبغى لفقير أن يمكن أحداً من تقبيل يده إلا بعد مجاوزته الصراط سالماً ، وكان أشد الناس كراهة لذلك .

---

(١) حتى تكون حياته كلها لله تعالى ويتبع فى ذلك سنة نبيه ﷺ .

وبالجملة فعلى العبد هضم نفسه ، وعلى المريدين التعظيم له من حيث كونه واسطة لهم فيما بينهم وبين حضرة الله تعالى عز وجل . التى يريدون أن يكونوا من أهلها . والحمد لله رب العالمين .

فاعرض يا أخى ذلك على مريدى عصرك تعرف مقامهم ولا تنس نفسك والله يتولى هداك .

ومن أخلاقهم كثرة تفتيشهم نفوسهم كل ساعة من ليل أو نهار
ليعلموا هل الحق تعالى راض عنهم أو ساخط عليهم

فيفرحوا ويستبشروا أو يندموا ويستغفروا . ويعرفون ذلك بوزن الأعمال البارزة على يديهم بالكتاب والسنة ولا يخلوا عن ثلاثة أحوال إما موافقة أو مخالفة أولا تظهر فيها مخالفة ولا موافقه .

فأولى أحوال هذه الوقف فإن كان أحدهم ممن يتوب من شهوات النفس المباحة وجع ذلك إلى قدم الدم، فيستغفر صاحبه كما يستغفر من المكروه أو خلاف الأولى . ثم لايخفى أن أحدنا إذا رأى أفعاله مخالفة لظاهر الكتاب والسنة وندم واستغفر فليس هو على يقين من قبول توبته ورضى الله عنه أو مسامحته بذلك الذنب ، وحيث لايقين فمن الأدب دوام الخوف والخجل من الله عز وجل . لأن الذنب قد يتحقق بمخالفة الشريعة ، وأما القبول للتوبة فليس مع أحدنا بذلك علم . وقد بلغنا ان الله تعالى أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام : ياداود قل لفلان العابد مالى لاأراك نائحاً على ذنبك أتظن أنك بتقادم عهدك به أنى قد غفرته لك ومن أخبرك عنى انى قد غفرته ؟ انتهى . وسيأتى قريبا أن ذنوب الأنبياء كلهم صورية لاحقيقية فافهم .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : إذا أذنب أحدكم فليكثر من التوبة والاستغفار على الفور خوفاً من الإصرار فيطبع الله على قلوبكم فلا يصير تصح لها توبة من عدم الندم [1] . قال : ولعل أحدنا يكون ربه ساخطا عليه على الدوام ،

(١) روى البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » .

وروى الإمام مسلم عن الأغر بن يسار المزنى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ياأيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإنى أتوب فى اليوم مائة مرة » .

وذلك لتعاقب الأعمال القبيحة عليه فلا يتوب من ذنب إلا ويعقبه ذنب آخر ، وربما أسخط العبد ربه بالذنب الواحد اليوم ، واليومين ، وأكثر وهو مصر عليه من غير توبة . فمثل هذا لايزال الحق ساخطا عليه حتى يقع فى ذنب آخر يسخط به ربه . فمثل هذا سخط الحق تعالى عليه دائم ، وربما كان نظر فى نفسه أنه من الصالحين فليتنبه الفقير لمثل ذلك [1] . فوالله لقد خلقنا لأمر عظيم ، نقص وخذلان وشيب وعيب ودعوى عريضة بعد ذلك .

وقد كان السرى السقطى رضى الله عنه على أعمال [2] يعجز غيره عنها ، حتى قال : أبو القاسم الجنيد كان السرى السقطى يقول لنا : يا أولادى عليكم بالأعمال الصالحة ، قبل أن تصيروا عاجزين مثلى [3] . قال الجنيد : وكنا مع ذلك لانلحقه فى العمل وهو فى

وعن أبى حمزة أنس بن مالك الأنصارى خادم رسول الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره ، وقد أضله فى أرض فلاة » متفق عليه .

(١) يقول الإمام النووى : قال العلماء التوبة واجبة من كل ذنب ، فإن كانت المعصية بين العبد و بين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمى ، فلها ثلاثة شروط :

أحدها : أن يقلع عن المعصية .

الثانى : أن يندم على فعلها .

الثالث أن يعزم أن لايعود إليها أبدا .

فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته ، وإن كانت المعصية تتعلق بآدمى ، فشروطها أربعة. هذه الثلاثة ، وأن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه وإن كان حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفو وإن كان غيبة استحله منها .

ويجب أن يتوب من جميع الذنوب ، فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب وبقى عليه الباقى .

وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة ، وإجماع الأمة على وجوب التوبة .

(٢) لعله يقصد أنه يقوم بأعمال يعجز غيره عنها .

(٣) تواضعا منه وتشجيعا لهم .

آخر عمره ، وقد أتت عليه ثمان وتسعون سنة فما رؤى مضطجعا إلا فى علة الموت . قال الجنيد : وقد سمعته مراراً يقول لى : يامحمد لى منذ ثلاثين سنة وأنا أظن ان الله تعالى ينظر إلى نظر الغضب (٤) انتهى .

قلت : وهذا القول من السرى رضى الله عنه من باب الاتهام لنفسه والا فاعتقادنا فيه ، بحسب ما تواتر عنه أنه كان مطهرا من الذنوب ، بل بلغنا عنه أنه كان يؤاخذ نفسه بخلاف الأولى فضلا عن المكروه ولو لم يكن له من الفضل إلا كون الإمام الجنيد الذى أجمع القوم كلهم على فضله وجلالته من جملة تلامذته .

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : إذا كان الشيطان يركب أحدنا كلما غفل عن ذكر الله تعالى مع طهارة سرائرنا فكيف لا يركب أحدنا إذا فعل مايسخط الله عز وجل عليه ؟ فإنه دائماً واقف تجاه قلب العبد ، وكلما غفل عن الله استحوذ عليه ، وكلما ذكر الله تعالى تركه ، قال فلو كشف لأحدنا لرأى إبليس يركبه وينزل عنه طول الليل والنهار كلما غفل وكلما ذكر الله تعالى .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : مادام العبد مستحضرا أنه بين يدى الله عز وجل فلا سبيل لإبليس عليه . فإذا حجب عن هذا المشهد عبث به فاعلم يأخى ذلك واعمل عليه واعرضه على مريدى زمانك تعرف حالهم ولا تنس نفسك والحمد لله رب العالمين .

---

(٤) من شدة ورعه وتقواه كان يعتقد أن كل أعماله لاتبلغ حق الله تعالى وأنه اقل المسلمين شانا .

ومن أخلاقهم توطين نفوسهم على كثرة التعب فى المريد الذى تقدمت
له صحبة بأحد من الفقراء الذين لا قدم لهم فى الطريق

كغالب الأحمديه والبرهانية والمطاوعة فإن الحكم غالباً للداع الأول والداع الثانى طارىء (١) .

وقد صحبت بعض من صحب المطاوعة فذاب قلبى من التعب فيه فاقرر له معالم طريق الصوفيه وقواعد طريقهم حتى أقول أنه ماعاد يخرج عنها ثم يرجع إلى قواعد المطاوعة فى أسرع مايكون . واعلم ذلك واعرضه على مريدى عصرك تعرف حالهم ولاتنس نفسك .

---

(١) أى أن المريد يتغلب عليه الإتباع لشيخه الأول مما يجعل من الصعب هدايته .

ومن أخلاقهم كثرة شفقتهم ورحمتهم على جميع عصاة هذه الأمة المحمدية من شربة الخمر والمكاسين وسائر من عليه تبعة للخلق

فإنه كالأسير لأصحاب الحقوق ومحبوس عن الجنة حتى يوفى ذوى الحقوق حقوقهم .

ولعل غالب الناس لايعد تبعات الخلائق بلاء ويعتقدان البلاء إنما هو الأوجاع والآلام من زمانه وجذام وبرص ونحو ذلك وكان سفيان الثورى رضى الله عنه يقول : إذا رأيتم أحدا من أعوان الظلمة فاسجدوا لله شكرا فإنهم من أهل البلاء وبلاؤهم اعظم من البلاء فى الجسد انتهى .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : البلاء فى الدين أشد من البلاء فى الجسد، فارحموا العصاة وادعوا لهم فإن غالب الناس لايكاد يرحم أحداً منهم كما يرحم من ابتلى ببلاء فى جسده أو تحولت عنه نعمة . وقد أطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم البلاء فى قوله : « ارحموا أهل البلاء » . فلم يخص بلاء دون بلاء انتهى .

ثم اعلم يا أخى أنه لافرق فى رحمتنا للعصاه بين أن يكون أحدهم متلبساً بالمعصية أوفى عقوبتها ولايجوز لنا الشماتة به أو التشفى منه إلا على وجه أن ذلك تطهير له من ذنبه فتفرح له بتلك العقوبة من حيث كونها مطهرة له من دنس المعصية لالعلة أخرى [1] .

---

(١) روى الإمام مسلم عن أبى نجيد عمران بن الحصين الخزاعى رضى الله عنهما أن امرأة من جهينة ، أتت رسول الله ﷺ وهى حبلى من الزنا فقالت : يارسول أصبت حداً فأقمه على فدعا نبى الله ﷺ وليها فقال : أحسن إليها فإذا وضعت تأتنى ، ففعل فامر بها نبى الله فشدت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ، ثم صلى عليها ، فقال له عمر : تصلى عليها يارسول الله وقد زنت ! قال : تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل ؟

وقد روى الطبرانى مرفوعاً « من لايرحم لايرحم ومن لايغفر لايغفر له ومن لايتب لايتب الله عليه » . وفى الحديث أيضاً : « ومن أتاه أخوه متنصلا من ذنب فليقبل ذلك محقا كان أو مبطلا فإن لم يفعل لم يرد على الحوض[١] » .

وروى البيهقى : « أن بدلاء امتى لم يدخلوا الجنة بالأعمال وإنما دخلوها برحمة الله وسخاوة الأنفس وسلامة الصدور والرحمة لجميع المسلمين » انتهى .

والظلمة والعصاة كلهم من المسلمين وماخرج إلا الكفار فإياك يأخى وقولك لمن هو فى عقوبة ذنب فلان يستحق ذلك وأكثر فإنه تحصيل الحاصل مع أنه فيه رائحة الشماتة بالمسلمين ولولا عفو الله وحلمه لأهلك كل عاص على وجه الأرض عقب معصيته فضلاعن كونه يحبسه أو يضربه مثلا . وإياك والقساوة على أحد من عصاة المسلمين ، فإن ذلك ينافى أخلاق الصالحين . وعاملهم ظاهراً معاملة القاضى زجرالهم وأنت راحم لهم فى الباطن عملا بالشريعة والحقيقه .

فقد قالوا : من نظر إلى الخلق بعين الشريعة مقتهم ومن نظر إليهم بعين الحقيقة رحمهم[٢] . وقد كان أبو سليمان الدارانى[٣] يقول : اللهم إنك قد أدخلت فى قلبي

---

(٢) سبق تخريجه .

(١) فإنه بعين الحقيقة ينظر إليهم على أن الله غافر الذنب وقابل التوب ، وأنه يغفر الذنوب جميعاً ولو كانت مثل زبد البحر ؛ ولو لم يوجد مذنبون وعصاة يستغفرون ، لخلق الله من يذنب ويستغفر ، فإن الله يحب التوابين .

(٢) هو أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الدارانى توفى سنة خمس عشرة ومائتين . ومن أقواله :

« من أحسن فى نهاره كوفىء فى ليله ، ومن أحسن فى ليله كوفىء فى نهاره ، ومن صدق فى ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه ، والله تعالى أكرم من أن يعذب قلبا بشهوة تركت له » .

وأيضاً : « ربما يقع فى قلبي النكتة من نكت القوم أياما ، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين : الكتاب والسنة » .

الرحمة على العصاة فإن شئت أن تفديني عنهم فافعل . انتهى . وهذا من أبى سليمان من باب إظهار النعمة وقياماً بما كلف به العبد من حمل هموم المسلمين ، وإلا فهو يعلم أن الله تعالى أرحم بالعصاة منه . وقد رتب الله الأسباب على مسبباتها وأمر العبد بالشفاعة عنده فى أخيه ، وجعل له الثواب فى مدافعته الأقدار الجارية عليه بالمعاصى ، وان كانت متحتمه الوقوع فافهم ، واعرض ذلك علي مريدى عمرك تعرف حالك ولا تنس نفسك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم مساعدة أحد من إخوانهم على تولية شيء من الوظائف التي لا خلاص لهم فيها بميزان الشرع الشريف الآن كالحسبة والقضاء

وهذا الأمر ربما يخل به كثير من فقراء الزمان فيسعى لمن يتولى القضاء أو الحسبة مثلا عند الباشاه أو الدفتر[١] أو قاضي العسكر ، ولا ينظر لكونه يضر ذلك المتولى والساعى أم لا .

فينبغي لمن يريد مساعدة أحد في تولية المناصب التي لا خلاص فيها أن لا يبادر إلى مساعدته إذا سأله في ذلك ، بل يتربص ويتروى ويشاور الإخوان في ذلك . ثم إن وثقوا كلهم بدينه وخيره وقلة بلاصه[٢] وعدم أخذه الرشا[٣] ، ولم يروا في البلد من هو أصلح لذلك منه فهناك يساعدونه على التولية من باب ظالم دون ظلم[٤] .

فعلم أنه لا يجوز لأحد مساعدة القاضي مثلا إذا لم يثق بدينه[٥] .

ولكن إن أراد مساعدته فليسأل الله تعالى في إصلاح حاله فإن صلح حاله ساعده وإلا وكل أمر ذلك إلى ولى الأمر ، ولا ينبغي لنا مساعدته ولو ساق علينا الساقات ، فإنه كالطفل الذي لا يدرى ما يضره ولا ينفعه ، ولا يقع في تولية القضا في هذا الزمان

وقال : « أفضل الأعمال : خلاف هوى النفس » .

(١) ربما يقصد الدفتردار .

(٢) ربما يقصد قلة تهاونه أو شيء من أنواع التهاون في الشرع .

(٣) يقصد الرشوة .

(٤) وكان سيدنا عمر لا يعطى الولاية لمن يطلبها ، ورفض سيدنا أبو حنيفة النعمان تولى القضاء ، وكذلك عدد كبير من الصالحين خوفا من عدم الحكم بما أنزل الله .

(٥) فإنه إذا لم يكن القاضي صالحا فسدت كثير من أمور المسلمين وانقطع العدل من حياتهم .

إلا من لم يحتط لنفسه ، فإنه ولو كان ديناً يدخل عليه التلبيس من الأخصام وغيرهم ، فيحتاج إلى حذق زائد ، لأنه فى النصف الثانى من القرن العاشر صاحب العجائب والغرائب .

وقد امتنع من تولية القضاء خلائق من السلف رضى الله عنهم ، كالإمام أبى حنيفة ، وصله بن أشيم [1] وسفيان الثورى ، والإمام الشافعى وغيرهم .

وأما الإمام الشافعى فدعاه المأمون إلى القضاء بالمشرق والمغرب فأبى .

وأما الإمام أبو حنيفة فضرب وحبس ولم يتول ، وكان الذى دعاه إلى القضاء الخليفة المنصور .

وأما سفيان فهرب إلى بلاد اليمن متنكراً .

وأما صله بن أشيم فتحامق على الخليفة فتركه ، وكان من شهامته أنه لما دخل على المنصور لم يسلم عليه ، بل قال له : أيش طبخت اليوم؟ وكم عندك حمار [2] ؟ فقال : أخرجوه عنى.

وقد كان سبق من الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه أنه قال : حين طلب للقضاء بعد موت القاضى شريح هو وسفيان وصله بن الأشيم وشريك : إنى أخمن لكم تخميناً : أما سفيان فيهرب ، وأما أنا فأحبس ولا ألى . وأما شريك فيقع ، وأما صله ابن اشيم فيتحامق ، ويتخلص ، وكان الأمر كما قاله الإمام رضى الله عنه قالوا : ولم يكن بعد القاضى شريح فى العلماء أعلم ولا أورع ولا أزهد من هؤلاء الأربعة رضى الله عنهم .

ولما تولى أحمد بن شريح القضاء عاب عليه ذلك الشافعية وهجره تلميذه أبو على

---

(١) هو صلة بن أشيم العدوى رضى الله عنه : كان يقول : إذا أمر بقوم يلعبون أخبرونى عن قوم أرادوا سفراً فقطعوا النهار فى اللعب شغلا عن الطريق و ناموا ليلا متى يصلون مقصدهم.
ومات أخ له فى بلاد بعيدة فسبق شخص فأخبره ، فقال رضى الله عنه : « قد أخبرنى الله تعالى بذلك ، قال تعالى : « إنك ميت وإنهم ميتون » .
وكان رضى الله عنه يصلى حتى يزحف إلى فراشه ، رضى الله عنه .

(٢) يقصد بذلك إدعاء الجنون حتى لا يولى القضاء .

حتى مات ، وقال : لم يكن هذا الأمر فى أصحاب الإمام الشافعى إنما كان فى أصحاب غيره . ولما مات ابن شريح طلبوا أبو علي للقضاء فدخل بيته واختفى منهم فطينوا عليه الباب عشرين يوماً ثم فتحوا عليه الباب فإذا هو قائم يصلى فأنشدوا فى ذلك :

وطينوا الباب على أبى على　　　عشرين يوماً ليلى فما ولى

وكذلك بلغنا عن الشيخ أبى الحسن الششترى المغربى صاحب الموشحات الربانية رضى الله عنه ان سلطان المغرب طلبه للقضاء ، لما أشتهر للناس من زهده ، وعفته ، وسعة علمه واعدهم ، إلى بكرة النهار ، ثم دخل الفجر إلى الحمام ، وأرمى شعر لحيته وحواجبه بالنورة ، وخضب يديه ورجليه بالحناء ولبس ثوباً معصفراً وجعل على رأسه طرطوراً ، فلما أتوه بالبغلة والغاشية ، خرج لهم على هذا الحال ، وركب البغلة وذهب إلى السلطان ، فقال : لا حاجة لنا بمثل هذا . وعرف السلطان أن ذلك إنما عمله حيلة حتى لا يتولى فبكى السلطان ورق لحاله وأطلقه ، فمن ذلك اليوم ، خرج الشيخ سائحاً فى الأرض يعمل الموشحات والزجل ، إلى أن مات كما أشار إلى ذلك فى أول ديوانه ، ولما بلغ علماء عصره ما فعله من الحيلة حمدوه على ذلك وعرفوا دينه .

وبلغنا عن الإمام أبى حنيفة أن المنصور[1] أخرجه من الحبس وقال له : لم لا تتولى وتنفع الإسلام ؟ فقال : لا أصلح لذلك . فقال له الخليفة : بلى تصلح . فقال : لا يخلو إما أن أكون صادقاً فلا يصلح من قضاء وإما أن أكون كاذبا فالكاذب كذلك لا يصلح أن يكون قاضياً . انتهى . فأعجز الخليفة .

ولما طلبوا أبا قلابة للقضاء هرب إلى الشام وقال : ليس القضاة اليوم قضاة وإنما هم شرطيون . ومن علامة ذلك : أن أحدهم يستغنى ويكثر ماله إذا تولى . انتهى .

قلت : ويؤيد ذلك قول إمامنا الشافعى رضى الله عنه : من ولى القضاء ولم يفتقر فهو لص[2] .

(١) أحد خلفاء الدولة العباسية العظام ، بل يعتبر هو المؤسس الحقيقى لهذه الدولة .

(٢) أى أن المطلوب فى القاضى الورع الشديد فلا يأخذ الرشاوى ولا يتسامح مع الكبراء ويعطى كل ذى حق حقه .

ولما غضب أحمد بن طولون[1] على القاضى بكار[2] على القضاء كان يقضى بين الجن والإنس احتسابا وهو متخلل بالرداء وعلى رأسه قطعة لبد . وكان ابن طولون يعطيه كل سنة ألف دينار فيضعها عند أمه فى الصندوق . فلما وقع بينه وبينه وحبسه قال له : يا بكار أين جوائزى ؟ فأرسل لأمه فحملوها له وكانت اثنى عشر ألفاً عدد السنين التى تولاها : فلم يزل القاضى بكار فى الحبس حتى مات فيه ، ولما حبس انقطع التحديث من مصر . فمضى العلماء إلى ابن طولون وقالوا له : أطلقه لنا يوما فى الجمعة يملينا الحديث ثم يرجع إلى الحبس فأبى . فسألوه ثانياً فأمر لهم بفتح طاقة من الحبس بقدر ما يرون وجهه فقط . وكان يلبس ثوبه ويتطيب كل يوم جمعة ويقول للسجان : دعنى أجيب داعى ربى ثم أرجع . فيقول له : ما معى بذلك اذن فيرجع إلى داخل الحبس ويقول : اللهم اشهد . وبلغ من ورع القاضى بكار أن رسول الخليفة لما أتاه من بغداد يطلبه للقضاء وجده يخبز فى الفرن فانتظره حتى خرج . فقال له الرسول : قف حتى أكلمك . فقال : إن الرداء الذى على لوالدتى وقد استأذنتها أن أخبز فيه فقط . فقف حتى أدخل وأستأذنها فدخل ، فأذنت له . وأخر مرة القضاء بين اثنين فى جمل تنازعا فيه فمات الجمل بعد ساعة ، فوزن لهما ثمنه ، وقال : لو كنت حكمت لأحدهما به لمات على ذمته انتهى .

فإذا كان أهل المائة الثانية والثالثة من زمنه ﷺ قد امتنعوا من تولية القضاء مع إكراههم عليه وشدة ورعهم وزهدهم ولم يثقوا بخلاص نفوسهم فيه ، فكيف بأهل النصف الثانى من القرن العاشر كما مر تقريره ؟

وقد كان قضاة السلف يجوعون ، ويلبسون الثياب الخلقة ، ويرقعونها بالخيش

---

(١) من ملوك مصر نيابة عن الخلافة العباسية .

(٢) كان من كبار المحدثين والقضاة الأفاضل فى مصر فى زمن أحمد بن طولون ، تولى القضاة وكان مشهوداً له فيه بالعفه والشرف .

لتعطلهم عن الكسب بالاشتغال بالقضاء بين الناس وعدم أخذهم مالا على القضاء[1] .

وكان أحدهم لا يجد غداء ولا عشاء فى أكثر أيامه . وكانوا يصومون ليكونوا فى عبادة فيها رضى الله عنهم خوفاً أن يسوء خلقهم بالجوع فيلتبس عليهم الحكم رضى الله عنهم .

فعلم من جميع ما قررناه أنه لا ينبغى لفقير أن يتوجه إلى الله تعالى فى تولية أحد من أصحابه ، إلا بطريق شرعى بعد تربص واستشارة ، فربما توجه الفقير إلى الله فى تولية من لا يصلح ، فأخذ الرشاء فى الأحكام ، وكان ذلك الفقير شريكا له فى الاثم لأنه كمن أعان ظالماً على ظلمه[2] ، لا سيما إن كان قد أقسم على الله تعالى بأنبيائه ورسله حال توجهه إليه أنه يوليه .

وقد كان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : إياكم أن تقسموا على الله تعالى فى توليته أحداً من أصحابكم شيئاً من هذه الوظائف المشحونة بالظلم ، فتهلكوا نفوسكم وتهلكوا صاحبكم . ولكن إن كان ولا بد لكم من سؤال الله تعالى فقولوا : اللهم إن كان سبق فى علمك أنه يتولى وهو أهل لذلك فوله ، وإن لم يكن أهلا لذلك فدبره فيما سبق به علمك ، وارزقه القناعة والعفة حال ولايته ، وتسلموا من مشاركته فى الإثم.

---

(١) فكانوا يتفرغون للقضاء تفرغا تاما فلا يشغل فكرهم أى شىء غير القضايا التى تقدم إليهم فيمعنوا التفكير فيها أشد الإمعان ،

(٢) روى البخارى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنصر أخاك ظالما أو مظلوما » فقال رجل: يارسول الله أنصره إذا كان مظلوما ، أرأيت إن كان ظالما ، كيف أنصره ؟

قال : « تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره » ،

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم ، لايخونه ولا يكذبه ، ولا يخذله ، كل المسلم على المسلم حرام ، عرضه ، وماله ، ودمه ، التقوى ها هنا ، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ،

ثم من أقل ما يحصل لمن يتولى القضاء فى هذا الزمان : أنه يصير كالعبد لمن سعى له فى تلك الولاية ، ويزدوى ثيابه ومركبه وزوجته . ويطالب أعلى من ذلك لأجل مجالسة الأكابر . ولا يصح له ذلك إلا إن أخذ معلوماً على القضاء . وربما وقع فى الحكم لبعض الأمراء بالباطل مراعاة لخاطره لا سيما ان كان ذلك الأمير ممن يحسن اليه عادة .

وقد رأيت قاضياً يبالغ فى مدح بعض الظلمة ويطعن فى بعض العلماء والصالحين ، فقلت له : أعكس الحال يا أخى فصار يقيم البراهين على تفضيل ذلك الظالم . نسأل الله العافية .

فاعرض يا أخى هذه الآفات على من تساعده فلعله يرجع عن طلب القضاء . وقد زكيت مرة قاضيا عند قاضى عسكر فظهرت قلة أمانته فلا تسأل يا أخى ما حصل لى من الندم . وقد عزمت على أنى ما عدت أشفع لأحد فى تولية القضاء الى أن أموت الا أن خالطته مخالطة شديدة .

فاعرض يا أخى ما قررناه لك على مريدى زمانك تعرف مقامهم ولا تنس نفسك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم المواظبة على قيام الليل ولا يتركون ذلك إلا لعذر شرعي دون الكسل

ويفتتحون قيام الليل بركعتين خفيفتين يقرأون فى الركعة الأولى بعد الفاتحة قوله تعالى: « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً »[١] وفى الركعة الثانية بعد الفاتحة « ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً »[٢] . ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً » ويسمى هاتان الآيتان آيتى الاعتراف بالذنوب[٣] .

وكان سيدى ابراهيم المتبولى رضى الله عنه يصلي بعدهما ركعتين أخريين يقرأ فى كل منهما بعد الفاتحة[١] سورة القدر مرة ، ثم سورة قل هو الله أحد[٢] ست مرات ، ثم المعوذتين[٣] مرة واحدة ، ويقول : قد ورد فى ذلك حديث حسن ، وأن من واظب

---

(١) سورة ~~آل عمران~~ النساء آية ٦٤ (٢) سورة النساء آية : ١١٠

وتمامها :

« ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما ، ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا » .

(٣) لأن فيهما الاستغفار والتوبة إلى الله ورسوله وفى كلتا الآيتين يجد الله توابا رحيما وغفورًا رحيما .

(١) عن أبى سعيد رافع بن المعلى رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله ﷺ : « ألا أعلمك أعظم سورة فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد » ، فأخذ بيدى ، فلما أردنا أن نخرج قلت : يارسول الله إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن ، قال : « الحمد لله رب العالمين هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته » رواه البخارى .

(٢) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى قراءة قل هو الله أحد : « والذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن » رواه البخارى .

(٣) عن عقبة بن عامر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط ، قل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس » .

عليهما حفظ الله تعالى عليه إيمانه حتى يلقاه[1] ، وقد علمتهما لجماعة المجلس وهم الآن مواظبون عليها لكن بعد طلوع الشمس وارتفاعها كرمح .

وقد كان الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يقول : لأن يلقى أحدكم ربه بالإيمان الكامل عن النقص خير له من أن يلقاه بعبادة الثقلين وفى إيمانه ثلمة انتهى . .

ولعل مراد الشيخ بالإيمان الكامل أى بالنسبة لمقام كل عبد ، وإلافلا يكمل إيمان عبد حقيقة إلا إن كان لايخل بشىء من المأمورات الشرعية ، ومتى خل[2] بأمور واحد صدق عليه نقص الإيمان فافهم .

وأما حكمة الركعتين الخفيفتين التى يقرأ فيهما آيتى الأعتراف فهو فتح باب الصفح أو العفو أو الرضى فيعرفوا بذلك أهل الحق أنه صفح عنهم أو عفى أو رضى عنهم قبل أن يتمثلوا بين يديه فى الصلاة حال التجلى الآلهى فيهما كالادمان للوقوف الخاص بين يديه السالم من إلتفات القلب فيه لغير الله تعالى أو كالسنة التى قبل الفريضة .

وقد نقل الشيخ أحمد الزاهد أن رسول الله ﷺ كان يفتتح بهاتين الركعتين صلاة الليل ، ثم يطيل بعد ذلك ماشاء الله تعالى ، ولم يكن عليه ﷺ ذنب ولم يكن الحق تعالى غير راض عنه قبل فعلهما وإنما فعلهما تشريعاً لأمته .

وكان سيدى ابراهيم المتبولى رضى الله عنه إذا فعلهما يصير يردد كل آية حتى يظن أن الله تعالى قبل استغفاره واستغفار نبيه فى حقه .

---

(١) لأن سورة الفاتحة هى أم القرآن وتلخيص له وهى تقصر الإستعانة على الله وحده فى جميع الأمور .

وسورة القدر فيها تعظيم لكتاب الله وهو القرآن الكريم .

وسورة الإخلاص فيها تلخيص الإيمان فكثرة ترديدها فيه تثبيت لهذا الإيمان وتقوية له .

أما المعوذتين فإنها الإستعانة بالله لإبعاد أى سوء .

فكل هذه الآيات تقوى الإيمان وتحفظه .

(٢) لعله يقصد أخل .

وكان إذا قرأ « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول» يمثل أنه بين يدى رسول الله ﷺ ويصير يقول :

اللهم إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فإنه لايغفر الذنوب إلا أنت ، فإذا تم الورد قال : ياسيدى يارسول الله استغفر لى ربك صلى الله وسلم عليك ، فلا يزال يكررها حتى يفرغ الورد من العدد ثم يقول : اللهم إنى أسألك بك أن تقبل استغفار نبيك ﷺ فى حقى قاصداً بذلك مساعدة نبيه ﷺ من باب أعنى على نفسك بكثرة السجود . وربما كان ﷺ يستحى من الله تعالى أن يسأله فى ذلك الوقت لكونه كان أشد حياء من العذراء فى خدرها .

واعلم يا أخى أن كثرة تكرار سؤال المغفرة ليس هو من باب سوء الظن بالله تعالى ، ومن ظن ذلك فعليه الاستغفار من ذلك ، وإنما هو من باب عدم استحقاقنا لإجابة دعائنا .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول عن هاتين الركعتين : أنهما كالوقوف بعرفة بالنسبة للوقوف فى المسجد الحرام . انتهى ..

ثم إذا أحس العبد بأن الله تعالى قبل منه استغفاره واستغفار نبيه ﷺ بنور الكشف أو بنور الإيمان من خلف حجاب ركع إذ ذاك لأن الركوع كالباب الأول من باب الملك بالنسبة للسجود ، ثم إنه يقوم من السجود وقد غلب على ظنه أن الله تعالى قد غفر له غالب ذنوبه ، فيقوم للركعة الثانية ليغفر له بقية ذنوبه ، وإن كان غلب على ظنه مغفرتها كلها بالركعة الأولى قام الركعة الثانية شكراً لله ويكون استغفاره فى الركعة الثانية إظهاراً للفقر والفاقه ، وقياماً بشعار العبودية كما هو الحكم فى استغفار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ثم إذا قرأ قوله تعالى ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه إلى آخرها يصير يرددها حتى يغلب على ظنه من باب الإلهام أن الله تعالى قد قبل توبته ، وكيفية ذلك أن يقول :

اللهم إنى عملت سوءاً وظلمت نفسى وأنت العليم الحكيم ، فاغفر لى ، فلا يزال يكررها حتى يفرغ الوارد ويغلب على ظنه أن الله تعالى قبل استغفاره عن بقية ذنوبه التى لم تغفر فى الركعة الأولى، ثم يقول :

اللهم إنى قد اكتسبت الخطيئة والإثم ، وربما رميت به أحداً من البراء من عبادك زوراً وبهتاناً فاغفر ذلك لى من فضلك وإحسانك يا أرحم الراحمين .

وكان سيدى علياً الخواص رحمه الله يقول :

إذا ظن أحدكم أن رسول الله ﷺ ممن غلب عليه الحياء من الله تعالى فى ذلك الوقت أن يسأل الله لأحد المغفرة ، فمن الأدب الصبر حتى يخف عنه ﷺ وارد الحياء الشديد من ربه عز وجل لألا يكون نبيه بسؤاله له فى ذلك الوقت ثم لا بأس باعتذاره لرسوله ﷺ بعد ذلك ويقول : ياسيدى يارسول الله اعذرنى فى إلحاحى عليك أن تستغفر لى ربك ، فإنك رحمة بأمتك وأنا شخص مضطر إلى سؤال العفو عنى وليس لى وجه عنده إلا بواسطتك .

وكان أخى أفضل الدين رحمه الله يقول :

ينبغى للعبد إذا سأل ربه أن يقبل استغفار نبيه فى حقه أن لا يقصد بذلك حظه نفسه، وإنما يقصد بذلك المسارعة إلى مساعدة نبيه ﷺ خوفاً أن لا يقبل الله تعالى فى ذلك الوقت استغفاره فى حق ذلك العبد فيخجل ﷺ ، انتهى .

فاعرض ذلك على مريدى عصرك ولا تنس نفسك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أن لا يقرأوا قرآناً ولا حديثاً ولا يسبحون الله تعالى
ولا يفعلون شيئاً من الأذكار إلا جالسين ما داموا
قادرين على ذلك(١)

فإذا عجز أحدهم فليستأذن ربه بقلبه ثم يضطجع ويقرأ أو يذكر ، فإن حكم ذلك حكم من أرسل له السلطان مرسوماً يقرأ عليه ، فلا يليق به أن يكون مضطجعاً حال قراءته عليه إلا بعذر واضح يعذر بمثله(٢) .

فافهم وأعرض ذلك والحمد لله رب العالمين .

---

(١) إحتراما لله عز وجل وتهيئة للنفس لكي تتلقى واردات الذكر ولكي تستغرق فيه فلا يخطر لها خاطر غيره .

(٢) يقول الله تعالى : إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم .

وعن السيدة عائشة رضوان الله عليها قالت : كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه . رواه مسلم .

ومن أخلاقهم إذا نام أحدهم عن قيام الليل وفاته الوقوف فى تلك للواكب الشريفة والحضرات المنيفة أن يندم ويستغفر

ثم يشكر الله تعالى على العافية التى خامها عليه حتى نام وشبع من النوم ، فإن فاته الخير من جهة ذلك التهجد فقد حصل له الخير من جهة شكر الله تعالى على العافية ، فإنه هو الذى يمكن تداركه بعد فوات وقوفه فى تلك المواكب[1] ، وإن كان الشارع ﷺ قد جعل الثواب لمن قضى ورد الليل قبل الزوال .

فافهم فليس حكم النائم حكم القائم ، وإنما قال ﷺ : فكأنما فعله فى الليل جبراً لمصيبة من حصل له ندم مع أن قوله : فكأنما هو التشبيه وذلك لايقتضى المساواة من كل وجه .

وسيأتى فى الكتاب أن الأكابر كلهم يعظمون أوامر الله ويخافون من تأخيرها عن وقت الفضيلة حتى أن الخليل عليه الصلاة والسلام لما أمره الله بالاختتان بادر إلى الفأس فاختتن بها ولم يتمهل حتى يجد الموسى ، وقال : إن تأخير أمر الله عظيم ، انتهى .

فلكل مقام رجال والحمد لله رب العالمين .

---

(١) يقول الله تعالى : (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محموداً) .

وقال تعالى : تتجافى جنوبهم عن المضاجع) .

وقال تعالى : (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) .

وعن السيدة عائشة رضوان الله عليها قالت : كان النبي ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه . فقلت له لم تصنع هذا يارسول الله . وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، قال : (أفلا أكون عبداً شكوراً) متفق عليه .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال : قال رسول الله ﷺ « ياعبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل » متفق عليه .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : ذكر عند رسول الله ﷺ رجل نام ليلة حتى أصبح قال : « ذاك رجل بال الشيطان فى أذنيه أو قال : أذنه » متفق عليه .

ومن أخلاقهم إذا سافروا إلى بلاد الريف وخافو أن يتبعهم الناس
أن يسافروا ليلا تخفيفاً على أهل البلاد

وقد تساهل بعض إخواننا فى ذلك فما وصل بلاد الغربية حتى صار معه نحو خمسمائة نفس وممن كان يكره السفر فى النهار سيدى محمد بن عنان ، وسيدى محمد الشناوى ، وسيدى أبو الحسن الغمرى رضى الله عنهم فافهم ذلك(١) .

ومن أخلاقهم أن لا يظهروا الكسل والنوم بحضرة مريديهم فيمدونه بالنوم والكسل لأنه ليس للمريد مادة يستمد منها غير الشيخ ، فإن نام مد مريده بالنوم ، وإن غفل عن الله مد مريده بالغفلة ، وإن أقبل على الدنيا مد مريده بذلك ، وهكذا فى ساير الحركات والسكنات والصفات فاعلم ذلك(٢) والحمد لله رب العالمين .

---

(١) حتى لا يكلفوا الناس مشقة استقبالهم وتوديعهم والإعداد لمدة إقامتهم .
(٢) لأن المريد يستمد حاله من حال شيخه فعلى حسب ما يفعله شيخه يكون فعل المريد وأيضاً فإن الشيخ هو الأستاذ والمريد التلميذ فعلى حسب ما يرى المريد من تصرفات أستاذه تكون تصرفاته لأن أصل العلاقة هو إلتزام المريد بتصرفات الشيخ .

ومن أخلاقهم إذا قصر أملهم أو ضاق الوقت عن تأدية تلك العبادة عادة
أن يبدأوا بقراءة جوامع الكلم الواردة في السنة أو بقراءة
تلك الآيات والسور التي ورد تفضيلها على غيرها (١)

أى من حيث تلاوة التالى لها لامن حيث المتلو لأنه كله فى مرتبة واحدة بالنظر لرجوعه إلى الذات ، وذلك كقراءة آية الكرسى أو آخر سورة الحشر أو ألهاكم التكاثر ، فإنه ورد أن كل واحدة من ذلك تعدل قراءة ألف آية ، فمن صلى بآية الكرسى ، فكأنه قرأ فى صلاته بألف آية وفى الحديث : انه يكون من المقنطرين (٢) يعنى الآخر ، وقد عددت الألف من أول البقرة إلى قريب من قوله تعالى فى الانفال « واعلموا أنما غنمتم من شىء » الآية وكذلك ورد ان سورة إذا زلزلت تعدل ربع القرآن / أو نصفه ، وسورة الكافرون تعدل نصف القرآن ، وسورة قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن ، لو قسم أرباعا أو أنصافا ، أو أثلاثا هكذا قال الشيخ محيى الدين بن العربى (٣) رحمه الله ، وهذا

---

(١) مثل آية الكرسى وسورة يس والفاتحة والمعوذتين .

(٢) أى يكون ثوابه كبيراً .

(٣) هو الشيخ الأكبر سيدى محى الدين بن عربى : صاحب الفتوحات المكيه وفصوص الحكم وغيرها من قمم الكتب — توفى رضى الله عنه سنة ثمان وثلاثين وستمائة .

يقول عنه الشيخ صفى الدين بن أبى منصور فى ترجمته له : هو الشيخ الإمام المحقق رأس أجلاء العارفين ، والمقربين ، صاحب الإشارات الملكوتية ، والنفحات القدسية ، والأنفاس الروحية ، والفتح المونق ، والكشف المشرق ، والبصائر الخارقة . والسرائر الصادقة ، والمعارف الباهرة ، والحقائق الزاهرة ، له المحل الأرفع من مراتب القرب فى منازل الأنس ، والمورد العذب فى مناهل الوصل ، والطول الأعلى من معارج الدنو ، والقدم الراسخ فى التمكين من أحوال النهاية ، والباع الطويل فى التصرف فى أحكام الآية ، وهو أحد أركان هذه الطريق رضى الله عنه .

ويروى الإمام الشعرانى : وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام شيخ الإسلام بمصر المحروسة يحط عليه كثيرا ، فلما صحب الشيخ أبا الحسن الشاذلى رضى الله عنه ، وعرف

الذى ذكرناه من قراءة هذه الآيات والسور وإن لم يرد فهو من باب الحزم وربما كان الحق تعالى جعل ذلك اعتناء بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، كما قال الإمام مالك فى حكمة ، كون قيام ليلة القدر خيراً من ألف شهر : ان الله تعالى ، لما جعل أمة محمد خير أمة أخرجت للناس ، مع قصر أعمارهم أعطاهم فى كل قيام ليلة القدر فى كل سنة أجر نيف وثمانين سنة ، الذى هو العمر الغالب ، فمن قامها خمسين سنة مثلا كان كمن عبد الله تعالى نحو خمسمائة سنة .

ونظير ذلك ، قوله صلى الله عليه وسلم : « من أدرك ركعة من الوقت فقد أدرك »[1] فانه انما جعل له ذلك جبرا لمصيبته حين فاتته فرط الحرص والا فمعلوم ، ان فضله دون فضل من أدركها كلها فى الوقت فضلا عن فضل من صلاها أول الوقت .

فعلم ان من غلب عليه النوم حتى كاد الفجر أن يطلع[2] فمن الحزم أن يصلى بآية

أحوال القوم صار يترجم بالولاية والعرفان والقطبانية .

وللإمام الشعرانى كتاب « اليواقيت والجواهر » فى الرد على الشبهات التى أثيرت حول كتاب الفتوحات المكية لسيدى محى الدين ، وكذلك كتاب « تنبيه الأغبياء على قطرة من بحر الأولياء .

(٢) رواه الشيخان .

(١) فإن من أرسخ المعتقدات لدى الصوفية ضرورة الاستيقاظ قبل صلاة الفجر بوقت كان للتهجد والصلاة والإستغفار .

يقول الله تعالى : (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) .

وقال تعالى : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) الآية .

وقال تعالى : (كانوا قليلا من الليل مايهجعون) .

وعن رسول الله ﷺ قال : لأفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم ، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل) رواه مسلم .

وعن جابر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن فى الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله تعالى خيرا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه ، وذلك كل ليلة) رواه مسلم .

الكرسي وبقل هو الله أحد واضرابهما، وكذلك القول في جوامع الكلم في الأوراد نحو سبحان الله وبحمده عدد خلقه إلى آخره وكذلك القول في الصلاة علي رسول الله صلي الله عليه وسلم ومن أجمع صلاة وأخصرها في كيفية الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم . صل على محمد النبي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين انك حميد مجيد .

ومما ألهمته أنا من الكيفيات الجامعة للصلاة والإستغفار « اللهم انى أسألك بك أن تصلى وتسلم على سيدنا محمد وعلى ساير الأنبياء والمرسلين وعلى آلهم وصحبهم أجمعين وأن تغفر لى مامضى وتحفظنى فيما بقى » انتهى فأقولها ألفاً كل صباح أو مساء وقد وجدت بركتها وأحب للاخوان أن يعملوا بها فاعرض يا أخى هذا الخلق وما قبله على مريدى زمانك تعرف مقامك ، ولاتنس نفسك والحمد لله رب العالمين .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : ذكر عند رسول الله ﷺ رجل نام ليلة حتى أصبح قال : (ذاك رجل بال الشيطان فى أذنيه أو قال أذنه) : . متفق عليه .

ومن أخلاقهم كثرة محبتهم لأهل العلم

ولو أنكروا عليهم من حيث أنهم حملة شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأن محبة الفقراء لأهل العلم يزدادون بها علماً إلى علمهم وقد خالف فى ذلك بعض المتصوفة فبعدوا عن العلماء ، فازدادوا جهلا إلى جهلهم .

وقد أدركنا بحمد الله تعالى أكثر من مائة شيخ فكانوا يجلون العلماء ويتبركون بهم ، منهم سيدى محمد بن عنان ، وسيدى محمد الشناوى ، وسيدى على المرصفى رضى الله عنهم وان قدران العلماء أنكروا عليهم شيئاً من أحوالهم فلا يقدح ذلك فى كمالهم ودينهم فقد أنكر موسى على الخضر عليهما الصلاة والسلام ومابلغنا عن أحدهما أنه تكدر من الآخر أبداً [1] .

---

(١) يقول الله تعالى : (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب) .

وفى الحديث : عن أبى مسعود عقبة بن عمرو البدوى الأنصارى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله ، فإن كانوا فى القراءة سواء ، فأعلمهم بالسنة ، فان كانوا فى السنة سواء ، فأقدمهم هجرة ، فان كانوا فى الهجرة سواء ، فأقدمهم سنا ، ولا يؤمن الرجل الرجل فى سلطانه ، ولايقعد فى بيته على تكرمته إلا باذنه» رواه مسلم .

وفى رواية له : « فأقدمهم سلما بدل سنا - أى إسلاما - وفى رواية . يؤم القوم ، أقرؤهم لكتاب الله ، وأعذبهم قراءة ، فان كانت قراءتهم سواء ، فيؤمهم أقدمهم هجرة فإن كانوا فى الهجرة سواء ، فليؤمهم أكبرهم سنا ؛ والمراد بسلطانه محل ولايته أوالموضع الذى يختص به ، وتكرمته بفتح التاء وكسر الراء وهى ماينفرد به من فراش وسرير ونحوها .

وعنه قال : كان رسول الله ﷺ ، يمسح منا كبنا فى الصلاة ويقول : « استووا ولا تختلفوا ، فتختلف قلوبكم ، ليلنى منكم أولوا الأحلام والنهى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » . رواه مسلم .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : لا لوم على الفقيه فى انكاره على الفقير[1]، وانما اللوم على الفقير الذى لم يحفظ ظاهره من مخالفة السنة فى أقواله ، وأفعاله ، وعقايده ولوانه كان كاملا لم يظهر للناس إلا ماوافق ظاهر الشريعة[2] كما كان عليه أبو القاسم الجنيد ، واضرابه ولذلك أجمعوا على جلالته لأنه كان يكلم كل جليس بما يناسبه رضى الله عنه انتهى .

وكان رضى الله عنه يقول من سعادة الفقير خلطته بالفقهاء ، فإنهم لا يكادون يقرونه على شىء فيه رائحة بدعة ، بل ينكرونه عليه فهم من جملة جنود الله له ، فيا سعادة من كان سا كنا فى مثل جامع الأزهر ، فإن العلماء الذين هناك يقومون عوجه كلما اعوج ، ويقومون له مقام الشيخ المرشد ، ونعم الصديق الذى يقوم معوج أخيه فلا يتكدر من الانكار عليه إلا كل غاش لنفسه محب الرياء والنفاق ، ثم أقل مافى انكارهم عليك ياأخى من النفع ، انهم يمنعونك عن أن تصير من أئمة الضلال ، لاسيما أن كان لك معتقدون فانهم يقتدون بك فى كل أمر ،

ولو كان مخالفاً لظاهر الشرع ويقولون : لولا ان لسيدى الشيخ دليلا فى الأمر الفلانى مافعله ، وقد ورد فى الاثر انه لابد إن يتقدم الدجال الأكبر دجاجلة كثيرة يمهدون له طريق الدجل ، وهو تمويه الباطل بالحق حتى يكاد قليل العقل يجزم بأنه حق ، وقد دخل على شخص من الثقات حال كتابتى لهذا الموضع فأخبرنى أنه فى حصر عظيم من شيخ برز فى حارته .

فقلت له : وماذاك : فقال انه يقبل النساء الأجانب بحضرة أصحابه ويقول لهم : أنالى حال آخر مع الله تعالى خلاف مايظهر لكم منى فقلت له : كذب هذا على الله فإن الله

(١) لأن الفقيه يتكلم بصوت الشرع وأحكامه .

(٢) لأن مخالفة الشرع لا يجوز عند الصوفية فيجب عليهم مراعاة ذلك فى أحوالهم وظواهرهم .

تعالى أرسل رسوله بالشرع العام لساير الخلق ، ومن قال أنا لى حال مع الله تعالى خلاف ماظهر منى ، وكأنه يقول ان الله تعالى سارونى بشرع آخر بينى ، وبينه خلاف ماأوحى به إلى رسوله وذلك كفر فإنا لله وانا إليه راجعون .

وسمعت سيدى محمد بن عنان رحمه الله يقول : من أعظم فتنة دخلت علي المطاوعة معاداتهم للفقهاء فلا معهم علم يمشون فى نوره ولاهم يسمعون لما يقوله لهم العلماء فاستحوذ عليهم الشيطان حتى أن منهم من أمره الشيطان بالوضوء بالبول والسجود للشمس كل يوم وصار يخبره بما يقع من الناس فى بيوتهم فلولا عناية الله تعالى له باجتماعه علي سيدى أبى العباس الغمرى لكان مات علي كفره انتهى [1] .

وقد من الله تعالى على بمحبة جميع علماء عصرى ، وكل من انكر عليّ أكثر أحببته أكثر ، كما سيأتى ايضاحه فى الخاتمة إن شاء الله تعالى ، فأعرض ياأخى ماقررته لك على مريدى عصرك تعرف حالهم ، ولاتنس نفسك والحمد لله رب العالمين .

---

(١) ولعل فقه كبار السادة الصوفية كالسيد البدوى وسيدى إبراهيم الدسوقى وسيدى أبى الحسن الشاذلى والعز بن عبد السلام يكون نبراسا مضيئا لصوفية هذا العصر حيث نراهم يتحدثون فى جميع فروع العلوم من تفسير وحديث ولغة وغيرها مما جعلهم دائما بمنجى عن الانحراف والتحلل من الشريعة .

ومن أخلاقهم التى أجمعوا عليها ونفذت بها وصاياهم إلى ساير أقطار الأرض انه لايجوز لأحد التصدر فى طريق القوم لارشاد المريدين إلا بعد تبحره فى علوم الشريعة المطهرة والحقيقة

من تفسير ، وحديث ، وفقه ، وأصول ، وبعد اطلاعه على أقوال المجتهدين سلفاً وخلفاً ، وأقوال المحققين من العارفين كذلك ، بحيث يعد لمناظرة العلماء ، ورد المبتدعة فإن لم يصل إلى ماذكرناه فما يفسده أكثر مما يصلحه ، وقد تقدم فى المقدمة ان طريق القوم مشيدة بالكتاب والسنة ، وان لهم فى كل حركة ، وسكون ميزاناً شرعياً فلايقدم أحد منهم على قول أو فعل حتى يعرف ميزانه من كتاب أو سنة ، [1] وانهم لايسامحون نفوسهم فى تركهم إقامة الميزان على أحوالهم كلها فى حال من الأحوال اكتفاء بعمل الناس ، فقد يكون ذلك العمل من جملة البدع التى ابتدعت .

وهم رضى الله عنهم متزهون عن ارتكاب البدع ، أو الأهواء ، وكل من أنكر عليهم ، فانما هو لجهله بدليلهم ولم يزل أكابر السلف رضى الله عنهم يخافون من التدين بشىء زائد على السنة خوفا من الوقوع فى البدعة ، حتى ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ربما كان يهم بالأمر يفعله فيقول له شخص ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفعل ذلك فيرجع عنه لوقته وقدهم رضى الله عنه مرة ، أن ينهى الناس عن لبس ثياب بلغه أنها

---

(١) يقول الله تعالى : (وقل رب زدنى علما) .
ويقول تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) .
وفى الحديث : عن معاوية رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » متفق عليه .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة » . رواه مسلم .

وعنه أيضا رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لاينقص ذلك من أجورهم شيئا » . رواه مسلم .

تصبغ ببول العجايز ، فقال له شخص فى أذنه قد كانت هذه الثياب فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يراها على الناس فلا ينكرها ، فاستغفر عمر رضى الله عنه ورجع عن ذلك وقال فى نفسه ، لوكان ترك لبسها من الورع لكان رسول الله عليه وسلم نهى أصحابه عنها .

وكذلك بلغنا عن الإمام زين العابدين [1] رضى الله عنه ، أنه قال يوما لولده : ياولدى اتخذلى ثوباً ألبسه عند قضاء الحاجة ، وأنزعه وقت الصلاة ، فلا أصلى فيه لأنى رأيت الذباب يجلس على العذرة ثم يقع على ثوبى فى الخلا ، فقال له ولده : انه لم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ثوب واحد لخلائه ، واصلاته فرجع الإمام عما كان عزم على فعله انتهى .

---

(١) هو سيدى على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه . وهو على الأصغر وأما الأكبر فقتل مع سيدنا الحسين رضى الله عنه .

ومن كلامه : كيف يكون صاحبكم من إذا فتحتم كيسه فأخذتم منه حاجتكم فلم ينشرح لذلك .

وكان يقول : إذا نصح العبد لله تعالى فى سره أطلعه الله تعالى على مساوىء عمله فتشاغل بذنوبه عن معايب النـاس .

وكان إذا توضأ اصفر وجهه ، فيقول له أهله : ماهذا الذى يعتادك عند الوضوء . فيقول : أتدرون بين يدى من أريد أن أقوم .

وكان إذا مشى لايجاوز يده فخذه ولايخطر بيده .

وكان إذا بلغه عن أحد أنه ينتقصه ويقع فيه يذهب إليه فى منزله ويتلطف به ويقول : ياهذا إن كان ماقلته فى حقا فيغفر الله لى وإن كان باطلا فغفر الله لك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

توفى رضى الله عنه سنة تسع وتسعين وقد بلغ ثمـان وخمسين سنة .

وأما ما بلغنا عن الشيخ أبي يزيد[1] من أنه كان له ثوب لخلائه ، وثوب لصلاته ، فليس هو لأجل وقوع الذباب المذكور على ثوبه ، وإنما ذلك حتى لا يكون ثوب خلائه ثوب صلاته لأن الخلا بيت الشياطين يقصد بذلك ، تعظيم حضرة الله الخاصة ، أن يقف فيها بثوب تدنس بحضرة الشياطين من حيث أنها رجس ، وهو نظير ماورد من النهى عن استقبال القبلة ببول أو غايط بشرطه وقال : شرّقوا أو غرّبوا حتى لا يجعل العبد جهة خلائه جهة صلاته ، وتقدم أوائل المقدمة قول أبي القاسم الجنيد رضى الله عنه طريقنا هذا مشيد بالكتاب والسنة قال الله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »[2] وكان يقول أيضاً لو رأيتم رجلا متربعا فى الهوى فلا تعتمدوا به إلا أن رأيتموه واقفاً عند حدود الله تعالى .

ومما وقع للشيخ أبي عبد الله القرشي أنه قال يوماً : اللهم لا تفضحني بسريرتى على رءوس الخلايق فقال له شيخه : يامحمد ولأى شيء تجعل لك سريرة تفتضح بها يوم القيامة لم لاتنظف باطنك من الأدناس حتى لايكون لك سريرة تفتضح بها ، ومما وقع أن معروفاً الكرخي نظر يوما إلى السماء فتكدر قلبه فشكى ذلك للحسن البصرى فقال :

---

(١) هو أبو يزيد بن طيفور بن عيسى البسطامى ، يقول عنه سيدى محي الدين بن عربى أنه كان القطب الغوث فى زمانه .

ومن كلامه : ليس العالم من يحفظ من كتاب الله فإذا نسى ما حفظ صار جاهلا ، بل من يأخذ علمه من ربه أى وقت شاء بلا تحفظ ودرس ، وهذا هو العلم الربانى .

وقال : أخذتم علمكم ميتا عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت .

وسئل أبو يزيد : بأى شيء وجدت هذه المعرفة ؟

فقال : ببطن جائع ، وبدن عار .

وقال : لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى فى الهواء ، فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة .

مات سنة : إحدى وستين ومائتين . وقيل : أربع وثلاثين ومائتين .

(٢) سورة الحشر آية : ٧

لعلك نظرت إلى السماء وأنت عاطل عن الاعتبار وعن الله تعالى فانظر يا أخى هذا الضبط العظيم فإذا كان هذا فى الأمور المباحة فكيف بالأمور المكروهة أو الحرام.

وقد بلغنا أن السرى السقطى رحمه الله رفع طرفه مرة إلى سقف بيته فعوقب على ذلك بوجع الضرس مدة أيام لكونه لم يحرر له نية صالحة قبل رفع بصره إلى السقف، ولعل مثل ذلك هو المراد بحديث كانت خطيئة أخى داود النظر، فلم يبلغنا فى حديث صحيح ولا ضعيف إن المراد به النظر إلى مالا يحل فإن العصمة تمنع من وقوع ذلك.

وإذا كان آحاد هذه الأمة يعاقب على مثل ماذكرناه، لإعتناء الحق تعالى به والأنبياء عليهم الصلاة والسلام أولى وأحق بذلك الإعتناء، وليست المؤاخذة الواقعة على ذلك بغضاً المعاقب وإنما هو تكريم له واعتناء به، كما يربى الوالد الشفيق ولده بالضرب والصفع محبة فيه وإذا رآه واقفاً على شفير بئر لاحضيتر على فمها، وهو صغير يعرك أذنه ويجذبه جذباً عنيفاً، ويقضى عقول الناس كلهم، إن ذلك من شدة محبته خوفاً عليه من الهلاك، وما ينقل عن الزبور الذى غيرته اليهود من أن داود عليه الصلاة والسلام كانت خطيئته النظر إلى امرأة لما سافر زوجها فى بعض الغزوات من تحريف اليهود وتبديلهم فاستحلوا أعراض الأنبياء، بمثل ذلك، فعلم من جميع ماقررناه أن التبحر فى الشريعة هو أساس طريق الحقيقة، وإنهما متلازمان ملازمه الظل للشاخص، وإن من جلس لإرشاد المريدين من غير تبحر فى الشريعة، فقد ضل وأضل، وأول من يتبرأ منه أشياخه الذين يزعم أنه من أتباعهم وقد قررنا مراراً أن سيدى ابراهيم الدسوقى كان يقول : من لم يتقيد بالكتاب والسنة فلا يلم بنا ولا يمشى فى ركابنا، وكل من عمل على وفق الكتاب والسنة فهو ولدى اصلبى، وإن كان من أقصى البلاد، ومن خالف السنة فهو عدوى ولو كان ولدى من صلبى، وقد دخل شخص مرة على الجنيد رضى الله عنه فقال له : قد بلغنا إنك تقول : طريقنا هذه مشيدة بالكتاب والسنة، فما دليلكم فى قراءة هذه الحكايات التى تتداولونها بينكم فى أحوال القوم من القرآن فقال دليلها قوله تعالى لمحمد ﷺ :

« وكلا نقص عليك من أنباء الرسل مانثبت به فؤادك[١] » .

فكما ثبّت الله تعالى فؤاد محمد ﷺ بما قص صلى الله عليه وسلم من أحوال الأنبياء قبله فكذلك نثبت فؤاد المريدين على الطريق بما نقصه عليهم من حكايات سلفهم .

فقال له : فما الدليل على قولكم إن الله تعالى لايعذب حبيبه ؟

فقال : الدليل على ذلك قوله تعالى : « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم[٢] » . أى لو كنتم أحباؤه ماعذبكم فى النار وقد أخبر تعالى على لسان الصادق المصدوق أنه يعذبكم بالنار أبد الأبدين .

فقام الرجل وقبل رأس الجنيد وقال: أنت أستاذ الناس ، فمن ذلك اليوم لقّب الجنيد بين القوم بالأستاذ .

وعلم أيضاً مما قررناه أن من جلس بغير إذن من شيخ لإرشاد المريدين مع جهلة بشىء من أحكام الشريعة التى صرح بها الشارع ﷺ فإنه مدع كذاب ، لا ينبغى لأحد الإقتداء به ، لأنه يخطىء فى كل شىء جهله من الشريعة فربما صادف الأمر الذى يحكم به على المريد خلاف الشرع ، فزن يا أخى كل من رأيته تصدر لإرشاد المريدين بهذا الميزان فإن رأيته متبحراً فى علم الشريعة فسلم له وإلا فاعرض عنه من غير أزدراء وكل أمره إلى الله تعالى ، كما هو شأن كثير من فقراء هذا الزمان فترى أحدهم يعجز عن تدريس مختصر فى الفقه ، مما يفهمه أضعف الطلبة ، وهو مع ذلك يدعى المشيخة والكمال ، وله عمامة صوف ، وعذبة .

وقد دخل على شخص وأنا أكتب فى هذا المحل فصار يتكلم فى الفناء والبقاء ، والمحو[٣] .

---

(١) سورة هود آية : ١٢٠ . (٢) سورة المائدة آية : ١٨

(٣) أى فى العلوم العالية من التصوف التى لا ينبغى التكلم فيها إلا بعد معرفة الأحكام الشرعية وعلوم القرآن وغيرها حتى لا يناقض حديثه أحكام القرآن والسنة .

فقلت له : يا أخي هذا الذي تقوله إنما يكون معرفته للإنسان بعد السلوك على وفق الشريعة المطهرة بالأعمال الزكية ، والأخلاق المرضية اللائقة بالسالك فقل لي : ماشروط الوضوء ؟ وما شروط الصلاة ؟ وما شروط الصوم ؟ وما واجبات الحج ؟

فتلجلج وما دري مايقول فقلت له : لم لاتجيبني عما سألتك ؟ فقال : لم أقرأ شيئاً في علم الفقه ، فقلت له : فإذن أنت من إخوان الشياطين ، ثم إنه انقطع عني من ذلك اليوم .

فإن جاءك يا أخي أحد من هؤلاء فلا تسأله عن شيء من أحكام الدين[1] فإنه يخجل ويسكت ، وقد كثر هذا الحال في المنتسبين إلى الفقر في هذا الزمان ، وربما يقول أحدهم الفقهاء محجوبون عن الله بعلمهم ، وذلك كفر فإنه جعل الهدى يحجب عن الله ، والضلال يوصل إلى حضرة الله نسأل الله العافية .

وقد درج السلف الصالح من أبي القاسم الجنيد ، إلى أبي القاسم القشيري ، إلى الشيخ عبد القادر الجيلي ، إلى الشيخ عمر السهروردي ، إلى سيدي أحمد بن الرفاعي ، إلى سيدي أحمد الزاهد ، إلى سيدي محمد الغمري ، إلى سيدي على المرصفي رضى الله عنهم على تدريسهم في علوم الكتاب والسنة من فقه ونحو وأصول ، وغير ذلك إلى أن ماتوا ومؤلفاتهم في الحقيقة والشريعة تدل على ذلك ، ولكن لما توعرت طريق العمل بالكتاب والسنة على غالب الناس أشغلهم أبليس بشقشقة اللسان بألفاظ اصطلح القوم عليها لايفهم هؤلاء معناها ، فظنوا أنهم صاروا بذلك صوفية ، وقال لهم الفقهاء محجوبون عن طريقكم فاضلهم وأعمى أبصارهم .

فأهل الطريق كلهم مجمعون على وجوب الاشتغال بالعلم ، وإن وقع أن إحداً منهم منع مريداً من الاشتغال به ، وأمره بالذكر فليس ذلك راجعاً لذات العلم وإنما هو لأمور عرضت للمشتغل به من رياء ، وعجب ، وكبر وازدراء للعامة لكثافة حجابه ، فقالوا له : اشتغل بالذكر حتى يرق حجابك ويستنير قلبك وتخرج عن الحجاب ويزول

---

(١) يقصد فإذا سألته عن شيء من أحكام الدين فإنه يخجل ويسكت .

هنك العجب بالعلم والرياء به، ثم بعد ذلك اشتغل بالعلم على وجه الأدب والإخلاص فإن صح عن أحد من أهل الطريق أنه قال العلم حجاب أوّلناه على وجه حسن أدباً مع العارفين رضى الله عنهم .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول كثيراً : إنما قال بعضهم العلم حجاب أى لأن صاحبه لا يكاد يستحضر حال قراءته ، وإقرائه ، ومجادلته أنه بين يدى الله تعالى أبداً إنما ذهنه فيما يقرره فقط، كما هو حال أكثر المريدين بخلاف العارفين ، فإنهم يحضرون مع الله تعالى فى كل علم قرروه من فقه ونحو ، وأصول ، ومعانى وبيان ونحو ذلك لجلاء مرآة قلوبهم من الصدأ والرعونات البشرية ، هذا معنى كلامهم ، وإلا فكيف ينكرون على شيء هو أساس طريقهم ومنشأها .

وقد ذكرنا فى كتاب المنن عدة الكتب التى طالعناها فراجعها[1] وإياك ونسبة القوم إلى ما يخرج ظاهر الشريعة واعرض يا أخى ذلك على من يدعى الصدق من مريدى عصرك تعرف حالهم ولا تنس نفسك والحمد لله رب العالمين .

---

(٨) وكتاب المنن ألفه الإمام الشعرانى ترجمة لسيرته الذاتية وفيه بيان الكتب التى قرأها الإمام الجليل وعددها ضخم فى جميع فروع العلم ، ويقصد بذكر ذلك بيان أن طريق القوم لا يتنافى مع العلم ولا يبعد عنه بل هو من ألزم الأمور فى الطريق الصوفى .

ومن أخلاقهم سترهم لزلات من تاب على يديهم تخلقاً بأخلاق الله عز وجل

ولا يعلمون أحداً من جماعتهم بزلاتهم التي تاب منها ، وحكاها لهم ، وهذا أمر يقع من غالب فقراء هذا الزمان فليحذر الفقير من مثل ذلك ، فإنه خلاف ما جبل الله تعالى أولياءه عليه من كثرة سترهم على العباد ، وقد وقع لبعضهم أن شخصاً كان يستحسن على عياله زماناً طويلاً ثم جاء وتاب على يده ، وجلس عنده في الزاوية فصار كل من سأله الدعا يقول له : اسأل الله تعالى أن يتوب عليك كما تاب على هذا المستحسن فجاء إلى الشيخ وقال له : ما كان لي حاجة بالتوبة على يديك ، فإن لي نحو ثلاثين سنة وأنا مرتكب ذلك الأمر ، والله يسترني فيه ، وأنت قد هتكتني في يوم واحد[1] انتهى .

وسمعت سيدي على الخواص رحمه الله يقول : لا ينبغي لفقير أن يتصدر لأخذ العهد على الناس ، إلا بعد كماله وإذن شيخه له ، وبعد أن يصير أشفق على المريد من نفسه في كتم سيئاته ، وأشفق عليه من أمه ، فاعرض يا أخي ذلك علي مريدي عصرك تعرف حالتهم ولا تنس نفسك والحمد لله رب العالمين .

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا يستر عبد عبداً في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة » رواه مسلم .

وعنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كل أمتي معافى إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله عليه ، فيقول : يافلان عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ، ويصبح يكشف ستر الله عليه » متفق عليه .

وعنه عن النبي ﷺ قال . « إذا زنت الأمة فتبين زناها فليجلدها الحد ، ولا يثرب عليها ، ثم إن زنت الثانية فليجلدها الحد ، ولا يثرب عليها ، ثم إن زنت الثالثة فليبعها ولو بحبل من شعر » متفق عليه .

والتثريب : التوبيخ .

ومن أخلاقهم : أن لا يتولى أحدهم نظراً على مسجد أو يتيم ونحو ذلك مما تشترط فيه العدالة إلا أن يكون عدلا فى الباطن

وذلك ليعينه الله تعالى على المشى بالاستقامة وحماية ذلك المال من الظلمة ، وصرفه فى مصارفه الشرعية ، وغير ذلك ، فإن من لبس على الناس وأظهر الصلاح والزهد والورع ، وهو فى الباطن على خلاف ذلك فهو عدو الله وعدو الله من لازمه تخلف نصرة الحق عنه ، وإن وقع له نصرة فهى استدراج ومكر به .

وسمعت سيدى الشيخ زكريا رحمه الله يقول : لا ينبغى للناظر على وقف أن يكون له سريرة سيئة ، بحيث لو اطلع الولاة عليها لمنعوه من ذلك النظر . قال : وهذا أمر يخفى على كثير من النظار فيصير يأخذ معلوم نظره من قبيل الشبهات انتهى فاعلم ذلك واعرضه على نفسك وعلى أقرانك تعرف حالك وحالهم[1] والحمد لله رب العالمين .

---

(١) ولعل هذا من كمال أخلاق السادة الصوفية فإنهم لايريدون أن يأكلوا فى بطونهم ناراً ولا يصلون سعيراً .

يقول الله تعالى : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما ، إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً » .

وقال تعالى : « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن » .

وعن أبى هريره عن النبي ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا يارسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » . متفق عليه . والموبقات : المهلكات .

ومن أخلاقهم عدم الاعتناء بنظم الشعر فى رسائلهم وإنما يتمثلون به فقط من كلام غيرهم

قال الله تعالى فى حق رسوله ﷺ (وما علمناه الشعر وما ينبغى له [(١)]) ونهى ﷺ بعض الصحابة عن الشعر وقال : « لأن يملأ أحدهم جوفه قيحاً خير له من أن يملأه شعراً »[(٢)] وما وقع له ﷺ من تقرير حسان بن ثابت[(٣)] ، وغيره على هجاء المشركين بالشعر ، فذلك رخصة لكونه اقطع فى المشركين من النثر ، لسهولة حفظ النظم وسهولة التمثل به على النفوس ، وأيضاً فإن الشعر يحتاج عادة إلى إتعاب فكر فيه ، ونظر فى كتب اللغة ، وغير ذلك مما يشغل القلب عن الله حال نظمه عادة ، وربما جازف فى وصف من مدحه أو هجاه ، فوقع فى الذم .

قال ﷺ « لا غيبة فى فاسق » قال بعض العارفين أى لا تستغيبوه وهذا وإن كان خلاف المفهوم الظاهر فيؤيده ما رواه الحافظ أبو نعيم عن محمد بن سيرين[(٤)] أن رجلا

---

(١) سوره يس آية : ٦٩

(٣) وتمام الحديث : « لأن يمتلىء جوف رجل قيحا حتى يريه خير له من أن يمتلىء شعراً » رواه الإمام أحمد .

(٤) كان من كبار الشعراء فى عصر الرسول ﷺ ونافح عن سيدنا الرسول ﷺ كثيراً بشعره وله أشعار رائعة خرجت جميعا فى ديوان صدر حديثا ، وكان رضى الله عنه من خيره صحابة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) هو محمد بن سيرين رضى الله عنه : كانوا إذا ذكروا أحدا عنده بسوء يذكره هو بالخير ، وكان ذا سمت وخشوع ، وكان إذا كلم أمه لا يكلمها بلسانه كله إجلالا لها .
ومن كلامه : من الظلم البين لأخيك أن تذكر شر مافيه وتكتم خير مافيه عند غضبك .
وكان إذا سئل عن الرؤيا يقول للسائل : اتق الله فى اليقظة فلا يضرك ما رأيت فى النوم .
مات سنة عشر ومائة وهو ابن نيف وثمانين سنة .

وقع فى عرض الحجاج بن يوسف [١] عنده فقال يا أخى اعلم أن الله تعالى حكم « عدل » فـكما ينتقم من الحجاج ، كذلك ينتقم للحجاج انتهى .

وأما من شطح فى نظمه من أرباب الأحوال كسيدى عمر بن الفارض وغيره ، فلا كلام لنا معه لأنه مغلوب على عقله ، وهو تحت حكم حاله ، وكلامنا إنما هو فى حق أرباب التمكين المتقيدين بالسنة ، فى جميع أحوالهم ، فإنهم يقولون : لو كان الشعر محموداً مطلقاً لـكان رسول الله ﷺ أولى به ، وفرق بين كلام الصحاة والسكارى وقد بلغنا أن عصفورا راود عصفورة عن نفسها فى قبة سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ، فأبت فقال لها : تأبين على وأنا لو شئت لقلبت القبة على سليمان وجنوده ، فحملت الريح ذلك إلى سليمان ، فأرسل وراءه فجاء وهو يرعد فقال : ماحملك على الـكذب فى قولك كذا وكذا وأنت عاجز عن مثل ذلك فقال : مهلا يانبى الله أنا عاشق لها والعشاق إنما يتـكلمون غالباً بلسان العشق والسكر ، لا بلسان العلم والتحقيق فعفى عنه . انتهى .

ففى ذلك عذر لسيدى عمر بن الفارض فى نحو قوله :

فطوفان نوح عند نوحى كأدمعى وإيقاد نيران الخليل كلوعتى

إلى آخرها قال فاعلم ذلك واعرضه على نفسك وأهـل عصرك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

---

(١) هو الحجاج بن يوسف الثقفى : كان من ولاة الخليفة عبد الملك بن مروان واشتهر بالقسوة والظلم والطغيان .

حتى إن أحدهم لو سمع صوت من يشبه إمامه كل الشبه يكبر مثلا لا يطاوعه ، لأن قلبه يعلم أن ذلك ليس بإمام له ، وهذا أمر قل من يراعيه الآن من الفقراء ، فيصلي خلف كل من رآه يصلي بالناس من غير ارتباط قلبه به ، ويكتفي بارتباطه الظاهر ، وهـذا نقص في مقام الفقرا لعدم مطابقتهم بين الظاهر والباطن ، وصاحب هذا المقام لا يحتاج إلا إلى مبلغ يبلغه أفعال إمامه ، ولو كان بينه وبينه أكثر من ميل ، وهو في ظلمة لادراكه بقلبه حركات قلب إمامه فضلا عن أفعاله وأقواله الظاهرة .

وقد نبه ﷺ على هذا الارتباط تشريعاً لأمته لما صلى بأصحـابه ، وقرأ في صلاته سورة الروم والتبست عليه الآية فلم يعرفها . فقال : إذا جاء أحـدكم إلى الصلاة ليحكم طهارته فانـكم لبستم على قراءتي أو كما قال .

فانظر يا أخي كيف سرى عدم إحكام الطهارة من المأموم إلى الإمام ، فإن من ترك لمعة من أعضائه بغير غـسل فصلاته باطلة ، فلما تعلق بالإمام من ليس هو في صلاة لبّس عليه لعدم استحقاق المأمور استماعه القرآن على وجهه الذي أنزل فعلم أن من ادعى تخلقه بهذا الخلق في صلاة وسمع تـكبير غير إمامه للركوع مثلا ، فتبعه على ذلك فهو لم يتحقق بهذا الخلق ، وقد امتنع بعض العارفين من الصلاة خلف كل من يخطر بباله غير الله فيها لبطلان صلاته عنـده فاعلم ذلك ، واعرضه على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم استنادهم فى سائر أوقاتهم إلى كبير من أهل الحضرة الإلهية ليحميهم من الآفات التى تصيبهم فى الدنيا والآخرة

ولا يكتفون بكثرة الأعمال الصالحة من غير استناد إلى من ذكر .

ويقولون : إن الأعمال الصالحة تنهض بنا كما يقع فيه كثير من المتعبدين ، وغاب عنهم أن العبد يصل بخدمة الأكابر ومحبتهم إلى ما لا يصل إليه بالأعمال .

وتأمل يا أخى إلى غلام الوالى إذا رآه الخفراء سكراناً لا يتعرضون إليه بسوء إكراماً للوالى لشدة لصوقه به بخلاف العابد الزاهد الذى لم يستند إلى الوالى إذا رآه الخفراء على فاحشة يمسكونه ويصفعونه ، ولا يوقرونه لعبادته ، بل يضربونه ، ويحبسونه ، ويغرمونه المال . وفى الحديث ما يؤيد ما أومأنا إليه فورد :

أن عبداً يأتى يوم القيامة فيوقف بين يدى الله عز وجل فيؤمر به إلى النار ، فتقول الملائكة : يا ربنا كان من عبادته كذا وكذا ، ويذكرون ما شاء الله من صيامه وقيامه وصدقته وحجه وعمرته ، فيقول الله عز وجـــل : بلى ولـكنه كان لا يوالى من والانى ولا يعادى من عادانى . انتهى .

فانظر يا أخى إلى هذا العابد كيف لم تنفعه عبادته ، لعدم استناده إلى الله تعـالى ولو بواسطة نبى أو ولى ، ولو أنه كان استند إلى نبيه ﷺ أو شيخه استناداً حقيقياً بحيث أنه والى من والاه ، وعادى من عاداه لـكان أخذ بيده وشفع له عند الله تعالى[1] ، فافهم.

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » رواه أبو داود والترمذى بإسناد صحيح وقال الترمـذى : حديث حسن .

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « المرء مع من أحب » متفق عليه وفى رواية قال : قيل للنبى ﷺ : الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ؟ قال : « المرء مع من أحب » .

فعلم أنه لا يكفى العبد فى ادعاء المحبة لله ولرسوله كثرة الأعمال الصالحة مع عـــدم نصرته لشرع الله وشرع رسوله ﷺ ، وأن المحبة أنجح فى قضاء حوائجه فى الدنيا والآخرة من كثرة العبادات لاسيما أن دخلها العلل كطلب الثواب عليها والحمد لله رب العالمين .

وعن أنس رضى الله عنه أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ متى الساعة ؟ قال رسول الله ﷺ : ما أعددت لها ؟ قال : حب الله ورسوله . قال : « أنت مع من أحببت » متفق عليه وهذا لفظ مسلم ، وفى رواية لهما : « ما أعددت لها من كثير صوم ولا صلاة ولا صدقة ولكن أحب الله ورسوله » .

وعن أسير بن عمرو ويقال : ابن جابر وهو بضم الهمزة وفتح السين المهملة قال : كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم : أفيكم أويس ابن عامر ؟ حتى أتى على أويس رضى الله عنه فقال له : أنت أويس بن عامر ؟

قال : نعم . قال : من مراد ثم من قرن ؟ قال : نعم .

قال : فكان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم ؟

قال : نعم . قال : لك والدة ؟ قال : نعم .

قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يأتى عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن ، كان به برص ، فبرأ منه إلا موضع درهم له والدة هو بها بر لو أقسم على الله لأبره فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل » فاستغفر لى ، فاستغفر له ، فقال عمر : أين تريد ؟ قال الكوفة قال : ألا أكتب لك إلى عاملها ، قال : أكون فى غبراء الناس أحب إلى .

فلما كان من العام المقبل حج رجل من أشرافهم فوافق عمر فسأله عن أويس فقال : تركته رث البيت قليل المتاع . قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يأتى عليكم أويس ابن عامر مع أمداد من أهل اليمن من مراد ثم من قرن ، كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم ، له والدة هو بها بر لو أقسم على الله لأبره ، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل . فأتى أويساً فقال : استغفر لى . قال أنت أحدث عهداً بسفر صالح فاستغفر لى . قال : لقيت عمر ، قال : نعم فاستغفر له ، ففطن له الناس ، فانطلق على وجهه . رواه مسلم .

ومن أخلاقهم حثهم لأصحابهم على كثرة العبادة من حيث كونها يرجع ثمرتها إلى صحائف رسول الله ﷺ

بالأصالة دون صحيفته هو عملا بحديث « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أهله وولده والناس أجمعين[1] » . ومن أحب كثرة الأعمال لتزيد فى صحيفته هو غافلا عن كونها ترجع إلى صحيفة رسول الله ﷺ فهو ناقص الإيمان ، كما سيأتى بسطه فى هذه الأخلاق إن شاء الله تعالى والحمد لله رب العالمين .

---

(١) رواه البخارى .

ومن أخلاقهم زيادة الستر على الأكابر من العلماء والصالحين

لأنهم رءوس الأمة ، وذكر نقايصهم ينفر الناس عن الاقتداء بهم ، وعن الاهتمام بأمرهم ، ونبههم لهم لتشكل نقائص الداعي لهم إلى خير في قلوبهم[1] .

اللهم إلا أن يترتب على كثرة الستر إحداث خرق في الشريعة فمثل ذلك يجب علينا إظهار الإنكار على فاعله مصلحة له ، وللشريعة خوفا أن يصير ذلك العالم من أئمة الضلال ، لكن لا بد لنا مع الستر عن زلات من ذكر إذا رأيناها بعيننا من زجره عنها فيما بيننا وبينه ، قياما بما كلفنا به .

وقد رأيت مرة شخصا من الوعاظ في عصرنا سعى على وظيفة فقلت له : إن الواعظ من قسم الصالحين فلا يليق به من مزاحمة الفقهاء على الوظائف فقال : إني فقير ، فنمت فرأيته تلك الليلة ، وقد تطور تمساحا في تليس محيط عليه من جهة رأسه وذنبه فعرفت أنه غير صادق في الفقر .

فاعرض يا أخي هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف حالهم والحمد لله رب العالمين .

---

(١) وفي الحديث : عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا يستر عبد عبداً في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة » رواه مسلم .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويعرف شرف كبيرنا » حديث صحيح رواه أبو داود والترمذي قال الترمذي حديث حسن صحيح .

أكثر من عملهم بأقوال الأئمة المجتهدين التي أخذوها من الكتاب والسنة من طرق الاستنباط ـ وإن رجع كل ذلك إلى الشريعة ـ أدبا مع رسول الله ﷺ ، حتى أن بعضهم كره أن يجمع بين رسول الله وبين غيره في ضمير واحد تعظيما[1].

وكذلك من شأنهم أنهم يأخذون ما صرح به القرآن بمزيد اعتناء أكثر مما سنه ﷺ وإن رجع ما سنه إلى القرآن « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحى »[2].

وبذلك أخذ الإمام أبو حنيفة قوله بالفرق بين الفرض ، والواجب وأنهما غير مترادفين هروباً من مساواة الخلق للحق في الاصطلاح ، فجعل الفرض ما جاء في القرآن والواجب ما جاء في السنه أدباً مع الله تعالى .

ونظير ذلك اصطلاح العلماء على تخصيص الصلاة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، بلفظ الصلاة دون لفظ الرحمة ، وإن كانت الصلاة من الله هي الرحمة .

وسمعت سيدى على المرصفي رحمه الله يقول : من أدب العارف أن يأخذ ما فرضه الله تعالى ابتداء من غير سؤال من الخلق بشدة اعتناء أكثر مما فرضه الله عن سؤال من الخلق بالحال أو القال كآية الحجاب . انتهى . وهو كلام غوره بعيد فليتأمل .

فعلم من باب أولى أنه ينبغي لقارىء القرآن أن يزيد في طهارة الباطن والأدب حال تلاوته أكثر مما يكون حال قراءة الحديث ، ويزيد من ذلك إذا قرأ الحديث أكثر مما يكون حال قراءة كلام المجتهدين . وهكذا فيجالس صاحب كل كلام قرأه . بمزيد التعظيم اللائق به ، ومتى غفل عن شهود مجالسته لصاحب ذلك الكلام فقد أخل بتعظيمه وفاته الحظ الأوفر من ذلك الكلام ، وما شرع الله تعالى عبادة من العبادات

(١) ربما يقصد تعظيما له .
(٢) سورة النجم الآيات : ٣ ، ٤ .

إلا طلباً لحضور عبيده معه فيها ، وما زاد على ذلك فهو بحكم التبع فعلم أن من لم يحضر مع الله فى عبادته فكأنه لم يفعلها .

وسمعت سيدى محمد المنير رحمه الله يقول : من تأمل بنور البصيرة وجد ما شرعه الشارع صلى الله عليه وسلم أكثر نوراً وأنساً مما شرعه المجتهدون ، كما أن ما شرعه المجتهدون أكثر نوراً مما شرعه من بعدهم على اختلاف طبقاتهم وذلك لأن الشريعة هى النور الأعظم وجميع ما زاد عليها مقتبس من نورها وكلما قرب المقتبس منها كان نوره أضوأ ، ثم ما زال المقتبسون يبعدون عن ما صرحت به الشريعة حتى خفيت مداركهم وجهلت أقوالهم لبُعد زمانهم عن نزول الوحى بل ربما خطئوا أصحاب تلك الأقوال ، ولو اتسع بصر الناس لوجدوا جميع أقوال العلماء ترجع إلى الشريعة المطهرة لكن ثَمَّ قول قريب . وقول أقرب ، فالشريعة كالعين الأولى من شبكة الصياد وأقوال علمائها كالعيون المتفرعة عنها إلى دائرة الشبكة الأسفل فكل عين سلكت منها أوصلتك إلى العين الأولى كما هو معروف بين أهل الكشف ، فعلم أن كل من حجب عن شهود تفاضل نور أقوال العلماء فلينظر إلى قلبه حال فعله لما شرعه الشارع وحال فعله لما شرعه غيره ، فإنه يجد النور والأنس الذى فى قلبه حال فعله لما شرعه الشارع أكثر بيقين ، وكذلك الحكم فيما شرعه المجتهد بالنسبة لما شرعه من بعده ، وهكذا .

وقد أقيمت صلاة الظهر بعد صلاة الجمعة مرة بحضرة سيدى على الخواص ، فقال : أين نور هذا الظهر من نور الجمعة ؟ وأين الأنس الذى يجده الإنسان حال صلاة الجمعة من الوحشة التى يجدها مصلى الظهر بعد الجمعة ؟ مع أن إعادة الظهر من جملة الإحتياط فى الدين . انتهى .

واعرضه على نفسك وأهل عصرك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

فإن كتب العلم حاوية لما تعبدنا الله تعالى به من أحكام القرآن، فمن نسيها فكأنه نسى القرآن، فعليه من الإثم كمثل إثم من قرأ القرآن ثم نسيه[1]. وهذا الخلق قد أغفل به غالب الفقهاء اليوم فضلا عن الفقراء، فلا تكاد تجد أحداً منهم يكرر محفوظاته لاشتغاله بمطالعة الشروح، ولو أنه نظر بعين البصيرة لوجد حفظه لمتن كتاب المنهاج مثلا أنفع له من مطالعته فى كتب العلم طول عمره مع نسيانه متن المنهاج، فإن من حفظ حجة على من لم يحفظ.

ولو نظر فى نفسه لوجد المسائل التى تعرفها من متن المنهاج يقينا أكثر من المسائل التى استفادها من المطالعة، ولو سئل من يكثر مطالعة العلم بلا حفظ للمتون عن مسئلة، هل هى ذات قول أو ذات وجه مثلا؟ لا يهتدى لذلك.

وقالوا: علم الإنسان هو ما يدخل به الحمام.

وقالوا: ليس بعلم ما حوى النظر ما العلم إلا ما حواه الصدر.

وذكر الغزالى أنه سافر فى طلب العلم من طوس إلى بغداد، فكتب علما كثيراً ووضعه فى جراب، فلما رجع به إلى بلده لقيه اللصوص فأخذوا الجراب، فصار يقول: ردوا على وخذوا ما عداه، فضحك منه اللص وقال: كيف يكون علمك فى الجراب؟ إنما علمك ما كان فى صدرك. قال: فأخذت من ذلك ما اعتبرت به وشرعت بعد ذلك فى حفظ العلم حتى لو عرانى اللصوص لم يفارقنى علمى. انتهى.

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول: ربما أكثر الفقيه من مطالعة

---

(١) وفى الحديث: عن أبى موسى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «تعاهدوا هذا القرآن فوالذى نفس محمد بيده لهو أشد تفلتا من الإبل فى عقلها» متفق عليه. وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنما مثل صاحب القرآن كمثل الإبل المعقلة، إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت» متفق عليه.

الكتب الواسعة ، فضعفت قوته الحافظة عن معرفة الجواب عن كل ما يسأل عنه على سبيل الجزم به ، فصار علمه كالمشكوك فيه فقل نفعه ، وفائدته ، ولو فتش نفسه لوجد جميع ما يريد تحصيله بالمطالعة دون المسائل التى فى كتابه الذى نسيه انتهى .

وسمعته مرة أخرى يقول : لو تأمل حافظ المنهاج مثلا لوجد نفسه أعرف بالراجح والمرجوح ممن طول عمره يطالع الشروح من غير حفظه للمتون .

ولو أنه قيل لحافظ المنهاج مثلا وهو فى الحمام عريان : هل هذه المسألة ذات قولين : أو ذات وجهين أو هل فيها نص للامام الشافعى أم هى من كلام الأصحاب ؟ لأجاب عن ذلك بأحسن جواب فى الحال فيسود ذلك الباب فى ذهنه ، ويخبرك بالمنقول فيها ويعرف موضعها من الكتاب بخلاف من لا يحفظ فإنه يقول لك : حتى أخرج من الحمام وأكشف لك عنها .

وكثيراً ما يذكر العلماء مسائل فى غير أبوابها المعقود لها فيصير الذى لا يحفظ المتون تائهاً لا يعرف موضعها ، وربما صار يفتش عليها نحو الشهر حتى يجدها وقد صنف الزركشى رحمه الله كتاباً فى المسائل المذكورة فى غير أبوابها سماه خبايا الزوايا ، وأستحضر أنى لما حفظت الروض أطلعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا على اثنى عشر مسألة كان ذكر فى شرحه أنها من زوايد الروض على الروضة ، والحال أنها مذكورة فى الروضة فى غير أبوابها ، فضرب على قوله أنها من زيادته على الروضة .

وكذلك لما كنت أقرأ على شيخنا الشيخ نور الدين المحلى رحمه الله وكانت المسألة تأتى إليه فلا يدرى جوابها ولا أين هى فى المنهاج فيقول لى : هذه المسألة فى أى باب من المنهاج ؟ فأقول له : فى الباب الفلانى فيكشف عليها ويفتى السائل ، ولو أنه كان يحفظ متن المنهاج لاستغنى عن سؤالى .

وقد اشتغلت مرة بمطالعة الكتب عن تكرار محفوظاتى فنظرت فإذا أنا صرت أغلط فيها . فرأيت شيخ الإسلام زكريا بعد مماته وهو ماسك كتاب المنهاج وهو يقول لى : تعال أسمع لك الذى نسيته من المنهاج ، ثم قال لى : أما علمت أن من نسى كتابه

الذى حفظه فى الفقه أو بعضه فهو كن نسى القرآن بعد حفظه وإن عليه من الإثم مثل ما على من نسى القرآن أو بعضه ؟ فأصبحت واشتغلت بتكراره حتى صرت أحفظه مثل القرآن ، واعرف متشابهاته كالقرآن .

وممن أدركته من الأشياخ على هذا القدم سيدى الشيخ عبد الحليم بن مصلح ، وسيدى أبى الفتح الغمرى الذى قيل أنه قطب قبل موته ، فكانوا لا يغفلون عن تكرار محفوظاتهم ويقولون قد صار علم كل من لا يحفظ المتون فى لسانه لا فى قلبه .

فلا يقدر على إلقاء درس إلا إن طالعه ولو أن علمه كان فى قلبه لا كتفى بما عنده من النور وقرر كلام ذلك المتن أو ذلك الشرح لأنه بلسان عربى وهو طول عمره يطالع فيه فاعلم ذلك واعمل عليه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم التصدق بكل ثوب أو عمامة أو قلنسوة أو سراويل
أو رداء عَصَوْا ربهم فيه

حتى أن بعضهم يود أن الله يبدله جسماً غير جسمه الذى عصى به ربه ، وبعضهم كان إذا عصى كان يود لو أن الله تعالى يميته لوقتـه حتى لا يعصيه مرة ثانية إيثاراً لجناب الحق تعالى .

وبعضهم يحلق رأسه وحواجبه ولحيته لأنه هو الذى يمـكنه إزالته من جسده بغير ضرر يمنع أنه مخلوق وهذا وإن كان فيه تعظيم لجناب الله فاتباع السنة أولى ، وأما التصدق بثيابه التى عصى فيها فهو لا بأس به لأنه كالـكفارة[1] والله أعلم .

(١) ويقصد الإمام الشعرانى من ذلك بيان شدة ندمهم على أفعالهم السابقة عند توبتهم مما يدعوهم إلى فعل تلك الأمور فإن من شروط التوبة ضرورة الندم عليها .

من رسل ، وأنبياء ، وصحابة ، وتابعين ، وأئمة مجتهدين ، وجميع أتباعهم من المقلدين أدبا مع الله عز وجل ، الذين هم فى حضرته على اختلاف طبقاتهم كل منهم على قدر حظه ونصيبه من القرب من شهود الله عز وجل ، وخوفاً أيضاً على أنفسهم من المقت إذا خاض أحدهم فى حق أكابر الحضرة بغير علم ولا إرث لهم فى المقام كما يقع فى ذلك كثيراً من المجادلين .

فيبادر أحدهم إلى الكلام على معنى خطيئة آدم أو داود عليهما الصلاة والسلام ، ويحمل ذلك على حسب ما يتبادر إليه فهمه ، وأين المقام من المقام ؟ وأين الحال من الحال ؟

وقد قال الشيخ محيي الدين فى شرح ترجمان الأشواق : ليس لنا ذوق فى مقامات الأنبياء حتى نتكلم على أحوالهم وليس لأحدنا من مقامهم الإرث من مقامهم إلا كما يرى خيال النجوم على وجه الماء . وقد طلب أبو يزيد من الله تعالى أن يدخله مقام نبي من الأنبياء ، فأعطاه الله منه مقدار الشعرة البيضاء من الثور الأسود ، فكاد أن يحترق ، وسأل الله الحجاب عن ذلك المقام ، وقال : لا طاقة لأمثالنا بدخول مقام أحد من الأنبياء[1] انتهى .

وسمعت سيدى علياً الخواص رحمه الله يقول : لو أن أحداً من هؤلاء المجادلين رأى شخصاً مقرباً عند سلطان أو أمير لأكرمه لأجله رجاء إحسانه أو خوفاً منه[2] ، فالله أحق بذلك من عبيده .

---

(١) ولعله يقصد بذلك الخوض فى سير الأنبياء بذكر أن لهم خطيئة أو إثباتها وهذا من الغلط المبين فإن عصمة الأنبياء قد استدل عليها العلماء بل إننا نرى فى كتب التفسير كالفخر الرازى دفاع عن الأنبياء وعصمتهم بالأدلة العقلية والنقلية ما يجعلنا نرد كل ماقيل عن الأنبياء من وقوعهم فى الأخطاء مماحكته الإسرائيليات الواردة فى الروايات الضعيفة والموضوعة .

(٢) ولربما برر له أخطاؤه .

وسمعته أيضاً يقول : يجب علي كل مؤمن أن يجيب عن أولياء الله ويحملهم على أحسن المحامل كما يفعل ذلك فى المقربين عند أكابر ملوك الدنيا بل الأولياء أولى بالوجوب .

وسمعته أيضاً يقول : من الواجب على كل مسلم الذَبّ عن أعراض الصحابة فضلا عن الأنبياء ، وعن أعراض التابعين فضلا عن الصحابة ، وهكذا لأن هؤلاء هم حماة الدين والقدح فيهم طعن ، فى جميع ما كانوا واسطة لنا فيه ، من الأحكام ، فكأن من نسبهم إلى نقص يريد أن يهدم أركان الدين كلها ، وقد لعن الله تعالى من غيّر حدود الأرض فكيف بمن يغير حدود الدين ؟ انتهى .

وقد منّ الله تعالى عليّ بحسن الأجوبة عن الأئمة ومقلديهم من الفقهاء والصوفية من حداثة سني إلى وقتي هذا ، حتى ربما ظن بعضهم من كثرة توجيهي لأفعالهم وأقوالهم أنني لا أتقيد بمذهب ، والحال أنني مقلد للامام الشافعى رضى الله عنه ، وإنما أجيب عن الأئمة من باب حسن الظن بهم ، وكثرة اطلاعى على أدلتهم ، لا تعصباً لهم بغير علم ، معاذ الله أن أقع فى ذلك ، فلكل فعل أو قول ورد عن نبى أو ولى أو فقيه عندى محمل صحيح بحمد الله تعالى لا تأباه العقول السليمة ، وأرجو من فضل الله تعالى أن كل من أجبت عنه من الأنبياء والعلماء والصالحين يتبسم فى وجهى يوم القيامة إذا رآنى ويأخذ بيدى بخلاف من كان يرمى الأكابر بما لا ينبغى ، ويحملهم على حال نفسه هو ، فربما عبسوا كلهم فى وجهه يوم القيامة ، أو نظروا إليه شزرا أو لم يتبسموا له كل ذلك التبسم أو تبسم المغضب .

وأيضاً وكما وجب علينا حمل آيات الصفات ، وأخبارها على محامل تليق بالبارى جل وعلا ، فكذلك يجب علينا الذبّ عن رسله عليهم الصلاة والسلام وحملة شريعتهم من الفقهاء والمحدثين وغيرهم ، لأن مقام هؤلاء لا ذوق لأمثالنا فيه لحجاب أحدنا من دائرة شيخه الأدنى فضلا عن الأعلى ، ولأن النبوة يبتدى مقامها من بعد نهاية مقامات الأولياء ، فإذا كان لاذوق لأعلى الأولياء فى مقامات الأنبياء حتى يتكلم عليها

على وجه المطابقة فكيف يكون لأمثالنا ذوق فيها[1].

وكان سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : لا يجوز لأحد من الأولياء أن يتكلم على مقام نبي إلا بحسب ما ورث من مقامه فقط فإنه محال لولى أن يرث مقام نبي على الكمال . انتهى .

فإن كنت يا أخي وارثاً لأحد منهم فتكلم فى مقامه بحسب الإرث إلا وجب عليك السكوت خوفاً من دخولك فى مقت الله تعالى بخوضك فى أعراض أهل حضرته بغير علم . وبالله التوفيق .

إذا علمت ذلك فقد أجيب به عن أبينا السيد آدم عليه الصلاة والسلام فى أكله من الشجرة التى جعلها الله تعالى لبليه من بعده ، كالحبة فى الفخ للطائر هو أن تعلم يا أخى أن المراد بقوله تعالى : « وعصى آدم ربه فغوى[2] هم بنوه الذين كانوا فى ظهره[3] عليه الصلاة والسلام وبذلك قال جماعة من العلماء نظير قوله تعالى فى حق نبينا[4] محمد ﷺ « لئن أشركت ليحبطن عملك[5] ونحوها من الآيات .

وقال الشيخ عبد العزيز الديريني رضى الله عنه : لم تكن معصية أبينا آدم عليه

---

(١) قال الله تعالى : « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا » .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى قال : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى ما افترضت عليه ، وما زال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التي يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى أعطيته ، ولئن استعاذنى لأعيذنه » رواه البخارى .

(٢) سورة طه آية : ١٢١

(٣) يقصد بذلك عصيان بنيه الذين من صلبه .

(٤) ربما يقصد لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

(٥) سورة الزمر آية : ٦٥

الصلاة والسلام حقيقية ، وإنما كانت صورية فكأنه يعلم بنيه بصورة ما وقع على يديه كيف يفعلون إذا وقع أحدهم فى معصية ربه عز وجل من التوبة والاستغفار وعدم الاحتجاج بالقضاء السابق الذى لا مرد له[١] ، فإن آدم عليه الصلاة والسلام قال بعد ما وقع فى الأكل من الشجرة صورة « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنـــا وترحمنا لنكونن من الخاسرين[٢] » ، مع علمه يقيناً بأن ظاهر ما وقع فيه كان بقضاء وقدر لا مرد له ، وأن الله تعالى قدره عليه قبل أن يخلقه من التراب ، ففتح عليه الصلاة والسلام بذلك لبنيه باب التوبة والاستغفار ، وفتح إبليس لبنيه وجنوده بالاحتجاج بالقضاء والقدر والاباية عن السجود باب الشقا والدمار والاستكبار والافتخار ليقضى الله أمراً كان مفعولا .

ولذلك قال تعالى فى آدم عليه الصلاة والسلام : وعصى آدم ربه فغوى وفى ابليس « أبى واستكبر وكان من الكافرين[٣] » .

وفى ذلك حكمة لا تذكر إلا لأهلها مشافهة لأن الكتاب يقع فى يد أهله وغير أهله فاعلم ذلك .

وسمعت سيدى افضل الدين رحمه الله يقول : كان فى أكل أبينا آدم من شجرة النهى بيان حكم حضرتى الأمر والنهى ، وأن من كمال العبد المؤمن ذوقه لهما ليعرف مقدار الوصل والهجر ، ومن هنا قالوا : إن بنى آدم أكمل فى المقـــام من الملائكة لأنهم لا يذوقون للنهى طعماً لعدم وقوعهم فيه وعدم ميلهم إليه ، ففاتهم الأجر الذى جعله الله لبنى آدم فى نظير اجتنابهم النهى[٢] ، وفاتهم مقام محبة الله تعالى لهم فى قوله : « إن الله

---

(٥) يقصد بذلك أنها جاءت تشريعا وتعليما لبنى آدم .

(٦) سورة الأعراف آية ٢٣

(١) سورة البقرة آية : ٣٤

(٢) فإن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . أما الإنسان فإن فى نفسه دائما التنازع بين الخير والشر وهذا سر عظمته عند الله تعالى إذا اجتنب نواهيه وائتمر بأمره .

يحب التوابين[1] » .

فعلم أنه لولا ذوق بنى آدم النهى ما عرفوا قدر ما أنعم الله عليهم فى امتثالهم الأمر ، إذ لا يعرف مقدار شىء إلا بضده .

ولو أن آدم عليه الصلاة والسلام لم يأكل من الشجرة الأكل الضرورى لكانت ذريته المؤمنون ناقصين من الأجر والثواب والشكر لله ، وأما هو عليه الصلاة السلام فكان كاملا فى كل حال والله تعالى رضى عنه فى حال أكله من الشجرة كحال توبته وندمه على حد سواء لأن تلك المعصية كان المراد بها غيره من ذريته لا هو .

وقد أجمع أهل الكشف قاطبة على أن ترقى الأنبياء فى المقامات دائم فلا ينتقلون من حال إلا لأعلى منه وأكمل ، وأن هبوط آدم عليه الصلاة والسلام إلى الأرض كان هبوط كرامة ، وشرف ، وترق فى مقامه ، لأن الأرض هى محل خلافته التى شرف بها ، ولم يجعل الحق تعالى له فى تلك الجنة التى كان فيها خلافة ولا خروج ذرية من أنبياء ولا غيرهم ، فكان فيها كالعقيم الذى لا ولد له .

وقد امتن الله تعالى على الرسل عليهم الصلاة والسلام بالذرية بقوله تعالى « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية[2] » وأما وصف الحق تعالى يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام بأنه حصور فليس ذلك صفة كمال كما قاله الشيخ محيي الدين رضى الله عنه ، وإنما هى حكاية عن الحال التى كان عليها . انتهى .

قلت : ويحتمل أن ذلك صفة كمال ليحيى عليه السلام من باب الخصوصية له .

وسمعت سيدى على المرصفى رحمه الله يقول : لو لم يكن من فائدة هبوط آدم عليه الصلاة والسلام إلا كون حسنات جميع بنيه فى صحيفته لكان فى ذلك كفاية فى شرفه لأن حسنة الولد من حسنات الوالد وليس على الوالد من وزر بنيه شىء . انتهى .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٢٢

(٢) سورة الرعد آية : ٣٨

وسمعت بعض أهل الكشف يقول : جميع ما وقع من آدم عليه الصلاة والسلام كان الحق تعالى قد أعلمه به قبل ذلك ، وقال له أنه قد سبق في علمي خلقك واخراج ذرية من ظهرك فيهم أنبياء ورسل وأولياء وصالحون ومؤمنون وكافرون ومقرون وجاحدون وأرسل رسولي جبريل إلى الرسل من أولادك بكتب وصحف وأحكام وتكاليف .

وكذلك سبق في علمي أن أخلق لذريتك وغيرهم من الجن دارين اسم احداهما الجنة والأخرى جهنم فاجعل الجنة للأنبياء والمرسلين ومن أطاعهم وصدقهم وجهنم لكل من خالف كتبي ورسلي ويكون شرفك بذلك ، وسبق في علمي أن أوقع على يديك صورة ما يقع من بعض بنيك من المعاصي واعلمك كيف يتخلصون منها إذا وقعوا فيها ، وإن من تاب منهم واستغفرني وندم قلبه ولم ينقص ذلك من مقامه عندي ولا بد الك من حجة أقيمها عليك في الظاهر وأنادي عليك بالعصيان تقبيحا في عين بنيك لئلا يستهينوا بمحارمي فاثبت ولا تضجر فانك عندي مصطفى مختاراً .

واعلم يا صفي بأني كريم ، ولا ينبغي للكريم أن يخرج عبده من جواره إلا بحجة تقام عليه ، ليتميز سيده بالكمال المطلق ، ويتميز نفسه بالنقص المقيد النسبي انتهى .

فلما أعلمه الحق تعالى بما ذكرناه صار عليه الصلاة والسلام مترقباً لخروجه من تلك الجنة إلى دار خلافته ، وليرتب الله تعالى الأسباب على مسبباتها كما سبق في علمه ، وأيضاً فإن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال : في قوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها[1] » قال : علمه كل اسم آلهي وكوني حتى القصعة والقسية والمقسية والمحراث والطاحون والفاس والقدرة ونحو ذلك مما لا يحتاج إليه أهل تلك الجنة التي كان فيها .

وكان آدم عليه الصلاة والسلام منتظراً خروجه إلى الأرض ليستعمل تلك الأسماء والمسميات فيها ، ويكون آلة في تنفيذ قضاء الله وقدره في عباده .

وكان لسان حال الارادة الآلهية يقول لآدم عليه الصلاة والسلام لا أخرجك من

---

(١) سورة البقرة آية : ٣١

جوارى إلا بحجة تقام عليك ونهى لك من الأكل من الشجرة هو قرب أوان إخراجك من جوارى إلى محل آخر فى جوارى تكون فيه خلافتك ، وقد قدرت عليك الأكل الصورى من الشجرة دون أن آمرك بالأكل منها ، فإن ذلك تصيير القبضتين إلى قبضة واحدة وهو خلاف ما سبق فى علمى من جعلهم قسمين شقى وسعيد فإنى أريد المعاصى من عبادى ولا آمر بها أن الله لا يأمر بالفحشاء . انتهى .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله تعالى يقول مراراً :

كانت معصية آدم عليه الصلاة والسلام صورية لا حقيقية ، فإن الحق تعالى كان قد ألهم آدم من الوجه الخاص الذى بينه وبينه وقال له : إنى أريد أن أبرز ما كان فى مكنون علمى من ترتيب الأسباب على مسبباتها ، واقدر على يديك صورة ما يقع من بنيك السعداء ، دون الأشقياء ولا أؤاخذك بصورة ما يقع على يديك من صورة ما يقع فيه بنوك ، واجعل صورة ما يقع على يديك صورة تقود الاقدار التى لا انتهاك فيها لمحارمى خلاف ما يقع من بعض بنيك ، فكانت المسئلة بمثابة جماعة قال لهم الملك : إنى أريد أن أحدث فى ملكى أمراً وأرتب عليه أحكاماً وانهى خليفتى عن شىء فى الظاهر وأريده منهم فى الباطن ، واجعل عدم الأذن له فى المنهى ظاهراً إذناً له باطناً ، وكل من كان حاضراً هذا الاتفاق من المقربين أو أطلع عليه من طريق كشفه لم يسم ذلك معصية حقيقة ومن كان غائباً عن هذا الاتفاق أو لم يكشف له عنه جزم بأنه معصية ظاهراً وباطناً قال : فما ثم إلا مطيع من وجه واحد أو من وجهين وكل من لم يطع الأمر أطاع الإرادة « إن كل من فى السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً » حتى أن من ادعى الألوهية من العبيد ما ادعاها إلا بإرادة الله تعالى له أن يدع ذلك .

وإن كان الشرع ﷺ نهى عن الاحتجاج بالارادة إذا تجردت عن الأمر فإن أحداً لا يطيع ولا يعصى إلا بالارادة ، ولكن إذا أرادت القدرة الآلهية للعبد امتثال الأمر امتثله لا محالة ، وسمى ذلك العبد مطيعاً لله تعالى ظاهراً وباطناً من وجهين ، لأنه الأمر

وافق الإرادة وإن لم ترد القدرة الآلهية للعبد امتثال الأمر ظاهراً لم يصح منه طاعة وسمى عاصياً للأمر مطيعاً للإرادة باطناً .

فعلم أن نداء الحق تعالى على آدم عليه الصلاة والسلام بالمعصية ، إنما هو لأجل المحجوبين عن الاتفاق المذكور لأنهم هم الذين يتعدون حدود الله تعالى ، ويقعون فيها وأما المقربون فهم يعرفون الأمر على ما هو عليه ، ويعلمون إنما وقع من آدم عليه الصلاة والسلام كان مراداً به غيره ، وقد يضرب الملك عبده المقرب عنده تخويفاً لبعض العبيد الخارجين عن طاعة الملك برضى منه مع الملك واتفاق على ذلك ليقول الخارجون عن طاعة الملك :

إذا كان هذا فعله فى عبده المقرب فكيف بالعبد المطرود عن حضرته فيتحرك هؤلاء المارقون عن الطاعة لفعلها ويخافون منه أن تركوها فكان آدم عليه الصلاة والسلام فاتحا لباب احكام الدنيا وحاملا عن بنيه شده الندم والخوف والبكا .

فقد نقل الكسائى أن آدم عليه الصلاة والسلام بكى حتى صار من دموعه بركة عظيمة ومكثت الوحوش والطيور والبهائم يشرب منها مدة ثمانين سنة فكان من فتوته وعزمه وشفقته على بنيه أن تحمل عنهم هذا البكاء العظيم ولولا ذلك لاشتد البكاء والنحيب والندم والحزن على بنيه أكثر مما يقع لهم الآن ، وربما كانوا يتعطلون عن أمر معاشهم فجزاه الله تعالى عن بنيه خيراً[١] .

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : أجمع أهل الكشف على أن نداء الحق تعالى على أبينا آدم عليه الصلاة والسلام بالعصيان والغواية ، كان المراد به غيره نظير

---

(١) كل هذا دفاع عن عصمة الأنبياء ومحاولة نفى الخطيئة عن سيدنا آدم عليه السلام وهذا يتفق مع الجو الصوفى فى نفى الخطيئة عن الأنبياء صلوات الله عليهم وإثبات العصمة لهم .
يقول الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه ، كنت مع الشيخ فى سفر ونحن قاصدون إلى الإسكندرية حين مجيئنا من المغرب فأخذنى ضيق شديد حتى ضعفت عن حمله ، فأتيت إلى الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه ، فلما أحس بى ، قال : أحمد .

قوله تعالى لمحمد ﷺ « لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين[1] » .
وقوله تعالى : « يا أيها النبي اتق الله[2] » ونحو ذلك . انتهى .

وقد مر بعض ذلك فمن رحمة الله تعالى بعباده أن جعل فيهم أنبياء وأعطاهم القوة على تحمل صولة خطابه، مما لو يحمله غيرهم لهلك وذاب وأيضاً فلما سبق فى علم الله تعالى إعراض العصاة عن أوامر الله .

كذلك أعرض تعالى عنهم بالخطاب وخاطبهم فى غيرهم بغضاً لهم ومقابلة للإعراض بالأعراض وجميع أهل الكشف من المقربين يعلمون من الله تعالى شدة اعتنائه بأنبيائه عليهم الصلاة والسلام وأنه قد عصمهم من الوقوع فى كل شىء يكرهه تعالى وأنهم ليسوا بمحل لوقوع المخالفات الحقيقية ومن كان كذلك لا يحتاج فى ترك المخالفات إلى نهى فافهم .

وكذلك أجمع أهل الكشف كلهم على أن مقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حضرة الإحسان التى يعبد العبد فيها ربه كأنه يراه ، وتلك حضرة لا يصح للعبد أن يعصى ربه فيها أبداً ، فلا بد للعاصى من حجاب حتى يقع منه المعصية ، ولا يصح لعبد أن يعصى ربه على الكشف والشهود بأن الله تعالى يراه أبداً ، فما وقع أحد فى معصية إلا وهو محجوب عن ربه بسبعين ألف حجاب .

قلت : نعم ياسيدى .
قال : « آدم خلقه الله بيده ، وأسجد له ملائكته ، وأسكنه الجنة نصف يوم — خمسمائة عام — ثم نزل به إلى الأرض والله ما نزل الله بآدم إلى الأرض لينقصه ولكن نزل به إلى الأرض ليكمله ، ولقد أنزله إلى الأرض من قبل أن يخلقه بقوله :
(إنى جاعل فى الأرض خليفة) .

(١) سورة الزمر آية : ٦٥

(٢) وتمام الآية (يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين) سورة الأحزاب آية : ١

وإذا كان الولى إذا دخل حضرة الإحسان يحفظ من الوقوع فى المعاصى فكيف بمن هو مقيم فيها من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على الدوام .

وكان الشيخ محيي الدين بن العربى رضى الله عنه يقول : من أعظم دليل على عصمة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، كون الحق تعالى جعلهم مشرعين لأممهم بأقوالهم وأفعالهم كلها ، فلو أنه كان يصح من أحدهم معصية حقيقة لصدق عليهم تشريع الوقوع فى المعاصى ولا قائل بذلك انتهى .

وكان يقول أيضاً قد أجمع أهل الكشف الصحيح على أن الأسباب المانعة للعبد من الوقوع فى المعاصى ، أربعة لا خامس لها : وهى العصمة أو الحفظ أو الحيا والخوف والرجا وهذه الأربعة مجموعة فى كل نبى لله بلا شك انتهى .

قلت : ومن هنا تعرف معنى حديث نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه أى لو قدر أنه لم يخف الله تعالى لكان معه ثلاثة أسباب مانعة من الوقوع فى المعصية وهى عدم التقدير فى علم الله تعالى والحيا والرجا ، وقس عليه بقية الأربعة كما لو قيل نعم العبد صهيب لو لم يستح من الله أو لم يرج ثواب الله أو لم يقدر الله تعالى عليه معصية لم يعصه .

ومما يؤيد قولنا أن معاصى الأكابر تورثهم الاجتباء والاصطفا من غير أن ينقص مقامهم حال وقوعهم فى مسمى المعصية عند الله تعالى ، قول الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه :

وما قال فى الجنة ولا فى السماء ، فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة لا نزول إهانة ، فإنه كان يعبد الله فى الجنة بالتعريف ، فانزله إلى الأرض ليعبده بالتكليف ، فلما توفرت فيه العبوديتان استحق أن يكون خليفة ، وأنت أيضاً لك قسط من آدم ، كانت بدايتك فى سماء الروح فى جنة المعارف ، فأنزلت أرض النفس لتعبده بالتكليف ، فلما توفرت فيك العبوديتان استحققت أن تكون خليفة .

لو عرف آدم أنه إذا نزل إلى الأرض يعود إلى الجنة بمائة الف نبي وأربعة وعشرين ألف نبي منهم محمد رسول الله ﷺ لأكل الشجرة بكمالها .

وكذلك يؤيد ما ذكرناه ما ذكره الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله عنه في الباب التاسع والثلاثين من الفتوحات المكية : من أن هبوط آدم عليه الصلاة والسلام عقب أكله من الشجرة إلى الأرض هو وحوّى لم يكن عقوبة لهما كما وقع لابليس لعنه الله ، وإنما كان هبوط شرف فإنه أهبط بالوعد السابق أن يكون هو وبنوه خليفة في الأرض أي يخلفون الجن والبن الذين كانوا قبلهم في الأرض وكانوا ملائكة أرضيين .

ولو أنهم كانوا من ملائكة السموات لم يقع منهم اعتراض لصفاء عنصرهم ورفع حجابهم الطيني الكثيف وكانوا قد ذاقوا وقوع الفساد منهم في الأرض وسفك بعضهم دماء بعض فقاسوا آدم عليهم .

ولو أنهم كانوا من ملائكة السماء لما قالوا ذلك لعدم ذوقهم للقتل والفساد في السموات فافهم .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : ما بلغنا قط في كتاب ولا سنة ، أن أحداً من أهل السماء يفسد فيها أو يسفك دم أخيه من الملائكة أبداً بخلاف الملائكة الأرضية لقربهم من أحكام أهل الأرض قال : ثم بتقدير أن معصية آدم المذكورة لم تكن صورية ، فما أنزل إلى الأرض إلا بعد وقوع توبته المقبولة وندمه وبكائه وتلقيه الكلمات من ربه بقوله « ربنا ظلمنا انفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا[1] » إلى آخره تعليما لبنيه أن

وبما يوضح فكرة الإمام الشعراني قولنا في تحديد معنى النبوة : لفظ النبي مأخوذ من الإنباء ، فيتضمن هذا معنى الإعلام والإخبار ، لكنه في عامه موارد إستعماله أخص من مطلق الإخبار فهو يستعمل في الأمور الغائبة المختصة دون المشاهدة المشتركة ، كما قال : (وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم) .

(١) وتمام الآية (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفرلنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) سورة الأعراف آية : ٢٣

يعترفوا بذنوبهم إذا وقعوا فيها ولا يحتجون بالقضاء والقدر فإنه عليه الصلاة والسلام لم يحتج بالقضا والقدر بل قال مع علمه بأن ما وقع علي يديه بقضاء وقدر لا مرد له ربنا ظلمنا أنفسنا .

فعلم أولاده أدب العبيد مع سيدهم جل وعلا إذا خالفوا أمره بسبق إرادته .

وكان اعترافه عليه الصلاة والسلام فى مقابلة قول ابليس للحق جل وعـلا كيف تؤاخذنى على ذنب قدرته على قبل أن أخاق؟ فسعد آدم باعترافه وشقى ابليس بجداله بغير حق .

وقد بلغنا أن الحق تعالى أدحض حجته بقوله تعالى له : متى علمت إنى قدرت عليك الاباية عن السجود قبل وقوعك فى الاباية أم بعدها ؟

فقال : بعدها .

فقال له الحق جل وعلا : بذلك أخذتك .

وسمعت شيخنا شيخ الأسلام زكريارحمه الله يقول : إنما أخبرنا الحق تعالى باعتراف أبينا عليه الصلاة والسلام بالذنب واعلمنا تعالى بشدة اعتنائه به ، ووعده على ذلك بالاجتباء لنفعل مثل صورة فعل أبينا عليه الصلاة والسلام إذا وقعنا فى الذنب ، ونعترف بذنوبنا ، كما أنه تعالى ما عرفنا بمقالة ابليس إلا لنحذر من الوقوع فى مثلها عند وقوعنا فى المخالفة لأمر الله بارادة الله انتهى .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : أقبح من كل قبيح قول العاصى لربه كيف تؤاخذنى على أمر قدرته على قبل أن أخلق ؟

وقال : « فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا ؟ قال نبأنى العليم الخبير » .
وجمع النبي أنبياء ؛ وهو من النبأ ؛ وأصله الهمزة وقد قرىء بها ؛ وهى قراءة نافع ؛ يقرأ النبيء ؛ لـكن لما كثر استعماله لينت همزته كما فعل ذلك فى الذرية وفى البرية .
وقد قيل : هو من النبوة بفتح النون وسكون الباء ؛ وهى العلو ؛ فمعنى النبي : المعلى الرفيع المنزلة ؛ والتحقيق أن هذا المعنى لازم الأول ؛ فمن أنبأه الله وجعله منبئا عنه فلا

فكل من اعترف بذنبه ، ولم يحتج على ربه أنسه تعالى يوم القيامة جزاء على أدبه ، وقال له : يا عبدى لا تخف فى هذا اليوم من ذنبك فما كان ذلك فى دار الدنيا إلا بقضائى وقدرى .

قال : وعند ذلك يكاد العبد يطير من الفرح والسرور حين صار الحق تعالى يعتذر عن عبده ، ويقيم له الحجة ، فانظر يا أخى ما أحسن جزاء أدب العبد مع سيده فى دار الدنيا إنتهى .

وسمعته أيضاً يقول : لا يعتذر الحق تعالى يوم القيامة إلا عن عباده الموحدين فاياك والغلط .

وكان رضى الله عنه يقول : من ندم علي ذنبه واستغفر ربه منه واعترف به فقدصحت توبته لأن الله تعالى لم يقص علينا فى توبة أبينا آدم عليه الصلاة والسلام إلا الاعتراف والندم فلو كان ثم أمر زائد لقصه علينا .

وقول العلماء أن من شروط التوبة الاقلاع وعزم أن لا يعود إنما أخذوه بطريق الاستنباط إذ النادم على شيء من لازمه الاقلاع وعزم أن لا يعود انتهى .

وسمعته رضى الله عنه يقول مراراً من زعم أن هبوط آدم وحوّى[1] عليهما الصلاة

يكون إلا رفيع القدر عليا ؛ وأما لفظ العلو والرفعة فلا يدل على خصوص النبوة إذ يوصف بهذا من ليس بنبي كما قال تعالى :

(ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون) .

يقول ابن تيميه : وقراءة الهمز قاطعه بأنه مهموز ، وما روى عن النبي ﷺ أنه قال: « أنا نبي الله ولست نبىء الله » فما رأيت له إسناداً ، لا مسنداً ولا مرسلا ، ولا رأيته فى شيء من كتب الحديث ولا السير المعروفه ، ومثل هذا لا يعتمد عليه .

ويبين رحمه الله أننا إذا اعتبرنا النبي مهموز الأصل ، فإن الهمزة يمكن أن تلين فذلك

(١) يقصد سيدتنا حواء رضى الله عنها .

والسلام من الجنة كان عقوبة لها فقد افترى اثما عظيما ، إنما كان والله هبوطهما لزيادة الـكرامة والتقريب وليخرج الله من ظهر آدم عليه الصلاة والسلام ، وبطن حوى الذرية التى بها يعمر الدنيا والآخرة كما سبق فى علم الله تعالى .

وليكون ثواب طاعات جميع بنيهما فى صحائفهما من الأنبياء والمرسلين وصالحى المؤمنين من غير أن ينقص من أجورهم شيء وأما أوزار بنيهما فليس عليهما منها شيء كما مر ولا يكون الوزر إلا على من تسبب فيه بالقصد .

وقد كان الشيخ أبو مدين المغربى رضى الله عنه يقول : لو كنت مكان أبينا آدم عليه الصلاة والسلام ، واطلعنى الله تعالى على ما اطلعه عليه من عدم المؤاخذة بما يقع على يديه من صورة ذنوب بنيه لأكلت الشجرة كلها لما ترتب على أكلها من الخير والبركة فإنه عليه الصلاة والسلام كان فاتحاً للقبضة فى حق أولاده لا فى حقه ولذلك لم يتكرر منه الذنب إنما وقع مرة واحدة انتهى فليتأمل .

وكان يقول أيضاً ما وقع من آدم عليه الصلاة والسلام كان كالحتم الواجب وقوعه ، إذ لا بد من فاتح يفتح الباب حتى لو لم يقع ما وقع من آدم عليه الصلاة والسلام لكان وقع من غيره لا محالة .

جائز ، فتصير حرفا معتلا ، فيعبر عنه باللفظين ، فترد إليه القراءتين بخلاف المعتل فإنه لا يجعل همزة ، فيجب القطع بأن النبي مأخوذ من الإنباء لا من النبوة بفتح النون وسكون الباء .

هذا هو التحديد اللغوى لمعنى النبوة ، قد رجحنا فيه ان لفظ النبي مأخوذ من الإنباء ، ففيه معنى الإخبار ، لكنه فى عامه استعمالاته خاص بالأمور الغائبه المختصه دون المشاهدة المشتركة : اللفظ من النبوة (بفتح النون وسكون الباء) وهى العلو ، فمعنى النبي عندهم : المعلى الرفيع المنزلة والأصح أن هذا المعنى لازم لمعنى الإنباء والإخبار فإن لفظ العلو ورفعة المنزلة قد يوصف بها من ليس نبياً فلا يدل على خصوص النبوة ولا يدل على خصوص صفه النبي أن من كان نبياً كان رفيع الشأن عالى المنزلة ، كما قدمنا .

وكان آدم عليه الصلاة والسلام بما وقع فيه ، كالآلة التى تنفذ فيها احكام القضاء والقدر من غير أن ينقص له مقام بذلك انتهى .

وكان يقول أيضاً : إنما أهبط آدم من الجنة ليتخلق بالذل والمسكنة والحاجة التى هى أعلي أوصاف العبيد فى دار التكليف ، فإن الجنة التى كان فيها ليست بمحل لذلك وإنما محل ذلك الأرض .

وقد بلغنا أن أبا يزيد رضى الله عنه كان يقول : رأيت ربى عز وجل فى المنام .

فقلت له : يارب بم يتقرب إليك المتقربون .

فقال : بما ليس من صفتى .

فقلت له : يا رب وماذ اك فقال جل وعلا : الذل والانكسار وسيأتى قريباً أن هذا من أعجب الأمور لأن القرب عادة إنما يكون بالتخلق بصفات المحبوب ومن بعد عنها بعد عنه انتهى .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : إنما نسب آدم الأمر القبيح إلى نفسه بقوله : « ربنا ظلمنا أنفسنا » الآيه ليعلم بنيه الأدب مع علمهم بماء العلم عليه انتهى .

وكان رضى الله عنه يقول : أيضاً قد يجرب الحق تعالى عبده بوقوعه فى الزلة ليرى العبد صدق دعواه العبودية أو كذبه فيها ليرقيه فى مقامات العبودية والرضى عنه فى قضائه .

على أنه إذا كان هذا هو التحديد اللفظى واللغوى لمعنى النبوة ، فإن أغلب تحديدات معنى النبوة تدور حول هذا ولا تزيد عنه إلا قليلا .

فإن المشهور فى عرف الشرع — كما يقول الإمام الألوسى — :

(أن النبي من أوحى إليه سواء أمر بالتبليغ أم لا) .

أما صاحب شرح المقاصد على المواقف فيقول :

« إن النبوة هو كون الإنسان مبعوثاً من الحق إلى الخلق » .

كما وقع أن إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه نام ليلة عن ورده فأصبح حزيناً على ذلك فعوقب بحرمان القيام سبعة أيام ، حتى كاد قلبه يتفطر من الجفا والبعد عن حضرة الله تعالى ، ثم نودى فى سره يا إبراهيم كن عبداً لنا تسترح فان أغناك ، ثم وأن أقناك قم وايس لك فى الوسط شيء وأنا غنى عن عبادة خلقى انتهى .

قال إبراهيم : فمن تلك الليلة ما حزنت على شيء فاتنى إلا من حيث ما فيه من مشاهدة الحق جل وعلا إذ الحق تعالى لا يجالس عبده قط إلا فيما شرعه وأمره به لا غير انتهى .

وكان سيدى عبد القادر الجيلى رضى الله عنه يقول : من كمال أدب العبد مع الحق تعالى أن يشكره إذا أحجبه عن مشاهدته من باب إحسان الظن بربه ويقول لولا أن فى ذلك مصلحة لى ما حجبنى عنه .

وكان يقول أيضاً : قد يوقع الله تعالى وليه فى الزلة رحمة به إذا خاف عليه ما هو أقوى وأخفى من تلك الزلة كالعجب بعمله ، والكبر على الناس ، والادلال بعمله على الله تعالى فيتحصل له بذلك غاية التأديب ويصير يستحى من مجالسة الناس ، ويرى نفسه أحقر عباد الله تعالى انتهى

أما الإمام تقى الدين أحمد بن تيمية فيحددها فى معرض كلامه على النبوة يقول :

« أن النبى هو الذى ينبئه الله وهو ينبيء بما أنبأه الله به » .

أما الإمام محمد عبده فيقول : « النبوة تحدد ماينبغى أن يلحظ فى جانب واجب الوجود من الصفات ، وما يحتاج إليه البشر كافة من ذلك ، وتشير إلى خاصتهم بما يمكن لهم أن يفضلوا به غيرهم فى مقدمات عرفانهم ، لكنها لاتخدم إلا ما فيه الكفاية العامة .

إذا نظرنا إلى هذه التعريفات فإننا نجدها لم تخرج عن نطاق التحديد اللفظى للنبوة إلا قليلا ، ولم يخرج عن هذا النطاق سوى الإمام محمد عبده ، حيث تكلم عن أهدافها دون تحديد تعريف لها .

ولكن كيف يتأتى لنا أن نحدد معنى النبوة ؟

قلت ومن هذا قال الشيخ تاج الدين بن عطا الله[1] : معصية أورثت ذلا وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً ، أى بالنظر للأثر المترتب عليهما فإن الله تعالى ما شرع التكاليف إلا ليذل بها نفوس المتكبرين ويزكى بها نفوس المقربين فمن تكبر بعبادته فقد قلب الموضوع وطلب عكس الحكمة فاستحق الطرد والمقت بما يقرب غيره من النفوس الزكية فلو كان عنصر العبد طيباً لم يزدد بالطاعات إلا تواضعاً فاعلم ذلك .

وكان الشيخ محيي الدين رضى الله عنه يقول لو لم يكن فى وقوع أهل الله تعالى فى الزلات ألا ترك العجب والكبر اللذين يحصلان للمطيعين عادة لكان فى ذلك غاية التأديب لهم ، والاعتناء بشأنهم فإن العجب والكبر هما الذنبان اللذان أخرج بهما ابليس من الحضرة .

وقال فى الباب التاسع والثلاثين من الفتوحات المكية : اعلم أن الله تعالى ما قص

إن التعريف الذى يحدد لنا معنى النبوة هو التعريف القرآنى ، وهو الذى يخرجنا من هذه الدائرة الضيقة للتعريفات السابقة .

وتبدو لنا أولى الآيات التى تحدد لنا المعنى المراد فى قوله تعالى : « إن الله اصطفى آدم ونوحاً ، وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » ويقول : « واتخذ الله إبراهيم خليلا ». ويقول : « وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى » .

(١) هو العارف بالله أحمد بن عطاء الله السكندرى : يقول عنه الشيخ أحمد زروق : هو الشيخ الإمام العالم العارف بالله المحقق الكامل أبو الفضل تاج الدين وترجمان العارفين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن عيسى بن الحسينى بن عطاء الله ، الجذامى نسبا ، المالكى مذهبا ، الاسكندرى دارا ، القاهرى مزارا . توفى بالقاهرة سنة سبعمائة وتسع فى جمادى الآخرة ، وكان أعجوبة زمانه فى التصوف وغيره كما قيل :

حلف الزمان ليأتين بمثله　　　حنثت يمينك يازمان فكفر

ويذكر الشيخ زروق من مؤلفاته :

(التنوير فى إسقاط التدبير) (لطائف المنن) (تاج العروس) (مفتاح الفلاح) (القول المجرد فى الإسم المفرد) .

علينا ما قص من خطيئة أبينا آدم الصورية وما أتبعها على ذلك من التوبة والاجتباء إلا لنظن بالله خيراً إذا زل أحدنا زلة ، ونزل عن مكانه العلى الذى كان يشهده فى نفسه من استشعار القرب من حضرة الله والانس به وأن تلك الزلة لا تقتضى بشقائنا الأبدى ولا بدبل يجب علينا أن نظن بربنا الخير أن هبوطنا عن مقامنا الظاهر بين الناس ، كهبوط أبينا آدم من الجنة على حد سواء من حيث ترقينا بالذل والانكسار فى مقامات العبودية ان شاء الله تعالى فإنه ما ثم قرب إلى حضرة الحق جل وعلا إلا بكثرة الذل ، والافتقار ، والانكسار سواء كان ذلك فى العلويات أو فى السفليات إذ الحق تعالى لا يتحيز والقرب منه قرب بالقلوب لا غير .

قال فى موضع آخر : وهذا من أعجب الأشياء أن يكون القرب من المحبوب بالتخلق بضد صفاته كالذلة والافتقار وبعده عن حضرته بالتخلق بصفاته كالكبرياء والعظمة ، وأطال فى ذلك .

ثم قال : فعين هبوط الولى منا عند الزلة ، وما يقوم به من الذلة ، والحياء والخجل هو عين ترقيه إلى أعلى ما كان فيه ، لأنه استفاد من وقوعه فى تلك الزلة علما آخر بالله لم يكن عنده قبل ذلك ، وعرف مقدار الوصل الذى كان فيه ، ومقدار الأنس الذى كان يجده فى قلبه من الطاعات كما قالوا : من سبقت له العناية لم تضره الجناية انتهى .

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلى رحمه الله يقول : ما سلط الله تعالى ابليس على عباده المقربين ، إلا ليردهم إلى حضرته إذا شردت قلوبهم منها فقربهم تعالى إلى حضرته بعين

تدلنا هذه الآيات على أن الله يصطفى الأنبياء ويجتبيهم لنفسه ، ويرسم حياتهم قبل ميلادهم ، فيختار لهم النسب الشريف الذى يميزهم عن غيرهم ويصنعهم على عينه .

يقول رسول الله ﷺ : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم ، إسماعيل ، واصطفى من ولد اسماعيل ، بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشا . واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم » . رواه مسلم .

ما طرد به أهل شقوته ، وإذا حقت على عبد كلمة الشقاء فما حسناته إلا ذنوب لحبوطها بالكفر بخلاف من سبقت له السعادة ، فإنه كالزرع الذي يميله الريح يميناً وشمالا ، وأصله ثابت في الأرض فلا يخلد في النار موحد لله تعالى وأطال في ذلك .

ثم قال : هذا حكم زلات أهل الله الذين سبقت لهم منه السعادة والحسنى .

وأما من فقد الذل والانكسار والتوبة النصوح على الفور وبقى على الإصرار فليس هو من أهل هذا المقام .

قال ونحن إنما نتكلم على زلات أهل الله تعالى إذا وقعت منهم .

أما زلات غيرهم فهم إخوان الشياطين لا يزدادون بالزلات إلا طرداً وبعداً انتهى .

وقال في الفتوحات في موضع آخر ، ربما ظن بعض الأولياء أنه نزل عن مقامه العلى بالزلة التي وقع فيها والحال أنه ترقى بها مقام لم يكن ذاقه ، لأن علو مقام الولى إنما هو بزيادة المعرفة والحال وقد زاد من العلم بالله بالذلة والانكسار ما لم تكن عنده قبل ذلك .

قال : وإنما أخفى الله تعالى عن بعض الأولياء شهود ترقيه بالذلة والانكسار الحاصلين بالذنب ، لئلا يجترى أحدهم بعد ذلك على المعاصى ، ولا يصير يندم على فعلها فيهلك مع الهالكين .

وليس هناك دليل على ماذكرنا من قبل أكثر من قول الله سبحانه وتعالى عن سيدنا عيسى عليه السلام قبل أن يولد : « وإذا قالت الملائكة : يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين » .

« ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً » .

ولعل مما يشرح الآيات السابقة بتفصيل أوسع ذلك الحديث الذي ذكره الإمام البخارى عن كيفيه إستدلال هرقل على صدق رسول الله ﷺ وفيه ركز هرقل تركيزاً كبيراً على حياة الرسول ﷺ قبل البعثه ويرجع إلى الحديث في أول الباب الأول عند تحدثنا عن النصوص التى توجز صفات الرسول ﷺ .

ولذلك كان الحق تعالى يجلس وليه فى مقام الندم والقطيعة حتى يكاد يذوب جسمه وغذمه كما وقع لآدم عليه الصلاة والسلام ظاهراً من كثرة بكائه وندمه ، ومن نظائر الخلل والتاج من علي رأسه والنداء عليه ، بأنه لا يجاورنى من عصانى .

كل ذلك كان منه عليه الصلاة والسلام صوريا أو حقيقياً وحمل ذلك كله عن بنيه فتوة منه عليهم فكانت تلك الدموع الكثيرة فى صورة دموع جميع بنيه الذين يقعون فى الزلات إلى يوم القيامة ، فكان كثرة تلك الدموع ، وذلك البكاء ، وشدة ذلك الندم حكاية صورة حال بنيه إذا وقعوا فى الزلة كما مر تقريره مراراً انتهى .

فإن قيل : قد ورد فى الأثر أن آدم عليه الصلاة والسلام لما أكل من الشجرة أسود جسده كله ولو أن المعصية كانت صورية لم يسود جسده .

فالجواب : أنا نقول : أن أسوداد جسده أيضاً كان صوريا أيضاً لينزجر بنوه عن الوقوع فى معاصى ربهم ويحتمل أن يكون أسود جسده عليه الصلاة والسلام حقيقياً ويكون علامة على سيادته بأكله من الشجرة إذا رجع إلى الجنة التى خرج منها حيث أنها لم يكن محل خلافته ، كما قالوا فى الحجر الأسود فإنه خرج من الجنة وهو أشد بياضاً من اللبن فسودته خطايا بنى آدم فإن بعض العارفين .

قال : معنى قوله فسودته خطايا بنى آدم أى جعلته سيداً بالتقبيل له .

وكان أدل شىء على سيادته إذا رجع إلى الجنة لون السواد فكساه الله اللون الأسود

ثم نأتى للجزء الثانى من المنهج القرآنى لتحديد النبوة وهو حالة تلقى الوحى . فبعد أن يصطفى الله رسله ويربيهم ويعنى بهم العناية الكامله يفاجئهم بتلقى الوحى .

يقول الدكتور عبد الحليم محمود فى كتابه (التوحيد الخالص) عن مرحلة بدء الوحى . وهو فى هذه النقطة يسير معنا فى دائرة الإتجاه القرآنى — يقول : فإذا أصبحت نفوسهم — أى الأنبياء — بتربية الله وعنايته أهلا للتلقى ، فاجأها الوحى وهى سائرة ، فى الوادى المقدس وفى البقعة المباركة .

(وهل أتاك حديث موسى) ؟

لتعلم أهل الجنة أنه سود بهذا اللون ، وبذلك الخروج فكما زاد مقامه بالسواد عما كان عليه فى الجنة .

فكذلك القول فى سواد جسد آدم عليه الصلاة والسلام .

ثم إن ذلك السواد زال عن آدم عليه الصلاة والسلام بصيام الثلاثة أيام البيض كما ورد كان بمثابة نزع من خلع عليه الملك خلعة السيادة بعد أن طاف على الناس بها حتى علموا كلهم بها .

فعلم من جميع ما قررناه أن هبوط آدم عليه الصلاة والسلام كان هبوط خلافة وسيادة وتقريب لا هبوط بعد وقطيعة ، بخلاف إبليس كان هبوطه هبوط طرد ومقت وخذلان واكتساب أوزار ، لأن جميع معاصى الجن وبنى آدم فى صحيفته من شرك وكفر ونفاق وغير ذلك .

ومعلوم أن الجنة التى كان فيها مع آدم ليست بدار شرك وكفر ولم تكن معصيته صورية كما وقع لآدم عليه الصلاة والسلام إنما كانت حقيقية لشدة ظلمة قلبه وغلظ حجابه ولذلك خلد فى النار .

ولو أن قلبه كان مستنيراً لما وقع فى الافتخار والمعصية الحقيقية ، ولكان سعد كما سعد آدم عليه الصلاة والسلام .

وقد اختلف العلماء فى إبليس هل يصح أن يسلم والجمهور على عدم وقوع إسلامه ووافقهم أهل الكشف كلهم على ذلك ، إذ لو صح إسلامه فى دار التكليف لتعطلت

« إذ رأى نارا فقال لأهله » :

« امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ، فلما أتاها نودى ياموسى : إنى أنا ربك فاخلع نعليك ، إنك بالوادى المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ، إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى ، وأقم الصلاة لذكرى ، إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى » .

قضيه أهل الشقاء ولم يبق لهم من يوسوس لهم بالمعاصى إذ لا يعصى أحد إلا بواسطته فهو الذى يسن الكفر والشرك فى الأرض .

ولو أنه يصح منه إسلام لما دخل النار أبداً .

وقد جاءت النصوص القطعية بدخوله النار ، وأنه يخطب فيها لاتباعه ويتبرأ منهم ويقيم الحجة عليهم ، لكن لا ينفعه ذلك التبرى لأنه لم يكن فى دار التكليف فافهم .

كما لا ينفع قوله للكافر إذا وسوس له بالكفر : إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين لأنه خوف نفاق ، فإنه ما وسوس لأحد بالكفر أو الشرك ، حتى يصوره فى نفسه ذوقاً على الصورة التى إذا حصلت فى نفس المشرك مثلا ، زالت عنه صورة التوحيد فإذا تصورها فى نفسه على هذه الصورة ، فقد خرج عن التوحيد ضرورة وحصل له بذلك الشقاء الأبدى والا فغاية امتناعه من السجود لآدم عليه الصلاة والسلام ، أنه عصى أمر الله تعالى وعصيان الأمر مرة واحدة لا تقتضى الخلود الأبدى فى النار وما خلد فى النار إلا بالشرك .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول لو صح توحيد ابليس بقوله : إنى أخاف الله رب العالمين لذهبت صفة الشرك فى العالم ولما وجد المشرك من يحدثه بذلك فى قلبه لانقطاع من يمد المشرك بصفة الشرك .

فعلم أن ابليس مشرك بلا شك ولا ريب ، وهو أول من أشرك بالله ، وأول من سن الشرك فى الأرض ، وهو أشقى العالمين انتهى .

فلما قضى موسى الأجل ، وسار بأهله : آنس من جانب الطور نارا ، قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا ، لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ، فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة ، أن ياموسى ، إنى أنا الله رب العالمين » .

ويفاجىء الرسول ﷺ الوحى وهو فى الغار :

وسمعته كثيراً يقول لأصحابه أياكم أن تقروا أحداً من أهل الشطح على جوابه عن ابليس نظير ما أجبنا به عن آدم عليه الصلاة والسلام ، لأنه لعنه الله قد أصر على ذنبه ولم يستغفر منه ، ولم يتب ، ثم لو قدر أنه ندم وبكى لما تقبل منه ذلك لأنه نفاق كما قررناه مراراً انتهى .

وهذا يقع فيه كثير ممن لم يتقيد بالكتاب والسنة ، ولم يسلك على يد شيخ ، وقد جادلني مرة شخص في شأن ابليس ، وأورد على قوله ﷺ ، إذا سجد ابن آدم اعتزل الشيطان يبكي وقال : يا ويلي أمر ابن آدم بالسجود فسجد ، فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار انتهى .

وقال قوله : يا ويلي ندم منه والندم توبة كما ورد .

فقلت له : لو صح له الندم حقيقه لصارت قبضة الشقا سعيدة ولم يدخل أحد النار وقد وعد الله تعالى بأنه يملأها من الجنة والناس أجمعين ، فسكت ، ولم يدر ما يقول .

وقد ضبط جمهور المحدثين قوله ﷺ ولكن أعانني الله عليه فأسلم بضم الميم أي سلمني الله من وسوسته مع بقائه مع الكفر ، وبتقدير ان شيطانه أسلم وتوحد فذلك من

وعندنا في الإسلام الوثيقة الوحيدة في العالم كله عن كيفية بدء الوحي ، وهي وثيقة تحمل في طياتها كثيرا من المعاني الخاصة بالنبوة ، وبصفات الرسول ﷺ ، وهي تشير بصراحة ويسر وسهولة إلى كثير من الآيات الدالة على صدق رسول الله ﷺ وخاتم النبيين :

وهذه الوثيقة رويت بشتى الطرق ومختلف الأسانيد ، والقرآن يشير إلى الحالة التي تذكرها بصراحة لا لبس فيها : يقول سبحانه : وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدري ماالكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم » « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » .

والوثيقة التي يحدثنا عنها كتابنا (التوحيد الخالص) وردت في صحيح البخاري : عن السيدة عائشة رضوان الله عليها أنها قالت : أول مابدىء به رسول الله ﷺ ، من الوحي

خصائصه ﷺ على أن كلامنا فى القرين ليس هو فى حق الشيطان الأكبر صاحب المرتبة بإجماع وقد اجتمع بى شخص آخر من أهل الشطح .

فقال لى أن قول ابليس : « إنى أخاف الله رب العالمين » يقتضى جمعه بين الشرك والتوحيد ، فهو يوسوس بالشرك للناس لتنفيذ قضاء الله تعالى فى عباده ، وهو فى نفسه يعلم ويتحقق أن الله تعالى واحد لا شريك له .

فقلت : فى هذا جمع بين الضدين ، وهو محال ، فإنه إذا وجد الشرك خرج التوحيد وبالعكس ، فلا يجتمع توحيد وشرك فى قلب أبداً ولذلك كان الكفار لا يوزن لهم أعمال يوم القيامة ، ولو قالوا لا إله إلا الله فى دار الدنيا لأنهم لم يقرلونها عن إيمان ، ولا قالوها لقول الشارع لهم قولو : « لا إله إلا الله » .

فعلم أن ابليس لعنه الله مشرك بالله ظاهراً وباطناً انتهى .

وكذلك دخل على مرة شخص من أهل الشطح وله تلامذة ومعتقدون فقال : من أين أخذتم الدليل على شقاء ابليس مع قوله « إنى أخاف الله رب العالمين »[1] ؟

الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه : وهو التعبد الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاء الملك فقال : إقرأ قال : ما أنا بقارىء .

قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ .

قلت : ماأنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، فقال : اقرأ .

فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم أرسلنى ، فقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم » .

فرجع بها رسول الله ﷺ ، يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنهما ، فقال : زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر :

(١) وتمام الآية : (فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين) سورة الحشر آية : ١٦ .

فقلت له : أخذناه من قوله تعالى « فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود ابليس أجمعين[1] » فقال : ليس في هذا دليل له وإنما ذلك لجنوده فقلت له : لولا رضاه بالكفر ما كانوا جنوده والرضى بالكفر كفر انتهى .

وقد بلغنا أن إبليس اجتمع بسهل بن عبد الله التسترى رضى الله عنه وحصل بينهما مناظرة من بعد صلاة الصبح ، إلى أن تعالى النهار ، وكان من آخر ماقال : ياسهل الله تعالى يقول : « ورحمتى وسعت كل شىء[2] » وانا شىء بلاشك فبأى دليل يقولون ان رحمته لاتناولنى قال سهل : فغصصت بريقى ولم أدر له جوابا وصرت أردد الآية مراراً وولى عنى بعيداً بظهره ثم انى رأيت الحق تعالى قد أخرجه بقوله تعالى : « فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة[3] إلى آخر النسق فناديته تعال خذ جوابك فالتفت إلى

« لقد خشيت على نفسى » .

فقالت خديجة : كلا ، والله مايخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجى حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى — ابن عم خديجة — وكان امرؤ قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية إلى ماشاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبير قد عمى .

فقالت له خديجة : ياابن عم ، اسمع من ابن أخيك :

فقال له ورقة : ياابن أخى ، ماذاترى ؟

فأخبره رسول الله ﷺ ، خبر مارأى .

فقال له ورقة : هذا الناموس ، الذى أنزل على موسى ، ياليتنى فيها جذعا ، ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك ؟قال أومخرجى هم

(٢) سورة الشعراء آية : ٩٥ .

(٣) وتمام الآية : (قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء) سورة الأعراف آية : ١٥٦ .

(٤) سورة الأعراف آية : ١٥٦ .

متبسماً وقال : لعلك تقول انه تعالى قيدها بالكتابة للذين يتقون ويؤتون الزكاة إلى آخرها .

فقلت له : نعم : فقال : التقييد صفتك لاصفة الحق جل وعلا فانه يفعل مايشاء ثم قال: ياسهل لينك سكت فإنك اظهرت لى جهلك وما كنت اظن أنه يبلغ بك الجهل إلى هذا الحد مع شهرتك العظيمة بالعلم والصلاح ولم أرد له جواباً غير ذلك .

ثم قال لى : ياسهل اللعن فى لسانكم مامعناه .

فقلت له : هو الطرد عن حضرة الله عز وجل .

فقال : من كان لايتحرك إلا أن حركته القدرة الآلهية فكيف طرده .

قال : فقلت له : أنت مطرود عن حضرة الأمر إلى حضرة الإرادة المجردة عن امتثال الأمر ، وتلك لا تقتضى السعادة وإنما تقتضى الشقاء .

فقال : أما تقرأ القرآن .

فقلت : بلى .

قال : نعم لم يات رجل قط بما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا ؛ ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحى .

هذا هو المنهج القرآنى لتعريف النبوة ولنا أن نوجزه فنقول النبوة سفارة بين الله وخلقه يقصد بها صلاح أمرهم ؛ وهبة من الله سبحانه وتعالى يمنحها لمن يصطفيهم من عباده بعد أن يربيهم التربية الصحيحة التى بها يكونون مؤهلين لتلقى الوحى من الله سبحانه وتعالى فى أى وقت .

ملامح النبوة فى رأى الامام الغزالى : يقول : فإن وقع لك شك فى شخص معين : أنه نبي أم لا ؟ فلا يحصل اليقين إلا بمعرفة أحواله :

إما بالمشاهدة ؛ أو بالتواتر ؛ والتسامع .

فإنك إذا عرفت الطب والفقه ، يمكنك أن تعرف الفقهاء والأطباء بمشاهدة أحوالهم ، وسماع أقوالهم وإن لم تشاهدهم .

فقال : أما قال لى تعالى : « اجلب عليهم بخيلك ورجلك [1] » وهذا أمر بيقين وماوسعنى إلا امتثال أمره .

قال : سهل : فقلت له : إنما كان ذلك القول لك من الحق جواباً لإقسامك عليه بعزته تعالى لأغوينهم أجمعين ولم يكن ذلك ابتداء أمر منه سبحانه وتعالى ، فإنه تعالى لايأمر بالفحشاء ، فكان شقاؤك بطلب الغوايه للعباد فرد شؤم ذلك عليك كما هو جزاء كل من يطلب السوء للعباد ، فلا يصلح أن يكون ذلك حجة لك .

ثم قال لى : ياسهل كيف تزعمون انكم أكثر مراقبة لله تعالى منى وأكثر اخلاصاً ولوان أهل بلد أحدكم قاموا عليه بالتكبير ورموه بالعظايم بين المحبين وللمتقدين لتكدر ولم يكتف بعلم الله فيه وأنا جميع الوجود يلعننى ويخزينى ليلاونهاراً ولايتغير منى شعرة اكتفاء بعلم الله تعالى فى .

قال سهل فقلت له ليس يكدر أحدناعلى رميه بالعظايم لمراعاتنا الخلق دون الحق تعالى من حيث حظوظ نفوسنا وإنما ذلك لأننا دعاة إلى الله تعالى ومن هنا أجابت الأنبياء

ولاتعجز أيضا عن معرفة كون « الشافعى » رحمه الله — فقيها ، وكون « جالينوس » طبيبا ، معرفة بالحقيقة ، لا بالتقليد عن الغير ، بل بأن تتعلم شيئًا من الفقه والطب ، وتطالع كتبهما وتصانيفهما ، فيحصل لك علم ضرورى بحالهما .

فكذلك إذا فهمت معنى النبوة ، فأكثرت النظر فى القرآن ، والأخبار ، يحصل لك العلم الضرورى ، بكونه ﷺ ، على أعلى درجات النبوة وأعضد ذلك بتجربة ماقاله فى العبادات وتأثيرها فى تصفية القلوب ، وكيف صدق فى قوله .

(من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم) ؟

وكيف صدق فى قوله : (من أعان ظالما سلطه الله عليه) ؟

وكيف صدق فى قوله : من أصبح وهمومه هم واحد (هو التقوى) كفاه الله تعالى هموم الدنيا والآخرة) .

(١) سورة الإسراء آية : ٦٤ .

عليهم الصلاة والسلام عن أنفسهم لأن كل رسول يطلب براءة ساحته عند قومه ليقبلوا ماجاء به ، وكذلك الحكم فى كل داع إلى الله تعالى يأمر الناس بالخير محبة فى طاعة الله تعالى وهروباً من معصيته ولو أنه أظهر الرضى بالتجريح أو سكت عليه بحضرة اتباعه لربمـا ظنوا فيه السوء فعدموا النفع به وعدم النفع بهم بخلافك أنت ، فإنك رأس قبضة الشقاء ليس لك قدم فى محبة الله ولا محبة أهل طاعته فسكت ابليس .

ثم قال : ياسهل كيف تزعمون انـكم انصار نبيـكم وحملة شريعته وأنتم ليلا ونهاراً تسعون فى تـكذيبه ؟ .

فقلت له : كيف سعينا فى تـكذيبه ؟ .

فقال : قد أخبر نبيـكم أنه لاتقوم الساعة حتى يـكثر الزنا والربا وترك الصلاة ومنع الزكاة ويترك الناس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وغير ذلك فأنا أوسوس لهم بفعلها وأزين لهم الوقوع فيها ليصدق نبيـكم فيما أخبركم وجميع علمائـكم يقولون للناس كلهم لاتقعوا فى شيء من ذلك ومن لازم ذلك تـكذيب نبيـكم ولو انه لم يبق للساعة إلا يوم واحد لمنعتم النـاس من الوقوع فيما أخبر نبيـكم بوقوعـه وان كان فى ذلك تحقيق ما وعد الحق به .

قال سهل : فقلت له : قد يتعبدنا الله تعالى بحث الناس على امتثال أمره ولم يتعبدنا بحثهم على وقوع معصيته ، وان كان فى ذلك تحقيق ماوعد الحق به وكما ان الله تعالى

فإذا جربت ذلك فى ألف ، وألفين ، وآلاف ـ حصل لك علم ضرورى لاتمارى فيه .
فمن هذا الطريق : اطلب اليقين بالنبوة ، لامن قلب العصا ثعبانا ، وشق القمر ، فإن ذلك إذا نظرت إليه وحده ، ولم تضم إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر — ربما ظننت أنه سحر أو تخييل ، وأنه من الله إضلال ، فإنه تعالى :
(يضل من يشاء ، ويهدى من يشاء) .
وترد عليك أسئلة المعجزات ، فإن كان مستندا إيمانك إلى كلام منظوم فى وجه دلالة المعجزة ، فينجزم إيمانك بكلام مرتب فى وجوه الأشكال والشبهة عليها .

لايأمر بالفحشاء ، فكذلك كل من هو تحت طاعته لايأمر بالفحشآء من ساير الدعاة ، وما يأمر بها إلا من أشقاه الله من اتباعك فانت ولو قصدت ايقاع العباد فى المعاصى ، لايصح لك نصرة محمد ﷺ فأنت شقى ولولزم من وسوستك لهم بالمعاصى تصديق رسول الله ﷺ والاجر والثواب والرضى من الله تعالى داير مع صحة القصد لامع اللازم .

فإن لازم المذهب ليس بمذهب عند جمهور العلماء ولذلك لم يقل أحد بأشقاء الدعا إلى الله تعالى حيث كانوا سببا لعصيان العباد وعقوبتهم فى الدنيا والآخرة كما قال الله تعالى : «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا[1] » فأخبر انه لولا إرسال الرسل ماعذب أحداً وكما لا يواخذ الله تعالى الدعاة إلى شرعه باللازم كذلك ، لايرضى عنك باللازم .

فقال : قطعتنى بالحجة ثم انصرف انتهى كلام سهل رضى الله عنه .

فإياك ياأخى من أن تصغى إلى وسوسة إبليس فإن كلامه كله غرور ومكر بالعبد واستدراج ، فربما استدرج العبد حتى صار يقيم العذر لابليس ، ويجيب عنه فيستوجب النار بذلك وقد علمت من جميع ماقررناه انه لايمكن رفع المعاصى من الأرض إذلو رفعت لتعطل كثير من حضرات الأسماء الإلهية ، وذلك لايصح فإنه تعالى سمى نفسه المعز والمذل ، ولاعز إلا بالطاعه ، ولاذل إلا بالمعصية ، وان زلات غير أهل الله تعالى لاتزيدهم إلا طرداً ومقتا لكونهم يأتونها بحكم الغفلة والطبع والميل والشهوة بخلاف زلات أهل الله تعالى إذا وقعت فربما يكشف لأحدهم عن تقديرها عليه فيذوب عظمه

فليكن مثل الخوارق ، وإحدى الدلائل والقرائن فى مجلة نظرك ، حتى يحصل لك علم ضرورى لايمكنك ذكر مستنده على التعيين كالذى يخبره جماعة بخبر متواتر : لايمكنه أن يذكر أن اليقين مستفاد من قول واحد معين ، بل من حيث لايدرى . ولايخرج عن جملة ذلك ، ولا بتعيين الآحاد . . فهذا هو الايمان القوى العملى .

وأما الذوق ، فهو كالمشاهدة ، والأخذ باليد . ولايوجد إلا فى طريق الصوفية . فهذا القدر — من حقيقة النبوة — كاف فى الغرض الذى أقصده الآن .

(١) سورة الإسراء آية : ١٥ .

وجسمه من هيبة الله عز وجل هروبا من مواطن سخطه فيصير يسأل الله تعالى فى التخفيف عنه وفى كلامهم ليس من يأتى المعاصى وهو يبكى كمن يأتيها وهو يضحك .

وكان على الخواص رحمه الله يقول : لو كشف لولى عن تقديره معصيته على تلميذه ، لايجوز له ان يقول له افعلها بل يجب عليه الصبر وسؤال الاقالة ومحو تلك المعصية فإن الولى ولو بلغ الغاية فى الولاية لايعرف مافى علم الحق تعالى وغاية وصوله إلى اللوح المحفوظ ، وذلك معدود من عالم الشهادة لامن علم الغيب المشار اليه بقوله تعالى : « وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو [(١)] » .

قال وقد يكون ذلك اللوح الذى طمح بصر ذلك الولى إليه من تمثيل إبليس له فإن الله تعالى قد جعل له قوة التخييل فيخيل للولى سماء وكرسيا وعرشا وغما بحسب مايرى قلبه يستمد منه فان أيد الله تعالى ذلك الولى بالتأييد الآلهى أعطاه التميز بين السما الحقيقيه أو الكرسى الحقيقى مثلا ، وبين السما المتخيلة والكرسى المتخيل فيرجع إبليس خايبا والافتنه وأهلكه فقد يكون ما كشف لذلك الولى فى اللوح المحفوظ من

أما ابن خلدون ورأيه فى النبوة : فيقول : إعلم أن الله سبحانه ، اصطفى من البشر أشخاصا فضلهم بخطابه وفطرهم على معرفته ، وجعلهم وسائل بينه و بين عباده : يعرفونهم بمصالحهم ، ويحرضونهم على هدايتهم ، ويأخذون بحجزاتهم عن النار ، ويدلونهم على طريق النجاة .

وكان — فيما يلقيه إليهم من المعارف ويظهره على ألسنتهم من الخوارق والأخبار الكائنات المغيبة عن البشر التى لاسبيل إلى معرفتها الا من الله بوساطتهم ، ولا يعلمونها الا بتعليم الله اياهم . . قال ﷺ :

« ألا وانى لاأعلم الا ماعلمنى الله » .

واعلم أن خبرهم فى ذلك ، من خاصيته وضرورته الصدق ، لما يتبين لك عند بيان حقيقة النبوة .

(١) سورة الأنعام آية : ٥٩

معصية تلميذه متخيلا لا حقيقة له ومن هنا حرمت على الولى المبادرة إلى فعل ما كشف له من المعاصى وكل من أمر تلميذه بفعل ما كشف له فهو (   )[1] من اتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام لأن الرسل متخلقون باخلاق الله تعالى فافهم .

وكان الشيخ محى الدين رحمة الله يقول : كما أنه تعالى لم يأمر بالفحشاء كذلك لايريدها ، فيقال قضاها وقدرها ولا يقال ارادها ، بيان كونه لايريدها ، ان كونها فاحشة ماهو عينها ، وإنما هو حكم الله تعالى فيها وحكم الله فى الاشياء غير مخلوق كما هو القول فى القرآن العظيم فتوجه الارادة لا يكون إلا على غير المعصية لا على وصفها بالتحريم الذى هو حكم الله ، فإن ذلك قديم لم يجر عليه الخلق ومالم يجر عليه الخلق لا يكون مرادا للحق تعالى .

قال : فان الزمنا بذلك فى جانب الطاعات التزمناه ، وقلنا : الارادة للطاعة ثبتت سمعاً لا عقلا فأثبتوها فى الفحشاء ونحن قبلناها ايماناً كما قبلنا وزن الأعمال مع كونها اعراضاً فلا يقدح ذلك فيما ذهبنا إليه لما اقتضاه الدليل انتهى

وعلامة هذا الصنف من البشر : أن توجد لهم — فى حال الوحى — غيبة عن الحاضرين معهم مع غطيط كأنها غشى أو إغماء فى رأى العين ، وليست منهما فى شىء ، وإنما هى — فى الحقيقة — استغراق فى لقاء الملك الروحانى ، بإدراكهم المناسب لهم ، الخارج عن مدارك البشر بالكلية ، ثم يتنزل إلى المدارك البشرية ، إما بسماع دوى من الكلام فيتفهمه أو يتمثل له صورة شخص يخاطبه بما جاء به من عند الله .

ثم تنجلى عنه تلك الحال ، وقد وعى ما ألقى عليه .

قال ﷺ ، وقد سئل عن الوحى :

« أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده على ، فيفصم عنى وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يتمثل إلى الملك رجلا فيكلمنى فأعى مايقول » .

ويدركه أثناء ذلك من الشدة والغيظ مالا يعبر عنه .

(١) كلمة مطموسة فى الأصل .

وهو أمر دقيق فليتأمل ، وقد تلخص ماقررناه أنه يجب على العبد ، ولو شهد الله لايتحرك إلا ان حركه ، ولا يفعل إلا ماقدره الله تعالى عليه قبل أن يخلق أن يتوب من كل مخالفة ويقوم بما كلف ، ولا يحتج بالإرادة المجردة عن امتثال الأمر فإنها حجة ابليس وإن من لم يتب طبع الله على قلبه فلا يزداد بالمعاصى إلا مقتاً ، ويكون تطهيره يوم القيامة أن لم يعف الحق تعالى عنه بالنار ، كما أن تطهير التائب فى هذه الدار بالتوبة والاستغفار والحمد لله رب العالمين .

ومما أجيب به عن السيد يوسف عليه الصلاة والسلام فى قوله تعالى : « ولقد همت به وهم بها[1] » أى همت به لتقريره على فعل ما تريده منه ، وهم بها ليقهرها بالدفع عنه بشدة وعنف فكان البرهان له من ربه أن الحق تعالى قال له . فى سر : ادفعها برفق ولطف فإنها امرأة ضعيفة الحال على كل حال لا تحتمل شدة عزمك ، وقوة بطشك بها فهناك ساسها عليه الصلاة والسلام برفق ولطف وعذرها فى شدة شغفها بذلك الجمال العظيم ، فالهم منها ومنه لفظ مشترك والقصد مختلف ، فعلم أنه لا يجوز أن يقال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام غير معصومين من الهم بالمعاصى كما وقع فيه بعضهم ، فإنهم معصومون من شهوة الميل فضلا عن وقوع الميل .

وإذا كان سليمان الديلى الذى هو من آحاد أولياء هذه الأمة يقول لى : منذ خمسين

فى الحديث :

« كان مما يعالج من التنزيل شدة » .

وقالت عائشة :

كان ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً وقال تعالى : « إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا » .

(١) سورة يوسف آية : ٢٤

وتمامها « ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين » .

سنة ما خطر لى خاطر مكروه فضلا عن الحرام فكيف يكمل الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وكذلك بلغنا عن الإمام الليث بن سعد رضي الله عنه أنه كان يقول: من منذ وعيت على نفسي وأنا دون البلوغ ما خطر في بالي معصية لله قط انتهى.

وكذلك بلغنا من أبي سليمان الداراني أنه كان يقول ما أتذكر انى فعلت شيئاً تستحي منه طول عمري سوى قربى من أهلى انتهى والحمد لله رب العالمين.

ومما أجيب به عن داود عليه الصلاة والسلام فى خطيئته المشهورة فى نحو حديث كانت خطيئة أخي داود النظر أن المراد به أنه رفع بصره مرة إلى السماء غافلا عن الاعتبار بغير قصد لأن الاكابر من الأولياء، إذا كانوا يواخذون بكل حركة أو سكون وقعت مع غفلة عن الله تعالى فكيف يكمل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكان أحمد بن رزين يقول: من رفع بصره إلى شيء بغير نية الاعتبار كتبت عليه خطيئة.

وسمعت سيدى شيخ الأسلام زكريا يقول: رفع عمر بن عبد العزيز ليلة بصره إلى السما فحصل فى قلبه قساوة فشكى ذلك لأمه رضى الله عنها.

فقالت: لعلك يا ولدى نظرت إليها على غير وجه الاعتبار والحضور مع الله تعالى، فإن الله تعالى إذا اعتنى بعبد أخذه بكل حركة أو سكون لم تقع عن حضور أو اعتبار انتهى.

ولأجل هذه الحالة فى تنزل الوحى، كان المشركون يرمون الأنبياء بالجنون، ويقولون له رئى، أو تابع من الجن.

وإنما لبس عليهم بما شاهدوه من مظاهر تلك الأحوال:

« ومن يضلل الله فما له من هاد ».

ومن علاماتهم أيضاً: أنه يوجد لهم — قبل الوحى — خلق الخير والزكاة، ومجانبة المذمومات والرجس أجمع.

هذا هو معنى العصمة، وكأنه مفطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها. وكأنها منافية لجبلته.

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : قد أطلق ﷺ النظر فى الحديث ، فيحمل على ما يليق بمقام الأنبياء ولا يجوز حمله على ما يليق بمقام غيرهم فلما رأينا الحق تعالى اخذ الأولياء برفع البصر مع غفلة حملنا خطيئة داود عليه الصلاة والسلام على ذلك .

ولذلك ورد فى الحديث أنه لم يرفع طرفه إلى السماء بعد أن هوتب على ذلك حتى مات حياء من الله تعالى أن يرفع بصره إلى قبلة الدعاو إلا ، فهو عليه الصلاة والسلام يعلم أن الحق تعالى لا يتحيز لكن غض الطرف مطلوب من العبيد بين يدى ربهم عز وجل ، وقد تبع الشرع العرف فى كثير من الأحكام .

قال : ولم يبلغنا فى حديث صحيح ولا ضعيف إن المراد بخطيئته النظر المذكورة فى الحديث نظره إلى امرأة أوريا حين سافر إلى بعض الغزوات ، لأن الأنبياء معصومون عن النظر إلى ما لا يحل وإنما جاء ذلك فى بعض نسخ الزبور التى حرفتها اليهود لعنهم الله تعالى ، قصدوا بذلك استحلال اعراض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وكانوا قد عادوا داود عليه الصلاة والسلام لما تلى عليهم صفة محمد ﷺ التى أنزلها الله فى الزبور وأن كتاب محمد ينزل ناسخا للكتب التى قبله .

وكان الشيخ محي الدين العربى رضى الله عنه يقول : لا يجوز لو اعظ أن يتكلم على

وفى الصحيح : أنه حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة ، فجعلها فى إزارة فانكشف فسقط مغشياً عليه حتى استقر بإزاره . ودعى إلى مجتمع ولمية فيها عرس ولعب فأصابه غشى النوم إلى أن طلعت الشمس ، ولم يحضر شيئاً من شأنهم ، بل نزهه الله عن ذلك كله حتى إنه — بجبلته — يتنزه عن المطعومات المستكرهة . فقد كان ﷺ لايقرب البصل والثوم ، فقيل له فى ذلك ، فقال : « إنى أناجى من لاتناجون » .

وانظر لما أخبره النبي ﷺ خديجة رضى الله عنها بحال الوحى أول ماجاءه وأراد اختباره .

فقالت : اجعلنى بينك وبين ثوبك ؟

رءوس الاشهاد ، بما حرفته اليهود على داود عليه الصلاة والسلام ، فإن ذلك يفتح باب الاستهانة بالأنبياء وتجرىء العامة على الوقوع فى النظر إلى ما لا يحل لهم ويقولون : إذا كان داود وهو نبى ، فأين نحن حتى نقدر على منع نفوسنا من النظر .

قال : ولم يأت لنا تفسير الخطيئة بالنظر إلى ما لا يحل فى كتاب ولا سنة ولا عن أحد من علماء الصحابة والتابعين ، وإنما ذلك من تحريف اليهود كما مر انتهى .

فكان بكاؤه عليه الصلاة والسلام حتى نبت العشب من دموعه إنما هو لكونه رفع بصره إلى السما قبل تحرير نية صالحة ويا ليت شعرى أى فائدة فيمن يخوض فى عرض الأنبياء بغير حق ، ويثبت فى حقهم النقائص وآيش[1] يضره إذا سد عنهم باب المخالفات جملة أما يخاف مثل هذا أن يغضب الله تعالى عليه ، ويمسخ صورته بقلة أدبه مع أكابر حضرته ، ولكن أهل الأدب مع الله ، ومع أهل حضرته قليل فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ومما أجيب به عن أيوب عليه الصلاة والسلام فى قوله : « مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين[2] » ولم لا كان دام على صبره فإنه اعلى كما قيل بل وقع من بعض الأولياء أنه قال : اللهم إن كان فى هذا رضاك فزدنى منه ، فإذا كان هذا يقع من بعض الأولياء فالأنبياء أولى بذلك .

فلما فعل ذلك ذهب عنه .
فقالت : إنه ملك ، وليس بشيطان .
ومعناه : أنه لا يقرب النساء :
وكذلك سألته عن أحب الثياب إليه أن يأتيه فيها .
فقال : البياض والخضرة .
فقالت : إنه الملك .

(١) يقصد أى شىء .
(٢) وتمام الآية : وأيوب إذ نادى ربه انى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين » ؛ سورة الأنبياء آية : ٨٣

والجواب اللائق بأيوب عليه الصلاة والسلام أن قوله رب إنى مسنى الضر أعلى من دوامه على التجلد والصبر ، لأن العبد كلما ترقى فى مراتب الكمال والقرب ضعفت نفسه حتى ربما صار يتألم من قرصة البرغوث ، ويعجز عن حمل قميصه فكان من جملة اعتناء الحق تعالى بنبيه أيوب عليه الصلاة والسلام أنه حبسه فى مقام التجلد والصبر ، حتى ينيله أجر الصابرين .

ثم أنه نقله منه إلى مقام الرضى ، حتى صار يتلذذ بالبلاء لينال بذلك أجر الراضين .

ثم رده بعد ذلك إلى التألم بالمرض لكن مع الصبر من غير مقاومة القهر الآلهى كما كان فى بداية امره قبل رقة حجابه اللائق به ، فإنهم قالوا : شدة الصبر على البلايا إنما هو من قوة النفس وكبرها واظهارها القوة ، ومقاومتها للقهر الآلهى .

ثم إذا صفت ورق حجابها مالت إلى الضعف وألقت السلاح .

وقد سئل محمد بن على الحكيم الترمذى[1] رضى الله عنه عن حقيقة هؤلاء الخلق؟ فقال : ظاهر ودعوى عريضة انتهى .

يعنى : أن البياض والخضرة من ألوان الخير والملائكة . والسواد من ألوان الشر والشياطين ، وأمثال ذلك ومن علاماتهم أيضاً : دعاؤهم إلى الدين والعبادة من الصلاة والصدقة والعفاف .

وقد استدلت خديجة رضى الله عنها على صدقه ﷺ بذلك ، وكذلك أبو بكر ، ولم يحتاجا فى أمره إلى دليل خارج عن حاله وخلقه .

(١)هو أبو عبدالله محمد بن على الترمذى : نسبة إلى ترمذ . قال الحافظ ابن النجار فى تاريخه : كان إماما من أئمة المسلمين ، له التصانيف الكثيرة فى التصوف وأصول الدين ومعانى الحديث .

وقال الكلاباذى فى (التعرف) هو من أئمة الصوفية ، وقال ابن عطاء الله : كان الشاذلى والمرسى يعظمانه ويقولان : هو أحد الأوتاد الأربعة .

ومن حكمه : إذا سكنت الأرواح بالسر ، نطقت الجوارح بالبر . وقال : ماصنفت حرفا عن تدبير ، ولا لينسب إلى شيء منه ولكن كان إذا أشتد على وقتى أتسلى به .

فعلم أن صبر العبد على البلاء كمال بالنسبة لمقام العامة ، الذين لا صبر عندهم ، نقص بالنسبة لما فوقه من المقام الآخر الذى هو أساسه الأصلى كما أن التألم بالبلاء أعلى من التلذذ به ، لأنه إذا تلذذ به خرج عن كونه بلاء ، وصار من قسم النعم فالواجب على العبد فيه الشكر لا الصبر والله أعلم .

ومما أجيب به عنه أيضاً عليه الصلاة والسلام حين أمطرت السماء الذهب فصار يحثو فى ثوبه منه .

وقال : له الحق تعالى يا أيوب ألم أكن أغنيتك عن مثل هذا ؟

فقال ؟ بلى يا رب ولكن لا غنى لى عن بركتك .

أعلم يا أخى أن كمال العبد إنما هو : بإظهار الحاجة والفاقة لربه عز وجل فأراد أيوب عليه الصلاة والسلام بحثوه الذهب فى ثوبه اظهار كثرة الفاقة إلى فضل ربه عز وجل .

وذلك أكمل ممن قنع ورضى باليسير من الدنيا ، لاظهاره قلة الحاجة إلى ربه ، ومارد من رد الدنيا من الأكابر إلا خوفاً على قومه أن يقتدوا به فى ذلك فيهلكوا ولا يعرفون كيف يتخلصون كما رد نبينا ﷺ جبال الذهب والفضة لما عرضها عليه جبريل بإذن الله فاحتاط لأمته ﷺ شفقة عليهم ، وإلا فاعتقادنا أنه ﷺ لا يشغله عن الله شىء من الكونين ، ويصح أن يحمل حثه الذهب فى ثوبه لما نزل من السماء على تبركه به لكونه قريب عهد بتكوين ربه ، كما قالوا فى المطر إذا نزل أول السنة أو غيره .

وفى الصحيح أن هرقل — حين جاءه كتاب النبى ﷺ يدعوه إلى الإسلام — أحضر من وجد ببلده من قريش ، وفيهم أبو سفيان ؛ ليسألهم عن حاله . فكان فيما سأل أن قال :

بم يأمركم ؟ فقال أبو سفيان : بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف ، إلى آخر ماسأل . فأجابه فقال :

إن يكن ماتقول حقاً فهو نبى ، وسيملك ماتحت قدمى هاتين .

والعفاف الذى أشار إليه أبو سفيان هو العصمة . فانظر كيف أخذ من العصمة والدعاء

ولا يجوز حمله عليه الصلاة والسلام على أنه إنما حثى الذهب فى ثوبه محبة فى الدنيا ؛ فإن ذلك لا يجوز فى حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لأنه إذا كان المريد فى طريق القوم لا يصح له قدم فى طريق أهل الله تعالى حتى لا يصير له ميل إلى شىء من الدنيا وشهواتها ، ويتساوى عنده الذهب والتراب .

فكيف بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقد قررنا غير ما مرة أن للعبد ثلاثة أحوال:

الأول : أن يحبها بحكم الطبع ويحب جمعها وعدم إنفاقها فى مرضات الله وهذا مذموم شرعاً .

الثانى : أن يخرج حبها من قلبه فلا يصير عنده ميل إليها ويتساوى عنده الذهب والتراب على حد سوا وهذا أكمل بالنسبة للحال الذى قبله .

الثالث : أن يحب الدنيا بتحبيب الله تعالى من مال وولد وجاه وزوجة لا بحكم الطبع فيجمعها وينفقها فى سبيل الله ، ويعف بها نفسه عما فى أيدى الخلائق ، ويتخلق بالأدب مع الله تعالى الذى عظم الذهب فى قلوب عباده مثلا على غيره ، فيعظمه على التراب لئلا يخطى الحكمة الآلهية ، ويفوز أيضاً بلذة خطاب الله عز وجل له ، بقوله : « اقرضوا الله قرضاً حسناً[1] » ، لأنه تعالى لم يخاطب بذلك إلا أهل الجدة وأصحاب الأموال ، دون العباد والزهاد المجردين عن الدنيا ، ففاتهم لذة مجالسة الحق تعالى حال خطابه لهم ،

إلى الدين والعبادة دليلا على صحة نبوته ، ولم يحتج إلى معجزة ، فدل على أن ذلك من علامات النبوة ! !

ومن علاماتهم أيضاً : أن يكونوا ذوى حسب فى قومهم .

وفى الصحيح : « ما بعث الله نبياً ، إلا فى منعة من قومه » .

وفى رواية أخرى : « فى ثروة من قومه » .

استدركه الحاكم على الصحيحين .

(١) وتمام الآية « إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسنا يضاعف لهم » سورة الحديد آية : ١٨

وما ذمت الأمور بالأصالة إلا أن كانت تحجب عن الله تعالى .

والأنبياء عليهم الصلاة والسلام مقامهم منزه عن تعاطى شيء يحجبهم عن الله تعالى كما سيأتى فى الجواب عن سليمان عليه الصلاة والسلام .

ونظير ما وقع لأيوب عليه الصلاة والسلام ما ورد فى السير أن رسول الله ﷺ قسم مرة ذهباً .

وقال لعمه العباس : يا عم خذ لك ماشئت من هذا الذهب فحثى فى بردة شيئاً لا يستطيع أن يحمله فصار يعالج نفسه فى حمله فلا يستطيع .

وصار النبي ﷺ ينظر إليه شزراً فيجب حمل ذلك على أن العباس ، إنما فعل ذلك إظهاراً للفاقه والحاجة ، لأن مثل العباس لا يجوز حمـله على محبة الدنيا على الوجه المـذموم .

وأما قوله تعالى : « منكم من يريد الدنيا أى للآخرة ومنكم من يريد الآخرة[1] » أى لله فيحب الدنيا لانفاقها فى مرضات الله ، ويحب الآخرة لـكونها داراً يشاهد فيها ربه عز وجل إذ لذة نعيم الأكل والشرب والجماع وغير ذلك إنما هى بحكم التبع المشاهدة الله عز وجل لا بحكم القصد الأول عند الأكابر .

وفى مساءله هرقل لأبى سفيان كما هو فى الصحيح قال :

« كيف هو فيـكم » ؟

قال أبو سفيان :

« هو فينا ذو حسب » .

فقال هرقل :

« والرسل تبعث فى أحساب قومها » .

ومعناه : أن تـكون له عصبة وشوكة تمنعه عن أذى الـكفار ، حتى يبلغ رسالة ربه ، ويتم مراد الله من إكمال دينه وملته .

(١) سورة آل عمران آية : ١٥٢

وكان نظر النبي ﷺ للعباس شزراً ليقبح الدنيا فى أعين المحجوبين عن مشهده رضى الله عنه ، وإلا فهو محب لفعل العباس راض عنه لصحة مشهده ولو قدر أنه لم يكن هناك إلا من تعرف مشهده من الأكابر كأبى بكر وعمر رضى الله عنهما لم ينظر إلى عمه شزراً فافهم .

وكذلك يجب استثناء الأنبيا عليهم الصلاة والسلام من قوله تعالى فيما نسخت تلاوته : لو أن لابن آدم واديين من ذهب لابتغى ثالثاً ، ولو أن له ثالثاً لابتغى رابعاً ، ولا يملأ عين بن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب ، فإن الاجماع قد انعقد على زهد الأنبياء فى الدنيا ، فكيف يبتغى أحدهم الزيادة منها وأيضاً فإن الآدم هو ظاهر الجلد فكأنه تعالى يقول لو أن لبنى الدنيا الذين قصروا أعينهم على شهودها ولم يخرق بصرهم إلى الآخرة ونعيمها واديان من ذهب لابتغوا ثالثاً لحجابهم عن الآخرة .

وقد خرج إبراهيم بن ادهم وغيره من الملوك عن الدنيا اختياراً .

فكيف بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وكلام الله تعالى فى غاية البلاغة والتحقيق ، وما من عام إلا ويقيده التخصيص ، إلا أن أجمع العلماء على عدم تخصيصه وعدم إخراجه عن عمومه فاعلم ذلك فإنه نفيس .

ومما أجيب به عن سليمان عليه الصلاة والسلام فى قوله : « هب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى[1] » هو أنه اطلع من طريق كشفه أن جميع من يأتى بعده من الأنبيا كلهم زهاد لا ينبغى لهم هذا الملك الذى سأله لعلو مقامهم فكأنه فهم إنما طلبه من الملك أمر يفنى فلم يرضه لمن بعده من الأنبياء ، وثم مقام يقتضى سؤال العبد ربه أن يعطيه الدنيا ، كما أنه ثم مقام يقضى طلب العبد رؤية ربه ، كما وقع لموسى .

وسمعت سيدى عليا الخواص رضى الله عنه يقول مراراً :

---

(١) وتمام الآية « قال : رب اغفر لى وهب لى ملكا لاينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب » سورة ص آية : ٣٥

سبب سؤال سليمان عليه الصلاة والسلام الملك إنما هو إظهار للفاقة والحاجة ، كأنه عليه الصلاة والسلام يقول : أنا محتاج إليك يا رب بحيث يعم حاجتى ، كلما طلبت ملكه منك يعنى استخلافى فيه ، وكلما عظمت حاجة العبد وفاقته إلى سيده كلما علا مقامه وازداد به تقريباً من ربه عز وجل .

فما ازداد سؤاله الملك إلا فقراً ، وذلك مطلوب الاكابر ، وإلا فمحال أن يسأل نبى ما يحجبه عن ربه وينقص به مقامه[1] فإن ذلك سفه يجب تنزيه الأنبيا عليهم الصلاة والسلام عنه .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : إنما طلب السيد سليمان الملك ، ليعترف لله تعالى بنعمته الكثيرة ويزداد شكراً ، وكأنه يقول لك الفضل يارب على بعدد ذرات الوجود كلها لأنى محتاج إليها كلها انتهى .

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : كلام السيد سليمان فى غاية الأدب والصدق لأنه نكر قوله ملكا فلم يخص شيأ فى طلبه وقال لا ينبغى لأحد من بعدى أى لأن ما يعطيه الله للعبد من الملك ما هو عين ما يعطيه لعبد آخر لا بد فيه من زيادة ونقص فى كبر المنة وصغرها وطول عمر ذلك وقصره ، حتى لو سقطت ورقة من شجرة أو شعرة من رأس مملوك له ، خرج عن كونه مثله لأن المثلية فى الوجود منقولة غير معقولة ، إذ لو كانت معقولة ما تميز شىء فى الوجود عن شىء ، ولكان عين زيد هى عين عمرو فافهم[2] .

---

(١) فإن الأنبياء فى رفعة دائمة .

(٢) يقول القاضى ناصر الدين البيضاوى فى تفسير آية « قال رب أغفر لى وهب لى ملكا لاينبغى لأحد من بعدى » :

لايتسهل له ولا يكون ، ليكون معجزة لى مناسبة لحالى ، أو لاينبغى لأحد أن يسلب بعد منى هذه السلبة ، أو لايصح لأحد من بعدى لعظمته ، كقولك : لفلان ماليس لأحد من الفضل والمال على إرادة وصف الملك بالعظم ، لا أن لايعطى أحد مثله ،

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول: ما قال سليمان عليه الصلاة والسلام: «هب لى ملكا» حتى كشف له أن تسخير الريح والشياطين لا يقع لأحد بعده من الأنبياء فما سأل إلا عن أمر محقق يكون له من باب الفضل والمنة، وإلا فهو يعلم أن أحداً لا يملك مع الله شيئاً فى الدارين انتهى.

وفى القرآن العظيم «كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى[1]» فما ذم الحق تعالى الغنا، إلا لمن كان يحجب به عن الله عز وجل ويطغى به عن مقام عبوديته.

وأما من يشهد فقته وحاجته كلما كثرت الدنيا عليه فذلك محمود، بل كلما ازداد الولى مالا كلما ازداد فقراً وحاجة فى مشهده، فاعلم ذلك.

ومما أجيب به عنه أيضاً فى قوله «إنى احببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب ردوها على فطفق مسحا بالسوق والاعناق[2]» أن مراده عليه الصلاة والسلام أنه أحب الخيل حين عرضت عليه بالعشى لكن ليس ذلك الحب لذاتها وإنما هو لكونها هدية من ربه إليه وقريبة عهد بإرسالها إليه.

كما ورد عنه ﷺ فى المطر حين اغتسل منه وقال: إنه حديث عهد بربه وكانت الخيل مذكرة لسليمان بربه لأنها نعمة منه إليه ولذلك أحب مشاهدتها ولما توارت عنه بالحجاب، وكان نسى أنه يتبرك بها على عادة الملوك مع سيدهم تعظيماً واجلالا له ولنعمته

فيكون منافسة تقديم الإستغفار على الإستيهاب لمزيد اهتمامه بأمر الدين ووجوب تقديم ما يجعل الدعاء بصدد الإجابة.

(١) سورة العلق آية: ٦

(٢) وتمام الآيات:

ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب، إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد، فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب، ردوها على فطفق مسحا بالسوق والأعناق. سورة ص الآيات: ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣

فلذلك قال : ردوها على لأشاهدها ثانياً فلما ردوها عليه طفق يمسح أعناقها وبسوقها بيده تبركا بخير ربه ، وليس المراد أن الخيل أشغلته عن صلاة العصر ، حتى توارت عنه الشمس بالحجاب ، وأن الشمس ردت عليه بعد غروبها هكذا ذكره بعض العارفين ، وقال : ليس الضمير فى ردوها على الشمس ولا ثم ما يدل عليه ، وقال : إنما قلناه أولى مما قاله غيرنا من أنه قطع أعناق الخيل وسوقها بالسيف فإن ذلك سفه ، وإتلاف مال لا يليق بالأنبياء ، أو يحتاج إلى تأويل انه لما تعارض عنده مصلحة دينه ومصلحة دنياه قدم مصلحة دينه ، وذلك مقام دنى بالنسبة لمقام الأنبياء فإنه إذا كان بعض الأولياء لا يشغله عن الله شىء فى الكونين فكيف أشغلت الخيل نبياً رسولا عن عبادة ربه هذا بعد من العبد[1] .

ومما أجيب به عن نبينا محمد ﷺ فى قوله تعالى : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر[2] مصدرين ذلك مما أجاب به غيرنا ليستفاد فقد أجاب العلماء عن ذلك بأجوبة .

أحدها ما قاله بن عباس وغيره : إن الله تعالى غفر لمحمد ﷺ ما تقدم من ذنبه قبل النبوة وما تأخر بعدها .

ثانيها إن معنى الآية : ما وقع ، وما لم يقع على طريق الوعد بأنه مغفور له .

ثالثها قول سفيان الثورى : ما تأخر هو ما لم يعلمه .

رابعها : فهو أنه المتقدم والمتأخر معاً ما كان قبل النبوة .

---

(١) لعله يقصد بعد من البعد .

وهناك بعض المفسرين الذين يفسرون هذه الآيات بأنه قطع أعناق الخيل ولكن الصحيح والمعتمد عند الجمهور أنه أخذ يمسح على أعناقها تكريما لها وبراً بها ولعل حديث (الخيل فى ركابها الخير إلى يوم القيامة) يؤيد ذلك.

(٢) وتمام الآية « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما » سورة الفتح آية : ٢

خامسها : هو تأكيد المبالغة كما تقول أحسن لمن عرفك ولمن لم يعرفك .

سادسها : ما تقدم من ذنبك يعني ذنب أبيك آدم عليه الصلاة والسلام وما تأخر من ذنوب أمتك .

سابعها : إن المعنى لو كان لك ذنب قديم أو حديث لغفرته لك هذا ما بلغني عن العلماء من الأجوبة[١] .

وأما جوابي أنا بحسب فهمي وإرثي منه ﷺ . فهو أن المراد بذنبه ﷺ ما لزم من إرساله من تعذيب من خالفه من الكفار والمسلمين ، فأضيف ذلك إليه من حيث تشريعه ﷺ له ، إذ لولا تشريعه الحرام وبيانه للأمة ما عذب الله تعالى منهم أحداً عليه قال الله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا[٢] » ولما كان من مرتبة الأكابر أنهم يؤاخذون نفوسهم بما كانوا سبباً فيه وإن لم يقصدوه طمن الله قلب نبيه ﷺ وأخبره بأنه تعالى لا يؤاخذه من حيث كونه كان سبباً في شقاوة من خالفه بلازم رسالته ، فهو مظهر لما سبق في علم الله من شقاوة من شقي ، وإلا فليس بيد عبد أن يشقي غيره بإجماع فلما تأمل ﷺ فيما لزم من رسالته من تعذيب من حق عليه الشقاء

يقول الإمام الألوسي : (ليغفر لك الله) مذهب الأشاعرة القائلين بأن أفعاله تعالى لا تعلل بالأغراض أن مثل هذه اللام للعاقبة أو لتشبيه مدخولها بالعلة الغائية في ترتبه على متعلقها وترتب المغفرة على الفتح من حيث أن فيه سعيا منه ﷺ في إعلاء كلمة الله تعالى بمكابدة مشاق الحروب واقتحام موارد الخطوب ، والسلف كما قال ابن القيم وغيره يقولون بتعليل أفعاله عز وجل وفي شرح المقاصد للعلامة التفتازاني أن من بعض أدلتهم — أي الأشاعرة ومن وافقهم على هذا المطلب يفهم أنهم أرادوا عموم السلب ومن بعضها أنهم أرادوا سلب العموم . ثم قال : الحق أن بعض أفعاله تعالى معلل بالحكم والمصالح وذلك ظاهر النصوص شاهدة به وأما تعميم ذلك بأنه لا يخلو فعل من أفعاله سبحانه من غرض فمحل بحث وذكر الأصفهاني في شرح الطوالع في هذه المسألة خلافا للمعتزلة وأكثر الفقهاء .

(١) سورة الإسراء آية : ١٥

من أمته خاف من المؤاخذة بذلك فأخبره الحق جـل وعلا بأنه غفر له ذلك ولا يؤاخذه به .

وقد سمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول مراراً : من مرتبة الأكابر الاستغفار مما لعله يقع فى المستقبل ، فإذا توهم أحدهم ذلك استغفر منه قبل وقوعه ، وقد فسر العلماء الغفر بأحد شيئين : إما المسامحة بالذنب بعد وقوعه ، وإما الحيلولة بين العبد وبين الذنب فلا يقع ، واللايق بالأنبياء الثانى دون الأول لعصمتهم ، وإيضاح ما قلناه من أن المراد من الذنب المغفور ما لزم من رسالته هو أن تعلم يا أخى أن كل داع إلى الله تعالى مأجور بالأصالة سواء أطاعه قومه أو خالفوه وليس قصد أحد من الدعاة إشقاء أحد من قومه ، فهو وإن لزم من رسالته إشقاء من خالفه فهو غير مؤاخذ بذلك ، وأيضاً فإن لازم المذهب ليس بمذهب عند الجمهور ، ولا يؤاخذ العبد إلا بما قصده كما هو مقرر فى الفقه ، فالداعى وإن خالفه قومه فهو مأجور بسبب مخالفتهم ، كأجر من أصيب فى ولده وأصحابه فمعنى الآية :

ليغفر لك الله ما تقدم من مؤاخذة قومك بسبب رسالتك فى حال حياتك ، وبعد وفاتك فطمن قلبك فإنك غير مؤاخذ بما وقع فيه أمتك من مخالفة شرعك ، ولك من حيث نيتك أجر كل من أطاعك ، وكل من عصاك لأنك تود الخير للناس كلهم وليس عليك من أوزارهم شيء ، فعلم أن الداعى إلى الله لا يثاب من حيث من عصى

وأنا أقول: بما ذهب إليه السلف لوجود التعليل فيما يزيد على عشرة آلاف آية وحديث والتزام تأويل جميعها خروج عن الإنصاف وما يذكره الحاضرون من الأدلة يدفع بأدنى تأمل كما لايخفى على من طالع كتب السلفيين عليهم الرحمة .

وفى الكشاف لم يجعل الفتح علة المغفرة لكن لإجتماع ما عدد من الأمور الأربعة . وهى المغفرة واتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز كأنه قيل : يسرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوك لنجمع لك بين أعز الدارين وأغراض العاجل والآجل وحاصله كما قال العلامة أن الفتح لم يجعل علة لكل المتعاطفات بعد اللام

أمره إلا من حيث النية فقط لامتناع وقوع الطاعة من أهل هذا القسم هذا ما ظهر لى فى الجواب عن سيد الخلايق أجمعين ، الذى لولاه ما خلق الله تعالى لا علوا ولا سفلا ولا جنة ولا نارا ، ومقصودنا بالأجوبة عن الأنبياء إزالة ما يتوهمه أصحاب القلوب المحجوبة عن حضرة الله ، ومن أهلها وإلا فطينة الأنبياء لا تقبل أن يصدر عنها شيء يكرهه الله تعالى أبداً ، وإذا تعارض عند المؤمن أمران أحدهما فيه ريبة فمن الواجب عليه أن يذهب إلى ما لا ريبة فيه نظير ما قررناه فى صفات الحق جل وعلا التى توهم التشبيه فإن ذلك لا يصح ، وقد أجمعوا على أنه لم يأت لنا فى كتاب ولا سنة شيء يكون نصاً فى التشبيه أبداً ، إنما يحتمل ذلك عدة معان فيضاف إلى كل ذات بما يليق بها ، وحمل ذلك فى جانب الحق تعالى كما هو فى جانب الخلق جور على اللفظ فإذا سمعنا حديث : « قلب المؤمنين بين إصبعين من أصابع الرحمن » حملناه على النعمة ، وتثنيه الإصبع إشارة لنعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، فلأى شيء يحمل الإصبع فى جانب الحق كما هو فى جانب الخلق ، حتى يحتاج إلى التأويل ولم لا حملوه ببادى الرأى على ما يليق بالحق جل وعلا ، فعلم أن الذب عن أكابر حضرة الله تعالى طلباً لرضى الله عز وجل واجب وهذا الذى جنحنا إليه من أن المراد بذنبه ﷺ ما حدث من رسالته بحكم اللازم وجه مضى لا اشكال فيه ، وهو نظير ما قاله أبو القاسم الجنيد فى معنى حديث : إنه ليغان علي قلبي فاستغفر الله تعالى فى اليوم والليلة أكثر من سبعين مرة » وهو أن المعنى أنه ليغان على قلبي بسبب ما يقع فيه أمتى من بعدى من الفتن والحروب ،

أعنى المغفرة وإتمام النعمة والهداية والنصر بل لإجتماعها ويكفى فى ذلك أن يكون له دخل فى حصول البعض كاتمام النعمة والنصر العزيز وتحقيقه كما قال : إن العطف على المجرور باللام جار ومجرور على جار ومجرور وقد يكون للإشتراك فى معنى اللام كجئتك لتستقر فى مقامك وتفيض على من إنعامك أى لإجتماع الأمرين ويكون من قبيل جاءنى غلام زيد وعمرو أى الغلام الذى لهما .

واستظهر دفعا لتوهم أنه إذا كان المقصود البعض ، فذكر الباقى لغو أن يقال : لايخلو كل منهما أن يكون مقصودا بالذات وهو ظاهر أو المقصود البعض ، وحينئذ فذكر غيره

ومخالفة شريعتى فأستغفر الله تعالى لهم أكثر من سبعين مرة بحسب ما يخطر على قلبي ذكرهم .

وليس فى الحديث ما يستدل به على أن الغين الذى يقع لقلبه الشريف من ذنب يقع هو فيه فتأمل والزم الأدب ولا تخض فى حق الأنبياء إلا بخير ، وإذا كان الله تعالى يمقت من وقع فى حق أحد من الأولياء ، فكيف بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وفى الحديث : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أهله وولده والناس أجمعين » فيشترط فى كمال الإيمان أن يزيد فى محبته على محبة الوالدة لولدها وما رأينا والدة تكاد تنسب إلى ولدها ذنباً ، وإنما تقول : خزاك الله يا ابليس اوقع ولدى فى الشيء الفلانى .

فإذا كان هذا قول الوالدة فى حق ولدها مع أن حبها لولدها بحكم الطبع لا بحكم الإيمان فكيف بمن صحبه إيمان ، وكيف يدعى مؤمن محبة رسوله ﷺ ، وهو يتوهم فيه العيب ولذا كان من يتشرب قلبه حب إنسان من آحاد الخلق لا يصير يرى فيه عيباً ، بل يراه كله محاسن صرفاً فكيف لسيد الأولين والآخرين ، الذى فرض الله تعالى محبته على الخلق أجمعين وأحوجهم كلهم إلى شفاعته .

اما لتوقفه عليه أو لشده ارتباطه أو ترتبه عليه فيذكر للإشعار بأنهما كشيء واحد كقوله تعالى : (أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى) وقولك : أعددت الخشب لميل الحائط فادعمه ، ولازمت غريمى لأستوفى حقي وأخليه . وظاهر كلام الزمخشرى أن المقصود فيما نحن فيه تعليل الهيئة الإجتماعية فحسب ، فتأمل لتعرف أنه من أى الأقسام هو .

واعلم أن المشهور كون العلة مادخلته اللام لاماتعلقت به كما هو ظاهر عبارة الكشاف ؛ لكن حقق أنها إذا دخلت على الغاية صح أن يقال : أن مابعدها علة ويراد بحسب التعقل وأن يقال : ماتعلقت به علةويراد بحسب الوجود فلا تغفل.

وقال الصدر : لايبعد أن يقال : أن التعبير عنه تعالى فى مقام المغفرة بالإسم الجليل المشعر بصفات الجمال والجلال يشعر بسبق مغفرته تعالى على عذابه .

وقد سألت وأنا صغير شيخنا الشيخ محمد الشناوى رحمه الله عن المراد بمعاصى الأنبياء؟ فقال : يا ولدى تلك أمور يؤاخذ الله تعالى بها أحبابه لا تتعقلها عقولنا بل ربما نقربنا نحن بها إلى الله تعالى ورأينا لأنفسنا المقام العالى عند الله بها فلا يجوز لأمثالنا الخوض فيها بحسب ما تتعقله عقولنا أبداً ثم أنشدنى كلام سيدى على وفا :

عبادك محفوظون حفظ الحبايب

من الذر لم يظهر بصافى ذواتهم   سوى نورك الماحى لجج الغياهب
مياه صفت ذاتاً ومجرى ومنبعاً   وصينت عن الاكدار من كل جانب انتهى

فاعلم ذلك واحفظ لسانك فى حق الاكابر والحمد لله رب العالمين .

ومما أجبت به عن الصحابة رضى الله عنهم فى قوله تعالى فى حقهم لنبيه ﷺ : « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك[1] » هو كفرض المحال مثل قوله تعالى : « لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء[2] » مع أنه تعالى قال : « ما اتخذ الله من ولد[3] » وقال : « وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا[4] » .

وفى البحر لما كان الغفران وما بعده يشترك فى إطلاقه الرسول عليه الصلاة والسلام وغيره لقوله تعالى : (ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) وقوله سبحانه : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى وقوله تعالى : (يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) وقوله عز وجل : (يهدى من يشاء) وقوله تبارك وتعالى : (إنهم لهم المنصورون) وكان الفتح مختصا بالرسول ﷺ أسنده الله تعالى إلى نون العظمة تفخيما لشأنه وأسند تلك الأشياء إلى الإسم الظاهر وضميره وهو كما ترى وإن قاله الإمام أيضا .

وأقول : يمكن أن يكون فى إسناد المغفرة إليه تعالى بالاسم الأعظم بعد إسناد الفتح إليه تعالى بنون العظمة إيماء إلى أن المغفرة مما يتولاه سبحانه بذاته وأن الفتح مما يتولاه جل شأنه بالوسائط .

(١) سورة آل عمران آية : ١٥٩ .
(٢) سورة الزمر آية : ٤ .
(٣) سورة المؤمنون آية : ٩١ .
(٤) سورة الإسراء آية : ١١١ .

وكما فرض الله تعالى المحال في قوله: «لو أراد الله أن يتخذ ولداً[1]»، كذلك القول في وصف نبيه ﷺ بالفظاظة وغلظ القلب على المؤمنين ووصفه أصحابه بأنهم لا يحبون مجالسته إلا إن كان حسن الكلام لهم رقيق القلب، هو على سبيل الفرض والتقدير أيضاً، إذ لا يصح وصفه ﷺ بالفظاظة وغلظ القلب حقيقة، لأن ذلك ضد ما يثبت من صفته ﷺ.

وكذلك لا ينبغي وصفه لأصحابه بأنهم ينفضوا عنه، إذا لم يرق قلبه لهم فإنه أحب إليهم من أهلهم وولدهم والناس أجمعين.

وقد قالوا في المثل الساير (المحب لا يصرفه صارف ولا ترده السيوف والمتالف)، هذا في حق المريدين مع أشياخهم وكيف بمحبة الصحابة لنبيهم ﷺ.

وقد كان أحدهم ينظر إليهم سائراً نحو رسول الله ﷺ فيتلقاه عنه بصدره، ويفديه ﷺ بنفسه فعلم أن قوله: «لا نفضوا من حولك» إنما هو بحكم الفرض والتقدير تشريعاً لنبيه ﷺ ليشرعه لأمته والحمد لله رب العالمين.

والمراد بالذنب مافرط من خلاف الأولى بالنسبة إلى مقامه عليه الصلاة والسلام فهو من قبيل حسنات الأبرار سيئات المقربين، وقد يقال: المراد ماهو ذنب في نظره العالي ﷺ وإن لم يكن ذنبا ولاخلاف الأولى عنده تعالى كما يرمز إلى ذلك الإضافة.

وقال الصدر: يمكن أن يكون قوله تعالى: (ليغفر) إلخ كنايه عن عدم المؤاخذة أو من باب الإستعارة التمثيلية من غير تحقيق معاني المفردات. واخرج بن المنذر عن عامر وأبي جعفر أنهما قالا: ماتقدم في الجاهلية وما تأخر في الإسلام، وقيل ماتقدم من حديث مارية وما تأخر من امرأة زيد وليس بشيء مع أن العكس أولى لأن حديث امرأة زيد متقدم.

وقد صح أنه ﷺ لما نزلت صام وصلى حتى انتفخت قدماه وتعبد حتى صار كالشن البالي فقيل له: اتفعل هذا بنفسك وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: أفلا أكون عبد شكوراً.

(١) سورة الزمر آية: ٤.

ومما أجبت به عن الصحابة أيضاً في قوله تعالى : « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة[١] » .

اعلم أنه إذا كان المريد في بداية أمره يخرج عن حب الدنيا أصلا ورأساً ويرمى ما معه منها في بحر الإياس حتى يصح له قدم في طريق القوم فكيف بالصحابة رضي الله عنهم الذين هم فوق مقام ساير أشياخ الطريق بيقين .

وإذا كان الزاهد منا في الدنيا لا يريدها فكيف يريدها أصحاب رسول الله ﷺ . وقول الله تعالى حق وصدق ولكن فيه تقدير واضمار تقديره « منكم من يريد الدنيا الآخرة » أي ليفعل بها خيراً يثاب عليه في الآخرة « ومنكم من يريد الآخرة » أي يشاهد فيها ربه — فما أحبوا الدنيا لذاتها ولا أحبوا الآخرة لذاتها ، فثم مقام رفيع ومقام أرفع من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين .

ففي الآية مدح للصحابة كلهم كل على قدر مقامه ونصيبه لاذم لهم كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان ، فإنه ما منهم أحد إلا وهو زاهد في الدنيا .

وأما قول سفيان الثوري : أن معاوية بن أبي سفيان كان رجلا عالماً ولكنه غلب عليه حب الدنيا ، فالمراد به أنه زاحم على الخلافة ليقوم فيها بالعدل على حسب اجتهاده فهو مأجور وإن أخطأ لبذله وسعه في نصرة الشريعة .

وفي حفظ نظام العالم عن الانخرام فسمى سفيان الخلافة بهذا الحكم دنيى بالنظر لمن يريد الله عز وجل فما أحب معاوية الدنيا إلا للآخرة ، ولا يجوز حمل حاله علي حال غيره من الملوك الذين قاتلوا على الدنيا فإنه أعلى مقاماً بيقين من إبراهيم بن ادهم ، وغيره من الأولياء الذين أجمع الناس على عدم محبتهم للدنيا ، فأعلم ذلك واحفظ لسانك في حق أصحاب رسول الله ﷺ وإذا كانت الوقيعة في آحاد الأولياء سم قاتل فكيف بالوقيعة في الصحابة والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة آل عمران آية : ١٥٢ .

ومما أجبت به عن الإمام علي رضى الله عنه ، فى قوله (سلونى عن طرق السما فإنى أعرف بها من طرق الأرض) أن مراده بطرق السماء المقامات والأحوال كالتوبة والزهد والخشية وغير ذلك ، فإن السالك لهذه الطريق يصير قلبه سماوياً ، فهى طرق السموات فى الأرض ، وليس مراده أنه صعد بجسمه إلى السماء ، لأنه ليس لغير نبى قدم محسوس فى السما والله أعلم .

ومما أجبت به عن الإمام أبى حنيفة : رضى الله عنه فى نسبته إلى القول بالرأى فى دين الله وغير ذلك وأنه يقدم القياس على النص .

أعلم يا أخى أنه ما ثم أعز من الورع فى المنطق فى كل زمان لاسيما كلام الأسافل فى حق الأكابر وقد أدرك الإمام أبو حنيفة الصحابة ، وأخذ عن خيار التابعين كعطاء ، ومجاهد ، والأسود ، وعلقمة ، ونحو من ثلاثمائة عالم ، ولو لم يكن من مناقبه إلا قول الإمام مالك . لما سئل عنه ؟

ماذا أقول فى رجل لو ناظرنى فى أن نصف هذه الاسطوانة ذهباً ونصفها فضة لقام بحجته .

وقول الإمام الشافعى رضى الله عنه : الناس كلهم عيال على أبى حنيفة فى الفقه ، لكان فى ذلك كفاية فى غزارة علمه ودينه .

وقد قال عبد الله بن المبارك : لما دخلت العراق سألت من أعلم الناس عندكم ؟فقالوا أبو حنيفة فقلت : لهم : فمن أورع الناس عندكم وأزهدهم فى الدنيا ؟ قالوا : أبو حنيفة فقلت لهم : فمن أعبد الناس عندكم ؟ وقالوا : أبو حنيفة فما سألتهم عن فضيلة إلا وأضافوها لأبى حنيفة .

ومن ورعه أن الخليفة لما منعه الفتيا سألته ابنته عن الدم الخارج من الأسنان هل ينقض الوضوء ؟

قال لها : سلى عمك حماداً عن ذلك فإن إمامى منعنى الفتيا ولم أكن أخنه بالغيب .

ومن ورعه أيضاً أنه كان لا يجلس فى ظل جدار غريمه ويقول : كل قرض جر نفعاً فهو رباً .

وأما قولهم أنه يقدم القياس على النص فكلام صدر من متعصب عليه بغير حق وقد اجتمع به ، جعفر الصادق وسفيان الثورى ، وجماعة من العلماء فى جامع الكوفة ، فناظروه فقطعهم بالحجج .

فقالوا له : فما دليلك فى تقديمك القياس على النص ؟

فقال : معاذ الله أن يقع منى ذلك إنما أنظر الحكم فى القرآن ، فإن لم أجده نظرت فى السنة ، فإن لم أجده فيها ، نظرت فى أقضية الصحابة ، فإن لم أجده فيها قست حينئذ مسكوتاً عنه على منطوق به بجامع العلة فقام سفيان وقبل رأسه ، فلم يقع منه قياس إلا بعد أن لم يجد ذلك الأمر فى كتاب ، ولا سنة ، ولا فى أقضية الصحابة ، وهذا أمر لا يختص به بل ساير العلماء يقيسون كذلك .

وأما ما نقله أبو مطيع البلخى عن الإمام مالك بتقدير صحته أنه سأله من عالم بلادكم اليوم ؟ فقال أبو حنيفة فقال : فإذن لا يحل لعالم سكناها فالمراد مدح الإمام أبى حنيفة بالعلم والزهد والورع ، وأنه يكفى أهل بلاده علماً وعملا ولا يحتاجون معه إلى عالم آخر يسكن بلادهم يساعده فى نشر العلم فيها ، بل كل عالم سكن فى بلده فقد عطل علمه لعدم حاجة الناس إليه مع وجود الإمام أبى حنيفة ، وقد ضعف المحدثون رواية أبى مطيع هذا وأما ما نقل عن سفيان الثورى من قوله : إن أبا حنيفة قد حل عرى الإسلام عروة عروة ، وقول الإمام أحمد لما سئل عن أبى حنيفة ؟ فقال : لا رأى ولا حديث فلم يصح عنهما وحاشا أن يطعنا فى إمام أجمع الناس على جلالته ثم بتقدير أن قياسه خالف النص فى بعض المسائل فهو معذور لعدم وجود جميع الأدلة فى عصره لأنها كانت متفرقة فى المداين والقرى ، والثغور مع الصحابة والتابعين ، فكان معذوراً فى قياسه بخلافه فى زمن الإمام الشافعى وأحمد ، فإن الناس كانوا سافروا فى طلب الحديث ، وجمعوا

الأدلة فجاوبت الشريعة بعضها بعضا . هذا هو الحق ولا يقول عاقل قط أن الإمام يجد نصاً فى المسألة ويتركه ثم يأخذ بالقياس أبداً واعلم ذلك .

ومما أجبت به عن تجريح الحفاظ للحديث بعض الرواة ، إن ذلك إنما وقع منهم نصرة للشريعة المطهرة ، فكان لهم من الثواب فى ذلك التجريح مثل ثواب من يسبح الله تعالى ويحمده ولا يجوز حمل أحد ممن جرح غيره منهم على حظ النفس حاشاهم من ذلك ، وقد كان الإمام البخارى رضى الله عنه يقول : أرجوا من فضل الله تعالى أنه لا يطالبنى بغيبة أحد من المسلمين يوم القيامة فقيل له : فماذا تصنع فى تجريحك لبعض الرواة ، فقال : ذاك من الدين نثاب عليه ثواب الواجب وما حرمت الغيبة إلا لغير غرض شرعى ، كالتشفى من الأعداء والحسدة .

وكان سيدى علي الخواص رحمه الله يقول : فى ضمن تضعيف الحفاظ لبعض رواة الحديث رحمة الله منطوية للمسلمين لأنهم لو صححوا جميع الأحاديث ، التى قيل بضعفها لشق على الأمة العمل بها ، ولم يكن لهم عذر فى تركها بخلاف ما ضعف فإن للناس فيه فسحه لكون العمل به راجع إلى اختيارهم .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول أيضاً : قد قيض الله تعالى بعض الناس فعمل بما ضعفه المحدثون حتى لا يفوت الأمة العمل بشىء من السنة فكان ذلك من جملة ما حفظت به الشريعة عن النقص انتهى .

فاعلم ذلك واعمل به والحمد لله رب العالمين .

ومما أجبت به عن عموم الناس أنه لا يجوز حمل أحد منهم على المحامل السيئة ، وكل من رأيناه حمل أحداً على محمل قبيح ، فإنما ذلك صورة نفسه هو فكأنه يقول أنا من أهل ذلك القبيح ، وقد أجمعوا على أنه لا يخرج أحد عن المحامل السيئة فى الناس إلا أن طهر الله باطنه من ساير الرذايل ومتى بقيت فيه رذيلة واحدة فمن لازمه غالباً سوء ظنه بالناس وأنهم لا يسلمون من مثلها قياساً على نفسه هو ، فمن تطهر باطنه من ساير الرذايل

فهو الذى يصح منه حسن الظن بالمسلمين كلهم ، وأما حديث على وعائشة مرفوعا متصلا « من الحزم سوء الظن » وفى رواية أخرى عن أنس مرفوعا « احترسوا من الناس بسوء الظن » فالمراد به كما قاله شيخنا : أن يعامل العبد الناس وهو محترز منهم ، ومن شرهم كمعاملة من يسىء الظن بهم من غير أن يسىء الظن بهم .

وذكر الإمام النووى فى مقدمات شرح المهذب : أنه ينبغى للإنسان أن يحمل أفعال شيخه التى ظاهرها الفساد على نحو من سبعين محملا حسنا ، ثم إن لم يقبل قلبه تلك الأجوبة كلها رجع على نفسه باللوم ، وقال : يحتمل فعل أخيك سبعين محملا حسنا ولا تقبل ذلك ، فأنت إذن أسوأ حالا منه ، قال : ولا يعجز عن هذه الأجوبة إلا قليل التوفيق انتهى .

إذا علمت ذلك يا أخى فإياك أن تحمل أحوال الناس على أحوالك السيئة ، ما دمت لم تتنظف من الرذائل ، بل يجب عليك أن تنتحل لهم الأجوبة الحسنة ما أمكن فإذا رأيت يا أخى نقصاً فى أحد فارجع إلى نفسك وجاهدها بالرياضة ، حتى لا تصير ترى فى أحد نقصاً إلا تبعا للشرع ، وكلامنا كله إنما هو فى الاخلاق التى تخفى أما الظاهرة كالمكس واخذ الرشا والزنا مثلا ، فلا يجوز لنا حمله فيها على المحامل الحسنة ، فإن ذلك مكابرة فى المحسوسات بخلاف مايحتمل ويحتمل ، ومن هنا قل انكار طايفة الصوفية على الناس ، وذلك لعدم رؤيتهم منكرا محققاً وربما كان الناس يظنون بهم قلة الدين ، وأنهم يقرون على المنكر ولا يغيرونه .

وقد بلغنا عن سيدى أحمد الزاهد انه أخرج فقيراً من زاويته ، لما رأى جرة مع غلام تشبه جرار الخمر فضربها بحجر فكسرها فقالوا للشيخ فى ذلك : فقال : إنما أخرجته لكونه ظن بصاحب الجرة سوءاً ، ولأى شىء ما كان يظن انها خل انتهى .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : من علامة من صحت رياضة نفسه أن يصير يبادر لحسن الظن بالناس عكس من لم يكن عنده رياضة ، فإذا رأى شخصاً يكلم امرأة فى طريق مثلا ويغمزها بيده ويضحك معها ، قال : هذه أخته أو محرمه .

وإذا رأى عالما أو صالحاً يحضر مواضع المعاصى أو يصغى لشىء من الملاهى ، حملناه على أنه حضر العصاة ليحوطهم بأسماء الله خوفا ، أن يقع بهم العذاب ، أو على انه خالطهم ليعظهم ويخوفهم ونحو ذلك ، وإذا رأى امرأة جميلة تشبه بنات الخطاء داخلة بيت أحد من الأكابر حملها على أنها داخلة لعياله لحاجة دينية أودنيوية لالذلك الرجل ليفعل بها مالا يحل .

وإن كان صاحب ذلك البيت عالما أو صالحا حمله على انه أرسل وراها ليتوبها عن الفواحش مثلا .

وإذارأى أحدا من الطوافين يبيع حال صلاة الجمعة حمله على أن له عذراً شرعيا فى عدم حضور الجمعة ، كأن ضيق عليه صاحب الدين أو حلف ان لم يوفه حقه فى هذا اليوم حبسه .

وإذا رأى أحداً من العلماء يمنع من الفتوى على مايتعلق بأعراض السلطان حمله على عذر شرعى يرخص فى مثل ذلك .

وإذا رأى أحداً من العلماء والصالحين يحج فى محفة حمل على ان له عذراً فى ذلك ،وان الحارة مثلا لايكفيه فى مدرجله ولا يجوز حمله ، على انه فعل ذلك نزفها كما سيأتى ايضاحه عقب هذا المبحث ان شاء الله تعالى .

وإذا رأى شخصاً يقرأ القرآن ، وهو فى السوق فى حانوته أو مارا راكباً أوماشياً ، فيجب حمله على الإخلاص أوعلى انه جهر بالقرآن ليذكر الناس بربهم فى مواطن الغفلة .

وإذا رأينا شخصاً يصلى فى آخر صف مثلا ويترك الصفوف أمامه ناقصة حمله على أنه إنما فعل ذلك حياء من الله عز وجل . ولا يجوز حمله على انه إنما فعل ذلك تهاوناً بالسنة والثواب . وهذا الذى ذكرناه لاينافى حديث : (خير صفوف الرجال أولها [1])

---

(١) أخرجه مسلم والأربعة عن أبى هريرة والطبرانى عن أبى أمامة وعن ابن عباس . وبقية الحديث : (وشرها آخرها وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها) .

لأن المراد بالرجال هنا الكمل فى مراتب الإيمان فمن علم من نفسه ذلك فليتقدم .

وقد كان سيدى أحمد الزاهد وسيدى محمد المغربى وسيدى مدين وسيدى أبو العباس الغمرى يصلون دائماً فى آخر صف فى مساجدهم ، ويقولون لايقف بين يدى الملك عادة إلا أكابر حضرته كما أشار إليه قوله ﷺ : (ليلينى منكم أولوا الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم [١]) ومعلوم ان النهى هى العقول وفى حديث الترمذى مرفوعاً : (الدنيا دار من لادار له ومال من لامال له يجمعها من لاعقل له [٢]) فجعل من يجمع الدنيا لا عقل له ، وكل إنسان يعرف حال نفسه هل هو يحب جمع الدنيا أو يكرهه ، فهو أمر راجع إلى قلبه ونيته .

وفى الحديث أيضا : صفوا كما تصف الملائكة عند ربها [٣]) أى فى التقدم والتأخر ، فكما لايتقدم آحاد الملائكة التسخير مثلا على أكابرهم كجبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائل واسماعيل ، وكذلك لاينبغى لمن يعلم من نفسه رقة الدين أن يتقدم على أحد من المسلمين ، وكل أحد يجب عليه أن يرى غيره أفضل منه ليخرج عن الكبر كما درج عليه السلف من الصحابة والتابعين .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : إياكم ان تبادروا إلى الإنكار على من رأيتموه لايصلى فى الصف الأول فربما كان ذلك الشخص ممن يعلم من نفسه انه يجمع الدنيا ، ويحكم على نفسه بقلة العقل أو يحمله على انه ، ربما فعل ذلك خجلا واستحياءً من رسول الله ﷺ خوفاً أن يخالف قوله (ليلينى منكم أولوا الأحلام والنهى) أى وكذلك كل من صلى اماما بقوم لاينبغى أن يليه إلا الزهاد فى الدنيا .

وقد قال الإمام الشافعى رضى الله عنه : لو أوصى رجل بمال لأعقل الناس صرفته إلى

---

(١) أخرجه مسلم والأربعة عن ابن مسعود .
(٢) أخرجه الإمام أحمد والبيهقى عن عائشه .
(٣) أخرجه الطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر .
وبقية الحديث (يقيمون الصفوف ويجمعون مناكبهم) .

الزهاد فى الدنيا . فعلم منه أن من لم يكن زاهدا فى الدنيا فلا حرج عليه فى الوقوف آخر الصفوف .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول أيضاً : حكم كمل العارفين إذا وقف أحدهم بين يدى ربه فى الصلاة حكم من كان فسق فى حريم الوالى ثم أتوا به إليه فهو يخاف من القرب من حضرته حتى يحصل رضى الوالى عنه أو العفو والمسامحة .

قال : وكثيراً مايذنب العبد الذنب العظيم فيظن بتقادم عهده أن الله تعالى غفره له والحال أنه لم يزل ساخطا عليه إلى ذلك الوقت ، فيصير مثل هذا يزاحم على الوقوف فى الصف الأول لظنه أن الله تعالى قد غفرله ذنوبه حتى لايكاد يستحضر ذنبه أصلا . وماهكذا درج السلف الصالح رضى الله عنهم ، فإن أحدهم إذا وقع فى ذنب لايزال خجلا من الله تعالى خائفاً من عقابه حتى يلقاه .

قال : وقد أوحى الله تعالى الى بعض أنبيائه عليهم الصلاة والسلام : مالى أراك لاتبكى على ذنبك بكاء الثكلى على ولدها ، أتظن انى قد غفرت لك حين تقادم عهدك بالذنب ، ولم أعاقبك عليه ؟ ومن ابن لك أنى قد غفرت لك ؟ وأى ملك أخبرك بذلك عنى ؟ وعزتى وجلالى لأوقفن العصاة يوم القيامة موقف تذوب فيه أجسامهم وتنقطع فيه مفاصلهم انتهى .

وكان أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : اياكم أن تسيئوا الظن بمن رأيتموه من الأمراء والمباشرين والتجار يتغالى فى ثمن المماليك والعبيد وتقولوا لولا أنه ممن يقع فى الفاحشة فيهم ما غالى فى ثمنهم فان ذلك لايجوز بإجماع إلا إن حفت بذلك القرائن ، وليس كل من يتغالى فى ثمن العبيد يفعل ذلك للفاحشة ، وإنما الأكابر إذا وسع الله عليهم الدنيا يصير أحدهم يحب الجمال فى ثيابه ومراكبه وداره وغلمانه مشاكلة لحاله ، فلا يكاد أحدهم يحب عجوزاً شوهاء ولاعبداًوجهه غير صبيح عادة، ولايحب أن يستخدم من العبيد والمماليك إلا صباح الوجوه ويحصل عنده غم برؤية غيرهم .

وقد بلغنا أن من أدب جماعة السلطان معه أن لايوقفوا بين يديه أجذم ولا أبرص. وان وقع أن أحداً من الوزراء حصل له شيء من ذلك عزلوه أو استنابوا عنه رجلا سالماً من مثل ذلك غيرة على السلطان ، أن يقع بصره على ناقص فالأكابر غائبون عما يظن الفسقة فيهم من السوء قياساً على نفوسهم الغوية .

وقد بلغنا أن القاضي اسماعيل بن اسحاق المالكي الذى أفتى بقتل الحلاج رحمه الله دخل يوماً على أمير المؤمنين المعتضد فرأى على رأسه جماعة من المماليك الصباح الوجوه ، فوقع فى نفس القاضي شيء ، فلما أراد القيام قال له : المعتضد : والله ياقاضى ماخامت سراويلي قط على فاحشة من منذ وعيت على نفسى من الصغر ، فخجل القاضى واستغفر من سوء ظنه .

وكان سيدى علي الخواص رحمه الله يقول : عليك ياأخي بحسن الظن بالمسلمين مااستطعت فإن الله تعالى لايسألك فى الآخرة :

لم حسنت ظنك بعبادى وإنمـا يسألك عن سوء ظنك بهم .

فإذا انقطع أخوك عن زيارتك مثلا أو عيادتك ، فلا ينبغي لك أن تتكدر منه . بل الواجب عليك حمله علي أنه لم يجدله نية صالحة مثلا يزورك أو يعودك بها ، ولايجوز لك حمله على أنه فعل ذلك استهانة بحقك . وإذا دعاك إلى وليمة وأجلسك عند النعال وقدم إليك فضلة الغلمان والخدام ، فمن الواجب عليك حمله على أنه ظن فيك الخير والتواضع ، وزوال الكبر والرعونات النفسية ولولا أنه ظن بك ذلك لأخذ حذره منك وصدرك فى المجلس خوفاً منك وأكرمك كل الإكرام فى الطعام .

وقد وقع لسيدى عبد الله المنوفى شيخ الشيخ خليل صاحب المختصر انه دعى إلى وليمة ، فأجلسوه هو وأصحابه عند النعال وقالوا له ولأصحابه اصبروا عن الأكل حتى يفرغ الناس ، فقالوا : سمعاً وطاعة . فلما قدموا لهم فضلة العبيد والأطفال صار سيدى عبد الله يلحس الأوانى ويقول : اغتنموا بركة جميع من أكل ، ثم يقول لأصحابه : تعلموا

حسن الظن بالناس ، فإن هؤلاء لولا أحسنوا بنا الظن وجعلونا من الصالحين الذين ماتت نفوسهم ماأجلسونا خلف النعال ولا أطعمونا الفضلة .

ووقع ان امرأة سيدى مجاهد النبراوى دعت زوجة سيدى عبد العزيز إلى طهور أولادها ففرشت لهـا البيت بالبسط والمقاعد لظنها أنها من أهل الدنيا ، فلما دخلت عليها ورأت عليها ثياباً خلقة طوت البسط وأرسلتها إلى المطبخ ، فلما جاء سيدى عبد العزيز ليأخذها شكت إليه شدة ازدرائهم لهـا فقال لها : سيدى عبد العزيز مبادراً : هذا تعظيم مافعلوه مع أحد غيرك أجلسوك عند الطبيخ وكلما طبخوا شيئا أطعموك منه بغير تعب . انتهى .

وكان سيدى محمد الشناوى رحمه الله يقول : إذا زار تلميذ أحدكم شخصاً من اقرانكم فلم يبش فى وجه مريدكم ، ولم يقدم له طعاماً ، فلا يجوز لكم حمله على أنه يكرهكم . وانما يجب عليكم حمله على أنه إنما فعل ذلك مع تلميذكم وفاء بحقكم ومصلحة لمريدكم فخاف إذا أكرمه أن يميل بالمحبة فيعدم النفع بكم حين يصير مذبذباً فى أى الشيخين أعلى من الآخر

وكان سيدى على المرصفى رحمه الله يقول : إذا رأيتم أحداً من العلماء والصالحين يمدح نفسه أو يجيب عنها فاحملوه على المحامل الحسنة ، فربما رأى من طلبته عدم الاعتناء بما يقوله لهم من العلوم المحررة ، أو خاف تزلزلهم عنه إذا رماه الناس بالعظائم ، ولم يجب عن نفسه ، فيعدم الناس النفع به . ولو انه علم من طلبته انهم يعرفون نفاسة ذلك الكلام ، أولا يتزلزل اعتقادهم فيه إذا لم يجب عن نفسه لكان سكت ولم يمدح نفسه ولا علمه .

وكذلك سمعت سيدى أفضل الدين رحمه الله يقول مراراً : إياكم ان تسيئوا الظن بمن رأيتموه يجيب عن نفسه من العلماء والصالحين ويقولوا : لوان هذا كان صالحاً لا كتفى بعلم الله تعالى فيه أولم يلتفت إلى الناس فإن للعلماء والصالحين مشاهد فى ذلك

صحيحة ، فمنهم من يكون مشهده أن أفعاله وأقواله التى نقصه الناس لأجلها كلها خلق لله تعالى فيغار لله أن ينتقص أحد خلقه وحكمه وتقديره ، ومنهم من يكون مشهده أن نفسه خلق لله تعالى فيتكدر لمن يقول له ياأعور مثلا من حيث انه يعيب خلق الله تعالى ومنهم من يكون مشهده ان بنته امة لله تعالى ، وانها وديعة عنده قد أمنه عليها وأمره بكف الأذى عنها ودفع كلما يحصل لها به تكدير وتشويش .

ومنهم من يكون مشهده الشفقة على أعدائه فيخاف ان سكت عما يقولونه فيه ، أن ينقص دينهم فيرد عن نفسه حتى يكذبهم الناس ، فيخف الاثم عنهم .

ومنهم من يكون مشهده انه عبد لله تعالى ليس له من نفسه شيء وانه يجب على كل أحد احترام عبد الله تعالى فيغار لنفسه من حيث كونه عبد الله لالاحظ نفسه ، بل ربما لم يخطر ذلك على باله .

ومنهم من يكون مشهده محبة الخير والنفع لإخوانه على يديه أو يدى غيره ، فيخاف ان سكت على تنقيص الأعداء والحاسدين له أن يجعل له استهانة فى نفوس تلامذته فلا يصبرون ينتفعون به .

وهكذا فى جميع الأمور التى تسبق إلى الذهن فيها بسوء الظن يجب على العبد أن ينظر فيما يترتب عليها من جواب أو سكوت فلا يقال الجواب أولى مطلقا ولا السكوت أولى مطلقاً ، إنما ذلك دائر بحسب ما يترتب عليه من المصالح ، وقد كان أخى أفضل الدين ، إذ بلغه أن أحداً نقصه فى مجلس يذهب إليه ويقبل رجله ويقول : يا أخى ما يجازيك عنى إلا الله فيما بلغنى عنك ، فإنك نبهتنى على نقائصى لأتوب منها أو آخذ حذرى منها فى المستقبل ، وحميتنى من الوقوع فى العجب بأحوالى ، وربما أن ذلك الشخص المنتقص له لم يخطر فى باله قط ما حمله سيدى أفضلُ الدين عليه إنما قصد محض تنقيصه بين الناس بغضاً فيه وحسداً له وعدواناً

وسمعت سيدى عبد القادر الدشطوطى رحمه الله يقول : لا يسلم من سوء الظن بالناس

إلا من طهر الله باطنه من سائر المخالفات ، بحيث يصير لا تخطر الفحشاء على باله ، فإنه حينئذ يصير يعتقد فى الناس كلهم الخير قياساً على نفسه هو .

قال : وتأمل من خلق عنيناً ولم يذق لذة الجماع قط ، لو أنه رأى شاباً يكلم أجنبية كيف لايخطر بباله أنه يريد الفاحشة بها أبداً ، لأنه لم يذق ذلك فى نفسه ، بخلاف الشاب الفاسق إذا رأى شيخاً يكلم أجنبية فضلا عن الشاب لا يكاد يسلم من سوء الظن به قياساً على نفسه هو ، فقلت له : فما حكم الشيخ ، إذا اطلع على شىء من نقائص المريدين ، هل ذلك قياساً على ما عنده أم لا ؟ فقال رضى الله عنه : للشيخ طريق أخرى يطلع بها على نقائص المريد وهى الإلهام له من الله تعالى . انتهى ..

وسمعت سيدى على الخواص رضى الله عنه يقول : إذا بلغكم عن امرأة قد مات أحد من أهلها ، أو جيرانها ، إن زوجها قوب منها ليلة موت ذلك الميت ، فاحملوها على إظهار الرضى عن الله بذلك ، لا على غلبة الشهوة الطبيعية ، فإن ذلك من سوء الظن بها . انتهى .

وهذا الخلق العظيم لم أر من تخلق به من أقرانى إلا القليل .

وقد سمع أخى أفضل الدين شخصا يحكى أن أشعب الطماع ، كان يفت الخبز على دخان جاره فقال : شىء لله من مدده ، فإنه لولا حسن ظنه بجاره ما فت خبزه على دخانه رضى الله تعالى عنه ، فاعلم ذلك وتأمل فيه فإنه نافع جداً .

والحمد لله رب العالمين ؟

الباب الثاني

الباب الثاني

في جملة أخرى من الأخلاق

فمن أخلاقهم غيرتهم لله تعالى إذا انتهكت محارمه

ولا يخافون في الله لومة لائم ولو كان ولدهم البكري ، فإن الله تعالى بالمرصاد على قلوبهم[1] .

وفي الحديث أن شخصاً يؤتى به يوم القيامة ومعه أعمال كأمثال الجبال فيؤمر به إلى النار ، فتقول الملائكة : يا ربنا إنه كان من أعماله كذا وكذا ، فيقول الله تعالى : بلى ولكنه كان لا يغضب إذا انتهكت حرماتي ولا يغضب لغضبي . انتهى .

وذكر وهب بن منبه : أن شخصاً من علماء بني إسرائيل كان يعظ الرجال والنساء فبينما المجلس غاص بأهله ، والناس يبكون وينتحبون ، إذ غمز ولده امرأة من الأجانب .

فقال له : لا يا ولدي لا تفعل[2] .

---

(١) وفي الحديث : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان . رواه مسلم .

(٢) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل ، أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول : ياهذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لايحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ثم قال: « لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما كانوا

فأرسل الله إليه ملكا فقلب به الكرسي فوقع على وجهه ، فانفلقت رأسه ، وتقطعت أعضاؤه .

وأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان : أما كان من غضب فلان لمحارمي وانتصاره لشرعي إلا أن قال : لا ياولدي . أي فإنها كلمة لا تشعر بتعظيم محارم الله ، ولا بإيثار جناب شرعه علي حكم الطبع النفساني . فاعلم ذلك واعمل به والحمد لله رب العالمين .

يفعلون ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم . إلى قوله : فاسقون ، ثم قال : كلا والله لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا ولتقصرنه على الحق قصرا أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ، ثم ليلعنكم كما لعنهم . رواه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن .

عملا بقوله ﷺ : (من أم بالناس فليخفف فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة)[1] انتهى .

فلا يقدر على طول الوقوف بين يدى الله عز وجل إلا رسول الله ﷺ وكمل ورثته . ولذلك كان يقول :

« أرحنا بها يا بلال » فافهم .

ثم إن المصلى لا يخلو إما أن يكون قلبه حاضراً مع الله أو غافلا عنه ، فإن كان حاضرا فقد شق عليه بالتطويل ، لأنه ليس كل الناس يقدرون علي طول الوقوف بين يدى الملوك ، بل يصير أحدهم يرعد من هيبته ، وربما أحس أحدهم أن مفاصله تنقطع من شدة الهيبة .

وإن كان ذلك المصلي غافلا بقلبه عن ربه فهذا لا ثمرة له وهو إلى العقوبة أقرب .

وربما زهقت نفس المصلى من تلك الحضرة ، فخرجت إلى أهويتها وشهواتها ، ولم يبق واقفاً مع الإمام سوى الجسم من غير روح .

وقد شمل ما قلناه قوله ﷺ : « فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة » فذكر الضعف وسكت عن سببه ، فشمل الضعف العادى من المرض ، وشمل الضعف الذى يطرأ على العبد من هيبة الله تعالى .

فعلم أن التخفيف مطلوب للإمام بكل حال بخلاف ما إذا صلى لنفسه فإنه يطول ما شاء كما صرح به الحديث .

---

(١) أخرجه الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه ، ولفظه عند مسلم : إذا أم أحدكم الناس فليخفف ، فإن فيهم الصغير والكبير والضعيف والمريض ، فإذا صلى وحده فليصل كيف شاء .

فإن أقدره الله تعالى على طول الوقوف بين يديه وقف وطول وإلا اقتصر .

وقد صليت مرة خلف الشيخ أحمد المنشاوى عندنا بالزاوية فطول فصرت أحس بأن شخصاً يطعننى بحربة فى قلبى وأحشائى فلولا إنى فارقته لهلكت ، وهذا أمر لا يعرفه إلا من ذاقه .

فاعرضه وما قبله علي نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم سفرهم إلى الحجاز فى محفة إلا لضرورة شرعية

وإن قوى عليهم الشوق العظيم إلى زيارة بيت الله الحرام وإلى زيارة قبر رسول الله ﷺ مع كبر سنهم وضعف أبدانهم ، ووجدوا أجرة ذلك من وجه حلال، وخلصت النية فى ذلك .

ولا ينبغى لأحد من الفقراء والعلماء أن يحج فى محفة ترفها وتفاخراً . فإن المحرم أشعث أغبر . وكل فقير سافر فى محفة على وجـــه الترفه والخيلاء فهو خارج عن الطريق[1] .

وقد حج رسول الله ﷺ على رحل رث يساوى ثلاثة دراهم . ثم قال : (اللهم اجعله حجاً لا رياء فيه ولا سمعة[2]) . وإنما فعل ذلك ليقتدى الناس به .

وكذلك حج الأنبياء على الحمر والجمـال ، بلا مرقد ، ولا هودج ، وخطم دوابهم الليف .

وأحرموا فى العباء الخشنة الغليظة وهم خائفون من عظمة الله عز وجل .

وكل من حق له قدم الولاية فمن لازمه أن يرى نفسه ، كالعبد الآبق ، الذى استحق الخسف به ، ويرى حجه إنما هو كالصالحة لسيده ليرضى عنه أو يعفو ويصفح . ويقبح

---

(١) يقصد الإمام الشعرانى بذلك عدم الترف فى الحج وجعله وقتاً للمتعة بل إن الواجب فى نظره التخلص من الشهوات الدنيا والتوجه بكنه الهمة إلى الله تعالى فى موسم الحج لعله يتوب على القادمين عليه ولعله يرضى عنهم ويقصد أيضاً تنزيه الأماكن المقدسة عن أى مطمع دنيوى .

(٢) حديث : (حج رسول الله على رحل رث) أخرجه الترمذى فى الشمائل عن أنس رضى الله عنه .

ولفظه : « حج رسول الله ﷺ على رحل رث ، وعليه قطيفة لا تساوى أربعة دراهم، فقال : اللهم اجعله حجا لا رياء فيه ولا سمعة » .

على العبد المحرم أن يذهب إلى مصالحة سيده فى محفه ، وعليه ثياب رفيعة مبخرة وهو جالس فى المحفة كالمرأة المخدرة .

فاعلم ذلك والزم الأدب مع ربك إن كنت عبداً له .

وقد حج سفيان الثورى رضى الله عنه من البصرة ماشياً فلما سلم عليه الفضيل ابن عياض بمكة قال له : هل لاصحبت معك ظهراً تركبه ؟ فقال له سفيان : أما يرضى العبد الآبق أن يأتى إلى مصالحة سيده إلا راكبا ؟ والله إنى لفى غاية الخجل مع مشيى . فكيف حالى لو أتيت راكباً ؟ . انتهى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم شمهم لروائح المعاصي

من أنفسهم ومن غيرهم في بدنهم وثيابهم ومكانهم مدة طويلة من يوم وجمعة وشهر وأكثر ، بحسب قبح تلك المعصية وخفتها ، فللكبيرة عندهم رائحة ، وللصغيرة رائحة ، وللمكروه رائحة ، ولخلاف الأولى عندهم رائحة ، وكلما قبحت المخالفة كان ريحها أشد نتناً .

وكذلك يشمون رائحة الطاعات على اختلاف درجاتها فأذكاها رائحة الواجبات إذا حفها الإخلاص ، ثم المندوبات ، ثم ما كان أولى من ساير الآداب الشرعية ، مع تفاوت المراتب في الكل بحسب الأدلة [1] ، وكلما عظمت الشهوة في المعصية كلما زاد نتنها وكلما عظم الإخلاص في الطاعات كلما زاد طيب ريحها ، وهذا الخلق قل من يتخلق به من الإخوان وقد تخلقنا به ولله الحمد ،

لكني سألت الله تعالى أن يحجب عني رائحة المعاصي من غيري لأن الله تعالى لم يتعبدنا بمثل ذلك .

وأيضاً فإن الشارع قد ذم كشف العورات ومن هنا أوجب القوم التوبة من كل كشف اطلع صاحبه على عورات الناس ، وسموه بالكشف الشيطاني [2] .

وقد بلغنا أن هذا الخلق كان للسيد عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ثم سأل الله تعالى أن يحجبه عنه فحجبه .

---

(١) يقصد الإمام الشعراني بذلك ما يكشفه الله سبحانه وتعالى لأوليائه من المعارف التي بها يستطيعون معرفة الطارق لهم ، فيقدروا له وزنه من حيث درجة تقواه فينصحونه بالقسية للمعروف ، وينهونه بالنسبة للمنكر ويتولونه بالرعاية التي تجعله يتخلى عن ذنوبه أو يزيد في تحليه بالفضائل .

(٢) لأنه ربما يؤدي إلى استمراء المكاشف لهذا الوضع فيترك كثير من أمور التصوف ويتفرغ لهذا الكشف ، مما يؤدي به بالتالي إلى تتبع عورات المسلمين .

ومما وقع له قبل الحجاب أن شخصاً دخل عليه وقد نظر إلى ما لا يحل .
فقال له عثمان رضى الله عنه : يدخل أحدكم علينا وروائح الزنا عليه ؟ فاستغفر الرجل من ذلك وتاب . انتهى .

وقد كان بعض العارفين يقول لأصحابه : — من باب الاتهام لنفسه — لو أنكم تشمون للمعاصى رائحة ما استطاع أحدكم أن يجلس إلىّ من نتن ريحى . انتهى .

وصاحب هذا المقام لا يقدر على مجالسته إلا من كان تائبا من سائر الذنوب ، وقبل الله تعالى توبته .

وأما المتلطخ بالمعاصى فربما حصل له المقت فى الوقت والعياذ بالله ، لأن الولى يغضب لغضب الله .

فربما نظر إلى ذلك العاصى نظرة غضب من حيث انتهاكه محارم الله فخسر الدنيا والآخرة .

بل بلغنا عن سيدى محمد الشوبى[1] المدفون تجاه قبر سيدى مدين المدفون بخط المقسم رضى الله عنه أنه كان يشم رائحة الروائح التى تنشأ من الخواطر .

وكان يؤدب صاحب الخاطر بالعصى فلا يستطيع أحد أن يرده عنه .

ودخل مرة أمير على سيدى مدين وسيدى محمد هذا جالس فى المحراب وسيدى مدين فى آخر الزاوية ، فخطر فى نفس الأمير أنه يمسك جارية زوجته فقام ، له سيدى محمد من المحراب وصار يضربه بالعصى والأمير يصدق ويقول : استغفروا[2] الله العظيم .

---

(١) كان من أصحاب الشيخ مدين بن أحمد الأشمونى رضى الله عنه ، وكان من أرباب الأحوال ، وكان يجلس بعيداً عن سيدى مدين رضى الله عنه ، فكل من مر على خاطره شىء قبيح يسحب العصا ويضربه ، غنيا أو فقيرا ، كبيراً أو صغيراً أو أميراً فكان أرباب المعاصى لا يقربون مجلس سيدى مدين خوفا منه .
وكان رضى الله عنه يقول لأصحابه : عليكم بذكر الله تعالى تقضى لكم جميع حوائجكم .
(٢) ربما يقصد أستغفر الله العظيم .

فإذا كان هذا فى رائحة الخواطر فكيف بالأعمال الظاهرة ؟

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول : جميع ما هو عند الناس غيب أو يرونه فى النوم فهو عند العارفين شهادة ويقظة(١) .

ووقع لخالد الربعى رضى الله عنه ، أن ناساً اغتابوا شخصاً فى المسجد وهو جالس لم يجب عنه ، فقدم إليه تلك الليلة قطعة من لحم خنزير وقيل له : كلها بما اغتيبت(٢) عندك ولم تجب عن أخيك : قال : فأبيت أن آكلها من شدة نتنها ، فادخلوها فى فمى كرهاً ، فاستيقظت ورائحتها فائحة فى غاية النتن ، فصرت أشمها أنا والناس مدة أربعين يوماً(٣) . انتهى .

فعلم أن شم الإنسان رائحة المعصية من ثيابه وبدنه ومكانه من جملة نعم الله تعالى ، ليتذكر بتلك الرائحة تلك المعصية ، ليزيد فى الندم . والاستغفار ، ويقع لى أنا أننى إذا ارتكبت مكروهاً أو خلاف الأولى أنى أشم رائحة ثيابى عفنة ، فلا أزال أستغفر حتى تزول رائحتها .

وحينئذ أرجوا أن يكون الحق تعالى قد سامحنى بذلك ، وأقول فى نفسى : لولا أنه سامحنى بذلك لدام ريحه على فى أوقات تمكث الرائحه يوماً أو ثلاثة أيام أو أكثر ، وقد

---

(١) لأن الحق سبحانه وتعالى يكشفه لهم فلا مجال للشك فيه عندهم إلا إذا كان يتعارض مع الشريعة الإسلامية .

(٢) أى بما وقع من الغيبة فى مجلسك .

(٣) وإذا كان هذا حال من حضر مجلس الغيبة دون الإشتراك فيها فكيف حال من يغتاب نفسه . قال الله تعالى : « ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم » .

يقول الإمام النووى : إعلم أنه ينبغى لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام ، إلا كلاما ظهرت فيه المصلحة ، ومتى استوى الكلام وتركه فى المصلحة ، فالسنة الإمساك عنه لأنه قد ينجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه ، وذلك كثير فى العادة والسلامة لا يعدلها شىء .

اغتبت مرة شخصاً فصرت أشم رائحة النتن من ثيابى نحو سبعة أيام ، مع أنى ما كنت استغبته[1] إلا بعد أن اغتابنى . فإياك يا أخى ثم اياك .

ثم لما حجب الله تعالى عنى رائحة المعاصى من غيرى أبدلنى مكان ذلك شمى لرائحة من عليه فريضة لم يصلها أول وقتها ، فأقول له : يا فلان أصليت صلاة كذا ؟

فيقول : لا . فأقول له : قم فصل .

وأهل الله يعرفون من وقف فى حضرة الله وقت الصلاة برائحته الطيبة ومن لم يقف بعدمها . وهذا أمر غريب قل من يتخلق به من الفقراء .

وكان أخى أفضل الدين رحمه الله يعرف قوام الليل برؤية وجوههم .

ويعرف من قام أول الموكب الآلهى ومن قام فى أثنائه علي تفاوت الناس فى الزيادة والنقص ، وربما قال لمن نام عن قيام الليل : ما رأيناك الليلة هناك .

فيعترف له بالنوم إلى الفجر رضى الله عنه . فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين .

---

(١) يقصد إغتبته .

ومن أخلاقهم عدم الإكثار من حضور الولائم التى لا خلاص فيها لصاحبها شرعاً

كأن يكون فيها طعام فيه شبهة كموالد المشايخ التى يعملها المعتقدون فيهم من الظلمة[١] أو يدخلها التفاخر ويكثر فيها ألوان الطعام .

وما ثم أنفع للفقير ولا للفقيه من ملازمة بيته فى هذه الأيام ، إما لمراقبة الله أو تحرير مسائل العلم التى ينتفع بها الناس .

وأما حضور الموالد فإنما ذلك للمزمزمين والمداحين والبطالين من الاشتغال بالله أو بالعلم . ومن هنا قالوا : كل من رأيتموه من المريدين يحب سماع القصائد والنغمات ، فاعلموا أنه بطال لايجىء منه شىء فى الطريق .

وربما استدرج إبليس بعض الفقهاء وقال له : ماعبد الله بشىء أفضل من جبر الخواطر ، فيترك مطالعة العلم أو اقراء الناس ويذهب إلى تلك الوليمة أو المشى فى الزفة ، ويعكس درس الطلبه ، ولا يشك أن الفقيه إذا ارتقى إلى مرتبة الفتوى والتدريس يصير وقته أعز من الكبريت الأحمر ، فلا يكون شىء أنفع له من العلم والعمل على وجه الإخلاص لتعدى نفع ذلك إلى الخلق فى أبدانهم ، فينقذهم بذلك من النار ، بخلاف جبر خاطرهم بحضور أكل طعامهم المخلوط بالحرام والشبهات[٢] .

---

(١) فإن كثيراً من الظلمة يحاول التقرب إلى المشايخ والأولياء لخدمة أغراض ظلمهم بإظهار التقوى فى هذا الأمر فيكثرون من دعوتهم والظهور إلى جانبهم ستراً للظلم وإظهاراً للدين ، فاذا تابعهم الأولياء فى ذلك فقد أعانوا ظالما على ظلمه .

(٢) يقصد الإمام الشعرانى بذلك عدم الإغراق والإسراف فى هذه الأمور وخاصة بالنسبة للعلماء والمريدين الذين فى أول الطريق بالنسبة للعالم فإن إقامته لدروس العلم ومراجعته للدروس وتبسيطه لأمور الفقه على الناس هو أهم للمجتمع من حضوره الإحتفالات وكذلك بالنسبة للمريد فإن إنصرافه عن الذكر والأوراد إلى الإحتفالات

وقد فتشنا فى الفقراء وطلبة العلم فما رأينا أحداً منهم أكثر من الأصحاب والمعارف وإجابتهم إلى جميع أغراضهم إلا انقطع عن الخير وفاته الترقى فى طريق الظاهر والباطن قال تعالى : (وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله[1]) .

فكل من أكثر من الأصحاب والمعارف فهو كالفقيه الذى كثرت وظائفه من حضورات ومباشرات وقراءة أطفال ، فإنه يتعطل عن الترقى فى العلم إلى مقام الأكابر ضرورة بخلاف من قلت أصحابه ووظائفه فإنه ربما ترقى إلى الافتاء والتدريس ، وشرح كتب العلم كما هو مشاهد فى بعض طلبة العلم الآن .

ومن هنا فاق شيخنا الشيخ شهاب الدين الرملى[2] أقرانه لكونه أقبل على العلم ، ولم يشتغل بالتردد إلى أحد من الأكابر رضى الله عنه فما مات حتى انتهت إليه الرياسة فى مذهب الإمام الشافعى ، وغالب طلبة العلم فى مصر الآن إما طلبته أو طلبة ، طلبته . فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين .

يلهيه عن الوصول إلى الله فإن الإغراء الدنيوى له وهو ما زال فى أول الطريق ربما أخذه فى طريقه فلا يعود لعلم ينتفع به ولا ذكر يقربه من الله .

(١) سورة المائدة آية : ١١٦

(٢) هو العالم الكبير الشيخ شهاب الدين الرملى الشافعى الأنصارى رضى الله عنه .

يقول عنه الإمام الشعرانى : كان رضى الله عنه ورعا زاهدا عالما صالحا حسن الإعتقاد الخلق ، لاسيما طائفة الصوفية ، يجيب عن أقوالهم بأحسن الأجوبة ، انتهت إليه الرياسة فى العلوم الشرعية ، وعاش حتى صار علماء الشافعية بمصر كلهم تلامذته ، فلا يوجد الآن عالم شافعى إلا وهو من طلبته أو من طلبة طلبته ، وأرسلت إليه الأسئلة من الأقطار ، ووقف الناس عند قوله أكثر ممن أدركناهم من أشياخه ، وكان يخدم نفسه ، وكان جميع علماء مصر يعظمونه ويجلونه .

مات رضى الله عنه فى مستهل جمادى الآخرة سنة سبع وخمسين وتسعمائة .

ومن أخلاقهم حرصهم فى جميع مشاهدهم فى أعمالهم وأحوالهم على أن يكون دائرة مع الحق لا مع حظ النفس

فلا يتحركون ولا يسكنون إلا فيما يعلمون ويشهدون رضى الحق تعالى فيه . فصورتهم صورة من يسعى فى حظ نفسه ولكن القصد مختلف .

مثال ذلك : أن يظهروا التشويش ، ممن أخل بواجب حقهم من زيارة أو عيادة أو خدمة أو منعهم مما طلبوه منه ، ونحو ذلك ، فيتشوشون عليه من حيث تفويته على نفسه ذلك الخير مع قطع نظرهم عن عود مصلحة ذلك الأمر عليهم .

ثم إذا بلغ أحدهم مقام الكمال فله إظهار التشويش لحظ نفسه أيضاً من حيث كونه أميناً عليها ، ويجب عليه الذب عنها وعن ما يضرها ، فهو يرى نفسه كالأجنبية عنه وهو عنها بمعزل من باب التجريد المذكور فى المعانى والبيان .

ثم إن أصل شهود العبد الإخلال بواجب حقه كونه يعامل الخلق ولو أنه كان عامل الحق جل وعلا فى إحسانه إلى خلقه لم يطلب منهم مكافيا ، ولم ير أحد منهم أخل بواجب حقه أبداً .

ثم إذا ارتقى الكامل إلى مقام الكمال الحقيقى ، صار يرى الفضل لله تعالى عليه فى كل عبادة عملها ، لا يطلب منه جزاء عليها فى الدارين فضلا عن أن يطلبه من الخلق ، فهو ولو أعطاه الحق تعالى الثواب يرى ذلك الثواب ملكا لله تعالى لم يخرج عن ملكه بإعطائه لعبده .

ومن هنا خلص الفقراء من رق طلب الأجور على شىء من عباداتهم ، لشهودهم أنه لا يخرج شىء عن ملك الحق تعالى فى الدارين ، فهم يأكلون ويلبسون ويسكنون فى دار سيدهم فى الدنيا والآخرة ، ويرون ذلك كله عارية عندهم .

ولولا أن الله تعالى أوجب عليهم الشكر بنسبة المعطى لهم ـ اسم مفعول ـ ما تعقلوا

أن ينتقل[١] أن الله تعالى أعطاهم قط شيئاً لأن حقيقة العطا أن ينتقل من ملك المعطِي اسم فاعل — إلى ملك المعطى — اسم مفعول — وهذا محال أن يصح لعبده ، فهم يشكرون الله تعالى على نسبة المعطي لهم لا على ، أنهم يملكون ما أعطاه لهم[٢] كما سيأتى بسطه فى مواضع من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

فاعرض يا أخى ما ذكرته لك فى هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

---

(١) يقصد بذلك ما تعقلوا أن الله تعالى أعطاهم شيئاً أى لا ينظرون لها على أنها ملك لهم بل هى عارية أو دين مستحق .

(٢) أى نسبة الشىء المعطى لهم إليهم مع أنهم لا يملكون المعطى لهم فهم مستخلفين فيه فقط ، وهذا من القمم فى الزهد عند الصوفية .

ومن أخلاقهم كثرة توبتهم من علومهم وأعمالهم التي دخلها الرياء والنفاق

ويرونها من جملة المعاصي لا الطاعات ، إذ لا يسمى طاعة إلا ما كان صاحبه مخلصاً فيه ، ولذلك وردت الأحاديث بعقوبة من لم يخلص في علمه وعمله .

وقد كان رسول الله ﷺ يستغفر الله تعالى ثلاثاً كلما سلم من صلاته تشريعاً لأمته ، وتنبيهاً لهم على شهود النقص فيها ، وأنها أن لم يحصل فيها اخلاص وخشوع فهي إلى الأثم أقرب[1] .

وقد أرمى الإمام مالك كتاب الموطأ في الماء لما اتهم نفسه في الاخلاص ، وقال : أن ابتل فلا حاجة لنا به فلم يبله الماء فأبقاه .

وكذلك وقع للحكيم الترمذي رضي الله عنه أنه أرمى عدة كتب له في المـــاء فلم تبتل فأبقاها .

وأوصى الإمام النووي[2] بغسل كتاب الروضة وقال : إن في قلبي منهـا شيء فلم يفعلوا .

وهذا أمر لا يقدر على التخلق به إلا من خرق ببصره إلى الدار الآخرة وعرف ما يصح قبوله من الأعمال وما لا يصح .

---

(١) عن ثوبان رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا ثلاثا ثم قال : اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام ، رواه مسلم والإمام أحمد وأصحاب السنن الأربعة .

(٢) هو الإمام محي الدين بن شرف النووي : عالم الحديث المشهور وله تآليف كثيرة في الفقه والحديث والتصوف ومن أشهر كتبه : شرح صحيح مسلم ـ رياض الصالحين ـ الأذكار ـ بستان العارفين .

وقد سألت شيخنا شيخ الإسلام زكريا عن المراد بقول النووى : فى قلبي منها شيء ما هو الشيء ؟ فقال : لعله انفراده فيها بكثرة الترجيحات والاختيارات[١] فأحب أن لا ينفرد بحكم عن العلماء فيكون المعول عليه فى الآخرة ، أو قال ذلك : اتهاماً لنفسه فى الاخلاص ، وإلا فاعتقادنا أن مثله لا يخرج عن الإخلاص فى شيء من أعماله . انتهى . فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين .

---

(١) أى يرجح قول على قول أو سند على سند ويختار بعضها مما يقوى فى نظره على البعض الآخر فأحب ألا ينفرد بأحد هذه الترجيحات والاختيارات دون أخذ من العلماء فيتبعه المسلمون فى ذلك فيكون مسئولا عنه أمام الله .

ومن أخلاقهم كثرة زهدهم فى المطاعم والملابس والمناكح والمراكب والمساكن ونحو ذلك مع ملابستهم لها

فيأكلون ويلبسون وينكحون فيركبون الخيول المسومة ويسكنون القاعات المرخمة ، وهم مع ذلك زاهدون فيما خولهم الله فيه من النعم .

فليس الزهد بخلو اليد كما يفهمه بعضهم ، وإنما الزهد بالقلب فافهم ، إذ لو كان المراد بالزهد خلو اليد من الدنيا لنهى الشارع عن التجارة ، وعن عمل الحرف ، ولم يكل بأمر أحداً بها ولا قائل بذلك ، وإنما درج جمهور الصحابة والتابعين على خلو اليد من الدنيا ليقتدى بهم المحجوبون عن مشاهدة الأكابر .

فلذلك أظهروا لهم الزهد فى الدنيا بخلو اليد ونهوهم عن التبسط فى الدنيا خوفاً عليهم أن يدخلوا فى محبتها ، فلا يهتدوا بعد ذلك للخروج عن حبها والمزاحمة عليها ، فإن الكمل لا يشغلهم عن الله تعالى شىء فى الكونين ، بخلاف القاصرين الذين هم أكثر الناس[1] .

وممن أدركناه على قدم الزهد فى الدنيا بالقلب دون اليد شيخنا شيخ الإسلام زكريا

---

(١) والإمام أبو الحسن الشاذلى يقول : « اللهم اجعلها فى أيدينا ولا تجعلها فى قلوبنا » يقصد الدنيا .

وكان يلبس الملابس الغالية فقال له فقير عليه لباس من شعر : ياسيدى ما عبد الله بمثل هذا اللباس الذى عليك .

فأمسك الشيخ ملبسه فوجد فيه خشونة فقال :

ولا عبد الله بمثل هذا اللباس الذى عليك ، لباسى يقول : أنا غنى عنكم فلا تعطونى ، ولباسك يقول : أنا فقير إليكم فاعطونى .

وشيخ الإسلام برهان الدين بن أبي شريف[1] ، وشيخ الإسلام نور الدين الطرابلسي[2] ، والشيخ كمال الدين الطويل ، والشيخ نور الدين المحلي[3] ، والشيخ برهان الدين القلقشندي[4] ، والشيخ أبو الشمر بن سيدى مدين ، وسيدى على المرصفى ، والشيخ

---

(١) هو شيخ الإسلام برهان الدين بن أبي شريف الشافعي : كان شيخا عالما ورعا زاهدا متمسكنا في علوم الظاهر والباطن .

يقول عنه الإمام الشعراني : كان من المقبلين على الله عز وجل ليلا ونهارا ، لا تكاد تسمع منه كلمة واحدة يكتبها عليه كاتب الشمال ، وكان لا يتردد إلى أحد من الولاة أبدا .

وكان الإنسان إذا عرض عليه بعض محفوظاته يتلجلج من شدة هيبته ، فيباسط الصغير حتى يهدأ روعه .

وكانت له صبانة في القدس يعمل فيها الصابون ، ويتقوت منها ، ، وكان لا يأكل من معاليم مشيخة الإسلام شيئا ، وكان قوالا الحق أمارا بالمعروف ، لا يخاف في الله لومة لائم .

توفى سنة نيف وعشرين وتسعمائة رضى الله عنه .

(٢) يقول عنه الإمام الشعراني : ومنهم شيخ الإسلام المجمع على صلاحه وعلمه وزهده وصيامه وضبط لسانه الشيخ نور الدين الطرابلسي .

وكان رضى الله عنه متواضعا حسن الظن بالمسلمين ، وكان يؤذن في شباك زاويته عند كل وقت من الخمس بصوت حسن وخشوع وتدبر أيام ولايته إلى أن مات . وكان لا يا كل قط من معلوم محكمته شيئا مع أنه ولى كرها ، وكان كثير الصدقة سرا وجهرا .

ولما عزله بعض قضاة العساكر لم يزل ملازما بيته على النسك والعبادة والإفتـــاء ، والتدريس إلى أن مات .

(٣) يقول عنه الإمام الشعراني : ومنهم الشيخ العالم العلامة محقق الديار المصرية الشيخ نور الدين المحلى الشافعي رضى الله تعالى عنه ، كان كالجبل الراسى في كمال العقل والهيبة والوقار ، غزير الدمعة إذا ذكرت أحوال السلف ، وكان مشهوراً في مصر بحل مشكلات العبادات في الأصول والفقه والمعاني والبيان وغير ذلك ، وتفقه عليه خلائق لا يحصون

(٤) يقول الإمام الشعراني : ومنهم شيخنا شيخ الإسلام برهان الدين القلقشندي رضى الله تعالى عنه ، كان عالما صالحا زاهدا ورعا ، قليل اللهو والمزاح ، مقبلا على أعمـال الآخرة ؛ حتى أنه ربما يمكث اليومين والثلاثة لا يأكل . انتهت الرئاسة إليه في علوم السنة والكتب الستة والمسانيد والأجزاء .

أبو الحسن البكرى[1] ، والشيخ أبو الفضل شيخ بنت[2] بنى الوفا رضى الله عنهم .

ومن أدركناه متجرداً عن الدنيا ظاهراً وباطناً ، فى مأكله وملبسه ومنكحه ومسكنه الشيخ عبد القادر الدشطوطى ، والشيخ محمد المنير ، والشيخ محمد العدل ، والشيخ محمد بن داود ، والشيخ أبو بكر الحديدى ، والشيخ محمد السروى ، والشيخ عبدالحليم ابن مصلح ، والشيخ على النبتيتى الضرير ، والشيخ على البحيرى ، والشيخ محمد بن عنان ، والشيخ أبو العباس الغمرى ، والشيخ يوسف الحريثى[3] ، والشيخ أبو الحسن الغمرى[4] ، والشيخ أمين الدين الأمام بجامعه ، وجماعة ذكرناهم فى كتاب الطبقات ، فمنهم جمالى ، ومنهم جلالى .

وقد يتفرع من الولى شخصان إحدهما مخالف لحال شيخه كسيدى أحمد الزاهد ، فإنه خلف بعده سيدى مدين وسيدى محمد الغمرى فجاء الغمرى متجرداً من ملابس الدنيا ومطاعمها ومساكنها كشيخه الزاهد ، وجاء سيدى مدين على صورة الشيخ عبدالقادر الجيلى

---

(١) يقول عنه الإمام الشعرانى : ومنهم الشيخ الصوفى المحدث ، نادرة الزمان الشيخ أبو الحسن البكرى رضى الله عنه ، أخذ العلوم عن جماعة من مشايخ الإسلام ، والتصوف عن الشيخ رضى الدين الغزى ، وتبحر فى علوم الشريعة من تفسير وحديث وغير ذلك .

وكان رضى الله تعالى عنه إذا تكلم فى علم منها كأنه بحر زاخر ، لا يكاد السامع يحصل من كلامه على شىء ينقله عنه إلا إن كتبه فى قرطاس ، وأخبرنى بلفظه ونحن بالمطاف أنه بلغ درجة الإجتهاد المطلق ؛ وقال : أنا أكتم ذلك عن الأقران خوفا من الفتنة ، وسبب ذلك ما وقع للجلال السيوطى رحمه الله تعالى ، هذا لفظه .

مات رضى الله عنه سنة نيف وخمسين وتسعمائة .

(٢) قد تكون شيخ بيت بنى الوفا رضى الله عنهم .

(٣) هو الشيخ يوسف الحريثى رضى الله عنه : كان مجداً فى اتباع السنة وقيام الليل وتلاوة القرآن وكان يخفى هذه العبادات جهده .

توفى رضى الله عنه سنة أربع وعشرين وتسعمائة .

(٤) هو الشيخ أبو الحسن الغمرى رضى الله عنه كان على جانب عظيم من الصفاء والصلاح توفى سنة تسع وثلاثين وتسعمائة .

ونحوه ، كالسادات من بنى الوفا ، والشيخ شمس الدين الحنفى الشاذلى[1] ، فسلم يا أخى لكل من تراه متجملا بالثياب مثلا من الفقراء ، إلا إن خفت على أتباعه أن يتبعوه مع الجهل بمشهده ، وحينئذ فلك أن تنهاه عن ذلك خوفاً على تلامذته ، أو تأمره أن يقول لهم : لا تقتدوا بى فى حسن الملابس والمناكح والمراكب ، فانكم لا تبلغون حالى ، هذا أن وجد ذلك من مال حلال وإلا فالانكار على ذلك الشيخ واجب .

فاعرض يا أخى ما قررته لك على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم ، والحمد لله رب العالمين[2] .

---

(١) هو الإمام الكبير شمس الدين الحنفى ، يقول عنه الإمام الشعرانى : كان رضى الله عنه من أجلاء مشايخ مصر ، وسادات العارفين صاحب الكرامات الظاهرة والأفعال الفاخرة ، والأحوال الخارقة والمقامات السنية والهمم العلية صاحب الفتح المؤنق والكشف المخرق والتصدر فى مواطن القدس ، والرقى فى معارج المعارف ، والتعالى فى مراقى الحقائق ، كان له الباع الطويل فى التصريف النافذ ، واليد البيضاء فى أحكام الولاية والقدم الراسخ فى درجات النهاية والطود السامى فى الثبات والتمكين .

وهو أحد من ملك أسراره وقهر أحواله وغلب على أمره .

وهوأحد أركان هذه الطريق وصدور أوتادها وأكابر أئمتها وأعيان علمائها علما وعملا وحالا وقالا وزهدا وتحقيقا ومهابة ، وهو أحد من أظهر الله تعالى إلى الوجود وصرفه فى الكون ومكنه فى الأحوال وأنطقه بالمغيبات ، وخرق له العوائد وقلب له الأعيان وأظهر على يديه العجائب ، وأجرى على لسانه الفوائد ، ونصبه قدوة للطالبين حتى تلمذ له جماعة من أهل الطريق وانتمى إليه خلق من الصلحاء والأولياء واعترفوا بفضله وأقروا بمكانته وقصد بالزيارات من سائر الأقطار .

توفى سنة سبع وأربعين وثمانمائة .

(٢) ويوضح حديث الإمام الشعرانى أكثر ما يرويه بن عطاء الله السكندرى فى لطائف المنن يقول : وفى يوم من الأيام دخل أبو العباس المرسى على الشيخ أبى الحسن ، وفى نفسه أن يأكل الخشن ، وأن يلبس الخشن ، فقال له الشيخ : يا أبا العباس : اعرف الله وكن كيف شئت .

. . . . . .

= ويقول ابن عطاء الله : « وأما اللباس اللين ، وأ كل الطعام الشهى ، وشرب الماء البارد : فليس القصد إليه بالذى يوجب العتب من الله ، إذا كان معه الشكر لله » .

ويقول أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : « يا بنى برد الماء ، فإنك إذ شربت الماء السخن فقلت : الحمد لله ، تقولها بكزازة : وإذا شربت الماء البارد ، فقلت الحمد لله استجاب كل عضو منك بالحمد لله » .

ويقول الأستاذ على سالم عمار : « كان الشاذلى يلبس الفاخر من الثياب ، ويركب الفاره من الدواب ، ويتخذ الخيل الجياد » .

من وزير وقاضي وباشاه وكاشف وشيخ عرب ونحوهم ، وعدم سبهم إلا بطريق شرعي .

إذ الدعاء للسلطان ونوابه إنما هو دعاء في الحقيقة لعامة المسلمين .

وقد كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول : لو أن لي دعوة مجابة لما جعلتها إلا للامام العادل ، لأني لو جعلتها لنفسي لكان نفعها لا يتجاوزني إلى غيري ، بخلاف السلطان الذي به صلاح العباد والبلاد .

وكان يقول : النظر إلى وجه العالم أو الإمام العادل عبادة .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : لولا السلطان ما صلح الناس .

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله عنه يقول : من أدبنا مع السلطان إذا رأينا ظلماً وقع من جنده مثلا ، أن نحمله على عدم علمه بذلك ولا يكلف الله تعالى عبداً بشيء لم يعلمه .

هذا ما علينا من حقه ، وإن كان يجب عليه هو أن يبحث عن أحوال رعيته ليلاً ونهاراً .

وكان يقول أيضاً : أدبنا مع السلطان إنما هو في الحقيقة أدب مع الله الذي ولاه .

وروى البخاري مرفوعاً : « السلطان ظل الله ورمحه في الأرض يأوي إليه الضعيف وبه ينتصر المظلوم[1] » انتهى .

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول : إياكم أن تسبوا السلطان وتنسوا اعوجاجكم في الأعمال ، والأقوال ، من زناً ، ولواط ، وشرب خمر ، وتعاون في الناس عند الظلمة ،

---

(١) حديث السلطان ظل الله . . الخ ، له شواهد عند البيهقي وابن ماجه والبزار والحكيم الترمذي والطبراني .

وغيبتكم للعلماء والصالحين وعامة المسلمين فإن ذلك لايزيدكم إلا ظلماً وجوراً عقوبة لكم فاستقيموا فى أعمالكم يستقم لكم عمالكم ، ويرفع الله عنكم هذا الذى يسمونه ظلماً .

قال : ولا يحصل لكم الاستقامة إلا إذا تبتم من ساير الأعمال ، التى تغضب الله تعالى ، وتبرز من جوارحكم الظاهرة والباطنة ، وما دام لكم سريرة قبيحة تفتضحون بها لوظهرت للناس فأنتم مستحقون لجور الحكام عليكم انتهى .

وكان يقول : جوارحكم رعيتكم وقد ظلمتموها بالمعاصى فلم لاتدعون على أنفسكم وتسبونها ، كما تسبون الظلمة ، وكل حديث ورد فى ذم الظلم والجور فالعبد داخل فيه إذا وقع فى ذنب واحد طول عمره ، وفى الحديث الصحيح : (كلكم راع ومسئول عن رعيته [1]) فمن غش جارحة من جوارحه بوقوعها فى معصية لم يرح رائحة الجنة كما لايجدها من غش رعيته من الملوك .

فاعرض ياأخى ماقررته على نفسك وأقرانك تعرف حالك رحالهم والحمد لله رب العالمين .

---

(١) حديث : « كلكم راع ومسئول عن رعيته » أخرجه البخارى ومسلم عن عبدالله ابن عمر رضى الله عنه وتمامه : « الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته » .

ومن أخلاقهم : العمل على تحصيل المقامات الشريفة

بحيث يصير أحدهم يشرف البقاع التى يدخلها ولا يتشرف هو بالبقاع ، فإن الإنسان الكامل أفضل من بقعة الكعبة فضلا عن غيرها ، ماعدا البقعة التى ضمت جسمه ﷺ فلا يدخل الولى بقعة من مسجد أو بستان مباح أودار إلا وتناديه بقاع ذلك المكان كلها : بالله عليك صل فى ركعتين أو اجلس فى ساعة . وتناديه الاشجار : بالله عليك أكرمنا بالأكل منا ، وهذا أمر مطروق بين الفقراء الصادقين وقد ورد مايؤيد ذلك فى الأحاديث وهو أن البقاع تتفاخر على بعضها بعضاً وتقول : هل مر بك اليوم ذاكر لله عز وجل كما مر فى الحديث .

وكان سيدى إبراهيم المتبولى رحمه الله يقول : مادخلت قط بستاناً مباحاً للفقراء ، إلا وتناديني أشجاره ، ومافيه من الحشيش وتخبرنى ، بما أودع الله تعالى فيها من المنافع والمضار .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول : ليس الرجل من يتشرف بطوافه بالكعبة وتقبيلها ، وإنما الرجل من تتشرف به الكعبة .

فقلت له : كيف ذلك ؟

فقال : لأن الله تعالى ماأمر عباده بالطواف بها وتقبيل أحجارها إلا امتحانا لهم لينظر كيف يفعلون هل يقفون مع كمالهم الذى خلقهم الله تعالى عليه من الصورة الآدمية فلا يجيبون الحق تعالى إلى مادعاهم إليه كما وقع لابليس فى قصة سجوده لآدم أم يمتثلون أمره تعالى ؟ ولذلك قال السيد عمر بن الخطاب لما قبل الحجر الاسود : أما أنى اعلم أنك حجر لاتضر ولاتنفع ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك . ونظير ذلك أمر الحق جل وتعالى الملائكة بالسجود لآدم عليه الصلاة والسلام ، ولعنه من لم يسجد وقال : أنا خير منه فإن ذلك انما كان جبراً لما أحدث الدعوى من كمال الملائكة حين ذكرت نفسها وجرحت صفوة الله من الخلق .

ومن هنا قال الشيخ أبو مدين رضى الله عنه : كان الأمر بسجود الملائكة لآدم عن اغضاب خفى لايشعر به كل أحد فكان كالكفارة لما وقعوا فيه من تزكية نفوسهم وتجريحهم لآدم .

وقد سمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : لوان الملائكة زكت أنفسها فقط ولم تتعرض لتجريح آدم لما عوقبت بالسجود لغير الله بارادة الله انتهى .

ومن هذا الباب أيضاً أمر الحق لنا بالطواف بالكعبة ولم يخص بذلك أحداً دون أحد بل أمر تعالى بذلك نبيه تشريعاً لأمته وأنشدوا فى ذلك :

لقد طاف خير الخلق بالكعبة التى يقول دليل العقل فيها بنقصان
وقبل أحجاراً لها وهو طائف وأين مقام البيت من قدر انسان

فما قصد ﷺ بالطواف بالكعبة ، إلا طاعة ربه وفتح باب هضم النفس للمتكبرين من أمته فإذا أمرهم السيد أن يقبلوا نعل أحد من خدامهم بادروا إلى امتثال امره بانشراح صدر .

وعلم مما قررناه : انه لا ينبغى المبادرة إلى الانكار على فقير رأيناه يصلى فى النصف الآخر دون الأول ، أو يأكل من شجرة أخرى دون التى قال له صاحب البستان كل من هذه ، فربما كانت تلك البقعة أو الشجرة المباحة أقسمت على ذلك الفقير بأن يصلى فيها أو يجلس أو يأكل منها فلايسعه إلا أن يبر قسمها (١) .

---

(١) ويؤيد ذلك ما ورد فى كتب السيرة من الروايات عن حنين الجذع الذى كان يخطب عليه سيدنا رسول الله ﷺ وأيضاً تسليم الحجر والشجر عليه حق بالنسبة للنهى عن إتيان أمر معين ، أخرج ابن سعد وأبو نعيم وابن عساكر من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : حدثتنى أم أيمن قالت :

كان بوانة صنما تحضره قريش يوما فى السنة ، وكان أبو طالب يحضره مع قومه ، وكان يكلم رسول الله ﷺ أن يحضر ذلك العيد مع قومه فيأبى . حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ، ورأيت عماته عضبن عليه يومئذ أشد الغضب ، وجعلن يقلن : إنا نخاف عليك مما تصنع من إجتناب آلهتنا وجعلن يقلن : يامحمد ما تريد أن تحضر لقومك عيداً ولا تكثر

وقد دخلت مرةمدرسة المزهرية بسويقة اللبن بمصر المحروسةلأصلي بها الظهر فنادتني بقاعها في سري ، كما ينادي الكريم ضيفه ليأكل من طعامه ، ومارأيت أكرم نفساً ، وماأطيب قلباً من البقعة التي على يمين الداخل من الباب الكبير منها وهي السدلة الصغيرة المطلة على الشارع ، فما قدرت أتخلص منها للصف الأول ، ولكن بحمد الله جاء الإمام إليها فصلي بنا فيها ، وترك المحراب لمكان صدق تلك البقعة في العزومة ، فصرت أنا في الصف الأول ولم يفتني الوقوف فيه ، وهذه الأمور لايدركها إلامن كشف الله تعالى حجابه ، ورأى حياة جميع الموجودات وهو مقام يصله السالك أوائل دخوله في الطريق ، فيصير يعامل الجماد معاملة ذي الروح ، ويسمع انين الابريق مثلا إذاصدم الحائط .

وذكر الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله عنه : ان شخصاً عزم على بعض الفقراء في وليمه . بمصر العتيق ، فأسقاهم في إناء من زجاج ثم بعدمدة احتاج إلى البول فيه فناداه الإناء بلسان فصيح : بالله عليك لاتنجسني بالبول بعد أن أكرمني الله تعالى بشرب الفقراء مني لما دعوتهم في وليمتك . قال : فاستحى الرجل وترك البول فيه انتهى .

وكذلك بلغنا عن الشيخ أبي العباس الحرار المدفون بقرافة مصر رضي الله عنه انه كان في تربة فأخذ حجراً يريد الاستنجاء به فناداه : بالله عليك لاتنجسني ثم أخذ حجراً آخر فقال له : كذلك ، ثم أخذ الثالث فقال له كذلك ، فتحير فقيل له : استأذن الشارع واستعمله وقدم امر ربك على غرض الحجر ، ففعل . فاعمل يا أخي على رقة الحجاب حتى تصل إلى هذا المقام .

واعرض على نفسك واقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

لهم جمعا ؟ ولم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله ثم رجع إلينا مرعوبا فزعا فقلن عماته ما دهاك ؟

قال : إني أخشى أن يكون بي ألم ؟

فقلن : ما كان الله يبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير مافيك ؟ فما الذي رأيت ؟

قال : إني كلما دنوت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض طويل يصيح بي : وراءك يامحمد لا تمسه ، قالت : فما عاد إلى عيد لهم حتى نبيء .

ومن أخلاقهم : مراعاة خاطر شيخهم

وإيثار مراعاته على أعز أصحابهم ، وذلك ليترقى أحدهم فى المقامات على يد شيخه ، حتى يتأهل لمعاملة ربه عز وجل بلا واسطة ، فإن الشيخ سلم للرقى فمن لم يصح له قدم فى الأدب مع شيخه فلا يصح له ترق إلى الأدب مع الله عز وجل (١) .

وهذا الخلق ربما يدعيه بعض المريدين وهو كاذب فيه ، من حيث لا يشعر ، فليمتحن نفسه بما لو منعه شيخه وظيفة أو خلوة أو مسكناً كان بالاشواق إلى وصوله إليه ، وأعطاه لشخص من اعداء ذلك المريد ، فإن انشرح لذلك ورضى به من غير حزازة فى نفسه ، فهو صادق وإلا فهو كاذب ، إذ لو كان صادقاً لقدم مرضاة شيخه ، وترقى من ذلك إلى تقديم مرضاة ربه على مرضاة خلقه .

وكذلك يمتحن نفسه بغضب شيخه على شخص من قرابته هو ، أو من أصدقائه ممن ينصره ويخاصم معه الاعداء ، ويجيب عنه إذا تكلم أحد فى عرضه من ورائه ، فإن رأى نفسه صارت تكره ذلك القريب أو ذلك الصديق ظاهراً وباطناً ، لأجل عرض شيخه فهو صادق ، وإلا فهو كاذب وسيأتى أنه ورد فى الحديث : أن شخصاً يؤتى به يوم القيامة ومعه أعمال كالجبال فيؤمر به إلى النار ، فتقول الملائكة : يا ربنا قد كان من عمله كذا وكذا من صلاة وصيام وحج وصدقة ، وغير ذلك فيقول الله تعالى قد كان من عمله ذلك ، ولكنه كان لا يوالى من والانى ، ولا يعادى من عادانى انتهى .

وكذلك سيأتى أن شخصاً من علماء بنى إسرائيل كان يعظ الناس فبينما المجلس غاص بأهله ، إذ غمز ولده امرأة أجنبية فالتفت الواعظ إليه ، وقال : مهلا يا ولدى ما هكذا الأدب ، فأرسل الله تعالى ملكاً فحمل الكرسى بالواعظ وقلبه ، فقطع وجه الواعظ ،

---

(١) إقتداءاً فى ذلك بفعل الصحابة مع رسول الله ﷺ وفعل التابعين مع آل البيت رضوان الله عليهم ، وعلى كل فليس للمريد سبب إلى الطريق الصوفى إلا بواسطة شيخه .

وأوحى إلى نبي ذلك الزمان : أما كان من غيرة فلان لى أن يقول : مهلا يا ولدى من غير إظهار غضب عليه انتهى .

أى فلو أن الواعظ كان عنده غيرة للحق لضرب وجه ولده بالفعل حتى قطعه كما فعل الملك حين القاه بالكرسى .

فاعلم ذلك واعمل به ان أردت الترقى فى المقامات إلى حضرة الله والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كثرة محبتهم للأعمال الصالحة ومحبتهم لأن يضاف إلى غيرهم عكس المرائيين

فإذا ألف أحدهم كتاباً وفتح الله تعالى عليه فيه بعلوم ومعارف أضافها لغيره ممن هو أهل لذلك[١] .

وإذ أخذ أحد منهم صدقة ليفرقها على الفقراء والمساكين خلط عليها من ماله ما وجد بحيث لا يشعر به أحد[٢] .

وإذا عمر ضريح شخص من الصالحين بعده ونوره ، ومدحه الناس على ذلك ، حتى وصل الأمر إلى الباشاه مثلا ، يود أنه لو كان نسب إلى غيره من أقرانه .

وإذا سمع الناس يقولون عنه : أنه ما عمر هذا الضريح إلا ليقال عنه : أنه من الصالحين ، وأنه من الخرقة ولم يعمره لله تعالى يفرح بذلك .

وقد جاء فقير يعمر سيدي خضر الكردى شيخ الملك الظاهر أبا الفتوحات بعدد نوره نحو ثلاثين سنة ، فاشتهر فى مصر أن فلاناً عمر ضريح فلان ، فجاء فقير آخر ليساعد ذلك الفقير فى العمارة ، فبلغ الباشاه أن ما عمر ضريح الشيخ الفلانى إلا ذلك الفقير الثانى فقصد الباشاه زيارة ضريح ذلك الشيخ ، وشكر الفقير الثانى دون الأول ، فلا تسأل

---

(١) وكذلك كان يفعل الإمام أبى العباس المرسى مع شيخه أبى الحسن الشاذلى وكذلك الإمام ابن عطاء الله السكندرى مع أستاذه أبى العباس المرسى وعلى ذلك درج أغلب الأولياء وعلماء الصوفية .

(٢) كانت السيدة عائشة رضوان الله عليها تطيب الدراهم التى تتصدق بها ثم تبعثها مع خادمها إلى الفقراء ، وعندما يعود الخادم تسأله ماذا قال لك ، فيقول الخادم مثلا إنه دعا بدعوات ، فكانت تدعو هى للفقير حتى لا تكون هذه الدعوات فى مقابل الصدقة ، فإنها ما أرسلت هذه الصدقة إلا لله تعالى دون انتظار مكافأة عليها من الفقير ، وكذلك كان يفعل غيرها من الصحابة وقارن بين ذلك وبين موقف من يتصدق ليرائى .

يا أخى ما وقع من الفقير الأول فى حق الثانى . فليحذر الفقير من مثل ذلك ويحرر نيته الصالحة فى كل عمل يمدح عليه وينتشر عنه فى البلد .

وسمعت سيدى علياً الخواص رحمه الله يقول : ما دثر[١] ضريح ولى قط وخرب وبطل مولده إلا باختياره للخفا على الظهور ، فليتنبه الفقير الذى يعمره لمثـل ذلك ، وينظر من طريق كشفه فإن رأى خاطره يحب الظهور عمره ، وإلا تركه داثراً لا يزوره أحد تقديماً لمرضاة ذلك الشيخ على مرضاته هو .

وربما كانت العمارة من مال حرام ، أو شبهة ، أو من أهوية النفس ، فيؤذى نفسه من وجهين : وجه مخالفة غرض ذلك الولى ووجه مشيه هو فى هوى نفسه .

وقد كان شيخى الشيخ أحمد البهلول[٢] يحب الخفا حتى أنه أوصى بأنه لا يجعل على قبره علامة وقال : ادفنونى خارج باب القرافة فى الفسحة التى على يسار الخارج من الرميله لباب القرافة فى حارة عرب اليسار .

فقلت له : أن النبى ﷺ أمر بجعل العلامة على رأس القبر وقال : أتعلم بها قبر أخى (يعنى عثمان بن مظعون) وادفن إليه من مات من أهلى .

فقال : إنى ما كرهت الظهور إلا من جهة دق الناس تابوت ذلك الفقير الذى يرون عليه ستراً وتحميله حملاتهم .

ولم يكن هذا المعنى فى عصر رسول الله ﷺ ، ولا عصر الصحابة لقوة الإيمان فى

---

(١) يقصد ما اندثر ضريح .

(٢) كان رضى الله عنه يقول : لاتدفنونى إلا خارج باب القرافة فى الشارع ولا تجعلوا لقبرى شاهداً ودعوا البهائم والبغال تمشى على واحذروا أن تجعلوا على قبرى تابوتاً أو ستراً يبقى كل من مر علي يدق تابوتى يمنعنى أن أستريح فى القبر ، فقالوا له : قد عملنا لك قبراً فى جامع بطيخة ، فقال : إن قدرتم أن تحملونى ففعلوا فعجزوا أن يحركوا النعش إلى ناحية الجامع فلما حملوه جهة القرافة خف عليهم رضى الله عنه .

مات سنة ثمان وعشرين وتسعمائة رضى الله عنه .

ذلك الزمان ، وأما الآن فقد أفلس غالبهم من كمال الإيمان ، وكثرت معاصيهم ، فألقوا حلاهم[1] على كل من ظنوا فيه الصلاح ، فربما دقوا تابوت أحـــد فى قضاء حاجة فقضيت موافقة قدر أو دقوه على عزل ظالم ، فعزل أو مات .

فصار الناس يقولون : الشيخ الفلانى سره ظاهره ، فيكثروا من دق تابوته ، فلا يتركونه يتهنى فى قبره فاعلم ذلك .

وأعرض هذا الخلق وما قبله على نفسك واقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

(١) يقصد بذلك ذهاب الناس إلى الأضرحة وتوسلهم إلى الله بالولى الذى فيه .

ومن أخلاقهم عدم الثقة بأصدقائهم فى كل زمان

فكيف بمن يصحبهم على نفاق وملق فلا يظهرون سرهم لأحد إلا إن علموا من طريق كشفهم أن ذلك الصديق يكتم ما أودعوه عنده من السر بطريقه الشرعى شفقة عليه أن ينقص دينه بإنشائه .

وقد كان سفيان الثورى رضى الله عنه يقول : والله ما آمن على نفسى فى هذا الزمان إذا خالفت غرض أعز أصدقائى فكيف آمن غير الصديق ؟

وفى رواية أخرى : ما آمن صديقى على نفسى إذا خالفت أغراضه أن يسعى فى سفك دمى عند سلطان جائر فكيف آمن عدوى ؟ انتهى .

وهذا باب أغفله كثير من الناس فأفشوا أسرارهم إلى من ظنوا فيه الصداقة وفى لمح البصر صار عدواً وأذاهم كل الأذى . فيحتاج الفقير فى هذا الزمان إلى صبر شديد على كتمانه أسرار الله تعالى فى العالم كما أشار إليه الإمام زين العابدين بقوله :

يا رب جوهر علم لو ابوح به لقيل لى أنت ممن يعبد الوثنا
ولا ستحل رجال مسلمون دمى يرون أقبح ما يأتونه حسنا (انتهى)

وقد طلب الشيخ شمس الدين الابوصيرى أحد أصحاب سيدى أبو السعود الجارحى رحمه الله أن يطلعه الشيخ علي شيء من أسرار الطريق فقال له الشيخ أبو السعود والله ما آمنك على إخراج ريح بحضرتك فكيف أطلعك على الأسرار الآلهية[1] انتهى .

وكذلك بلغنا أن جماعة طلبوا من سيدى الشيخ أبى عبد الله القرشى أن يطلعهم على

---

(١) ولعل كثير من الإنكار الذى يجىء على الصوفية من جهة الفقهاء وغيرهم جاءهم من وضع أسرارهم فى أيدى الجاهلين بقيمتها فيبلغونها ويذيعونها إلى الناس محرفة ويعوزون أى تفسير لظروفها وزمانها ومكانها .

شيء من الأسرار فقال لهم : كم أصحابي اليوم ، فقالوا ستماية رجل فقال : اختاروا منهم مائة فاختاروا .

ثم قال : اختاروا من المائة عشرين فاختاروا .

ثم قال : اختاروا من العشرين أربعة فاختاروا .

فقال : لو تكلمت لكم بشيء من الأسرار لكان أول من يفتي يضرب عنقي هؤلاء الأربعة أي غيرة لظاهر الشريعة فاعلم ذلك يا أخي واعمل به والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم كثرة إمتحانهم لأصحابهم إلا لغرض شرعي خوفاً أن يفضحوهم وقد قيل لاسكندر رحمه الله : لم لا تمتحن أصحابك فقال : إذن نخرج كلنا نحاساً انتهى .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : إياكم وكثرة الامتحان لأصحابكم فإن الله تعالى لم يمتحن من عباده إلا النادر خوفاً أن يفضحهم بين يديه بإظهار ما كان كامناً عندهم .

قال : ومن تأمل نفسه بعين الانصاف وجد نفسه كلها عيوب ضم بعضها إلى بعض فصارت صورة تشبه صورة الآدمى ، فالعبد وإن كان خياراً من جهة ، فهو شر من جهات عديدة[1] .

وكان رضى الله عنه يقول لنا كثيراً : إن كان ولا بد لكم من امتحان أصحابكم فامتحنوا نفوسكم فى دعاويها الكاذبة ، فإن لكم فيه لشغلا وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام : يا داود إذا اطلعت على عيب أحد من بنى اسرائيل ، فاستح من اطلاعك ، فإنى أستحى من عبدى أن يشهدنى فى حال عصيانه لئلا يخجل منى ، فلذلك ضربت الحجاب بينى وبينه حال المعصية ، حتى يفرغ منها انتهى والحمد لله رب العالمين .

---

(١) يقصد بذلك عدم الإسراف فى امتحان المريدين وتصعيب الأمور عليهم سواء من ناحية الطريق الصوفى أو من ناحية التكاليف الشرعية أو خدمتهم للإخوان وأيضاً الصبر عليهم وخاصة فى أول طريقهم إلى الله تعالى .

ومن أخلاقهم عدم ظنهم فى أحد من المسلمين بسوء احق[1]

من قول أحدهم : إنما امتنعت من التقدم لصلاة الجنازة مراعاة لخاطر فلان خوفاً أن يتكدر فى نفسه فإنه جعله ممن يحب الرياسة فليمتنع أحدهم من التقدم أدباً مع أخيه لا لظنه فيه أنه يحب الرياسة .

وقد وقع لى أننى حضرت جنازة الشيخ محب الدين بن الدهانه الحنفى فى جامع الأزهر ، فكان هناك شخص من العلماء ، فوقف عند النعش لظنه أنهم لا يقدمون أحداً عليه .

فقال أولاد الشيخ : إنه أوصى بأنه لا يصلى عليه إلا عبد الوهاب[2] ، فكاد ذلك العالم أن يتميز من الغيظ حتى أدرك ذلك منه الحاضرون ، فكذبتهم صيانة الخرقة عن أن يكون أحد بها ، فإياك يا أخى وسوء الظن ، ثم إياك ، وكذب ظنك السوء فى الناس ما استطعت والحمد لله رب العالمين .

---

(١) ربما يقصد بسوء ماحق .

(٢) يقصد المؤلف نفسه ، أى عبد الوهاب الشعرانى .

ومن أخلاقهم عدم تمكينهم أحداً أن يقوم لهم أو يقبل يدهم فضلا عن رجلهم وكراهتهم لذلك لأن عيوبهم مشهودة لهم مع تجدد الساعات ، فإذا قبل أحد يدهم يكادون يذوبون من شدة الحياء من الله عز وجل .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يزجر من يريد تقبيل يده أشد الزجر ويقول : إنما يليق ذلك لأرباب المناصب أما الفقير ، فاللائق به الذل حتى يجاوز الصراط ، ويدخل الجنة هذا ماعليه جمهور العارفين ، وقد خالف قوم منهم أبو يزيد وكان لايمنع أحداً منهم من تقبيل يده ولا من التمسح بمرقعته ، ويقول : إنما يعظم هؤلاء خلعة ربى التى خلعها علي لاأنا انتهى .

وكان سيدى على بن وفا رحمه الله يقول : من صار فى رتبة الحجر الاسود فى كتمان أسرار العباد ، والصبر على تقبيله ومسحه بغير صدق مع علمه بذلك منهم ، ثم يكتمه عليهم فله أن يمكن الناس من تقبيل يده [١] ، والا فمنعهم من ذلك واجب لعدم أهليته لذلك والحمد لله رب العالمين .

---

(١) ولا يكون ذلك داخلا فى دائرة الكبر المنهى عنه فأن يكون الرجل بهذه الصفة فإنه يستحق ذلك ولعل الإمام الشعرانى يقصد الشخص المنافى لهذه الصفات ويقصد أيضاً تعليم المريدين شدة الحياء فى هذا الأمر وأن يتواضعوا لله عز وجل .

ومن أخلاقهم كثرة تنفيرهم للاخوان عن أن يرسلوا إليهم طعاماً أو هدية إلا بعد استيذانهم فى ذلك

فإنه ما كل طعام يصلح للفقرا أ كله ، لاسيما أواخر أعمارهم ولايقال ان ارسال الناس الطعام من حيث لايحتسب الإنسان ا كله أولى لأن ذلك محله ما إذا كان صاحبه متورعاً عن الحرام والشبهات بقرينة قواعد الشريعة فافهم ، اياك والمبادرة إلى الاعتراض على من يرد ماجاءه من غير سؤال .

وقد من الله تعالى على بالعمل بهذا الخلق ، حتى انى أتشوش ممن يرسل إلى هدية بغير اذنى ، ولولم تستشرف نفسى لذلك ، وأعلمت الاخوان أن فى أ كلى من طعامهم عدة مفاسد منها خراب قلبى إذا أ كلت طعامهم ، فلا يصح لى بعد ذلك توجه إلى الله تعالى فى قضاء حوايجهم إذ الغالب على كسبهم الغش والخوف والبيع على الظلمة من المكاسين وأ كلة الربا [1] ونحو ذلك ، وإذا أ كلت من طعامهم صرت فى ضعف التوجه إلى الله تعالى كأحدهم ، فطلبت لى أنا الآخر أحداً يتوجه إلى الله فى قضاء حاجتى ، إذ صدق التوجه إلى الله تعالى راجع إلى قوة الحال فى اللقمة والخلقة .

ومنها ان قبولى إحساناً من هداياهم يحدث عند أحدهم إدلالا على بعد ذلك ، فلا يصير يخاف من مخالفتى فيما أنصحه لأجله ، فيقل نفع الصحبة بينى وبينه [2] وغير ذلك مما ذكرناه فى المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

---

(١) يقصد أنهم فى تجارتهم أو تعاملهم ، يتعاملون مع أناس كسبهم حرام فى بعض الأحيان وهم لايدرون فالإمام الشعرانى يتورع عن الأ كل من هداياهم أو أخذها إتقاءاً للشبهة وإلا فإنهم لايزيدون عن كونهم كأغلب تجار اليوم لايستطيعون معرفة الأشخاص الذين يتعاملون معهم ولا من أى طريق يكسبون .

(٢) ولعل ذلك هو السبب الأساسى لرفض الإمام الشعرانى لقبول الهدايا .

ومن أخلاقهم : كثرة مسامحتهم بحقوقهم إذا أخل بها الناس

وعدم مسامحتهم لأصحابهم ، إذا أخلوا بحقوق الناس الأجانب ، ولكن لا يبالغون في معاتبتهم لأن كثرة المعاتبة تورث إسقاط حرمة العاتب ونزع وده من القلب ، وإنما كانوا يسامحون الاخوان وغيرهم بالاخلال بحقوقهم لأنهم لا يرون لأنفسهم مقاماً يخافون من نقص بين الناس فلو ذمهم الناس إلى الطرف الأقصى ، فذلك عندهم دون مايعلمونه من نفوسهم .

وقد كان عطاء السلمى يقول إذا خالفه عبده : ماأشبه حالك معي بحالى مع ربي عز وجل ، فعلم أن كل فقير تكدر من كلام قيل فيه ، فهو صاحب دعوته ليس له في مقام الصادقين نصيب إلا أن يكون ذلك لغرض صحيح كما مر والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم اغترارهم بالمرائي الحسنة التي يراها الناس لهم

لأنها تؤذن بضعف ايمان من رؤيت له ولو انه كان قوى الإيمان عادة لما احتاج إلى شيء يقويه ، ولذلك كان المريدون يرون لأنفسهم المرائى الحسنة بخلاف العارفين فربما رأى العارف مرائى مهولة تقشعر منها بدنه ، وذلك حتى لايستحسن من أحواله شيئاً فإن كل مااستحسنه العبد من أعماله ، فهو هباء منثور فلا بد من مناقشة فيه يوم القيامة ، لأن استحسان العبد لشيء من أعماله يعميه عن تلك النقائص الكامنة فيها ويمنعه من المزيد، فعلم ان اعتناء الحق تعالى بالعارفين أكمل من اعتنائه بالمريدين .

فاعرض هذا الخلق وما قبله على نفسك واقرانك تعرف حالك وحالتهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم اجابتهم لمن دعاهم إلى وليمة بقصد التفاخر

بحضور الناس لاسيما المتمشيخين بأنفسهم فربما عمل أحدهم مولداً ودعا أكابر الأشياخ إليه ليقول الناس : لولا ان هذا شيخ عظيم ماأجابه أشياخ الطريق ، ولكل شيء قراين تدل عليه ، ومن قرائن الرياء فى تلك الدعوة ان صاحبها يصير يمزق عرض كل من تخلف ولم يحضر أو يعتب عليه ، فأما الحضور ان كان فيه خير فذلك الممتنع هو الذى فوت نفسه الخير ، وان لم يكن فى الحضور خير فقد استراح منه ولاينبغى العتب عليه انتهى .

ومن أخلاقهم شهودهم ان القايمين فى الكسب بالبيع والشراء وعمل الحرفة أفضل منهم

ولو كانت أعمالهم كالجبال لأن من لاحرفة له من الفقراء ربما أكل بدينه ويرجع ثواب تلك الأعمال التى تقوى عليها بطعامهم فى صحايفهم فيخرج من الدنيا صفر اليدين من الأعمال الصالحة :

وكان سيدى إبراهيم المتبولى رحمه الله يقول قد أكرم الله تعالى المحترفة بأمور فضلوا بها على المتعبدين من غير حرفة[1] :

الأول : ان أعمال أحدهم له لكونه يأكل من كسبه لامن صدقات الناس وأوقافهم .

الثانى : عدم دعواه العلم وتكبره به على الجاهلين فيشهد حقارة نفسه وتعظيم غيره .

الثالث : سلامته من الشبه العقلية فى الله تعالى وفى رسله وأحكامه .

الرابع : أنه إذا وقع فى معصية يصير يشهد قبحها لايرى انه عمل شيئاً يكفرها حتى يلقى الله تعالى وغير ذلك مما ذكرناه فى كتاب المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

---

(١) ولعل من الأمور التى كثيراً ما تنتقد على الصوفية عدم عمل بعضهم والامام الشعرانى هنا ينهى للمريدين ذلك فقد كان الأنبياء يعملون ويأكلون من كسب يدهم ، وكان الصحابة يعملون ويأكلون من كسب يدهم ، وكذلك التابعين ومن تابعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وفى الحديث : عن النبى ﷺ قال : « اليد العليا خير من اليد السفلى ، وأبدأ بمن تعول ، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ومن يستعفف يعفه الله » ، رواه البخارى .

وقال ﷺ : « كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوت » ، رواه مسلم .

ومن أخلاقهم عدم مقابلة المسيء بالإساءة

لأنهم في مقام الاحسان يرون أنهم في حضرة الله تعالى، ويرون انه الخالق لأفعال عباده، فكلما سبهم انسان مثلا يشهدون الخالق لذلك لامن برز ذلك السب على لسانه، ثم لما ينقضى ذلك الشهود فلا بدلهم من التنزل لشهود نسبة الأفعال إلى الخلق فينكرون عليهم سبهم بغير حق نصحا لهم لا لعلة أخرى لأن من تعدى حدود الله يجب الانكار عليه، سواء أكان ذلك التعدى فى حق المنكر أو فى حق غيره، فعلم أنه لولا أن أهل الله تعالى فى حضرة الاحسان لما استطاعوا تحمل السب من غيرهم لأنهم ان شهدوا خالق السب وجب عليهم الرضى أو الصبر جزماً، لعجزهم عن شهود من يرسلون غضبهم عليه وان نزلوا عن ذلك المشهد رأوا الخلق عبيد الله تعالى، فأكرموهم لأجله، وان نزلوا عن ذلك رو أهم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم شفيعهم عند الله تعالى، فأكرموهم لأجله، وان نزلوا عن ذلك رأوهم اخوانهم في الدين فأكرموهم لأجل الاخوة رضى الله عنهم تعالى أجمعين [1].

فاعرض ياأخى هذا الخلق وماقبله على نفسك وأقرانك تعرف الحال والحمد لله رب العالمين.

---

(١) يقول الله تعالى: « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ».
وقال تعالى: « فاصفح الصفح الجميل ».
وقال تعالى « وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم ».
وقال تعالى: « والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ».
وعن السيدة عائشة رضوان الله عليها، أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟

قال: لقد لقيت من قومك وكان أشد مالقيته منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسى وإذا أنا بسحابة قد أظلتنى فنظرت فإذا فيها

. . . . .

جبريل ﷺ ، فنادانى فقال : إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال ، لتأمره بما شئت فيهم ، فنادانى ملك الجبال فسلم على ، ثم قال : يامحمد إن الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال ، وقد بعثنى ربى إليك لتأمرنى بأمرك ، فما شئت إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين .

فقال النبي ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لايشرك به شيئاً . متفق عليه .

ومن أخلاقهم اقامة العذر لاخوانهم إذا لم يقدروا على

الصبر عن مقابلة من آذاهم

لعدم قدرتهم على المكث فى حضرة الاحسان فإن الأحوال قد فسدت ومراسم الأمور قد تغيرت ، وتبدلت ، وا كتفى الناس بالأقوال عن الأفعال ، وعم البلا خواصنا وعوامنا ، وظهر من الناس اخلاق الذياب تارة وأخلاق الثعالب تارة واخلاق السباع تارة ، وأخلاق البهايم تارة ، وأخلاق الجن ، والشياطين تارة حتى لا يكاد الإنسان يرى فى أحدهم أخلاق أحد من كل المؤمنين إلا فى النادر .

فالعاقل من عذر الناس بما يعذر به نفسه ، ولا ينبغى له أن يحرج عليهم فى أحوالهم ويلسى نفسه ، ولكن ينبغى لأكابر العلماء والصالحين أن يكون لأحدهم ، سفيه يسافه عنه فى بعض الأقات ، التى يحجب فيها عن ربه ، لأن الحيا الطبيعى ، وان كان محموداً من أصله ، فقد يحتاج العبد إلى تركه فى بعض الأوقات ، كما هو مشاهد فى مقابلة قليل الحياء بنظير فعله ، لئلا يتسع الخرق فى قلة الحيا بالكلية ، وخرج بالحياء الطبيعى الحياء الشرعى ، فذاك مطلوب لا يحل تركه وهو حياء العبد من ربه أن يراه تاركا لأمره ، أو غير مجتنب لنهيه ، وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم بذرهم علومهم ومعارفهم فى غير محل قابل[1]

لأن ذلك كالزرع فى أرض السباخ .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : إذا تكرم الحق تعالى عليكم بمدد من علم أو حال ، فتكرموا به على من رأيتموه صادقاً فى همته كامل الخلق فى نشأته ، فإنه أزكى لزرعكم وإياكم أن تتكرموا به على من كان بالضد من ذلك فتكونوا كمن يبذر بذره فى أرض سبخة ، فلا تثمر لكم زرعاً بل لا يطلع أصلا ،

قال : ومن علامة طيب أرض قلب المريد أن يكون ذليل النفس منكس الرأس يفرح إذا حقره الناس وآذوه ، ومع ذلك فيؤثرهم على نفسه ولا يطلب منهم جزاء فى الدارين ، فمثل هذا ينبغى للشيخ أن لا يدخر عنه شيئاً من المدد لشدة إخلاصه انتهى والحمد لله رب العالمين .

---

(١) وكما قلنا من قبل أن سبب إنكار بعض الناس على بعض الصوفية هو إطلاع جهلاء الناس على بعض العلوم والمعارف عندهم فيحرفونها فتصل إلى الناس كأن فيها محرمات وما شابه ذلك .

ومن أخلاقهم : أن أحدهم يزداد قلبه بالسلب تمكينا ويقينا وذلك لأنهم مع الله تعالى ، بما أحب لا مع نفوسهم بما تحب .

وكلما سلبهم الحق تعالى المقامات ، والأحوال كلما تمكنوا فى مقام العبودية ، الذى هو محل تقريبات الحق تعالى ، وكلما أضاف إليهم الأمور ، والمقامات كلما بعدوا من حضرة الله تعالى برؤيتهم الشركة لهم مع الله تعالى بنسبة الأمور إليهم ، فلا يكاد يتبرأ من نسبة الأمور إليه دون الله تعالى ببادى الرأى إلا الكمل من الرجال فالعبد الصادق من لا يرى له ملكا مع الله تعالى فى الدارين ، إنما هو يأكل من مال سيده ويلبس منه ويسكن داره من غير شهود ملك لشىء من ذلك له ، فلا على صاحب هذا المقام من كون الحق تعالى أعطاه شيئاً فى الكونين ، أو لم يعطه لأنه تعالى ولو أعطاه شيئا يجب عليه الخروج منه فورا إلى الله تعالى فلا يدعه يقيم تحت تصريفه إلا بقدر ما يتحقق بنسبة المعطا له فقط ، ليشكر الله تعالى على إذنه له فى التصريف فيه لا غير ثم بعد ذلك يستغفر الله تعالى ويقول فى نفسه : لولا أن الحق تعالى علم منى محبة المشاركة له بدعوى الملك لما أضاف إلي شيئا من الوجود ، وهذا المشهد قد صار غريباً فى هذا الزمان .

فاعرض ياخى هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم العمل برأى النساء فى هذا الزمان الذى صار رأى غالب الرجال فيه ناقصاً فكيف برأى النساء .

وإنما كره القوم العمل برأى النساء لعلمهم بأن محبة الرجل للمرأة تكون فى الغالب بحكم الطبع والشهوة ، وما ثم أميل من النساء للرجال وعكسه لافتقار كل منهما للآخر شهوة وطبعاً وحالا ، وقد شرع الحق تعالى الاستخارة للعباد ، فأغنتهم عن مشاورة غيرهم إلا إذا استخار أحدهم ولم يظهر له الخيرة فى ذلك الأمر ، فله حينئذ أن يشاور إخوانه الذين جربوا الأمور ، وخالطوا أهل الدنيا دون العباد والزهاد المقبلين على العبادة ، فإنهم فى الغالب لا معرفة لهم بأمور الدنيا فتدبيرهم ناقص والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كراهتهم لتعلمهم علوم الفلاسفة الأول

كعلم الرمل وعلم الحرف وغيرهما لأنها تطلب فى الغالب للتأثير فى العالم ، ولتحصيل أمور دنيوية قد لا تكون مقسومة لأحدهم وأهل الله تعالى يهربون من مثل ذلك ،

ثم إن وقع لأحد من الفقراء أنه تعلمها وعمل بها التأثيرات فى العالم من تولية الحكام أو عزلهم أو قتلهم مثلا ، فليس ذلك من كرامته على الله تعالى ، إنما ذلك من باب الخاصية كالدواء المسهل فإنه يسهل متناوله بالخاصية لا بالمكانة عند الله تعالى ،

وقد كان سيدى إبراهيم المتبولى رضى الله عنه يقول : وعزة ربى إن عباد الأوثان أعلا همة ممن يطلب علم الحرف لأغراض دنيوية لأن عباد الأوثان قالوا : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، وهؤلاء طلبوا علم الحرف[1] ليقربهم إلى الدنيا ، وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن الوسطى .

فاعرض يا أخى هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم . والحمد لله رب العالمين .

---

(١) وأغلب الطرق التى نراها الآن تنهى مريديها عن تعلم هذا العلم أو غيره من علوم المزرجة فإن هذه العلوم كثيرا ماتخدع المريد فيتكل عليها ويترك طريق التصوف المبنى على الحقيقة الآتية من لدن الله سبحانه وتعالى ويتجه إلى تلك العلوم ظانا منه أن ذلك أقصر طريق للوصول إلى الله وربما انحرفت نحو الإتجار بها والمراءاة عند الناس بما تظهر على يديه من الخوارق التى لم يعتادها الناس .

ومن أخلاقهم : كثرة نصحهم لإخوانهم بحكم العادة

لكن لا يخرجون إلى حد المكاشفة بعيوب الناس ونقايصهم ، التي يفعلونها في بيوتهم ، وهذا الأمر يقع فيه كثير ممن لم يسلك على يد شيخ ويرون أنهم صاروا على قدم عظيم والحال أنهم إخوان الشياطين ، لأن كل كشف اطلع صاحبه على عيوب الناس فهو كشف شيطاني يجب عليه التوبة منه فورا ، بخلاف الكشف الذي يطلع به العبد على كمالات الناس ومحاسن أعمالهم ، وقد وقع لي ذلك مرة فسألت الله تعالى الحجاب فحجبني عنه فله الفضل على كل حال والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : شهودهم أن جميع ما معهم من العلوم والمعارف وغيرها كله عارية من الله تعالى لهم

ولذلك لو نسبهم أحد إلى الجهل لا يتأثرون منه لأن لسان حال من نسبهم إلى الجهل يقول لهم : هذه العلوم التي معكم ليست لكم فهو صادق في قوله عندهم فكيف يتأثرون منه .

وفي القرآن العظيم (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها[1]) وهي وإن كانت واردة في شأن مفتاح الكعبة ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب غالبا .

وقد كان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول :

من أراد أن يعلم جهله ونقص مرتبته في العلم فليرد كل قول علمه أو فهمه في سائر الأحكام إلى قائله وينظر بعد ذلك في نفسه فما بقي معه فهو علمه قال :

واظنه لا يبقى معه إلا القليل الذي لا يسمى به عالما[2] والحمد لله رب العالمين .

---

(١) النساء آية : ٥٨ .

(٢) قال الفضيل بن عياض : من رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب .
وسئل الفضيل عن التواضع ، فقال : تخضع للحق ، وتنقاد له وتقبله ممن قاله .
وقال الفضيل : أوحى الله إلى الجبال ، أني مكلم على واحد منكم نبيا .. فتطاولت الجبال ، وتواضع « طور سينا » فكلم الله سبحانه ، عليه موسى عليه السلام لتواضعه .
وسئل الجنيد عن التواضع ؛ فقال :
خفض الجناح للخلق ، ولين الجانب لهم .
وقيل لأبي يزيد : متى يكون الرجل متواضعا ؟ فقال : إذا لم ير لنفسه مقاما ولا حالا ولا يرى أن في الخلق من هو شر منه .

ومن أخلاقهم : أن لا يجيبوا من طلب منهم مسئلة من العلم
مثلا وقلبه غافل

بل يرشدوه إلى تعلم آداب العلم ، ثم يجيبوه بعد ذلك لأن من طلب زيادة العلم ، فقد طلب زيادة التكليف ، فاللايق به البكاء وحضور القلب لا الغفلة والضحك ، وقد قال ابراهيم بن أدهم :

مررت على حجر مكتوب عليه اقلبني تعتبر .

قال : فقلبته فإذا فيه منقوش : أنت بما تعلم لاتعمل ، فكيف تطلب علم مالا تعلم ، انتهى .

وقد تقدم بسط ذلك أوائل هذا الكتاب .

وسأل شخص الشعبي رحمه الله تعالى عن مسألة وهو يضحك ، فهجره ثلاثة أشهر ، حتى ساق عليه العلماء ، واستغفر فقبل الشعبي توبته ثم قال له :

ياولدي إنما يطلب العلم للعمل ، والأدب مع الله تعالى ، فلا ينبغي لغافل أن يأخذه وهو يضحك وإنما اللايق به أن يأخذه وهو يبكي خوفاً أن لايوفى بالعمل به فيدخل النار ، انتهى .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

إذا توقف أحدكم فى فهم آية ، أو حديث أو غيرهما ، فليعلم أن قلبه مظلم من أكل الحرام ، والشبهات وكثرة اللغو والهذيانات ، فليعمل على جلاء مرآة قلبه من الصدأ والغبار ، فيفهم كل كلام سمعه من كلام العرب ، كأنه بلغته ولسانه ، ثم ينبغى للشيخ أن يرشد إلى ذلك جميع طلبته فإن لم يرشدهم إلى جلاء مرآة قلوبهم ، فجميع مايتعلمونه منه لايقيم عندهم ، حتى يعملوا به أو يعلموه للناس بل يذهب بذهاب أحدهم من الدرس ، وقد أغفل هذا الأمر جماعة من علماء زماننا فبذروا علمهم لمن لايصلح لحمله ، واتعبوا نفسهم فى تقريرهم ، ولا يمكث مع أحدهم شيء مما يسمعه ، حتى أنه يقال لبعضهم : ماذا استفدت اليوم من درس الشيخ ؟

يقول : كان درساً عظيما ، وأبدا الشيخ فيه العجايب والغرائب فيقال له : فقل لنا منه مسألة ، فيقول : لا أقدر أتكلم به ، انتهى .

وسمعته مرة أخرى يقول :

إعملوا على جلاء مرآة قلوبكم لتفهموا العلم ، فإن لم تعملوا على الجلاء فلا تطلبوا زيادة العلم ، ويكفيكم العمل بما ثبت عندكم من العلم ، وفهمتموه ببادى الرأى ، فإن كل شيء توقفتم فى فهمه دل على أنكم لستم من أهله ، ولو أرادكم تعالى للعمل به لفهمه لكم ،

وكان شيخنا الشيخ أمين الدين رحمه الله يقول :

والله ما كنا نظن أننا نعيش إلى زمان صار العالم يقول لطلبته إذا جاؤه اذهبوا إلى غد ، فإنى ماطالعت لكم شيئاً ، فإن ذلك يدل على أن العلم قد صار فى لسانه دون قلبه فيلقيه على أثر مطالعته ثم ينساه عن قرب ، انتهى .

وكان رحمه الله تعالى لايعلم العلم إلا لمن يراه عازماً على العمل به معظماً له خائفاً من عدم العمل به ، فإن لم يره كذلك سكت عنه ولم يجبه إلى مسألة ويقول :

هؤلاء يستهزون بالعلم وقد درج السلف الصالح كلهم على ذلك .

فاعرض ياأخى هذا الخلق وما قبله علي نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : تعظيمهم لكل من حمل العلم والقرآن العظيم(١)

وإن لم يكن عاملا بذلك إكراماً لما حمل من الوحي والعلم ، ومن توقف في تعظيم العلماء على تظاهرهم بالعمل بكل ماعلموه فاته تعظيمهم ، فلم يزل العلماء في كل عصر يزيد علمهم على عملهم ، وذلك لأن العلم مقدمة العمل فهو دائماً سابق زايد ، وقد يكون ذلك العالم ممن يخفي أعماله الصالحة لاسيما إن رأى في بلده من يظهر عمله ، ويقتدى الناس به ، فإن الخفاء بعد ذلك يكون لغيره أولى لأن هذا الذى أظهر العمل قد قام بشعار الدين وصار إماماً يقتدى به ولا ينبغي أن يكون للمأمومين في مكان واحد إلا إمام واحد .

وأنا أدلك يأخي على شيء تعرف به العالم العامل ، وتستغني به عن رؤية تظاهره بالعمل ، وهو أن تراه خاشعاً لله تعالى خائفاً منه قليل الجدال في العلم إلا بطريقة الشرعي يرى نفسه من أقل الناس لايكاد يعرف أنه من أهل العلم إلا من خالطه يتوقف عن المبادرة إلى ترجيح شيء من الأقوال برأى أو قياس ، فكل من رأيناه كذلك فهو دليل واضح على عمله بعلمه باطناً ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) عن سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) رواه البخاري .

وعن السيدة عائشة رضوان الله عليها قالت : قال رسول الله ﷺ : (الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران) متفق عليه .

وعن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين) رواه مسلم .

وعن النبي ﷺ قال : لاحسد إلا فى اثنتين رجل أتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار) متفق عليه .

ومن أخلاقهم عدم شكواهم من أذاهم إلى الله تعالى

وعدم دعائهم عليه ، بل عدم شكواهم إلى نفوسهم ، فضلا عن غيرهم من الخلق اكتفاء بعلم الله عز وجل ، فإنهم في حضرته على الدوام ويعلمون أن الحق تعالى ناظر إلى جميع مايفعله عباده مع بعضهم بعضاً ، وهو المؤاخذ والمعاقب لهم حقيقة ومن شكى منهم إلى الله تعالى في تلك الحضرة ، فقد أساء الأدب لإتهامه للحق تعالى في أنه لايأخذ له حقه ، فعلم أنهم لو كانوا لايتهمونه في ذلك ما أجابوا عن أنفسهم في حضرته ولاشكوا من أذاهم إليه ، ولا إلى خلقه ، بل كانوا يكرمونه لله تعالى أو لرسوله كما مر تقريره مراراً وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

لاينبغي للفقير أن يبادر إلى الشكوى من الناس إذا آذوه ، فربما كان ذلك الأذى عقوبة له على ذنوبه السالفة .

وسمعت سيدى محمد الشناوى رحمه الله يقول :

الفقير إن انتصر لنفسه تعب ، وإن سلم أمره لمولاه واكتفى بعلمه فيه نصره من غير أهل ولا مال ولا عشيرة انتهى .

وقبيح على الفقير أن يسافه من سافهه أو يشتم من شاتمه لاسيما من كان شيخاً في زاوية فإن ذلك من أقبح القبيح ، وربما اقتدى به في ذلك فقراء الزاوية وصار إثم ذلك في عنقه ، لأنهم كلهم ناظرون إلى أفعاله إليه في أفعاله ، ثم ينحل الأمر بعد ذلك إلى عدم نصرة الحق تعالى لذلك الشيخ الذى شتم من شتمه وبهدله بين الناس ، وعدم احترامهم له ومن هنا يقول أهل مكة لمن شتم أحـــداً « حشم نفسك » يعن إنك إن شتمتنا شتمناك ولو من ورائك[2] انتهى .

---

(١) سئل الجنيد عن الصبر ، فقال : هو تجرع المرارة من غير تعبيس .
وقال ذو النون : الصبر : التباعد عن المخالفات والسكون عند تجرع غصص البلية ، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة .

فأرض ياخى بالشتم من حيث تقدير ذلك عليك وإن لم ترض فاصبر لا انزل من ذلك.
فاعرض يا أخى هذا الخلق وماقبله على نفسك وأقرانك تعلم حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

وقال ابن عطاء : الصبر الوقوف مع البلاء بحسن الأدب .
وقال الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه : والصبر مطية لاتكبو .
وقال أبو عبد الله بن خفيف : الصبر على ثلاثة أقسام : متصبر ، وصابر ، وصبار .

ومن أخلاقهم : عملهم على تحصيل كمال مقام ايمانهم قبل كل مقام

حتى يصير يوم القيامة ، وأهواله ، ومافيه كأنه رأى عين عندهم ، فإن كمال مقام العبد فى الإيمان هو أن يصير الغيب عنده كالشهادة فى عدم دخول الشك فيه حتى يسرى منه الأمان إلى جميع العالم ، فيأمنه الناس علي أنفسهم وأموالهم وحريمهم من غير أن يتخللهم تهمة فى ذلك وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول :

الاساس الذى يبنى عليه المؤمن جميع أعماله هو الإيمان فإذا سلم من النقص فذلك هو السعيد ، وكان يقول.

لأن يأتى العبد بقراب الأرض خطايا وإيمانه كامل وظنه فى الله تعالى حسن خيرله من أن يأتى بالطاعات وفى ايمانه ثلمة وظنه فى الله تعالى سيء ومن هنا استنبط القوم أن المريد لو وقع فى حقهم كل الوقوع وهو معتقد فيهم الصلاح لسامحوه عملا بحديث .

« يا ابن آدم انك لوأتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم جئتنى لاتشرك بى شيئا لاتيتك بقرابها مغفرة »[1] أو كما قال .

---

(١) وتمام الحديث : عن أنس رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله تعالى : (ياابن آدم إنك مادعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى .

ياابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك .

ياابن آدم إنك لوأتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لاتشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة) . رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

ويقول الإمام النووى فى ذلك : إعلم أن المختار للعبد فى حال صحته أن يكون خائفا راجيا ويكون خوفه ورجاؤه سواء وفى حال المرض يمحض الرجاء وقواعد الشرع من نصوص الكتاب والسنة وغير ذلك متظاهرة على ذلك .

قال الله تعالى : (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) .

وقال تعالى : (إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) .

وقال تعالى (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) .

فلا يضر المريد إلا شركة غير شيخه كشيخه فى المحبة لايضره ترك خدمة ولا ترك بر ولا إحسان فعلم ان لهم هجر المريد إذا أشرك بهم أحداً فى المحبة المعروفة عندهم وعدم المسامحة له فى ذالك ، لأن القوم على الاخلاق الآلهية وقد قال الله تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذالك لمن يشاء [1] » فافهم .

وإياك والمبادرة إلى الانكار على من تغير على مريده لما اعتقد غيره وحمله على الغيرة ، فإن ذالك سوء ظن بالقوم ، فإنهم إما هم فى ذالك على هدى وحق خوفا على المريد أن يتزلزل اعتقاده فى أى الشيخين الكل فلا يحصل له نفع من أحد منهما ، فهو مثل من يشك فى أن الله تعالى واحد وإثنان لا يصح توحيده والحمد لله رب العالمين .

وقال تعالى : (إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم) .
وقال تعالى : (إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم) .
وقال تعالى : فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية) .
والآيات فى هذا المعنى كثيرة فيجتمع الخوف والرجاء فى آيتين مقترنتين أو آيات أو آية .
وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لو يعلم المؤمن ماعند الله من العقوبة ماطمع بجنته أحد ولو يعلم الكافر ماعند الله من الرحمة ماقنط من جنته أحد) رواه مسلم .

(١) سورة النساء آية : ٤٨ .

ومن أخلاقهم قصدهم ابتغاء مرضات الله تعالى فى كل قول أو فعل

دون قصد مالنفوسهم فى ذلك من الراحة والثواب ، فيزهدون فى الدنيا مثلا من حيث مابلغهم انها مبغوضة لله تعالى ، وانه تعالى من منذ خلقها لم ينظر إليها ، فلذلك لم يحبوها خوفا أن يحشروا معها يوم القيامة ، لأن المرء مع من أحب [1] ، فلذلك كانوا لا يحبون شيئاً أخبر الحق تعالى انه يبغضه ، وكرهوا أن يحشروا مع مبغوض لم ينظر الله تعالى إليه منذ خلقه أى — نظر رضى عنه ورحمة لانظر تدبير فافهم .

فعلم ان القوم لم يكرهوا الدنيا ولم يزهدوا فيها لراحة البدن بالأصالة ، فإن ذلك حاصل لهم بحكم التبعية ، لزهدهم فيها ابتغاء رضوان الله تعالى .

وقد قررنا مراراً أن الزاهدين مازهدوا حقيقة إلا فيما لم يقسم لهم واما ماقسم لهم فلا يصح لأحد الزهد فيه بأن يتركه ، وإنما الزهد فيه يكون بترك الميل إليه عادة بحيث يبخل به عن مستحقه ويشتغل به عن ربه ، وإلا فمن كمل الولى إمساكه الدنيا ، ثم يتصرف فيها تصرف حكيم عليم ، فينفق منها على نفسه ، وعياله ، وإخوانه ، وغيرهم ممن ندبه الشرع إلى الإحسان إليه ، ولو كان الزهد فيها عدم إمساكها لفسد نظام العالم ، ولم يجز لأحد إمساك شىء من المال فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين .

---

(١) عبارة من حديث هو : عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول : كيف تقول فى رجل أحب قوما ولم يلحق بهم ، فقال رسول الله ﷺ : (المرء مع من أحب) متفق عليه .

وفى الحديث : عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل) رواه أبو داود والترمذى بإسناد صحيح و قال الترمذى : حديث حسن .

ومن أخلاقهم انهم لايتجردون عن لباس الثياب الفاخرة مثلا ولا يلبسون الخرقة التي تستر عوراتهم فقط إلا إن كان باطنهم متجردا عن حب الدنيا كذلك ، خوفا أن يكتبوا فى جريدة المنافقين ومادام باطنهم لم يتجرد عن محبة الدنيا فهم يلبسون الثياب الفاخرة من الجوخ والأصواف والمضربات ، خوفا أن يخالف ظاهرهم باطنهم ، فإن مبنى امرهم كله على الصدق (١) .

يقول الهجويرى فى كشف المحجوب : إعلم أن لبس المرقعة شعار المتصوف . ولبس المرقعات سنة ، ومن قال الرسول عليه السلام : « عليكم بلباس الصوف تجدون حلاوة الإيمان فى قلوبكم » رواه الحاكم فى المستدرك عن أبى أمامة .

ويقول أيضا واحد من الصحابة رضى الله عنهم : كان النبي ﷺ يلبس الصوف ويركب الحمار .

وقال الرسول ﷺ أيضا لعائشة رضى الله عنها : » لاتضيعى الثوب حتى ترقعيه » وقال : عليكم بلباس الصوف لتدركوا حلاوة الإيمان .

وروى عن عمر رضى الله عنه أنه كانت له مرقعة عليها ثلاثون رقعة ويرد عنه أنه قال أيضا : خير الثياب أقلها مؤنة . ويرد عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه أنه كان له قميص لايصل كمه إلى أصابعه ، وكان إذا وجد لديه قميص أطول من هذا يقص طرف كمه .

وأمر الله عز وجل الرسول ﷺ بتقصير الثياب فى قوله تعالى : « وثيابك فطهر ». أى : فقصر .

ويقول الحسن البصرى رحمه الله : رأيت سبعين بدريا يلبسون جميعا ثيابا من الصوف. والصديق الأكبر رضى الله عنه لبس ثوب الصوف فى حال التجريد .

ويقول الحسن البصرى رحمه الله : رأيت سلمان وقد لبس كاماذا رقع كثيرة .

ويروى أن عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب رضوان الله عليهما ، وهرم بن حيان رضى الله عنه رأوا أويسا القرنى وكان يلبس ثوبا من الصوف عليه رقع كثيرة .

وكان الحسن البصرى ومالك بن دينار وسفيان الثورى » رحمة الله عليهم ، أصحاب مرقعات صوفية . ويروى عن الإمام الأعظم أبى حنيفة وهذا مكتوب فى كتاب تاريخ

المشايخ الذى ألفه محمد بن على الترمذى — أنه كان أولا يلبس الصوف ويقصد العزلة إلى أن رأى الرسول عليه السلام فى النوم يقول له : ينبغى لك أن تكون بين الخلق لأنك سبب إحياء سنتى . وعندئذ كف عن العزلة . ولم يكن يلبس أبدا ثوبا غاليا ، وأمر داود الطائى رحمه الله بلبس الصوف ، وكان من الصوفية المحققين .

وجاء إبراهيم بن أدهم أبا حنيفة رحمه الله وعليه مرقعة من الصوف فنظر إليه أصحاب — أبى حنيفة — بين الإحتقار .

فقال أبو حنيفة : جاء سيدنا إبراهيم بن أدهم ؟ فقال له : أصحابه : لا يجرى الهزل على لسان إمام المسلمين ، فبم وجد هذه السيادة ؟ قال : بالمداومة على الخدمة ، فقد انشغل بخدمة الله ، وانشغلنا بخدمة أنفسنا حتى صار سيدنا .

وإذا كان مراد بعض أهل هذا الزمان من لبس المرقعات والخرق طلب الجاه والجمال بين الخلق ، أو أنهم بقلوبهم غير موافقين لظواهرهم ، فمن الجائز أن يكون فى الجيش مبارز واحد ، والمحققون فى كل الطوائف قليل ، ولكن الجميع ينسبون إليهم حينما يشبهونهم فى شيء من الأحكام ، لقوله عليه السلام : « من تشبه بقوم فهو منهم » أى : كل من يتولى قوما يفعل ذلك بعمل أو باعتقاد ، ولكن فريقا نظر إلى رسم الصوفية وظاهر معاملاتهم ، ونظر فريق إلى سرهم وصفاء باطنهم . وفى الجملة ، كل من يقصد صحبة المتصوفة لا يخرج عن أربعة معان :

فريق يطالعه صفاء باطنه وجلاء ظاهره ولطف طبعه واعتدال مزاجه على صحة أسرارهم فيرون قرب المحققين — من الصوفية — ورفعة كبرائهم ، وتتمكن منهم الرغبة فى هذه الدرجة ، فيتعلقون بهم عن بصيرة . وتكون بداية حال — هؤلاء — على كشف الأحوال والتجرد عن الهوى ، والإعراض عن النفس .

وفريق — ثان — يطالعه صلاح جسده وعفة قلبه وسكون وسلامة صدره على أظهارهم فيرون ممارستهم للشريعة وحفظهم لآداب الإسلام وحسن معاملاتهم فيقصدون صحبتهم ، ويختارون ممارسة الصلاح . وتكون بداية حال هؤلاء على المجاهدة وحسن المعاملة .

وفريق — ثالث — تهديه مروءة إنسانيته وظرف مجالسته وحسن سيرته ، فيرون حياتهم الظاهرة مزدانة بالظرف والمروءة : من الحرمة مع الكبار ، والفتوة مع الصغار ، وحسن المعاشرة مع الأقران ، فيقصدون صحبتهم مستريحين من طلب الزيادة ، وراضين

بالقناعة ، ويسهلون على أنفسهم طريق الجهد والمشقة فى طلب الدنيا ، ويجعلون أنفسهم بالفراغ من المشاغل من جملة الأخيار .

وفريق ــ رابع ــ يقوده إلى أفعالهم كسل طبعه ورعونته نفسه وطلبه الريا بلا آلة ، وإرادته التصدر بلافضل ، وبحثه عن التخصيص بلاعلم ، ويظن أنه ليس هنالك من أمورهم غير هذا الأمر الظاهر ، فيقصد صحبتهم . وهم يلاينونه بالخلق والكرم ويعيشون معه بحكم المسامحة ؛ لأنه ليس فى قلوبهم شىء من حديث الحق ، ولاعلى أجسادهم شىء من المجاهدة فى طلب الطريقة ، ويريدون أن يرعى الخلق حرمتهم كالمحققين ، ويجلوهم كما يجلون خواص الله عزوجل ، ويبغون من صحبتهم لهم والتعلق بهم أن يخفوا آفتهم فى صلاحهم ، ويلبسون ثيابهم وهى بدون المعاملة تصرخ بكذبهم ، كقوله تعالى : « كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله » .

وهذا الفريق هم الأغلب فى هذه الأيام . فليكن لزاما عليك إذن أن لاتقصد ماليس لك ، لأنك لوقلت ألف سنة بقبول الطريقة لايكون ذلك كأن تقبلك الطريقة لحظة واحدة ، لأن هذا الأمر لايكون بالحرقة ، بل بالا كرقة وحين يكون الرجل عارفا بالطريقة يستوى لديه القباء والعباء ، وحين يكون غريبا عنها تكون مرقعته رقعة الأدبار ومنشور الشقاء يوم النشور كما قيل لذلك الشيخ الكبير : « لم لاتلبس مرقعة ؟ فقال : من النفاق أن تلبس لباس الفتيان ولاتدخل فى حمل أثقال الفتوة » .

فإذا كنت تلبس هذا اللباس ليعرف الله أنك من خواصه فهو يعرفك بغير لباس ، وإذا كنت تلبسه لتظهر للخلق أنك لله ، فإن تكن كذلك فهو رياء ، وإن لم تكن فهو نفاق . وهذا طريق صعب ملىء بالخطر ، وأهل الحق أجل من أن يعرفوا بالثياب ، « فالصفاء من الله إنعام وإكرام ، والصوف من لباس الأنعام » فالحلية حيلة ، وفريق يجعلون الحيلة قربة ، فهم يعملون ماعليهم ويحلون ظاهرهم وأملهم أن يكونوا منهم .

وقد أمر مشايخ هذه الطريقة المريدين بان يتحلوا بالمرقعات ويتزينوا بها ، وفعلواهم أيضا ذلك ، لتكون لهم علامة بين الخلق ، ويكون الخلق رقباء عليهم ، فإذا خطوا خطوة على خلاف ، يطلقون فيهم لسان الملامة وإذا أرادوا إتيان المعصية فى تلك الثياب ، فإنهم لايستطيعون خجلا من الخلق .

وكذلك من أخلاقهم أنهم لايلبسون النقى البياض من الثياب إلا ان علموا نقاء باطنهم من كل شيء يكرهه الله تعالى ، ومادام فى باطنهم شهوة يكرهها الله تعالى فهم لايلبسون نقى البياض إلا بأمر شرعى كلبس البياض يوم الجمعة ، فللعبد أن يلبس البياض فيه بل يستحب ، ولو كان باطنه غير نقى من الأدناس ، وهو من قاعدة أن الميسور لايسقط بالمعسور .

وفى الجملة : المرقعة زينة لأولياء الله عز وجل ، يعز بها العوام ويذل بها الخواص ، وعز العوام هو أنهم حين يرتدونها يحترمهم الخلق ، وذل الخواص هو أنهم حين يرتدونها ينظر إليهم الخلق بعين العلوم ويلومونهم بذلك ، فهى « لباس النعم للعوام ، وجوش البلاء للخواص » لأن أكثر العوام يكونون فيها مضطرين حين تقصر أيديهم عن عمل آخر ، ولا تكون لهم آلة أخرى لطلب الجاه ، فيطلبون بها الرياسة ، ويجعلونها سبباً لجمع النعم . ثم إن الخواص يقولون بترك الرياسة ويؤثرون الذل على العز ، فتكون لهؤلاء بلاء ، ولأولئك نعماء : « المرقعة قميص الوفاء لأهل الصفاء ، وسربال السرور لأهل الغرور » ، ليتجرد أهل الصفاء بلبسها من الكونيين ، وينقطعوا بها عن المألوفات ، ويحجب بها أهل الغرور عن الحق ، وينقطعوا بها عن الصلاح .

وجملة القول : المرقعة سمة الصلاح وسبب الفلاح للجميع . والمراد من كل هذا هو أنها تكون الصلاح لواحد والعطاء لآخر ، والغطاء لواحد والوطاء لآخر ، وأرجوا أن يفلحوا جميعاً بحسن صحبتهم ومحبتهم لبعضهم البعض ، فقد قال الرسول ﷺ : « من أحب قوماً فهو معهم » ولكن ينبغى أن تطلب لباطنك التحقيق ، وأن تعرض عن الرسوم ، لأن كل من يكتفى بظواهر الأشياء لا يصل إلى التحقيق أبدا .

واعلم أن وجود الآدمية حجاب الربوبية ، ولا يفنى الحجاب إلا بدور الأحوال والترقية فى المقامات . والصفاء إسم ذلك الفناء ، واختيار اللباس لفانى الصفة محال ، وتزيين النفس بالتكلف غير ممكن ، وإذا ظهر فناء الصفة وزالت آفة الطبيعة من الوجود ، فسواء لديه أن سمى بالصوفى أو باسم آخر . (كشف المحجوب للهجويرى ، دراسة وترجمة وتعليق : دكتورة إسعاد عبد الهادى قنديل) .

فعلم أن اللائق بأمثالنا الثياب السود والزرق على الدوام لأنه لم يصح لنا نقاء الباطن من كل دنس ، وأما غيرنا ، فإذا رأيناه يلبس الثياب النقية وجب علينا حسن الظن به ، وأنه مالبس ذلك إلا بعد نقاء باطنه ، ولا يجوز لنا قياس حاله على حالنا فافهم .

واعرض هذا الخلق وماقبله على نفسك وأقرانك تعرف مقامك ومقامهم والحمد لله رب العالمين .

حتى أن بعضهم يعجز عن حمل ثوبه ، فلا يستطيع أنه يلبس ثوباً مطلقاً ، ولولا أن ستر العورة واجب على أحدهم لما لبس الإزار ، وهذا أمر لا يعرفه إلا من ذاقه ، فإياك والمبادرة إلى الإنكار على من رأيته عرياناً أصلا إلا بطريق شرعى وقد صرح سيدى إبراهيم الدسوقى وسيدى على بن وفا بذلك فى رسائلهما ، وقال سيدى على :

بلغت من شهود الضعف فى نفسى حال محقق إلى أنى لو أردت حمل ليمونة لما قدرت وهذا الأمر يحصل لهم فى أوقات لا مطلقا حتى لا يستطيع أحدهم القيام ، فيصلى قاعداً فيظن من لا معرفة له بأحوال القوم أنهم يصلون النوافل جلوساً ، مع القدرة عملا برخصة الشريعة ، لكونهم لم يتقدم لهم مرض بل عهدهم بهم فى عافية ، ولا علم لهم بالوارد الذى ورد على أحدهم فهد أركانه فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم التساهل بأخذهم أموال الناس بالباطل

أو يأخذونها بحق ويتساهلون فى وفائها ، حتى ان بعضهم رجع من سفر فرأى فى أمتعته قلماً استعاره من البلد الذى خرج منه ، فسافر مسيرة شهر فى رده ، وبعضهم سافر مسيرة عشرة أيام فى ردابرة فقيل له : أرسل له أضعاف ثمنها فقال : قدلايرضيه ذلك يوم القيامة ويطلب عين ابرته .

ووقع للشبلى رضى الله تعالى عنه أنه أخذ درهماً من بايع الباقلاء أيام ولايته ، فلما دخل طريق القوم تصدق عن صاحبه بألوف بعد أن فتش عليه ، فلم يجده فكان يقول بعد ذلك :

قد تصدقت عن صاحبه بالوف وما على قلبي أثقل منه انتهى .

فعلم أن من ادعى انه من أهل الطريق وتساهل فى حقوق الناس وأحوج صاحب الحق الوقوف على حاكم فهو كاذب لم يشم من طريق القوم رايحة كما هو شأن أولاد المشايخ القائمين بالحدود وشأن من ادعى الطريق بغير شيخ ، فيقول : وهل لأحد مع الله تعالى ملك ويزعم أنه صار موحداً لله تعالى ، فيقال له :ياهذا ان الذى قلت انه هو المالك الحقيق هو الذى نهاك عن أخذ ما فى يد عباده بغير طريق شرعى وهناك تندحض حجته ، وقد أجمع القوم على أن نور المعرفة لايطفىء نور الورع وبالجملة فلا يقع فى مثل ذلك إلا من لايؤمن بيوم الحساب والحمد لله رب العالمين [١] .

---

(١) يقول إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه : الورع ترك كل شبهة ؛ وترك ما لا يعنيك : هو ترك الفضلات .

وقال سفيان الثورى : ما رأيت أسهل من الورع : ما حاك فى نفسك تركته .

وقال يونس بن عبيد : الورع : الخروج عن كل شبهة ، ومحاسبة النفس فى كل طرفة.

وقيل : جاءت أخت بشر الحافى إلى أحمد بن حنبل وقالت : إنا نغزل على سطوحنا ، فتمر بنا مشاعل الظاهرية ، ويقع الشعاع علينا ، أفيجوز لنا الغزل فى شعاعها ؟

فقال أحمد : من أنت ؟ عافاك الله تعالى .

فقالت : أخت بشر الحافى .

فبكى أحمد وقال : من بيتكم يخرج الورع الصادق ، لا تغزلى فى شعاعها .

وقال سهل : الحلال الصافى : الذى لا ينسى الله تعالى فيه .

ودخل الحسن البصرى مكة ، فرأى غلاما من أولاد على بن أبى طالب ، رضى الله عنه قد أسند ظهره إلى الكعبة يعظ الناس ، فوثب عليه الحسن وقال له : ما ملاك الدين ؟

فقال : الورع . فقال له : فما آفة الدين ؟ فقال : الطمع !! فتعجب الحسن منه .

وقال الحسن : مثقال ذرة من الورع السالم (أى الخالص من الرياء والكبر) خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة وقال سهل بن عبد الله : من لم يصحبه الورع أكل رأس الفيل ولم يشبع .

وقال أبو هريرة : جلساء الله تعالى غداً : أهل الورع والزهد .

ومن أخلاقهم : كراهتهم لوقوع يدهم على فرجهم من غير حاجة

اكراماً للقرآن وكتب العلم والسبحة التى يسبحون عليها ، ويذكرون اسم الله عليها ، بل وقع لبعضهم ان رجله صدمت مسبحته فغشى عليه ، ومن هنا أدمن الفقراء الصادقون لبس السراويل ، حتى لاتقع يدهم على فرجهم .

وقد بلغنا ان مريداً من جماعة الشيخ نجم الدين الكبرى [١] وقعت يده على فرجه فى الخلوة فتوقف عليه الفتح مدة طويلة ، وهو يستحي أن يذكر ذلك للشيخ ، فلما خرج من الخلوة بعد الفتح قال له : الشيخ قد علمت بوقوع يدك على فرجك ولكن لما علمت شدة خجلك من ذلك لم أعلمك باطلاعى على ذلك .

وكل شيخ لم يعطه الحق تعالى الاطلاع على حركات مريده وسكناته ، فليس له أن يخلي أحدا لأنه محجوب ، ثم قال : كيف يجلس العبد بين يدى الله تعالى ويضع يده على فرجه ، أما علمت ان من كان فى الخلوة ، فهو فى حضرة الله تعالى ، ولذلك يعملون له طعاما ، لما يخرج من الخلوة إكراماً له لكونه ، ورد من حضرة الله تعالى عليهم انتهى والحمد لله رب العالمين :

---

(١) أحد أئمة الصوفية وأكابر الأولياء .

يقول عنه الإمام الشعرانى فى الأجوبة المرضية : جاء الشيخ فخر الدين الرازى يطلب الطريق على يد الشيخ نجم الدين الكبرى فى ألف طالب يمشون وراءه من بلاد الرى فبلغ ذلك الشيخ نجم الدين فقال : أنه لايطيق الطريق ، فلما وصل إلى رباط الشيخ بطلبته وسلم عليه قال: يا أخى ما أقدمك إلى بلادنا ؟ فقال جئت أطلب الطريق إلى الله تعالى فقال له الشيخ لا تطيق ذلك ، فقال : بلى أطيق إن شاء الله تعالى ، فراجعه مرات والشيخ فخر الدين يأبى إلا أن يتتلمذ له ، ثم أدخله الشيخ نجم الدين الخلوة وسلبه جميع ما كان معه من العلوم فلما شعر بذلك صاح : لا أطيق ، لا أطيق فاخرجه الشيخ وقال له : يافخر الدين أعجبنى صدقك وقال له : يافخر الدين كيف تطلب الطريق إلى الله مع حبك للرياسة على الأقران وتكبرك عليهم ؟ وماذا عليك أن تكون عند الله عز وجل لا ركون لك إلى غيره ، ولا دعوى عندك لملك شيء فى الوجود ، فبكى الشيخ فخر الدين وقال خسرنا وفاز غيرنا ، فقال الشيخ : قد صرت من معارفنا وكنا نود أن تكون من أصحابنا فلم يقدر ذلك ، فاذهب إلى بلادك بسلام .

ومن أخلاقهم محبة المصافحة عقب مجلس الذكر

لجميع اخوانهم رجاء المغفرة لهم دون تمكينهم من تقبيل اليد ، ثم يمسحون باليد التي صافحت إخوانهم على وجوههم رجاء البركة .

فعلم ان أحداً من القوم لايصح له أن يرى نفسه على أحد من مريديه ، فهو يسلكهم ويربيهم ، ويعلمهم الآداب حال شهوده أنهم أحسن منه حالا عند الله تعالى .

فلا تظن ياخي ان أحداً من القوم يرى نفسه على أحد من مريديه أبداً ولذلك يكاد أحدهم يذوب إذا قبل أحد يده ، فالناس يقبلون يدهم إكراما لهم وهم يكرهون ذلك منهم نظير القيام لهم على حد سوا والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم إيثارهم جناب الحق تعالى على جنابهم

حتى انهم يكرهون للمريد أن يشركهم فى المحبة مع الحق تعالى فى المحبة ايثاراً لجناب الحق تعالى ، ولولا ان لمحبة الشيخ اثراً فى تقريب الفتح على المريد ، لما مكنوه من محبته لهم أصلا ، فعلى المريد ان يحبهم وعليهم الكراهة لذلك .

وقد بلغنا عن الشيخ القطب أبى مدين التلمسانى رضى الله تعالى عنه انه رأى الفتح بعيداً على مريد مع شدة اجتهاده فى المحبة للعبادة فنظر فى سبب ذلك ، فإذا هو محبة الشيخ فقال له الشيخ :

اترك محبتى يفتح عليك ففعل ففتح عليه تلك الليلة ، فرضى الله تعالى عن الصادقين .

فاعرض هذا الخلق وماقبله على نفسك واقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم تقريرهم فقراء الأحمدية والبرهانية والرفاعية على اكتفايهم بمشايخهم الذين ماتوا

فانهم صاروا فى البرزخ لاالتفات لهم إلى إرشاد أحد من الخلق وان وقع انهم أرشدوا أحداً وهم فى قبورهم ، فذلك من باب الكرامة كما وقع لسيدى أحمد البدوى ، وسيدى إبراهيم الدسوقى فإنهما ربيا خلقا كثيرا فى قبرهما .

وقد درج القوم كلهم على اتخاذهم الأشياخ بعد موت أشياخهم ، ولم يكتفوا بتوجههم إليهم فى قبورهم ، ولما مات سيدى الشيخ محمد السروى [1] شيخ شيخنا الشيخ محمد الشناوى اجتمع سيدى محمد الشناوى بسيدى على المرصفى رضى الله عنهم وأخذ عنه الطريق وقال :

كرهت أن أمكث ساعة بلا أستاذ .

مع انه كان مأذوناً له فى تربية المريدين من أستاذه ولقن المريدين ورباهم سنين فى حياة شيخه وهذا الأمر لايقع إلا من الصادقين أما أصحاب الرعونات فلا يقدرون على نفوسهم تنكيس للأخذ عن احد بعد الإذن من أستاذهم فالحمد لله رب العالمين .

---

(١) هو الشيخ محمد السروى رضى الله عنه : من أجلاء مشايخ مصر : كان يقول : ما رأينا قط أحداً وصل إلى الله بمجرد قراءة الأحزاب والأوراد .
وكان يقول : نحن ما نعرف إلا لا إله إلا الله بعزم وهمة .
مات رحمه الله سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة .

ومن أخلاقهم عدم مبادرتهم إلى الانكار على من أمر أحدا من تلامذته بحلق لحيته مثلا

فربما كان ذلك منهم امتحانا له لينظروا اذعانه وامتثاله لما يأمرونه به لا وقوع ذلك الفعل حقيقة ، كما أمر الله تعالى ابانا السيدابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام بذبح ولده وكان المراد منه امتثال الأمر لا الذبح إذ لو أراد الله تعالى ذبحه لم يفده بالكبش

فيجب على الشخص أن يتربص فى انكاره ولا ينكر إلا بعد علم محقق ، ولكن قل من يصبر من المتشرعين علي ذلك .

وقد كنا مرة فى دعوة وفيها الشيخ بهاء الدين المجذوب [1] فرمانا بقلة فيها ماء ، فصعدت إلى السقف ، ثم هبطت ، فقال فقيه كسر القلة ، فقال له الشيخ تكذب يافقيه فوقعت على الأرض جالسة صحيحه لم ينقص من مائها شيء .

ونقل الشيخ عبد الغفار القوصى أن بعض الأولياء كان جالسا يعظ الناس ، فنزل من الكرسى وضرب شخصاً على رأسه من السامعين ، ثم رجع إلى الكرسى فقيه [2] : هذا حرام عليك ايش عمل هذا حق تضربه ؟ فقال المضروب : أنا أستحق ذلك لأنى اغتبت فى نفسى ولياً من الأولياء المدفونين فضربنى تعزيراً ، فخجل ذلك الفقيه من الشيخ ، ثم انه نزل وضرب شخصاً آخر فسألوه عن ذلك ، فقال : إنه خطر فى نفسه انه أفضل من العلماء الحاضرين ، وقال له : كيف تفضل نفسك أما علمت أن ذلك ذنب إبليس الذى أخرج به من الجنة ، فقال الشخص : استغفر الله تعالى وتاب من ذلك .

---

(١) هو الشيخ بهاء الدين المجذوب : كان رضى الله عنه من أكابر العارفين وكان كشفه لا يخطىء وكان رضى الله عنه خطيبا فى جامع الميدان ، وكان أحد شهود القاضى . مات رحمه الله سنة نيف وعشرين وتسعمائة .

(٢) ربما يقصد (فقال فقيه) .

وكذلك لاينبغي لأحد أن يبادر إلى الانكار علي من أمره شيخه بحلق لحيته وحلقها فربما كان ذلك من شيخه ليدفع به عنه الكبر والفخر ، فقصد به هضم نفسه من باب ارتكاب اخف المفسدتين ، فإن الكبر من الكبائر وغاية حلق اللحية أنه صغير عند بعضهم ، فاعلم ذلك واعرضه وماقبله على نفسك وإخوانك تعرف مقامك ومقامهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : التزاور لبعضهم بعضا كلما اشتاقوا لبعضهم

ووجدوانية صالحة ، وان وقع أن أحدهم لم يزر أخاه وبخ نفسه على ذلك .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول :

الزيارة للإخوان تزيد فى دين الإنسان وتركها ينقص دينه ، لأنها كتلقيح النخل [١] انتهى .

وقد كان الإمام الشافعي يزور الإمام أحمد رضى الله تعالى عنهما كثيرا ويزوره الآخر كذلك وأنشد الإمام الشافعى فى ذلك :

قالوا يزورك أحمد فتزوره ‍ ‍ ‍ ‍ قلت الفضايل لاتفارق منزله

ان زارنى فبفضله أوزوته فبفضله ‍ ‍ ‍ ‍ فالفضل فى الحالين له

فأجابه الإمام أحمد رضى الله عنه :

ان زرتنا فبفضل منك تمنحنا ‍ ‍ ‍ ‍ أونحن زرنا فللفضل الذى فيكا

فلا عدمنا كلا الحالين منك ولا ‍ ‍ ‍ ‍ نال الذى يتمنى فيك شانيكا

ثم لما مات الإمام الشافعى رثاه الإمام أحمد بقوله :

ياجوهر الجوهر المكنون من مضر ‍ ‍ ‍ ‍ ومن قريش ومن ساداتها الغرر

لما توليت ولى العلم مكتئباً ‍ ‍ ‍ ‍ وضر موتك أهل البدو والحضر

وهذا الخلق قدصار غريبا فى هذا الزمان فلا تكاد ترى فقيرا يزور أخاه إلاقليلا، فكثرت الضغائن بينهم وما هكذا أدركنا المشايخ رضى الله عنهم ، فحرر ياأخى نيتك وزر اخوانك وإن لم يزوروك واسقط عنهم المكافأة والحمد لله رب العالمين .

---

(١) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (من عاد مريضاً أو زار أخا له فى الله ناداه مناد بأن طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلا) .

رواه الترمذى وقال حديث حسن .

ومن أخلاقهم : تعليم أصحابهم العفة عن مال الوقف

الذين يتكلمون عليه والتقلل من الاكل إذا دعاهم أحد إلى طعامه ماأمكن ، وهذا باب قد أغفله غالب الناس اليوم ، وقد ظفرت طول عمرى بسبعة أنفس من الأمناء أحدهم الشيخ إبراهيم السند بصطى رحمه الله الذى كانت عمارة زاويتنا وجميع مساكنها على يديه ، فتعاطى جباية مال وقف الزاوية نحو اثنتى عشر سنة ، فلم أعلم انه اختلس من مالها درهما واحدا مدة جبايته وعمارته وأصل ذلك اتحاده بى وسماعه لاشارتى ، وكان إذا أتى بهدية للفقراء لايلحس منها لحسة من ورائهم ، ولما حضرته الوفاة أوصى ولده بوصايا منها ان جميع ثيابى لعبد الوهاب ، وان كفتنى فذلك من فضله ، ثم وليت بعده شخصاً آخر فتشرب قلبه حب الدنيا ، وخالفنى وأظهر لى العفة والزهد فلما مات وجدوا بعده فى مدة يسيرة نحو خمسماية دينار ذهباً ، ومات وهو يقول : يامالى يامالى ، فاسأل الله أن يتجاوز عنه بفضله آمين والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أن لا يستجلبوا أحدا من أبناء الدنيا لصحبتهم

وكالدفتردار وشيخ العرب والكاشف وأعوانهم ، إلا إن علموا من طريق كشفهم أن له نصيبا عندهم من التربية وتعليم الادب ، وقبول الشفاعة ، ونحو ذلك وإذا لم يكشف لهم ، فمن الأدب عدم استجلا به ولكن ان جاءهم هو من ذات نفسه قبلوه ، وصارقوه فى تعليم الأدب ، وتخفيف المظالم ماأمكن .

وقد برز فى هذا الزمان جماعة يستجلبون صحبة مشايخ العرب والكشاف لغير غرض صحيح ظاهر ، فأساء الولاة ظنهم بأمثالهم من الصادقين ، وبهدلوا الطريق ، فالله تعالى يلطف بناويهم .

وقد رأيت شخصاً من تلامذة شيخ يدعى القطبية فى حياة شيخه ، ثم بعد ذلك يسأل الولاة أن يعطوه الارز ، والبسلة ، والعسل ، والقمح ، والعدس ، وماهكذا درج الأشياخ الذين أدركناهم .

فاياك ياخى أن تستجلب أحدا من الولاة لصحبتك إلا بطريق شرعى .

فاعرض هذا الخلق وماقبله علي نفسك ، وعلى أقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين [١] .

---

(١) يقول الإمام القشيرى : ومن شأن للمريد : التباعد عن أبناء الدنيا ، فإن صحبتهم سم مجرب !! لأنهم ينتقصون به وهو ينتقص بهم ، قال الله تعالى : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا » .

وأن الزهاد يخرجون المال عن الكيس تقربا إلى الله تعالى ، وأهل الصفاء يخرجون الخلق والمعارف من القلب تحققا بالله تعالى .

ومن أخلاقهم كثرة سؤالهم الله تعالى أن يسلب عنهم الحال الذى يؤذى من اذاهم

فإن ذلك خروج عن طريق العارفين فلوان الوجود كله قام عليهم بالاذى ماتغير منهم شعرة ، ثم انهم لايرون ذلك مقاما عظيما ، لأنه مقام ابليس ، فإنه اجتمع بسهل بن عبد الله التسترى وقال له :

ياسهل أنا أعلى مقاماً فى الرضى بعلم الله تعالى منكم .

فقال : كيف ؟

فقال : لأن الواحد منكم إذا قام عليه أهل بلدة بالتنقيص يتغير منه كل شعرة ، ولا يقنع بعلم الله تعالى فيه ، والوجود كله يلعننى ، فلم تتغير منى شعرة اكتفاءاً بعلم الله تعالى فى .

وقد كان سيدى أحمد بن الرفاعى رحمه الله يقول :

بلغنى ان النار الكبرى يوم القيامة تنزوى من المؤمن صاحب الحال وتقول جز يامؤمن فقد أطفئ نورك لهبى ويمر عليها الولى الكبير فتصيب جوانبه النار انتهى .

وايضاح ذلك ان العارف قد سلم أمره لمولاه ، وصار كالميت بين يدى غاسله ورأى جسمه ملكا للحق تعالى لالنفسه ، فسقطت مدافعته عنه اللهم إلا ان يكون مشهده ان الله تعالى أمنه على جسمه ونهاه عن أن يلقي بنفسه إلى التهلكة ، فهذا لايضره دفع النار عن جسمه يوم القيامة كما هو حاله فى الحياة الدنيا ، وقد سرقوا مرة ستر سيدى أحمد الزاهد ، فلم يعرف سارقه فقال بعض الناس : لو كان لهذا الشيخ سر لقيد السارق حتى مسكوه ، فقلت لهم : حكم الستر حكم القميص ، ولو أن السارق سرق قميص الشيخ فى حال حياته ماتأثر منه بل كان يبرى ذمته فى الدنيا والآخرة ، فإن حاله فى البرزخ لايخالف حاله فى حياته انتهى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم تربيتهم لأصحابهم بالنظر

فيقوم نظرهم إليهم مقام اللفظ لكن ذلك خاص بمن رق حجابه منهم ، أما صاحب الحجاب الكثيف ، فقد يربونه بالقول والفعل والهجر والزجر وهيهات أن يفلح .

وكان على هذا القدم سيدى الشيخ أبو الحسن الشاذلى ، وسيدى على الخواص ، فكان سيدى أبو الحسن يقول :

إذا كانت السلحفاة تربى أولادها بالنظر ، فكيف بالفقير منا .

وكان سيدى على الخواص يربى بالنظر تارة ، ويأمره المريد أن يشرب من ابريقه تارة ، فيقوم ذلك مقام التلقين ، وأخذ العهد فى حصول المدد ، وقد من الله على بذلك فربيت جماعة من أصحابى بالنظر نحو ثلاثين نفسا كما أوضحت ذلك فى كتاب المنن والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم تقريب الطريق على المريد ما أمكن

وذلك باشغاله لهم بالتوحيد ، فلا يزال يشتغل به حتى ينكشف حجابه ، فإذا انكشف حجابه عرف الأمور على ماهى عليه ، واستغنى عن مطالعة رسائل القوم وصار يتكلم كما تكلموا .

وان ذكر عن أحد منهم كلاما فإنما ذلك استشهادا لموافقة كلامه القوم لاغير .

وقد كان سيدى الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه يقول .

إنما ننظر فى كلام القوم لننظر ماأنعم الله به علينا دونهم لالنستفيد منه مالم يكن عندنا انتهى .

ثم لابد للمريد مع اشتغاله بالتوحيد من الجوع ، والعزلة ، وقلة النوم ، وقلة اللغو والا فكل شىء حصل له من نور التوحيد يطفيه بظلمة الأكل واللغو كما هو مقرر فى أركان الطريق .

وقد عجز الأشياخ أن يوصلوا مريدا إلى شىء من مقامات الطريق مع إخلاله بالاركان ، فلم يقدروا فعلم ان غير التوحيد من صلاة النافلة ، وقراءة القرآن ، وان كان طاعة فالوصول به بعيد جدا لأن ذلك إنما هو من أوراد الكمل بعد أن عرفوا الله تعالى وزال عنهم حجابهم

وأما المريد فليس المطلوب منه إلا العمل على جلاء قلبه بما يأمره به شيخه الصادق فى الطريق والحمد لله رب العالمين [1] .

---

(١) وإذا أحكم المريد بينه و بين الله عقده ، فيجب أن يحصل من علم الشريعة ، إما بالتحقيق ، وإما بالسؤال عن الأئمة مايؤدى به فرضه ، وإن اختلف عليه فتاوى الفقهاء يأخذ بالأحوط ، ويقصد الخروج من الخلاف ، فإن الرخص فى الشريعة للمستضعفين وأصحاب الحوائج والأشغال .

وهؤلاء الطائفة ليس لهم شغل سوى القيام بحقه سبحانه ، ولهذا قيل : إذا انحط الفقير

. . . . .

عن درجة الحقيقة إلى رخصة الشريعة فقد فسخ عقده مع الله ، ونقض عهده فيما بينه وبين الله تعالى :

ثم يجب على المريد أن يتأدب بشيخ ، فإن لم يكن له أستاذ لايفلح أبداً .

هذا أبو يزيد يقول : من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان .

وسمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق ولكن لاتثمر ؛

كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته نفساً ، نفساً فهو عابد هواه ، لايجد نفاذاً .

ثم إذا أراد السلوك فبعد هذه الجملة يجب أن يتوب إلى الله سبحانه وتعالى من كل زلة فيدع جميع الزلات : سرها وجهرها ، صغيرها وكبيرها ، ويجتهد فى إرضاء الخصوم أولا ومن لم يرض خصومه لايفتح له من هذه الطريقة بشىء .

وعلى هذا النحو جروا ، ثم بعد هذا يعمل فى حذف العلائق والشواغل ، فإن بناء هذا الطريق على فراغ القلب .

وكان الشبلى يقول للحصرى فى ابتداء أمره : إن خطر ببالك من الجمعة إلى الجمعة الثانية التى تأتينى فيها غير الله تعالى فحرام عليك أن تحضرنى .

وإذا أراد الخروج عن العلائق فأولها : الخروج عن المال ؟ فإن ذلك الذى يميل به عن الحق ، ولم يوجد مريد دخل فى هذا الأمر ومعه علاقة من الدنيا إلا جرته تلك العلاقة عن قريب إلى مامنه خرج ، فإذا خرج عن المال ، فالواجب عليه الخروج عن الجاه ، فإن ملاحظة حب الجاه مقطعة عظيمة .

وما لم يستو عند المريد قبول الخلق وردهم لايجىء منه شىء ، بل أضر الأشياء له ملاحظة الناس إياه بعين الإثبات والتبرك به لإفلاس الناس عن هذا الحديث ، وهو بعد لم يصحح الإرادة ، فكيف يصح أن يتبرك به ؟

فخروجهم من الجاه واجب عليهم ، لأن ذلك اسم قاتل لهم ، فإذا خرج عن ماله وجاهه فيجب أن يصحح عقده بينه وبين الله تعالى ، وأن لايخالف شيخه فى كل مايشير عليه ، لأن الخلاف للمريد فى ابتداء أمره عظيم الضرر ؟ لأن ابتداء حاله دليل على جميع عمره .

ومن شرطه : أن لا يكون له بقلبه اعتراض على شيخه ، فإذا خطر ببال المريد أن له في الدنيا والآخرة قدراً أو قيمة ، أو على بسيط الأرض أحد دونه لم يصح له في الإرادة قدم لأنه يجب أن يجتهد ليعرف ربه لا ليحصل لنفسه قدراً .

وفرق بين من يريد الله تعالى وبين من يريد جاه نفسه ، إما في عاجله وإما في آجله ، ثم يجب عليه حفظ سره حتى عن زره إلا عن شيخه ، ولو كتم نفساً من أنفاسه عن شيخه فقد خانه في حق صحبته ، ولو وقعت له مخالفة فيما أشار عليه شيخه فيجب أن يقر بذلك بين يديه في الوقت ، ثم يستسلم لما يحكم به عليه شيخه عقوبة له على جنايته ومخالفته إما بسفر يكلفه أو أمر يراه .

ولا يصح للشيوخ التجاوز عن زلات المريدين ، لأن ذلك تضييع لحقوق الله تعالى ، وما لم يتجرد المريد عن كل علاقة لا يجوز لشيخه أن يلقنه شيئاً من الأذكار ، بل يجب أن يقدم التجربة له ، فإذا شهد قلبه للمريد بصحة العزم فحينئذ يشترط عليه أن يرضى بما يستقبله في هذه الطريقة من فنون تصاريف القضاء فيأخذ عليه العهد بأن لا ينصرف عن هذه الطريقة بما يستقبله من الضرر والذل ، والفقر والأسقام والآلام ، وأن لا يجنح بقلبه إلى السهولة ولا يترخص عند هجوم الفاقات وحصول الضرورات ولا يؤثر الدعة ، ولا يستشعر الكسل فإن وقفة المريد شر من فترته .

والفرق بين الفترة والوقفة أن الفترة رجوع عن الإرادة وخروج منها والوقفة سكون عن السير باستحلاء حالات الكسل .

وكل مريد وقف في ابتداء إرادته لا يجيء منه شيء . فإذا جربه شيخه فيجب عليه أن يلقنه ذكراً من الأذكار على ما يراه شيخه فيأمره أن يذكر ذلك الاسم بلسانه ، ثم يأمره أن يستوى قلبه مع لسانه فيقول له : أثبت على استدامة هذا الذكر كأنك مع ربك أبداً بقلبك ولا يجرى على لسانك غير هذا الاسم ما أمكنك ثم يأمره أن يكون أبداً في الظاهر على الطهارة ، وأن لا يكون نومه إلا غلبة ، وأن يقلل من غذائه بالتدريج شيئاً بعد شيء حتى يقوى على ذلك ، ولا يأمره أن يترك عادته بمرة فإن في الخبر : (إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى) ثم يأمره بإيثار الخلوة والعزلة ، ويجعل اجتهاده في هذه الحالة لا محالة حتى نفى الخواطر الدنية والهواجس الشاغلة للقلب .

. . . . .

وأعلم أن في هذه الحالة قلما يخلو المريد في أوان خلوته في ابتداء إرادته من الوساوس في الاعتقاد ؛ لاسيما إذا كان في المريد كياسه قلب ؛ وقل مريد لاتستقبله هذه الحالة في إبتداء إرادته .

وهذه من الامتحانات التي تستقبل المريدين ؛ فالواجب على شيخه إن رأى فيه كياسة أن يحيله على الحجج العقلية فان بالعلم يتخلص لا محالة المتعرف مما يعتريه من الوساوس .

وإن تفرس شيخه فيه القوة والثبات في الطريقة أمره بالصبر واستدامة الذكر حتى تسطع في قلبه أنوار القبول ؛ وتطلع في سره شموس الوصول وعن قريب يكون ذلك .

ولكن لايكون هذا إلا لأفراد المريدين . فأما الغالب فأن تكون معالجتهم بالرد إلى النظر وتأمل الآيات بشرط تحصيل علم الأصول على قدر الحاجة الداعية للمريد .

وأعلم أنه يكون للمريدين على الخصوص بلايا من هذا الباب وذلك أنهم إذا خلوا في مواضع ذكرهم ؛ أو كانوا في مجالس سماع أو غيره ذلك فيهجس في نفسه ويخطر ببالهم أشياء منكرة يتحققون أن الله سبحانه منزه عن ذلك ؛ وليس تعتريهم شبهة في أن ذلك باطل ولكن يدوم ذلك فيشتد تأذيهم به حتى يبلغ ذلك حداً يكون أصعب شتم وأقبح قول وأشنع خاطر بحيث لايمكن للمريد إجراء ذلك على اللسان وإبداؤه لأحد وهذا أشد شيء يقع لهم .

فالواجب عند هذا ترك مبالاتهم بتلك الخواطر واستدامة الذكر والابتهال إلى الله باستدفاع ذلك .

وتلك الخواطر ليست من وساوس الشيطان وإنما هي من هواجس النفس فإذا قابلها العبد بترك المبالاة بها ينقطع ذلك عنه .

ومن آداب المريد بل من فرائض حاله أن يلازم موضع إرادته وأن لايسافر قبل أن تقبله الطريق وقبل الوصول بالقلب إلى الرب ، فان السفر للمريد في غير وقته سم قاتل ، ولا يصل أحد منهم إلى ما كان يرجى له إذا سافر في غير وقته .

وإذا أراد الله بمريد خيراً ثبته في أول إرادته ، وإذا أراد الله بمريد شراً رده إلى ما خرج عنه من حرفته أو حالته ، وإذا أراد الله بمريد محنة شرده في مطارح غربته ، انتهى.

الرسالة القشيرية للإمام أبي القاسم القشيري

ومن أخلاقهم : أن لايرجعوا فى ماخرجوا عنه فى فى سرهم لأحد

ولوعمامتهم أوجوختهم أو مضربتهم ، وربما طرقهم ذلك الخاطر ، وهم فى بيت الخلاء فينزعونه فيه لمن خرجوا له عنه ، وقد قررنا مراراً ان الخاطر الأول لايدخله علة بل هو من الله تعالى ، بخلاف الخاطر الثانى ، ومابعده .

فعلم ان من خرج عن شىء فى سره ، ورجع فيه استحق التأديب عندهم ، وربما عاقبه الله تعالى بسرقة ذلك الشىء منه أوحرقه ، كما وقع لسيدى حسن الاخنائى ، وذلك انه رأى شخصاً بردانا ، فخطر فى باله انه يعطيه المضربة التى عليه ، ثم نام ، ولم يعطه شيئاً ، فاستيقظ ، فلم يجد المضربة عليه ، فسأل عنها فكاشفه البردان ، وقال :

إنك لما رجعت عنها فى سرك ونمت أعدمها الله تعالى لالى ولا لك ، فاياك والرجوع عن شىء تخرج عنه فى سرك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إذا طال مكث الضيف عندهم أشهراً

وهم يطبخون له ، ويقومون بواجبه ، ثم وقع له نزغة شيطانية ، فأنكر فضلهم وصار يحط فيهم ان لا يمنوا عليه ، ولا يقولوا : هذا جزا الخير الذى عملناه مع فلان ، فمن قال مثل ذلك ، فهو دليل على انه أضافه لغير وجه الله عز وجل ، فان من أطعم لوجه الله عز وجل لا يريد من الضيف جزاء ، ولا شكورا ، فليطعم الفقير ضيفه لله تعالى ، ويفرح كلما كفر الضيف نعمته لأن بذلك يتوفر له الأجر إن كان من عبيد الاجرا ويصير له المقام العظيم عند الله تعالى ان كان أطعمه لله تعالى .

فيحتاج من يتصدر للقاء الضيوف أن يكون صاحب بصيرة ، حتى لا يرى له فضلا على أحد من خلق الله تعالى ، إنما هو وكيل يطعم عباد الله من مال الله تبارك وتعالى ، وهناك يتخلص من ورطه الرياء ويصير يشكر الله تعالى الذى استعمله فى خدمة عباده .

فأعرض ياخى هذا الخلق وماقبله علي نفسك واقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كثرة أدبهم مع كل من تزيا بزى الفقرا

وإن لم يطلب منهم هوذلك اكراما للخرقة ؛ وقد حكى لى شيخنا الشيخ محمدالشناوى رحمه الله تعالى .

ان كلباً مر على سيدى عبد الرحيم القنائى بصعيد مصر الأعلا فقام الشيخ له فقيل له :

اتقوم لكلب فقال :

انظروا لما فى عنقه إنما قمت لأثر الفقراء الذى فى عنقه .

وكان سيدى إبراهيم الدسوقى رضى الله عنه يقول :

إذا ضحك الفقير فى وجه أحدكم ، فاحذروه ولاتخالطوه إلا بالأدب ، فإن الفقراء ربما مزحوا كما يمزح الناس ، وهم فى ذلك مع الله تعالى لامع الناس وربما فعلوا شيئاً تخريباً لظاهرهم ، وتستير الحالهم ، حتى لا يعتقد أحد فيهم فيشغلهم عن ربهم عز وجل من باب دفع الأشد بالأخف .

وقد مر انسان طائر فى الهوى على رأس سيدى عبد الله البلتاجى ، ولم يتواطأ له ، فسلب حاله فى الوقت ونزل إلى الأرض فما كان الانقطع لإساته الأدب معسيدى عبد الله، ثم صار بعد ذلك شرطياً عند كاشف المحلة إلى أن مات .

فألزم حتما ياأخى الأدب تأمن العطب ، فربما كان الولى يتعاطى الحكايات المضحكات، ويصفعه الناس فى الأسواق ، وهو فى ذلك حاضر بقلبه مع الله تعالى ، وأنت فى حال صلاتك ربما تكون غافلا عن الله تعالى .

وقد حكى لى السيد الشريف العالم الصالح بزاوية الحطاب بمصر :

أن شخصاً كان يدخل سوق الورافين كل يوم اثنين وخميس ، فيقف على الإنسان يطلب جديداً ، فإذا أخذه لايفارق صاحب الحانوت إلا ان صكه عشر صكات ، فوقف

يوماً على شيخ الورافين ، فأعطاه عادته .

فقال : صكنى .

فقال له : ياأخى ما أنا منشرح لمثل ذلك .

فقال :لا بد من ذلك .

فاجتمع عليه الناس وضيقوا على المارين لأنه سوق ضيق ، وقالوا له : صكه فقام وصكه عشر صكات بغين فطأطأ له وقال له فى اذنه : حاجتك مقضية ولكن إيت التربة التى بجوار جامع محمود الليلة بعد الفجر ، وصحبتك أربعون رغيفا فى كل رغيف نصف رطل من الجبن المقلى ، وابريق كبير فيه ماء حلو ، ففعل فلما جاء التربة بعد الفجر ،وقف على الباب ، ونظر من خلال الباب ، فإذا جماعة بيض الثياب جالسون عند المحراب وعليهم قنديل يضىء وإذا ذلك الرجل الذى صفعه فى السوق هو شيخ الجماعة .

فقال لواحد : قم خذ الذى مع هذا الواقف على الباب ، واقض حاجته ، ففعل ثم رفع ذيل شيخ السوق ومسح بريقه على بطنه ووركه ، وكان به برص فزال البرص فى الحـال .

وكان أصل تـكدره ذلك اليوم الذى صك ذلك الشيخ فيه أن ابنة عمه نظرت إلى البرص الذى طلع فى بطنه ، فنفرت نفسها منه وخافت أن تعتدى منه ، فخرجت إلى بيت والدها فساق عليها الناس ، فلم ترض وطلبت الطلاق ، فلما قضيت حاجته من زوال البرص رجع فوجد ابنة عمه فى داره وأخبروه بأنها قالت لأهلها : إن لم تخلونى أذهب إلى زوجى قتلت نفسى . وماعرفوا سبب ذلك .

فلما كان يوم الخميس دخل الشيخ على عادته يأخذ جديداً ، ويصفعه الناس إلى أن وقف على شيخ الوراقين . فقال له : خذ هذه الفضة كلها ، فأبى إلا أن يأخذ الجديد فقط. فلما أعطاه الجديد قال له : كل عادتى بالصك فتشفع عنده بالنبى ﷺ فترك صكه .

وقال : بشرط أن تسكتم ذاك على حتى أموت . فلما جاء يوم الاثنين دخل السوق وهو يعرض لذاك الرجل ويقول :

مايضر الإنسان إلا لسانه . فكل من سكت نجا وكل من تكلم رجع كل شيء إلى ما كان ، ثم وقف على شيخ الوراقين ، فأخذ منه الجديد .

وقال له : صكنى واحدة صغيرة فتشفع عنده بالأولياء ، فقبل شفاعته هذه حكاية السيد لى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كراهتهم وقوع الخوارق على يديهم فى هذه الدار

لأن محل ذلك إنما هو الدار الآخرة حين يعطى أهل الجنة أن أحدهم يقول للشىء كن فيكون .

فمن اختار وقوع الخوارق على يديه ، فقد اختار العرض الفانى على الجوهر الباقى .

على أنه ماثم خرق عادة إنما هى كوائن يخلقها الله تعالى ، لايشهدون لهم فيها فعلا ، وغاية أمرهم أنهم محل لبروزها فقط ، والفعل فيها لله تعالى وحده .

فلا فرق عندهم بين الكرامة وبين سائر الأفعال الواقعة فى الوجود وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن الكبرى فراجعه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : شدة محبتهم لآل سيدهم ومولاهم رسول الله
صلى الله عليه وسلم وأصحابه

ولا يفاضلون بينهم إلا بنص أو إجماع ، ويهربون من التعصب لأولاده صلى الله عليه وسلم على أصحابه وعكسه .

وسمعت سيدى عليا الخواص رضى الله عنه يقول :

لا يكفى فى محبة الشرفاء وأولاد الصحابة المحبة العادية ، وإنما يكفى العبد المحبة الحقيقية ، وهو أن يتحمل التعذيب بالنار ، والضرب ، وأخذ المال والإخراج من الأوطان . ولا يرجع عن إظهار محبتهم . ونشر محاسنهم ؛ كما وقع لبلال وعمار وصهيب ولم يرجعوا عن دين الاسلام .

فإن محبة أولاده ﷺ والصحابة من الدين بيقين .

ونظير ذلك ماوقع للإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه فى مسألة القول بخلق القرآن ، فاحتمل الضرب الشديد والحبس ، ولم يوافقهم على القول بخلق القرآن ، ولو بقصد التأويل .

فحقق يا أخى المحبة فى أولاد رسول الله ﷺ وأصحابه ، فربما تكون محبتك عادية .

وإياك والتفاضل بينهم بالهوى فإن ذلك من قسم الغيبة للمفضول .

وقد قال سفيان الثورى فى طبيبين دخلا عليه :

لولا أخشى أن تكون غيبة لقلت :

أن أحدهما أعرف بالطب من الآخر ، انتهى .

فلا ينبغى لأحد أن يقول : فلان أعلم من فلان إلا بطريق شرعى .

فاعرض يا أخى هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف حالكما ، والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : تفتيشهم لأعضائهم الظاهرة والباطنة

صباحاً ومساء هل حفظت حدود الله تعالى التي حدها ، أو تعدت حدوده ؟ وهل قامت بما أمرت به من غض البصر وحفظ اللسان والأذن والقلب وغير ذلك على وجه الاخلاص أو لم تقم ؟

وذلك ليحمدوا الله تعالى إن رأوا جوارحهم محفوظة ، ويستغفروا الله تعالى إذا رأوها وقعت فى محظور أو مكروه .

وكان هذا من خلق سيدى إبراهيم المتبولى رضى الله عنه ، ولم أر له فاعلا بعد سيدى على الخواص وأخى الشيخ أفضل الدين إلى وقتى هذا .

وبه يعرف العبد مقدار ما أنعم الله تعالى به عليه عادة من استعماله فى الحسنات ، وحفظه من الوقوع فى الزلات .

فإن رأى جارحة من جوارحه أطاعت شكر الله تعالى ولم ير نفسه أهلا لها وإن رآها تلطخت بمعصية من معاصى الله تعالى ، يستغفر الله تعالى منها ، ويشكره إذا لم يقدر عليه أكثر من تلك المعصية .

وكان سيدى إبراهيم المتبولى إذا دخل مصر بدأ بالبيمارستان ، فيطوف على المرضى واحداً ، واحداً . فلا يخرج من عند المرضى إلا وهو يرى نعم الله تعالى قد غمرته ، فيشكر الله تعالى الذى لم يبتل جوارحه التى عصت بالأمراض والجراحات ، والدمامل والقروح ، فإن كل عضو عصى استحق نزول سائر البلايا به[1] .

وكان سيدى على الخواص إذا وجد فى قلبه قساوة يدخل على المرضى بالبيمارستان ، ثم يدخل بيت الوالى فيجلس فيه وينظر مايقع فيه من العقوبات على أصحاب الجرائم

---

(١) عن أبى يعلى بن شداد رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال :
(الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى) رواه الترمذى .

والتهم ، ثم يخرج إلى حبس الديلم والمقشرة فينظر إلى المقيدين فيه والموعودين بالقتل وغيره . فلا يخرج إلا وهو رقيق القلب يبكى ، ويشكر الله تعالى الذى لم يؤاخذه على ماوقع فيه .

فإن العبد ربما يستحق أن يفعل به جميع مارآه فى البيمارستان ، وبيت الوالى ، وحبس المجرمين .

فكم عصى العبد بفرجه ولسانه وسمعه وبصره ويده ورجله وفمه وقلبه ، فاستحق العمى وطلوع القروح فى عينيه ، وتربية الدود فى قبة أجفانه من داخل ، حتى يصير لايتهنا بأكل ولا نوم ، واستحق طلوع القروح والخراريج فى باطن أذنه حتى أنه يحس بأن خازوقاً من حديد تدق فى أذنه ليلا ونهاراً ، ومنهم من تدود أذنه ويصير فيها دود كاذناب المغازل . ومنهم من يطلع فى لسانه الذى اغتاب به الناس طلوعات تذاب لسانه وشفتاه وتقرح فمه ونتن . حتى صار طاقة وأسنانه بارزة وأنفه أكل حتى صارت زوجته لاتقدر على القرب منه من القيح والنتان . ومنهم من طلع فى محاشمه الأكلة حتى رمت ذكره وأنثييه وصار موضعه كالطاق والدود يغلى فيه كالقدر . ومنهم من طلع فى دبره أكلة فأكلت المحيط به وصار روثه دائماً نازلا لو لم يشده بخرقة ومشاق . ومنهم من طلع به بواسير ونواصير داخلة وخارجة وشقاق فصار يحس بأن دبره يشرح بسكين كالة ليلا ونهاراً لايتهنا بنوم ، ومنهم من ضربه البرص والجذام حتى تقطعت أعضاؤه وقذرته زوجته التى يحبها وأصحابه .

ومنهم من طلع عليه الحب الفرنجى وصار عظمه يضرب عليه ليلا ونهاراً يتمنى الموت فلا يجاب وينام الجن والانس وهو لاينام ، ومنهم من ابتلى بأسر البول والحصا وجرد الكلا حتى صارت كلاه تقع قطعاً قطعاً من دبره .

ومنهم من تورم قلبه كما بسطنا الكلام عليه فى كتاب العهود المحمدية .

فاعمل يا خى بهذا الخلق صباحاً ومساء ليحميك الله تعالى من هذه الأمراض إن شاء الله تعالى وأكثر من الشكر والإستغفار ، والحمد لله رب العالمين .

سواء تذكروا ذنوباً معينة أم لم يتذكروا لاسيما أول النهار وآخره ، وأول الليل وآخره فينام أحدهم على الاستغفار ويصبح على الاستغفار . وبذلك يأمن العبد من نزول البلاء عليه قال الله تعالى :

« وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون[1] » .

والحمد لله رب العالمين[2] .

---

(۱) سورة الأنفال آية : ۳۳ .

(۲) سئل الجنيد عن التوبة فقال : أن تنس ذنبك .

وقال سهل بن عبد الله : التوبة : ترك التسويف .

وقال الجنيد : التوبة على ثلاث معان : أولها الندم ، والثانى العزم على ترك المعاودة إلى مانهى الله عنه .

والثالث السعى فى أداء المظالم .

وقال ذو النون : الإستغفار من غير إقلاع توبة الكاذبين .

ومن أخلاقهم : خدمة زوجتهم وأمتهم إذا مرضت

ولا يأنفون من شيل القذر من تحتها ، فإنه لو مرض لفعلت معه ذلك ، إذا عجز عن الذهاب إلى بيت الخلاء ، وإذا طال مرض زوجة أحدهم السنه ، وأكثر صبر على العزوبة وفاء بحقها .

ولا يتزوج ولا يتسرى إلا لغرض شرعي ظاهر .

وإن احتاج إلى الجماع تعاطى أسباب تخميد الشهوة بقلة الأكل والاشتغال بالعبادة ونحو ذلك .

فعلم أن من لم يخدم زوجته أو جاريته أو غلامه إذا مرض ، فهو لم يشم من أخلاق الصالحين رائحة ، فإن من أخلاقهم الخدمة لمن ليس له خدمة ، ولا فضل عليهم ولا يرون بعد ذلك لهم عليه فضلا ، فكيف بمن خدمهم الدهر ؟ وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين [1] .

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ .
أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وخياركم خياركم لنسائهم » رواه الترمذي .
وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :
الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة » .

ولو غلب على ظنهم السلامة من الوقوع فى فاحشة احتياطا لأنفسهم .

وإذا كان النظر حراماً إلى الأجانب فكيف بالخلوة بهن ؟

فإن الخلوة أقرب إلى الفتنة من النظر ، وفى الحديث :

ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما[1] .

ومن كان الشيطان حاضراً عنده فلا يأمن من وقوعه فى كل فاحشه .

فقد عمل الشيطان على أعظم منا من العباد والزهاد .

ثم أقل ما يحصل من الخلوة بالأجنبية خراب سر العبد وحرمانه لذة العبادة كما جربه.

وأقبح من ذلك التعرض للفتنة .

واستبعاد العبد أن مثله لايخاف من مثل ذلك ، فإنه غرور من إبليس وحيل يستدرجه به .

وقد سئل الشيخ أبو القاسم النصراباذى[2] شيخ خراسان فى عصره عن شخص يقول: ماعلى لوم فى مجالستى للنساء لعدم ميلى إليهن .

---

(١) رواه الطبرانى عن أبى أمامة بنحوه ولفظه :

« إياك والخلوة بالنساء ، والذى نفسى بيده ماخلا رجل بامرأة إلا دخل الشيطان بينهما»

(٢) هو أبو القاسم إبراهيم بن محمد النصر اباذى : شيخ خراسان فى وقته .

والنصراباذى نسبة إلى نصراباذ محلة من محال نيسابور ومن كلامه : أنت بين نسبتين : نسبه إلى الحق ، ونسبة إلى آدم ، فإذا انتسبت إلى الحق دخلت فى مقامات الكشف والبراهين والعظمة ؛ وهى نسبة تحقق العبودية قال الله تعالى : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا) وقال : (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) .

وإذا انتسبت إلى آدم دخلت فى مقامات الظلم والجهل ، قال الله تعالى : (وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا) ومن كلامه أيضا (الأشياء ادلة منه ؛ ولا دليل عليه سواه) .

فقال الشيخ : : مادامت الأشباح باقية فإن الأمر والنهى باق فى حق كل مكلف ، ولا يجترئ على الشبهات إلا من هو معرض المخالفات ، انتهى .

وقد خالف قوم ، فاغتروا بدينهم فوقعوا فى المخالفات ، كما هو مشهور عن بنى اسرائيل وفى هذه الأمة .

وإذا كان الحق تعالى يقول لخيار الناس من الصحابة فى حق خيار الناس من زوجات النبى ﷺ :

(وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن)[1] .

فكيف يدعى أحمق وحمق أن مثلهم لايخاف على نفسه ؟ فالصادق من نفرت نفسه من خلطة الأجانب وقامت كل شعرة منه عند رؤيتها ، والحمد لله رب العالمين .

(١) سورة الأحزاب آية : ٥٣ .

ومن أخلاقهم : مطالبة نفوسهم بحقوق الناس وعدم مطالبتهم الناس بحقوقهم

فإذا عملوا عرساً أو مات لهم ميت ولم يحضر أحد من إخوانهم حملوه على أحسن المحامل ، ولم يعاتبوه .

وإذا عمل أحد من إخوانهم مهما ولم يحضروا ولم يساعدوه يوبخون نفوسهم على ذلك.

ويراعون إزالة ضرورات الناس ويرون تقديمها على ضروراتهم .

ثم إن وقع أن أحداً أعلم إخوانه بالصلاة على ميته مثلا فلا يعلمهم إلا بعد إنتهاء تجهيز الميت ليخفف عليهم الأمر ، فإن من دعا إخوانه من بكرة النهار مثلا والجنازة لا تخرج إلا بعد الظهر عادة فقد غير نيتهم من كثرة تقلقهم ، فلا يصير لهم كمال توجه إلى الدعاء لذلك الميت بالقلب ، فيريد أحدهم أن يدعوا للميت بتوجه تام فلا يصح له ذلك لتشتت قلبه فى أودية حوائجه لاسيا إن كان أحدهم معيلا ، وذلك اليوم يوم سوق أو طالب علم ممحون بدرسه ، ونحو ذلك فإنه يصير حاضراً بجسمه وقلبه غائب ؛ فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين[1] .

---

(١) وفى الحديث : « أحسن الناس أعذرهم للناس » وعن عبد الله بن عتبة بن مسعود قال : سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : إن ناسا كانوا يؤخذون بالوحى فى عهد رسول الله ﷺ وإن الوحى قد انقطع وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم ، فمن أظهر لنا خيرا أمناه وقربناه وليس لنا من سريرته شىء الله يحاسبه فى سريرته ومن أظهر لنا سوءا لم نأمنه ولم تصدقه وإن قال : إن سريرته حسنة . رواه البخارى .

ومن أخلاقهم مساعدة إخوانهم الذين تصدروا لحملات
الناس سترة لإخوانهم بين الناس

فلا ينام أحدهم ، ولا يجامع ، ولا يلبس ثوبا نظيفا ، ولا يبنى داراً ، ولا يضحك ، ولا يضع جنبه الأرض ، ولا يتفرج فى بستان ، ولا غير ذلك ، حتى تنقضى تلك الحملة ، لاسيما حملات الولاة وأعوانهم من الظلمة ، إذا عزل أحدهم من ولايته ، أو وظيفته ، ولم تأخذ العقوبة حدها فيهم ، فإن الفقير يكاد أن يهلك .

وهذا الخلق قل من يفعله الآن فى حق أخيه .

بل ربما شمت أحدهم بأخيه إذا انتكب صاحبه من الأمراء والأكابر ، وصار يضحك ، ويود بخس أخيه ، وفضيحته عند ذلك الأمير الذى حمله الحملة . كما وقع لى ذلك معهم هذا فى حق أمير لا يحسن إليهم ولا يعرفهم ، وإنما هو من أصحاب صاحبهم ، فكيف بهم لو كان لذلك الأمير فضل وإحسان إليهم ؟

وكل هذا من تعظيمهم الخرقة فيحبون أن لا يخذل أحد ممن انتسب إلى أهلها .

فعلم أن من لم يساعد أخاه فى حملته فهو مدع كذاب فى الطريق ، وإن كان له شمرة ، وعذبة وعمامة ، والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم قبولهم هدية ممن حملوا عنه حملة

كان دفعها عنه معلقا على توجه الفقراء إلى الله تعالى ، وإلا فالأمور المبرمة لا يصح لأحد ردها عن نفسه فضلا عن أن يردها عن غيره .

ثم إن ذلك لا ينافى التسليم كما توهمه بعضهم ، فالعبد يحمل هم إخوانه من حيث كنسبهم الذنوب التى استحقوا بها ذلك البلاء النازل عليهم ، ويسلم لله تعالى من حيث التقدير الإلهى الذى سبق به العلم ، إذ لا يمكن رد ذلك ، فافهم .

فإنه قد غلط فى ذلك جماعة من أهل عصرنا فلا يحملون هم أحد من المسلمين زاعمين أنهم مسلمون لله تعالى ، ويخرجون على من يرونه يحمل هموم إخوانه ، ويقولون : حالفلان ومعارضة الأقدار ، ويتوهمون أن ما هم عليه أكمل وهو جهل .

فقد كان عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وسفيان الثورى وغيرهم إذا نزل بالمسلمين بلاء لا يتهنأ أحدهم بنوم ولا بأكل ولا بشرب حتى يرتفع ذلك البلاء فهل كان أولئك الذين ذكرناهم ناقصين وأنت يامدعى كامل[1] ؟ .

---

(١) قال الله تعالى : (وافعلوا الخير لعلكم تفلحون)

وعن ابن عمر رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قال : (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، من كان فى حاجة أخية كان الله فى حاجته ومن فرج على مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسرعلى معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه » رواه مسلم

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال كان النبى ﷺ إذا أتاه طالب حاجة أقبل على جلسائه فقال : (إشفعوا تؤجروا ويقضى الله على لسان نبيه ما أحب) متفق عليه .

وقد دخلت مرة فى حملة رزق الفقراء والمساجد لما وقع فيها التفتيش فى سنة ثمان وخمسين وتسع مائة ، فما كنت إلا هلكت ، ولم يساعدنى فيها أحد من الفقراء الظاهرين فى مصر إلا ثلاثة فقراء ، فجزاهم الله عن المسلمين خيراً .

وقد تقدم فى هذه الأخلاق أن مقام تحمل هموم المسلمين ليس هو لكل أحد ، إنما هو لأفراد من الفقراء وغالبهم يقول إذا شكى احد له بلاء نزل به : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ثم يغفل عنه ويأكل وينام ويجامع كما هو مشاهد ، والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم محبتهم للوحدة أواخر أعمارهم

وكراهتهم لتردد الناس إليهم لضيق عمرهم عن إعطاء الواردين حقوقهم من أبناء الدنيا وغيرهم .

فإن غالب المترددين لا يكادون أمر آخرتهم ، وإنما حديثهم فى أمور الدنيا ، والفقير الصادق قد التهى عن مثل ذلك بالتأهب للقاء الله تعالى ، وتمهيد فراشه فى قبره ، وما يقاسيه بعده من الأهوال إلى أن يجاوز الصراط .

وقد من الله تعالى على بذلك من سنين ، فكل يوم لا يزورنى فيه أحد من أبناء الدنيا أشكر الله تعالى عليه ، ولما بلغ الإمام الشافعى رضى الله عنه أربعين سنة صار كأنه غريب بين الناس وأنشد :

صديق ليس ينفع يوم بأس ... قريب من عدو فى القياس
وما يُبغى الصديق بكل عصر ... ولا الإخوان إلا للتآسى
خبرت الدهر ملتمسا بجهدى ... أخا ثقة فأكواه التماسى
تنكرت البلاد علىّ حتى ... كأن أناسها ليسوا بناسى

ولما طلع الشيب فى لحيته أدمن إمساك العصا فقيل له فى ذلك فقال: لأذكر أنى مسافر من هذه الدار ، ثم أنشد قوله :

خبت نار نفسى باشتعال مفارقى ... وأظلم ليلى إذا أضاء شهابُها
أيا بومة قد عششت فوق هامتى ... على الرغم منى حين طار غرابُها
رأيت خراب العمر منى فزرتنى ... ومأواك من كل الديار خرابُها
أأُنعمَ عيشاً بعد ما حلّ عارضى ... طلائع شيب ليس يُغنى خُضَابُها
وعزة عمر المرء قبل مشيبه ... وقد فنيتْ نفسٌ تولى شبابها
إذا اصفرّ لون المرء وابيضّ شعره ... تنغص من أيامه مستطابها
فدع عنك سَوْءات الأمور فإنها ... حرام على نفس التقى ارتكابها

ولا تمشين فى منكب الأرض فاخرا　　فعما قليل يحتويك ترابها
ومن يذق الدنيا فإنى طعمتها　　وسيق إلينا[1] عذبها وعذابها
فلم أرها إلا غرورا وباطلا　　كما لاح فى ظهر الفلاة سرابها
وما هى إلا جيفة مستحيلة　　عليها كلاب همهن اجتذابها
فإن تجتنبها عشت سلما لأهلها　　وإن تجتذبها نازعتك كلابها
فطوبى لنفس أوطنت قعر دارها　　مغلقة الأبواب مرخى حجابها

فعلم أن كل فقير تأثر من إدبار الناس عنه أواخره ، فهو مدع كذاب لمخالفته أخلاق العارفين أواخر أعمارهم .

وقد بلغنا أن سيدى أحمد بن الرفاعى رضى الله عنه لما حضرته الوفاة قال ليعقوب الخادم :

يا ولدى والله ما كان لى خيرة إلا فى الوحدة ، فياليت حميدا لم يعرف أحداً ولم يعرفه أحد . فقال له يعقوب فى ذلك فقال :

يا ولدى أن فضيحه الآخرة عظيمة ، فإذا كان من يعرف الفقير فى الآخرة قليلا كان ذلك أستر له . ثم صار يبكى ويقول :

وافضيحتاه مما فرطت فى جنب الله .

ولما حضرت الوفاة الإمام عمر بن الخطاب رضى الله عنه قالوا له :

استخلف ولدك عبد الله فقال :

يكفى واحد من آل الخطاب يأتى يوم القيامة ويداه مغلولتان إلى عنقه .

وكان رضى الله عنه يقول :

لو أنى خيرت قبل أن أدخل الدنيا بين أن أخلق وأقاسى أهوال يوم القيامة ، وبين أن لا أخلق لاخترت أن لا أخلق .

---

(١) لعله يقصد وسيق إلى عذبها وعذابها .

وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يقول :

لقد وددت أنى بتنة ملقاة تحت النعال .

وكان إذا تنفس يشم من جوفه رائحة الكبد المشوى .

وكان سيد المرسلين ﷺ يسمع من صدره أزيز كأزيز الرحى[1] وغليان كغليان القدر على النار من شدة الخوف من سطوات الحق جل وعلا .

وهكذا كل من كان من أتباعه ﷺ . والحمد لله رب العالمين .

---

(١) حديث : كان يسمع من صدره أزيز إلخ رواه الترمذى فى الشمائل والحافظ ابن حبان الأصبهانى فى أخلاق النبى ﷺ عن عبد الله بن الشخير .

ولفظه : أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلى ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء .

وفى رواية الأصبهانى : صليت خلف رسول الله ﷺ فسمعت لصدره أزيز كأزيز المرجل .

ورواه أبو داود بلفظ : رأيت رسول الله ﷺ يصلى ولصدره أزيز كأزيز الرحى فى البكاء ورواه بنحوه النسائى وابن خزيمة .

ومن أخلاقهم شهودهم قبيح زلاتهم

وخوفهم أن الله تعالى يخسف بهم الأرض ، أو يمسخ صورهم صورة كلب أو خنزير على الدوام .

ولو أنه تعالى خسف بهم الأرض لرأوا ذلك من بعض ما يستحقونه[1] .

وممن أدركته على هذا القدم سيدى على الخواص ، وأخى الشيخ أفضل الدين ، وسيدى على النبتيتى الضرير ، وسيدى على البحيرى ، وسيدى محمد المنير ، وسيدى محمد

---

(١) قال الله تعالى : « يدعون ربهم خوفا وطمعا » .

وعن أنس قال رسول الله ﷺ : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » يقول الإمام القشيرى : قلت : الخوف : معنى متعلقه فى المستقبل ؛ لأنه إنما يخاف أن يحل به مكروه ، أو يفوته محبوب : ولا يكون هذا إلا لشىء يحصل فى المستقبل .

فأما ما يكون فى الحال موجودا ، فالخوف لا يتعلق به .

والخوف من الله تعالى ، هو أن يخاف أن يعاقبه الله تعالى إما فى الدنيا ، وإما فى الآخرة.

وقد فرض الله ، سبحانه ، على العباد أن يخافوه ، فقال تعالى : « وخافون إن كنتم مؤمنين » .

وقال : « فإياى فارهبون » ومدح المؤمنين بالخوف ، فقال : « يخافون ربهم من فوقهم » .

ويقول الأستاذ أبو على الدقاق : الخوف على مراتب : الخوف ، والخشية ، والهيبة .

فالخوف من شرط الإيمان وقضيته ، قال الله تعالى : « وخافون إن كنتم مؤمنين ».

والخشية من شرط العلم ، قال الله تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

والهيبة من شرط المعرفة ؛ قال الله تعالى : « ويحذركم الله نفسه » .

وقال يحى بن معاذ : مسكين بن آدم ، لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لدخل الجنة.

وقال شاه الكرمانى : علامة الخوف : الحزن الدائم .

وقال أبو القاسم الحكيم : من خاف من شىء هرب منه ، ومن خاف من الله عزوجل هرب إليه .

وقال بشر الحافى : الخوف من الله ملك لا يسكن إلا فى قلب متق .

الشناوى ، والشيخ عبد الحليم بن مصلح ، والشيخ محمد بن داود والشيخ محمد بن عنان ، وشيخ الإسلام زكريا ، والشيخ شمس الدين السمانودى ، والشيخ نور الدين الطرابلسى الحنفى ، وجماعة ذكرناهم فى كتاب الطبقات . وسيأتى بسط ذلك آخر الكتاب إن شاء الله تعالى .

فاعرض هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله الذى من علينا بذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم محبة إخوانهم المسلمين محبة أخوة وإسلام وإيمان لا محبة طمع وإحسان

وقد قال الله تعالى : (إنما المؤمنون إخوة[1]) فآخى بين المؤمنين ، فالمؤمن الكامل لا يحتاج فى محبة أخيه إلى إحسان بعد أن آخى الله تعالى بينه وبينه[2] .

ومن احتاج فى محبة أخيه إلى إحسان أو موافقة أغراض ، فما أحبه إمتثالا لأمر الله عز وجل .

وهذا الخلق غريب فى هذا الزمان ولم أر له فاعلا إلى وقتى هذا كما بسطت الكلام على ذلك فى المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة الحجرات آية : ١٠ .

(٢) يقول الإمام القشيرى : والصحبة على ثلاثة أقسام : صحبة مع من فوقك : وهى فى الحقيقة خدمة ، وصحبة مع من دونك : وهى تقضى على المتبوع بالشفقة والرحمة ، وعلى التابع بالوفاق والحرمة .

وصحبة الأكفاء والنظراء : وهى مبنية على الإيثار والفتوة ، فمن صحب شيخافوقه فى الرتبة ، فأدبه ترك الإعتراض ، وحمل ما يبدو منه على وجه جميل ، وتلقى أحواله بالإيمان به .

وكان إبراهيم بن أدهم إذا صحبه أحد شارطه على ثلاثة أشياء :

أن تكون الخدمة والأذان له ، وأن تكون يده ما يفتح الله عليهم من الدنيا كيدهم.

فقال له يوما رجل من أصحابه : أنالا أقدر على هذا ؟ .

فقال أعجبنى صدقك .

وقال يوسف بن الحسين : قلت لذى النون : مع من أصحب ؟

فقال : مع من لا تكتمه شيئا يعلمه الله تعالى منك .

وقال سهل بن عبد الله لرجل : إن كنت ممن يخاف السباع فلا تصحبنى .

وقال ذو النون : لا تصحب مع الله إلا بالموافقة ، ولا مع الخلق إلا بالمناصحة ، ولا مع النفس إلا بالمخالفة ، ولا مع الشيطان إلا بالعداوة .

وقال رجل لذى النون : مع من أصحب ؟ فقال : مع من إذا مرضت عادك ، وإذا أذنبت تاب عليك .

ومن أخلاقهم أن يفيدوا كل من جلس إليهم من الفقهاء
والفقراء والعوام شيئاً من الفوائد

فلا يفارقهم جليسهم إلا بفائدة .

وممن أدركته على هذا القدم سيدى أفضل الدين تلميذ سيدى على الخواص .
ويحتاج من يعمل به إلى علم وافر ، ونفوذ بصر إلى قلوب الجالسين عنده ، فيفيد كل إنسان ما يراه عاريا عن علمه ومعرفته ، وما يراه يعلمه لا يتعب نفسه فى تعليمه إياه .
ومن لم يكن كذلك فهو يبدر الكلام سواء احتاج جليسه إليه أم لم يحتج .

وقد كان أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى له علم بسائر الحرف ، فكان إن جلس إليه خياط استفاد منه ، أو فيخرانى استفاد منه ، أو مسلك استفاد منه ، أو طباخ استفاد منه ، أو فقيه استفاد منه ، وهكذا فى سائر الحرف . رضى الله عنهم .
فاعلم ذلك واعمل على تحصيله ثم اعمل به . والحمد لله رب العالمين .

فلا يطلبون شيئاً من ذلك بخلاف أرباب الأحوال .

ولذلك كان الكمل يعطون أرباب الأحوال كلما يسألونهم فيه .

إذا الكاملون لا كشف لهم رحمة من الله بهم ، لاسيما اطلاعهم علي زلات الناس .

وقد كان الشيخ محي الدين بن العربي رحمه الله يقول :

من الأولياء من يكشف له عن ملكوت السموات والأرض على التفصيل ، ومع ذلك لا يدرى مافى جيبه ، لأنه مع الله تعالى بحسب ما يطلعه عليه ، لا تمشق له إلى حال ولا مقام . انتهى

وربما ظن بعض الناس أن صاحب الكشف من أرباب الأحوال أعلى مقاما من ذلك العارف الذى لا كشف له ، وليس كذلك ، لأن علو المقام إنما هو بحفظ الأنفاس مع الله تعالى ، والاستقامة على الشريعة المطهرة .

وأما الكشف والطيران فى الهواء والمشى على الماء ، فليس فى ذلك أجر ، فإنه لم يرد لنا قط حديث : أن من كشف له عن كذا كتبت له حسنة .

وقد حكى لى الشيخ أمين الدين الإمام بجامع الغمرى :

أن مجذوبا طلب من سيدى أبى العباس الغمرى نطعا جديداً فأعطاه له فقال :

هات آخر فأعطاه له فقال له :

هات آخر .

فقال له : أنت طماع ولم يعطه النطع الثالث فبعد مدة جاء الخبر أن مراكب الخواجا ابن عليبه الثلاثة ببحر الهند غرقت ، ولكن جاءهم طائر كبير ، ومعه نطعان ، فسد كل مركب بنطع ، فسلمتا وغرقت الثالثة .

وكان قد حمل سيدى أبو العباس الغمرى حملة المراكب لكونه من أصحابه . فندم سيدى أبو العباس الذى لم يكن أعطاه النطع الثالث . فانظر يا أخى اطلاع ذلك المجذوب

دون سيدى أبى العباس وأعط أرباب الأحوال كلما طلبوه منك ، ولو كنت شيخا من مشايخ الطريق فربما رأوا بلاءاً نازلا عليك ، فطلبوا دفعه عنك بالتصدق بما يأخذونه منك ، فإن من عادتهم إبهام الأمور على الإنسان ، ولو أنهم قالوا له : أعطنا كذا اندفع عنك كذا لكان يعطيهم من غير توقف ، ولكنهم يغلب عليهم الامتحان للناس .

وأخبرنى الشيخ جمال الدين ولد شيخنا شيخ الإسلام زكريا :

أن الشيخ فرج المجذوب طلب منه ، وهو خارج إلى الحمام نصفا فأعطاه له ، ثم آخر بعد آخر ، حتى بلغ تسعة وثلاثين نصفا فقال :

أعطنى نصفا آخر . فقال :

يا شيخ فرج هذا على اسم الحمام . وأبى أن يعطيه له . فقال :

خذلك من شوال اليهودى على تسعة وثلاثين دينارا .

فلما خرج من الحمام وجلس فى خلوة والده بالمدرسة السابقة ، دق عليه داق الباب ، فإذا هو يهودى .

فقال له ما حاجتك ؟

فقال : كنت اقترضت من والدك أربعين ديناراً ، وليس بينى وبينه شاهد إلا الله تعالى ، وقد عجزت عن دينار منها وأعطاه التسعة وثلاثين دينارا . فندم سيدى جمال الدين الذى لم يكن أعطاه النصف الذى مسكه على اسم الحمام انتهى .

فاعلم ذلك واعمل به . والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم إطعام الفقير ما يطلبه منهم بالشرط

فقد يكون ذلك امتحانا من الله تعالى لهم وربما دخل عليهم فقير بعدالعشاء الآخرة، وبعد أن تعبوا فى عشاء ضيوفهم .

وقال : أنا ما آكل إلا خبزاً سخنا وطعاما جديداً ، ورد عليهم الخبز اليابس البارد والطعام الذى فضل من الضيوف امتحانا لهم ، فيكون ذلك سبب زوال النعمة عنهم ، كما وقع فى بنى اسرائيل فى قصة الأقرع والأبرص والأعمى المشهورة[1] .

فليحذر من صار موردا للناس فى هذا الزمان من التقلق من الفقير إذا تشرط عليه وعدم إجابته إلى ما سأل . فربما تحولت النعمة عنه ، فلا ترجع ، وصار يسأل على الأبواب ، كما وقع لابن الزرازيرى وغيره كما بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن .

فاعرض يا أخى هذه الأخلاق على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم . والحمد لله رب العالمين .

---

(١) حديث قصة الأقرع والأبرص والأعمى حديث طويل رواه البخارى ومسلم وغيره عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما .

ومن أخلاقهم كثرة الدعاء لسيدنا ومولانا أبي العباس الخضر

فما واظب أحد على الدعاء له إلا واجتمع به قبل موته وأفاده فوائد لم تكن عنده .

فإنه عليه الصلاة والسلام لا يجتمع بأحد إلا ويعلمه من العلم ما لم يكن عنده ، وهو غنى عن علم العلماء بما علمه الله تعالى له .

وما من ولى حوله قدم الولاية إلا ويحصل له به اجتماع . لكن يأتى للعارفين فى اليقظة وللمريدين فى المنام ، لأنهم لا يطيقون صحبته فى اليقظة .

ويحتاج من يريد لقائه مع كثرة الدعاء له إلى ثلاثة أمور إن لم تكن فيه لا يصح اجتماعه به يقظة ولو كان على عبادة الثقلين :

الأول : أن يكون الإنسان على سنة لا يتدين برأى .

الثانى : أن لا يكون له حرص على الدنيا حتى انه لو خبأ درهما إلى غد لا يجتمع به .

الثالث : أن يكون سليم الصدر لأهل الإسلام ، فلا يكون عنده شحناء ولا بغض لأحد من المسلمين إلا بطريق شرعى خال من حظ النفس . فهذه شروط رؤيته فى اليقظة والاجتماع به .

وقد كان سيدى محمد القرشى يطبخ شوربة القمح كثيراً ، فقيل له فى ذلك فقال : إن الخضر عليه الصلاة والسلام بات عندى ليلة ، فاشتهى على شوربة قمح ، فلم أزل أحبها لمحبة السيد الخضر لها .

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلى يقول : اجتمعت بالخضر عليه الصلاة والسلام وأفادنى عدة مسائل فلو جادلنى ألف فقيه الآن على أنه مات لم ألتفت إليهم .

وكان الشيخ أبو العباس المرسى رحمه الله تعالى يقول : خصلتان أكرههما من الفقيه : قوله بموت السيد الخضر عليه الصلاة والسلام . وقوله بكفر الحلاج[1] . انتهى . والحمد لله رب العالمين .

---

(١) أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج : يقول عنه الهجويرى : كان من سكارى هذه

. . . . . .

الطريقة ومستافيها وذا حال قوى وهمة عالية .

أما رأيت أن الشبلي قال : « أنا والحلاج شيء واحد فخلصني جنوني وأهلكه عقله » ؟ فلو كان مطعونا في دينه لما قال الشبلي أنا والحلاج شيء واحد ، وقال محمد بن خفيف : « هو عالم رباني » ومثل هذا .

وله تصانيف زاهرة ورموز كلام مهذب في الأصول والفروع • وأنا على بن عثمان الجلابي رأيت له خمسين تصنيفا في بغداد ونواحيها ، وبعضها في خوزستان وفارس وخراسان ، ووجدتها جميعا — كما هو الحال في بداية أمر المريدين — أقوالا : بعضها أقوى وبعضها أضعف ، وبعضها أسهل ، وبعضها أشنع وحين يكون لإنسان دليل وبرهان من الحق وتواتيه العبارة بقوة الحال ، ويعينه الفضل ، يصير الكلام معلقا ، خاصة وأن المعبر يغرب في عبارته ، وعندئذ تزداد نفرة الأوهام من سماعه ، وتعجز العقول عن إدراكه ، ومن ثم يقولون أن هذا الكلام عال ، فينكره فريق عن جهل ، ويقره فريق بالجهل ، ويكون إنكارهم كإقرارهم .

ولكن حين يراه المحققون وأهل البصيرة لا يتعلقون بالعبارة ، ولا ينشغلون بالغرابة . ويفرغون من ذمه ومدحه ، ويستريحون من إنكاره إقراره .

كشف المحجوب للهجويري . دراسة وترجمة وتعليق دكتورة إسعاد عبد الهادي قنديل .

البابُ الثالث

فى جملة أخرى من الأخلاق

فمن أخلاقهم : عدم إنكارهم على أرباب الأحوال فى أكلهم من أطعمة الظلمة لأنهم من أقسام المجاذيب فى عدم التكليف

وربما يكون الحق تعالى يستخلص لهم الحلال من الحرام ، كما يستخلص لنا اللبن من بين فرث ودم .

وقد أدركت من أرباب الأحوال جماعة كانوا على هذا القدم، منهم الشيخ أفضل الدين ، فصنعت له يوماً فطيرة وقدمتها بين يديه ، فصار يفتت منها ، ويرمى للكلاب والقطط يميناً وشمالا ، ويضع بين يديه شيئاً حتى اجتمع منها نحو الربع فى حجره ، فأكل منه فقلت له فى ذلك ، فقال :

كان فيها قمح مخلوط من حرام وحلال ، فسألت الله تعالى فميز لى الحلال من الحرام، فقلت :

وهو دقيق ؟ فقال :

وهو دقيق ، إن الله على كل شىء قدير ، انتهى .

فانظر ياأخى هذا الأمر العجيب ، ومثل هؤلاء الأولى بنا التسليم لهم لأن الإنكار لايتأكد إلا على من يتبع على أفعاله والمتشرع لايتبع هؤلاء فى مثل ذلك أبداً ، فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم إنكارهم على من يقول اجتمعت بملك الموت فى اليقظة

وقال لى : كذا ، وقلت له كذا ، أو على من يقول : اجتمعت بالسيد المسيح عليه الصلاة والسلام فى اليقظة ، فإن ذلك ممكن علي وجه الكرامة .

وقد كان الشيخ محمد الشربينى[1] رحمه الله يجتمع بملك الموت كثيراً ، ويسأله عن أعمار الناس وما بقى منها فيخبره كما أخبرنى بذلك أصحابه .

وفى بعض الأوقات يقول لملك للموت إذا جاء يقبض روح أحد من أهله : ارجع إلى ربك فإن الأمر الذى أنزلت به نسخ ، وبقى من أجله كذا ، وكذا يوم أو جمعة أو شهر أو سنة .

وأخبرنى ولده سيدى أحمد أنه مرض حتى أشرف على الموت ، فنزل ملك الموت وجلس عند رأسه ، قال : فجاء والدى وقال له وأنا أراه :

بقى من أجل ولدى ثلاثون سنة ، فرجع عزرائيل وطبت من ذلك المرض ، ولى بعد ذلك عشرون سنة ، وبقى عشرة ، فكان الأمر كما قال .

وكذلك كان أخى الشيخ أفضل الدين يرى ملك الموت ويحادثه كثيراً ، وكذلك أخبرنى أنه اجتمع بالمسيح عليه الصلاة والسلام فى سوق الوراقين بمصر المحروسة يقظة سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة . وسأل الشيخ أفضل الدين عن بعض علامات الساعة التى وقعت فسر بذلك ، ولم يزل الناس يخبطون عشوى فى مثل ذلك من غير دليل ، فبعضهم يجوز ذلك ، وبعضهم يمنعه .

وقد ذكر ابن سيد الناس فى سيرته فى قصة سلمان الفارسى من رواية الطبرى وغيره :

---

(١) هو الشيخ محمد الشربينى رضى الله عنه : شيخ طائفة الفقراء بالشرقية كان من أرباب الأحوال والمكاشفات :

وكان رضى الله عنه يتكلم على سائر الأقطار الأرض كأنه تربى فيها .

أن المسيح عليه السلام نزل بعد مارفع ، فوجد أمه وامرأة أخرى عند الجذع الذى فيه المصلوب يبكيان عليه ، فكلمهما وأخبرهما أنه لم يقتل ، وإنما الله تعالى رفعه إلى السماء ثم أرسل الحواريين ووجههم إلى البلاد .

قال الطبرى والسهيلى : وإذا جاز أن ينزل بعد الرفع مرة ، جاز أن ينزل مراراً ، ولكن لايعلم المحجوبون أنه هو حتى ينزل النزول الظاهر الموعود به ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير كما جاء فى الأحاديث الصحيحة ، قال الطبرى :

ويروى أنه إذا نزل يتزوج امرأة من جذام ، ويدفن إذا مات فى روضة سيد الخلق صلى الله عليه وسلم ، انتهى .

وكذلك ذكر الشيخ محي الدين بن العربى إنه اجتمع بالمسيح عليه الصلاة والسلام يقظة ، وتاب علي يديه وأمره بالسياحة والزهد فى الدنيا ، قال : فهو أول أشياخى عليه الصلاة والسلام . انتهى .

ونقل الشيخ عبد الغفار القوصى فى كتابه المسمى بالوحيد : أن الشيخ تاج الدين بن شعبان كان إذا سأله إنسان فى حاجة يقول له : أصبر حتى يجىء جبريل .

قال الشيخ عبد الغفار القوصى : ولا ينبغى الانكار على مثل ذلك ، لأنه ليس بمستحيل ، لأن قلوب الأولياء جوالة بالملكوت ، ولها مخاطبات للملائكة ، ومحادثة جبريل ليست بنبوة ولا وحى ولا إرسال . انتهى .

وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن الكبرى فى الباب الثالث عشر فراجعه وسلم للأولياء مايخبرون به من جميع الممكنات . والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : تعظيمهم للفقير ببادى الرأى بمجرد رؤيتهم لمرقعته مثلا

ولا يتوقفون على معرفة مقامه فى الطريق .

كما أن أبناء الدنيا يعظمون من رأوه لابساً ملبس جند السلطان بمجرد رؤيته ولا يتوقفون على معرفة وظيفته هل هى كبيرة أو صغيرة .

فعظم يا أخى الفقراء ولا تتوقف على معرفة مقامهم ، فإنهم كالسم القاتل .

وربمــا كان أحدهم ممن يغضب الحق تعالى لغضبه ويرضى لرضاه .

وربمــا وقع منك ياخى إزدراء له فدعا عليك فاستجاب الله دعاءه ولو مزحا ، كما وقع لبعضهم أنه أراد القرب من زوجته فصاح واحد من أولاده وكانوا سبعة فقال : أسكت أماتكم الله تعالى ، فمات السبعة لوقتهم فبلغ ذلك سيدى إبراهيم المتبولى ، فأرسل وراء الفقير ، وقال له : أماتك الله تعالى فمات الفقير لوقته ، فقال سيدى إبراهيم لو بقى لأمات خلقاً كثيراً[1] ، إنتهى .

---

(١) وفى الحديث : عن حارثة بن وهب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ : كل ضعيف متضعف لوأقسم على الله لأبره .
ألا أخبركم بأهل النار ؟ :
« كل عتل جواظ مستكبر » متفق عليه .
وعن أبى العباس بن سهل ابن سعد الساعدى رضى الله عنه قال : مر رجل على النبى ﷺ فقال لرجل عنده جالس . مارأيك فى هذا ؟
فقال رجل من أشراف الناس :
هذا والله حرى إن خطب أن ينكح وإن شفع أن يشفع . فسكت رسول الله ﷺ ، ثم مر رجل فقال له رسول الله ﷺ : مارأيك فى هذا ؟
فقال : يارسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين هذا حرى إن خطب أن لاينكح وإن شفع أن لايشفع وإن قال أن لايسمع لقوله .

وفى الحديث : « إن الله تعالى أخفى أولياءه فى عباده » ، فقد يكون ذلك الجندى أو القاضى أو التاجر أو المحترف مثلا من أولياء الله تعالى الذين أخبر أنه تعالى يحارب من حاربهم ، والحمد لله رب العالمين .

فقال رسول الله ﷺ :
هذا خير من ملأ الأرض مثل هذا) . متفق عليه .
وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسوله الله ﷺ قال :
(إنه ليأتى الرجل السمين العظيم يوم القيامة لايزن عند الله جناح بعوضة) متفق عليه.

ومن أخلاقهم : نداؤهم لأصحابهم بالقلب

فيأتون أو يمتنعون من المجيء إليهم ، إما عقوبة لهم على ذنوبهم أو إراحة لهم من تعب المجيء مثلا ، فليحذر الإنسان من وقوعه من عدم التردد إليهم فربما عاقبوه بذلك على ذنوب سلفت منه أو لعـدم انتفاعه بهم كما هو الغالب فى المترددين للفقراء فى هذا الزمان .

وأعرف جماعة لايقدر أحد منهم يحضر معنا الورد يوماً واحد . وربما يتوقف أحدهم عن المجيء إلى حتى يغلب على ظنه أن الورد فرغ . ومثل هؤلاء لافائدة فى ترددهم لعدم شربهم من مسقاتنا بل الذى ينبغى لنـا أن نسأل الله تعالى أن يعوقهم عنا مادمنا فى قيد الحياة . كما أوضحنا ذلك فى كتاب المنن الـكبرى .

فاعرض يا أخى هذه الأخلاق على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم ، والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أن يجددوا معالم الطريق كلما خلقت

كما فعلت أنا فى هذا الكتاب[1] فاننى بحمد الله تعالى جددت به غالب ماخلق واندرس من اخلاق الصالحين الذين أدركناهم فى أول النصف الأول من القرن العاشر ، وما بقى إلا العمل بها .

وأظن أن غالب فقراء هذا الزمان كان لايعرف شيئاً من هذه الأخلاق قبل ذكرى لها كما يعرف ذلك كل منصف خال عن العصبية والدعوى .

وكذلك القول فى علماء الشريعة لم يزالوا يجددون الشريعة وأقوال علمائها كلما اندرست إما بالتأليف وإما بالتدريس وإما بترجيح ماخفى دليله على المتقدمين ونحو ذلك .

وممن علمته يجدد الشريعة فى هذا الزمان بأفعاله وأقواله سيدى محمد البكرى[2]

---

(١) وكما فعل الإمام القشيرى فى الرسالة القشيرية والهجويرى فى كشف المحجوب والسهروردى فى عوارف المعارف والمحاسبي فى الرعاية لحقوق الله والطوسى فى اللمع والواقع أن الإمام الشعرانى له هذا الفضل الذى يذكره عن نفسه وزيادة فإن كتب الإمام الشعرانى ومدرسته هم السبب فى إحياء الطريق الصوفى فى مصر .

(٢) يقول عنه الإمام الشعرانى : ومنهم الشيخ الإمام العالم الراسخ فى العلوم اللدنية والمنح المحمدية الكامل ابن الكامل سيدى محمد البكرى .

إجتمعت به مرات فما رأيت أوسع منه خلقا ، ولا أكرم نفسا ، ولا أجمل معاشرة .

درس وأفتى فى علم الظاهر والباطن ، وأجمع أهل الأمصار على جلالته ، ونشأ رضى الله عنه كنشأة والده على التقوى والورع والزهد وعزة النفس حتى أتته الدنيا وهى راغمة ، فالناس أجمعوا على انه ليس على وجه الأرض أكثر علما منه ولافى غير مصر مثله ، وقد أعطاه الله تعالى التكلم على أحوال السموات والأرض نقلا وكشفا ويقينا لاظنا وتخمينا .

وسيدى محمد الرملي[١] والشيخ شمس الدين الخطيب[٢] والشيخ نورالدين الطندتاوى[٣]

---

(١) يقول عنه الإمام الشعرانى : ومنهم الشيخ الإمام العالم العلامة المحقق صاحب العلوم المحررة والأخلاق الحسنة ، والأعمال المرضية ، سيدى محمـد ، ولد شيخنا الشيخ شهاب الدين الرملى .

أخذ رضى الله عنه العلم عن والده فأغناه عن كثر التردد والتطفل على غيره وبث فيه ما كان عنده من الفقه والحديث والتفسير والأصول والنحو والمعانى والبيان وغير ذلك . وهو الآن مرجـع أهل مصر فى تحرير الفتاوى . وأجمعوا على دينه وصلاحه وورعه وحسن خلقه وكرم نفسه ولم يزل بحمد الله فى زيادة من ذلك .

توفى فى الثالث عشر من جمادى الأولى سنة أربعة بعد الألف .

(٢) يقول عنه الإمام الشعرانى : ومنهم الأخ الصالح العامل المقبل على عبادة ربه ليلا ونهاراً الشيخ شمس الدين الخطيب . أخذ الشيخ شمس الدين العلم عن جماعة من علماء مصر ، كالشيخ ناصر الدين اللقانى ، والشيخ جمال الدين الصافى والشيخ ناصر الدين الطبلاوى ، والشيخ شهاب الدين الرملى وتبحر فى العلوم على أيديهم ، وأجازوه بالإفتاء والتدريس ، فدرس وأفتى ى حياة أشياخه وانتفع به خلائق لا يحصون . أجمع أهل مصر على دينه وصلاحه ووصفوه بالعلم والعمل والزهد ، وكثرة النسك والعبادة . وشرح كتاب منهاج الفقه ، وكتاب التنبيه شرحين عظيمين ، جمع فيهما تحريرات أشياخه بعد الشيخ زكريا ، وأقبل الخلائق على كتابتهما وقراءتهما عليه ، ومارأيته قط يسعى على شىء من أمور الدنيا ، ولا على شىء فيه رئاسة ، ولا يزاحم أحدا على صحبة أحد من الولاة والقضاة ، بل ربما لايعرف أحداً منهم .

(٣) يقول عنه الإمام الشعرانى : ومنهم الأخ الصالح العالم الزاهد الكامل الراسخ المحقق الشيخ نور الدين الطندتاوى رضى الله عنه ، عاش على التقوى والصلاح والورع واشتغاع بالعلم والعمل ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لا يداهن أحد .

وأخذ الطريق عن سيدى على المرصفى ، والشيخ محمد الشناوى وأخذ العلم عن جماعة من مشايخ الإسلام ، كالشيخ ناصر الدين اللقانى ، والشيخ شهاب الدين الرملى ، حتى تبحر فى علوم الشريعة ، وأجازوه بالإفتاء والتدريس ، فدرس وأفتى فى جامع الأزهر فى حياة أشياخه وكانوا يرسلون إليه الأسئلة فيجيب عنها بأحسن جواب .

والشيخ شمس الدين البرهمتوشى[1] والشيخ سراج الدين الحانوتى[2] والشيخ بدر الدين الشهاوى[3] ، ونحوهم ممن ذكرناه فى كتاب الطبقات ، فكل واحد منهم لو انفرد فى أمة من الأمم لهداهم بإذن الله إلى الصراط المستقيم . فأسأل الله تعالى أن يفسح فى أجلهم وأجل تلامذتهم ليحيوا الدين بعدهم آمين . والحمد لله رب العالمين .

وكان الشيخ شهاب الدين الرملى يقول : تحقيق المسائل الواقعة فى الدرس للشيخ نور الدين الطندتاوى ، وجميع أشتات المسائل للشيخ شمس الدين الخطيب الشربينى .

(١) يقول الإمام الشعرانى : هو الشيخ الإمام العلامة المقبل على عبادة ربه ليلا ونهارا ، المعتزل عن الناس فى بيته عملا بالسنة المحمدية الشيخ شمس الدين البرهمتوشى . أخذ العلم عن جماعة ، منهم شيخ الإسلام الشيخ نور الدين الطرابلسى ، والشيخ العلامة المحقق العالم العامل المجمع على جلالته الشيخ محمد نعوش المغربى المالكى حين قدم إلى مصر من الروم ، وقرأ عليه أجلاء علماء مصر ، وانتفعوا به ، ولم يزل رضى الله عنه يقرأ على العلماء والأشياخ حتى تبحر فى علوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وأصول ومعان وبيان وغير ذلك . وأجازه أشياخه بالإفتاء والتدريس ، فدرس العلم وأفتى مرة ، ثم امتنع عن الفتيا تورعا منه رضى الله منه . مات سنة اثنتين وسبعين وتسعمائة .

(٢) يقول عنه الإمام الشعرانى : ومنهم الشيخ المجمع على جلالته وعلمه وورعه وحفظ جوارحه الشيخ سراج الدين الحانوتى رضى الله تعالى عنه .

وكان مجلسه مجلس علم وأدب وخشية وخوف من الله عز وجل ، فقد طبعه الله على الأخلاق المحمدية ، والشيم المرضية ، والأحوال السنية ، لا يكاد يطلع عليها إلا الله عز وجل من تهجد وقراءة أوراد ومراقبة . مات سنة سبعين وتسعمائة رضى الله تعالى عنه .

(٣) يقول عنه الإمام الشعرانى : ومنهم الشيخ الأخ الصالح العالم العلامة الورع الزاهد الشيخ بدر الدين الشهاوى رضى الله تعالى عنه ، صحبته نحو ثلاثين سنة فما زاغ عن الشريعة فى شىء من أفعاله وأقواله وعقائده . أخذ العلم عن جماعة من مشايخ الإسلام ، كالشيخ نور الدين الطرابلسى شيخ الإسلام ، والشيخ شهاب الدين الحلبى ، فلم يزل يقرأ عليه حتى تبحر فى علوم الشريعة والإفتاء ، فأحبه حبا شديدا وزوجه ابنته ، وأجازه فى الإفتاء والتدريس ، فدرس وأفتى فى حياة أشياخه بإذنهم .

وأخذ طريق التصوف عن سيدى أبى السعود الجارحى رضى الله تعالى عنه فكمل بذلك حاله ، لأن الفقيه إذا لم يكن له علم بطريق القوم فهو ناقص فى المقام .

ومن أخلاقهم : كثرة الجد والاجتهاد فى العبادة ، ليجددوا الطريق بعد موت أشياخهم الذين كانوا يجددون آداب الطريق

فإنه لابد من حصول الفترة بين كل جماعة وجماعة من الأولياء ، كما كان يقع بين الرسل ، فإنهم على أقدامهم ، والاجتهاد وإن كان فى زمن أشياخ الإنسان فرض كفاية فهو فى حقه بعد موت أشياخه فرض عين .

وقد كان للطريق حرمة وهيبة فى زمن الأشياخ الذين أدركناهم فى مصر وقراها ، كسيدى على المرصفى والشيخ أبى السعود الجارحى والشيخ تاج الدين الذاكر والشيخ محمد الشناوى والشيخ محمد ابن داود والشيخ محمد العدل والشيخ أبى بكر الحديدى ، والشيخ عبد الحليم والشيخ محمد المنير والشيخ عبد القادر الدشطوطى وسيدى على الخواص ، ونحوهم رضى الله عنهم أجمعين ، فلما درج هؤلاء إلى رحمة الله تعالى خلت الديار المصرية وقراها ممن يحيى الطريق عدة سنين حتى أظهر الله تعالى بعدهم الجماعة الموجودين فى مصر الآن ، فأسأل الله تعالى أن يفسح فى أجلهم وأجل تلامذتهم .

فإن الدين لا يقوم إلا بدولة العلماء والصوفية فبهم يكمل الدين فى دولة الظاهر والباطن وتكون عبادة الانسان سالمة من النفاق فإن خشع ظاهراً طولب بالخشوع فى طريق الحقيقة باطناً أيضاً ، فتكمل عبادته بذلك فى طريق الحقيقة باطناً أيضاً فتكمل عبادته بذلك فى طريق الحقيقة والشريعة ، وكذا القول فى سائر مقامات الطريق فلو أن الفقيه راعى الباطن كما راعى الظاهر وطابق بينهما كان هو الصوفى حقاً ، ولكنه ترخص ولم يناقش نفسه فى الباطن ، ففرق الناس بينهما وصاروا يقولون :

هذا حقيقة وهذا شريعة فهو العالم العامل الصوفى حقاً ، والحمد لله رب العالمين[1] .

---

(١) هل للتصوف صلة بالدين ؟

الواقع : أنه لا يوجد صوفى لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، ذلك لأن التصوف لا يخلو من الغاية ، وغايته دائما روحية : رضاء الملأ الأعلى ، حب الله ، الإتصال به ، الفناء فيه ليصبح عارفا به سبحانه ، تلك هى الأغراض التى يسعى إليها ، أو إلى بعضها الصوفى .

. . . . .

لذلك لا يتأتى لشخص مؤمن أن لا يسعى إليها ، ذلك أن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بكماله ، والسعى وراء هذا الكمال .

وإذن : مجاهدة ضد النفس والأهواء والشهوات حتى يصل الإنسان إلى الغايات التى وضحناها سابقا ، وهذه الغايات تقوده نحو الكمال ، أو نحو المثل العليا . ولكن التخلق بأخلاق الله لا يتأتى إلا عن طريق الوحى للمعصوم فلابد إذن من اتباع تعاليم الرسول اتباعا سليما .

وبالتالى فإنه لا يتأتى أن يوجد تصوف قط ما لم يكن اتباع كامل لشريعة صادقة ، وإن التصوف الإسلامى لم يوجد إلا باقتداء الصوفية إقتداءاً تاما برسول الله ﷺ ، لقد أحبوه واتبعوه وحققوا بذلك قول الله تعالى :

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً » .

لقد تناقش الناس كثيراً فى كون سيدنا محمد ﷺ هو القدوة لصوفية الإسلام ، بل سخر بعضهم حينما كانوا يسمعون أن محمدا ﷺ ، أول صورة حملت الصوفية على اقتفاء آثارها .

والواقع : أن التصوف لا يعدو أن يكون جهادا عنيفا ضد الرغبات ، ليصل الإنسان إلى السمو ، أو إلى الكمال الروحى : ليكون عارفا بالله .

وليس من عناصره فكرة الإتحاد أو الوحدة ، أو الحلول ، بل إن فكرة الإتحاد والوحدة والحلول يتبرأ منها الصوفية ، وهم بعيدون عنا كل البعد ، على الرغم مما يقذف به أعداؤهم ، وما اتهامات أعدائهم إلا اتهامات أعداء .

من المنقذ من الضلال للدكتور
عبد الحليم محمود

ومن أخلاقهم : شدة الحط والزجر والتوبيخ والهجر
لمن يقول : ماثم إلا الله تعالى

فإن إطلاق هذا اللفظ يبنى عليه هدم الشريعة كلها .

وقد كان الشيخ أبو القاسم الجنيد رضى الله عنه يقول :

لو كنت سلطاناً لضربت عنق كل من يقول : ماثم إلا الله ، أو ماثم فاعل إلا الله لأن صاحب هذا القول إن اعتقد صحة إطلاقه ، ولم ينسب إلى الخلق وجوداً ولا فعلا ، فقد رد التكاليف الشرعية كلها ، وبتقدير وقوعه فى المعاصى فلا يصح له توبة منها ويقول : كيف أتوب من فعل ليس هو لى ؟ فيهلك مع الهالكين ، انتهى .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول :

لما كانت الأصنام تعبد بين فترات الرسل فكذلك لابد أن يعبد الهوى بين فترات الأولياء ، بل ربما وقعت بين فترات الأولياء أمور هى أقبح من كل قبيح ، وهو نفى الاله جملة أو نفى المألوه جملة كما وقع فيه بعض الطوائف ، فقالوا : ماثم إلا فروج تدفع وأرض تبلع . وقال بعضهم ماثم موجود إلا الله تعالى ، وما ترونه عالماً فهو الله حق الأشياء التى لاتقال . فهؤلاء أنجس الطوائف . كما بسطنا الكلام على ذلك فى الباب الثالث عشر من كتاب المنن الكبرى .

فاعرض يا أخى هذه الأخلاق على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم ، والحمد لله رب العالمين[1] .

---

(١) نفهم من حديث الإمام الشعرانى النهى عن التحدث فى القدر ويؤيد ذلك الحديث عن رسول الله ﷺ : (إذا ذكر القدر فامسكوا) .

ومن أخلاقهم : عدم الجزم بترجيح أحد من العلماء أو الفقراء علي غيره أدبا مع الله تعالى ، فإنه يمحو مايشاء ويثبت .

وقد قالوا : من شأن الفقير أن لايرجح ولا يجرح ؛ أى لكثرة إقباله علي الله تعالى فلا يصير له كثير معرفة بأحوال الناس . وإن وقع أنه رأى فى أحد عيباً يقول :

إنما ذلك العيب لى .

لأن المسلم مرآة المسلم ، ولا يرى الانسان فى المرآة إلا صورة نفسه هو ولو جهد كل الجهد أنه يرى جرم المرآة من تحت صورته التى ارتسمت فيها لايقدر . فلذلك كان لايجرح أحد .

وإن وقع أنه زكى أحداً فإنما ذلك صورة نفسه كذلك . فلا يحصل بها الغرض عند الحكام لأنه لم ير فيه إلا صورة نفسه ؛ وهو عدل ثقة ليس مرتكباً كبيرة ولا مصراً على صغيرة .

فعلم أنه لايليق بفقير أن يتصدى لتزكية ولا تجريح . وأن اضطر إلى تزكية فليزك بطريقه الشرعى كما قدمنا ذلك مبسوطاً فى هذا الكتاب بالنظر لتزكية الحكام فى المحاضر[1] . والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سبق للإمام الشعرانى أن تحدث فى هذا الموضوع بالنسبة لتولية القضاة وأصحاب المهام الكبرى فى الدولة .

ومن أخلاقهم : الستر على من يدعى الطريق بغير حق إلا إن ترتب على الستر محظور

ثم وجوب النصح له فيما بينهم وبينه .

ولهم فى قلوبهم علامات يعرفون بها المحق والمبطل . فلا يكاد يخفى عليهم الصادق من غيره ، فإن بواطن الخلق مكشوفة لهم حتى أنهم يعرفون الخواطر التى تخطر للناس فى قعور بيوتهم ، ولكن يكتمون ذلك تخلقاً بأخلاق الله تعالى فإنه يرى العيب ويستره والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كثرة شفقتهم

على الأيتام والمساكين والعميان وأصحاب العاهات كالمجذومين ومن بهم برص ؛ فيأكلون مع الأجذم ويفلون له رأسه ولحيته وثيابه ، ويأكلون معه المائمات ويشربون فضلته ثقة بالله تعالى وتوكلا عليه ، ويحبون المجاورة لهؤلاء عندهم فى زاويتهم ، ويعدون اليوم الذى يأتيهم فيه أعمى أو مبتلى يجاور عندهم كأنه يوم عيد .

وقد من الله تعالى على بذلك ، فأود أن لو كان المجاورون عندى كلهم عميان وعرجان ومجذومين ، ولا استثقل منهم إذا كثروا عندى فى الزاوية . ولو صاروا ألف نفس بل أتكدر كلما ينقصون بموت أو سفر لعلمى بأن الرحمة لا تفارقهم من كثرة قراءتهم وذكرهم وكسر خواطرهم . وإنما كنت لا أستثقل بهم كغيرى لعلمى بأن رزقهم على الله تعالى لا على[1]. فالحمد لله رب العالمين .

---

(١) ولعل هذا الخلق يدخل فى مقام التوكل عند الصوفية .

يقول الإمام القشيرى — من أئمة الصوفية — يقول :

واعلم أن التوكل محله القلب ، والحركة بالظاهر لاتنافى التوكل بالقلب بعد ما تحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى ، فإن تفسر شىء فبتقديره ، وإن اتفق شىء فبتيسيره .

ويقول الإمام سهل بن عبد الله : التوكل حال النبي ﷺ ، والكسب سنته ، فمن بقى على حاله فلا يتركن سنته . ويقول :

من طعن فى الحركة فقد طعن فى السنة ، ومن طعن فى التوكل فقد طعن فى الإيمان . ما كيف عرف سهل نفسه التوكل ؟ فإنه قال : التوكل : الإسترسال مع الله تعالى على ما يريد .

ومن أخلاقهم كثرة تعظيمهم للعلماء

فلا يمرون عليهم وهم راكبون إلا لعذر ، بل ينزلون ويسلمون عليهم ويقبلون أيديهم ، بخلاف ما عليه جماعة من فقراء هذا الزمان ، فربما رأى بعضهم نفسه على العلماء.

وقال : هؤلاء محجوبون عن الله عز وجل .

وذلك سوء أدب وهو نوع من الكبر الذى هو حرام بإجماع المسلمين . وغاب عنهم أنه ما ثم أحد إلا وهو محجوب عن الله تعالى بحسب مقامه[1] .

فعظم يا أخى حملة العلم والقرآن فإن عليهم مدار الدين ، ولا يستخف بهم إلا كل جاهل ، وربما كان طلبة العلم أعلم منهم بالشريعة ، بل ذلك واقع . فلو قلت لأحدهم : مقصودى أقرأ عليك مختصراً فى الفقه لا يقدر على تفهيمه لذلك القارىء .

فاعلم ذلك واعرض هذه الأخلاق على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم . والحمد لله رب العالمين .

---

(١) يقول الله تعالى : (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب) .

وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن من إجلال الله تعالى إكرام ذى الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالى فيه والجافى عنه وإكرام ذى السلطان المقسط) حديث حسن رواه أبو داود .

ومن أخلاقهم : كراهتهم للقرب من الملوك والأمراء إلا إن أعطاهم الله تعالى الكشف الصحيح

فإنه لا يطيب لهم عيش مع الأمراء إلا إن كانوا يكاشفونهم بالأمور المستقبلة ما يفرحهم أو يحزنهم . وإذا لم يكن لهم كشف فحالهم معهم ناقص . وربما كانوا يحسنون إلى أحدهم بالفلوس والطعام فيسألونه عن شيء يقع لهم في المستقبل فلا يدرى ، فيقطعون إحسانهم عنه ويردون شفاعاته التي هي المقصود الأعظم من صحبتهم .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يكره القرب من الأمراء من حيث عدم قيامه بواجب حقهم في الأدب معهم ، ويقول : أنا لا أعرف ما يستحقه آحاد الناس من الأدب فكيف أعرف آداب الملوك والأمرا وأكابر الناس ؟

وكان يقول : من إجلال الأمير عدم الأكل معه على سفرة واحدة ، أو كثرة مجالسته بلا ضرورة[1] .

وقد وقع أن الشيخ أبا العباس المرسى لما اجتمع بسلطان تلمسان ذكر بعض الناس من العامة للسلطان كراماته فقال :

لا بد من امتحانه ، فذبح له دجاجا ودس فيه واحدة مخنوقة ، فلما قدمت للشيخ أبي العباس قال :

أطعموا هذه للكلاب وميزها من بين الدجاج ، فاعتقده السلطان اعتقادا تاما .

فلولا هذا الكشف لما كان اعتقده ولا عظمه .

فاعلم ذلك يا أخي ولا تصحب أحدا من الأمراء إلا إن كنت صاحب كشف تام إذا أخبرتهم بشيء وقع لا محالة . والحمد لله رب العالمين .

---

(١) ويختلف الصوفية في هذا الخلق : فبعضهم يرى جوازه بالشروط التي ذكرها الإمام الشعراني .

والبعض الآخر لا يرى جواز مجالسة الأمراء والسلاطين إلا للنصيحة لهم .

والبعض الآخر يرى تجنب ذلك على الإطلاق .

ومن أخلاقهم عدم طلبهم كثرة الأتباع

إظهارا للعجز عن القيام بحقوقهم من أكل وشرب وكسوة ونصح وتأديب .

وكأن لسان القدرة الإلهية يقول : من طلب كثرة الأتباع ، فليستعد للبلاء .

وربما كثرت أتباع الفقير وعظموه فكاتبوا السلطان فيه بأنه يخاف على المملكة منه ، فأرسل بقتله أو نفيه من بلده ، كما وقع ذلك للشيخ علي الكازواني وللشيخ أويس بالشام .

فعلم أن من عقل الفقير إذا رأى أتباعه تكثر . وخاف من جهتهم علي نفسه أن ينفرهم بالقلب والقالب ، ويمنعهم من الاجتماع به رحمة بهم .

وربما رمى الشيخ بعمل الزغل مثلا فمسكوا جماعته فقطعوا أيديهم كما وقع للشيخ صنطباى ، ثم نفوه إلى القدس حتى مات .

وبالجملة فمن لم يكن له حال يحميه من تصريف الولاة فيه ، فليس له التظاهر بالمشيخة فى هذا الزمان ، ولا إخبار الناس بمن يعزل أو يتولى من الولاة .

ووالله إنى لأكتم كثيراً مما اطلعت عليه فى المستقبل ، وأسأل عنه ، فلا أجيب ، ومع ذلك فقد كاتب الحسدة من مصر فى إلى باب السلطان وذكروا أن اتباعى فى مصر نحو ثلاثين ألفا ، وأنى ادعيت الاجتهاد المطلق ، وأنه يخاف على المملكة منى .

فلولا أن ولد شيخى الشيخ أبو الالطف كان هناك وكذب المنهى فى ذلك لحصل لى غاية التكدر ، وبينما يجيء الدرياق من العراق مات الملسوع[1] .

فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين .

---

(١) وبالفعل كان للإمام الشعرانى بعض التجارب مع السلاطين فى هذا الموضوع ويبدو أن مسألة رميه بالإجتهاد المطلق كان لها تاثير كبير حيث جعلته موضع اتهام من عدد من العلماء فى عصره .

ومن أخلاقهم عدم مبادرتهم للانكار على من رأوه يأخذ
مال الولاة من كل العارفين إلا بطريق شرعى

بل يتربصون فى ذلك فربما كان يفرق ذلك على محاويج المسلمين ممن يحل له مثـل ذلك ، كالذى ارتـكبته الديون وهو ذو عيال وطامع عليه مع ذلك الحب الفرنجى ، وكالعميان والأيتام الذين لا مال لهم ، ونحو ذلك .

وإذا رأيناه يأكل مما يأخذ من الظلمة حملناه على الضرورة الشرعية ، وإن كانت القرائن تعطى غير ذلك ، طلبا للسلامـة من حصول الإثم بسوء الظن فتحقق يا أخى المنـكر ثم انكر .

وقد بلغنا أن الشيخ أبا عبد الله القرشى رضى الله عنه ، وكان من أصحاب الخضر عليه الصلاة والسلام ، وكان ينام عنده كثيراً ، أنه مر بأصحابه على صبى يقرط الفريك فقال : خطية عليك يا ولدى تقرط من قمح الناس . فقال له : بل خطيه عليك يا عم فى إساءتك الظن بى . إنه والله زرعنا من غير شريك ، وقد أرسلنى والدى أقرط منـه شيئاً نعمله فطيراً لضيف فـكاح الشيخ وتأدب من المبـادرة إلى الانـكار من ذلك اليوم .

وتقدم تقريرنا : أن الشخص لا يسلم من المبادرة إلى الانـكار ، ويصير يحمل الناس على المحامل الحسنة إلا بعد أن يطهر باطنه من سائر المخالفات ، وإلا فمن لازمه غالباً الإنـكار ، حملا للناس على المحامل السيئة ، قياساً على ما عنده هو[1] .

فاعرض يا أخى هذه الاخلاق على نفسك وعلى اخوانك . تعرف حالك وحالهم . والحمد لله رب العالمين .

---

(١) يقول الله تعالى : (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) .
وقال تعالى : (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا .

ومن أخلاقهم : حسن سياستهم لصاحبهم

إذا صحب أحداً من الظلمة وصار يأكل من طعـــامه خوفاً أن يهجر أصحابه إذا عارضوه فى صحبة ذلك الظالم ، حتى تشربت محبته قلبه .

وكذلك من أخلاقهم حسن سياستهم لذلك الظالم فيكتبون لصاحبهم : قد بلغنا يا أخى أنك صرت تأكل من مال الظلمة والمسؤل من فضل الأخ إن لا يأكل إلا من الطعام الذى يأكل منه الأمير ، فقد بلغنا أنه يتورع فى مأكله ولا يجعل فيه شيئاً من البلص والجرايم ، وذلك هو الظن به فإنه رجل عاقل ، والعاقل لايأكل حراماً ، ويعرض نفسه لدخول النار ونحو ذلك من الألفاظ ، فيستفيد صاحبنا ، ومن هو فى خدمته من هذا الـكلام النصح من غير أن يجزم فى حقه بأنه يأكل حراماً ، فإنه ربما تنفر نفسه من ذلك الـكلام ويقول ما يأكل حراماً إلا هذا النصاب الشيطان ، ونحو ذلك ، ويصير يعارضنا فى شفاعاتنا عنده فى المظلومين ، فالحمد لله رب العالمين[١] .

---

(١) يقصد الإمام الشعرانى هنا أن ينبه على ضرورة الموعظة الحسنة لأن إيذاء بعض الناس بالقول الشديد يدفعهم إلى المعاندة والتطرف فى هذا العند .
يقول الله تعالى : (ادع إلى سبيل ربك بالحـكمة والموعظة الحسنة) .

ومن أخلاقهم : عدم معاداتهم لأحد ممن يحضر للمواكب الالهية

كالمؤذن والمتهجد فى الاسحار والذاكر لله تعالى ، فربما حفت هؤلاء العناية الربانية ، فغفر الله تعالى لهم جميع ذنوبهم وصاروا محبوبين لله عز وجل من جملة أوليائه ، وقد قال الله تعالى :

من آذى لى ولياً فقد أذنته بالمحاربة[1] ، ومن حاربه الله تعالى هلك مع الهالكين فى الدنيا والآخرة ، ولم يأخذ بيده فى شدة فقد ثبتت عداوته لله ورسوله ، فكيف يعادى العبد من يحبه الله تعالى ورسوله ﷺ .

وأيضاً فقد قال الله تعالى : « أنا جليس من ذكرنى »[2] .

فكيف يعادى الانسان جليس ربه تعالى ؟ أو لم يكرمه لأجله .

وربما جعل الحق تعالى دعاء ذلك المؤذن مثلا لايرد فى حق كل من أذاه وربما كان ذلك الذى أذاه نائماً فى الأسحار على جنابة والمؤذن يمجد الله تعالى ويثنى عليه ، وهو على طهارة ، فليحذر الفقير من مثل ذلك وهذا الخلق لم أجد له فاعلا فى اقرانى غيرى فالحمد لله رب العالمين .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : لاينبغى لعاقل أن يعادى أحداً من خدام

---

(١) والحديث بطوله : (عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :
من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، وإن سالنى أعطيته ولئن استعاذنى لأعيذنه) رواه البخارى .

(٢) الحاكم بمعناه ، بسند صحيح وروى أحمد وابن ماجه بسند صحيح (أنا مع عبدى ما ذكرنى .. الخ) .

المساجد وعمارها لحظ نفس من أمام وخطيب ووقاد وفراش وبواب ، وغيرهم إكراماً لصاحب البيت جل وعلا ، وأقل مايكون من إكرامهم أن يكرمهم كما يكرم بواب السلطان وفراشه وإمامه وخطيبه ، ولله المثل الأعلى .

فعلم أن كل من أدعى أنه من أهل الطريق وأذى أحداً من خدام المساجد ؛ ولو بسوء الظن فهو كذاب لم يشم للطريق رايحة والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : المبالغة فى الأدب مع ولاتهم

فلا يطعنون عليهم إذا ولوا أحداً أمور المسلمين إلا بطريق شرعى لأن الولاة أتم نظراً من أحاد الناس ؛ وقد وعظ الأصمعى هارون الرشيد بمـــلأ من الناس ؛ فقال له هارون :

يا با عبد الله إن كنت أعلم منا فنحن أعقل منك ؛ وأتم نظراً فلا تنصحنا فى ملأ ولا تغششنا فى خلاء .

وهذا الأدب من محاسن أخلاقهم ؛ فإن من طعن على إمامه . فقد خانه بالغيب وذلك مذموم ؛ بل يسكون مع إمامه بالتعظيم والتبجيل على حد سوافى الغيبة والحضور .

وقد بلغنا أن الخليفة لمـا منع الامام أبا حنيفة من الفتوى سألته ابنته فى الليل عن الدم الخارج من بين الأسنان هل ينقض الطهارة ؟

فقال لها : سلى عن ذلك عمك حماداً فإن الخليفة قد منعنى أن أفتى ولم أكن ممن يخون إمامه بالغيب . انتهى .

وهذا الخلق خلق غريب لم أجد له فاعلا من أقرانى إلا النادر . وأكثر الناس يطعن على السلطان فى ولايته قضاة العساكر وعلى الباشاة فى توليته أرباب المناصب ويخوضون فى ذلك بغير علم ، وذلك لا ثمرة فيه أو الباشاه مثلا تحت طاعة ذلك الطاعن فالعاقل من عرف زمانه[1] . والحمد لله رب العالمين .

---

(١) وفى الحديث : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبى خلفه نبى وأنه لا نبى بعدى وسيكون بعدى خلفاء فيسكثرون . قالوا : يارسول الله فما تأمرنا ؟ قال: أوفوا ببيعة الأول فالأول ثم أعطوهم حقهم واسألوا الله الذى لـكم فإن الله سائلهم عما استرعاهم) متفق عليه .

ومن أخلاقهم : أدبهم مع طلبة شيخ إمامهم

كما كان إمامهم يتأدب مع شيخه .

فيتأدب من قلد الإمام الشافعي مع طلبة مذهب الإمام مالك ؛ ويتأدب الحنابلة مع طلبة مذهب الإمام الشافعي ، وهكذا إلى مشايخنا الذين قرأنا عليهم العلم من أهل عصرنا لأن حرمة الوالد وإن علا مطلوبة شرعاً ، ولذلك قال الله تعالى : « يابنى آدم » فنسبهم إلى جدهم الأصلي لينبههم على كثرة الصلاة والدعاء له كلما قرأوا ودعوا قياماً بواجب بره صلى الله عليه وسلم .

ولم أجد لهذا الخلق فاعلا غيرى إلا القليل .

فاعرض هذه الأخلاق على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : حمايتهم من الأكل من طعام المتهورين فى مكاسبهم

كما تقدم بسطه مراراً كالذى يبيع على الظلمة أو يقبل هداياهم .

ومن أكبر علامة للمتهورين أن يطبخ أحدهم اللونين والثلاثة فى بيته ، فإنه لو تورع لم يجد لوناً واحداً إلا بعسر ، ومتى دعى الفقير فى هذا الزمان إلى طعام ، ورأى هناك أكثر من لون ، فمن الأدب عدم الأكل ، وكل فقير ترخص فى ذلك فهو نصاب هالك وربما قال أن الإمام أبا حنيفة يقول : الحرام لايتعدى ذمتين وأنا أكل على مذهب هذا الإمام الأعظم .

فنقول له : قد سألنا المحققين من أهل مذهبه فقالوا لنا : هذا نقل باطل عن إمامنا أو هو محمول عن من لم يعلم بذلك وإنما شك فيه فقط أما من رأى الظالم يأخذ من أحد طعاماً غصباً ، ثم قدمه لنا ، فلا يجوز لنا أكله بالإجماع .

وقد بلغنا أن الحسن البصرى زار الإمام عمر بن عبد العزيز فقدم له عمر كسرة يابسة ونصف خيارة ، وقال : كل يا حسن فإن هذا زمان لايحتمل فيه الحلال السرف ، انتهى .

فعلم أن هؤلاء الذين يأكلون فى بيوت الظلمة كاذبون فى دعواهم إنهم من أهل الطريق لاينبغى لهم التصدر فى مقام المشيخة ولا أن يأخذوا العهود حتى يتوبوا توبة نصوحاً والحمد لله رب العالمين[1] .

---

(١) وهذا من أحسن تنبيهات الإمام الشعرانى : فإن الذى تكون مهمته الدعوة إلى الله ثم يزور الظلمة ويأكل عندهم مع معرفته أن هذا الأكل نتيجة الظلم يصدق عليه قول الله تعالى : (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) .
وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) .

ومن أخلاقهم : عدم أكلهم من طعام من يعتقد فيهم الصلاح

فإنه لولا اعتقاده الصلاح فيهم ما كان أطعمهم شيئاً فلا يأكلون إلا من طعام المحب لهم فقط ، والفرق أن المحب تكون محبته كمحبة الوالدة لايتوقف محبتها لولدها على كونه صالحاً بل تحبه علي أى حال كان ، وإن رأت منه أفعالا ناقصة قالت : خزاك الله ياإبليس ولا تكاد تضيف إلى ولدها شيئاً من النقايص ، ثم إن الفقير لايخلو حاله من أمرين لأنه إن كان صالحاً فى نفس الأمر كما يظنه المعتقد ، فقد أكل بصلاحه طعاما ، وإن كان غير صالح فقد أكل حراماً بنص الشريعة ، والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : مسالمة الظلمة وعدم الركون إليهم

إذا قالوا للفقير نحن والله محبون فانهم كاذبون ، وذلك لأن أفعال الظلمة بالضد من أفعال الفقراء فأين الصدق فى المحبة وأين علاقتها .

فإن الفقير الصادق لايحب الدنيا ، ولو أعطاها الظالم له ما قبلها منه .

فليكن الفقير الساذج علي حذر من الركون إلى إظهار الظالم المحبة له ، وقد رأيت شخصاً من مشايخ العرب إذا دخل بيته فقير يقول له : نحن أحق بالسعى ، واكن كما وثقنا بعارة بيتنا الذى دخله سيدى الشيخ ويصير يقبل رجله ، ثم إذا أراد الشيخ الإنصراف يعطيه شيئاً من الذهب ويكتب له وصولات بعسل وسمن وقمح وبسلةودجاج وأوز ويقول للشيخ : ياسيدى اجبروا بخاطرى لله تعالى ، وأقبلوا ذلك من عبدكم فتدخل راس سيدى الشيخ الساذج الجراب ويصير يقول فى نفسه وللناس والله :

ما كنت أظن أن هذا يحبنا هذه المحبة العظيمة فيفارقه الشيخ وهو يحب ذلك الظالم أشد المحبة ، ويركن إليه أشد الركون ، ويصير يجيب عنه كل من وصفه بالظلم ، ويقول : إنه مسكين إيش يعمل الأحزان الولاة يطلبون منه شيئاً لايفرغ ، فلا يكاد يجعل له عذراً فى ظلمه أبداً والحال إن ذلك الظالم أول مايخرج الفقير يقول : أسأل الله تعالى أن لاينفعنى ببركة أحد منكم أين صلاحكم وأين حياؤكم وأنتم لا تشبعون من السؤال بالحال والقال .

ورأيته فى مولد سيدى أحمد البدوى نزل له شيخ من مشايخ مصر فى حجة حضور المولد يشحت منه فقام له وبجله وأكرمه وكتب له وصولات بعسل وسمن وقمح ودجاج ، فلما خرج من عنده قال : قطعكم الله عن بكرة أبيكم تأتونا لماذا ما أنا عالم فتأخذون منى علمى ، ولا أنا صالح فتأخذوا دعاى ، ولا عندى مال حلال فتأكلون منه هذا شيء سمعته بأذنى فأخذت لنفسى منه عبرة .

وسمعته مرة أخرى يقول : ليس أحد فى هذا الزمان يصلح اعتقادنا فيه ولولا قبولنا

شفاعاتهم ماجعلهم الناس مشايخ ولا اعتقدوهم ، فنحن الأشياخ على الحقيقة ، وهم من تحت أمرنا لأنهم يحتاجون إلينا ونحن لانحتاج إليهم .

وقد دخلت عليه مرة فأكرمنى وقبل نعلى فلما وليت وخرجت من عنده استحى أن يواجهنى بهدية فعوق النقيب وأعطاه لى شيئاً يساوى أكثر من أربعة آلاف نصف ، فرددتها عليه ، فأرسلها ورائى إلى المولد ، فرددتها .

فقال : ماغلبنى فى الفقراء إلا فلان وقضى للناس على اسمى عدة شفاعات .

فاعرض يا أخى هذه الأخلاق على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم الأكل من طعام من يأكل بدينه من الفقراء

الذين لا كسب لهم وإنما يكرمهم الناس لأجل صلاحهم ودينهم لاسيا أن عمل ذلك الفقير مولداً أو طهوراً أو عرساً ، فإن ذلك الطعام لايخلو من الشبهات قطعاً ، اللهم إلا أن يكون من كل الأولياء أصحاب التصريف ، فهذا لا اعتراض عليه لحفظه بفضل الله تعالى .

وقد كان الفضيل بن عياض يقول : لأن آكل الدنيا بالطبل والمزمار أحب إلى من أن آكلها بديني .

ومن شك من هؤلاء الفقراء فى أنه يأكل بدينه ، فليقدر نفسه متجردة من جميع صفات الصالحين متخلقة بصفات الفاسقين ، وينظر فإن أطعمه الناس وعملوا له وليمة من مالهم فهم محبون قد أطعموه لله تعالى ، وإن تركوا إطعامه فليعلم أنه يأكل بدينه .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

لاينبغى لفقير أن يأكل من طعام أحد إلا أن كان بحيث لو أخبره بجميع زلاته السابقة التى عملها بينه وبين الله تعالى لم يتغير اعتقاده عليه ولا حرم عليه الأكل[1] ، انتهى فالحمد لله رب العالمين .

---

(١) يحاول الإمام الشعرانى دائما إبعاد الصوفية عن كل مايثير حولهم الشبهات نظراً لأن كثيراً من المشعوذين استخدموا الطريق الصوفى للحصول على مآرب لهم فهو هنا ينفى هذا عن رجال التصوف ويربأ بهم عنه .

ومن أخلاقهم عدم أكلهم من طعام النذور أو الأعراس الواسعة
أو طعام العزا والجمع فى المقابر وعام الشهر ونحو ذلك

لغلبة الكلفة فى مثل ذلك ، وقلة الاخلاص فيه عادة لاسيما ان كان طعام النذر عملته امرأة من غزلها وخياطتها فإن فى ذلك دناءة همة لا تليق بالرجال .

وقد نفذت وصايا جميع الأشياخ إلى مريديهم فى ساير الأقطار أن لايأكلوا من طعام النساء ولا يقبلون لهم رفقا اللهم إلا أن يطلع الله تعالى أحدا من الأشياخ على حل ذلك الطعام واصلاح نية فاعله ، فلاحرج فى أكل ذلك.

وقد كان ﷺ يذهب هو وأصحابه إلى دار عجوز كل جمعة ، فتصنع له طعاما فيأكلون منه حتى قال أبو هريرة : كنا نفرح ليوم الجمعة لأجل طعام تلك العجوز انتهى .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

لاينبغى لفقير ولافقيه أن يجلس يأكل من طعام العزا وأم الميت وأخوه وابنته مثلا كأنهم غمسوا فى نار من فرقهم إلى قدمهم فإن ذلك فى غاية القبح ، بل الذى ينبغى له تعزية أهل الميت ، وتسليتهم ، ووعدهم بالاجر على ذلك ، ويقول لهم كلنا راحلون عن قريب ، وأقبح من الأكل تخاصم الفقهاء على فلوس القراءة وأهل الميت يسمعون كما بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن الكبرى والحمدلله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم الأكل من طعام الصنايعى الذى يعمل بالقوت لاسيما أن كان قد طعن فى السن إلا ان كافئوه عليه إما باعطائهم ثمنه ، أو بتوجههم إلى الله تعالى أن ينزل له البركة فى رزقه ، ويرزقه العافية فى بدنه ، ويستره بين العباد إلى آخر دقيقه.

وربما كان ذلك الطعام مما كلفته زوجته بعمله ، لما ولدت أو شفيت من مرضها ، ووصلت معه فيه إلى الطلاق ، حتى عمله .

وقد حمانى الله تعالى من أكل مثل ذلك إلى وقتى هذا ولم أجد له فاعلا من أقرانى إلا القليل ، فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم أكلهم من طعام من علموا ان عليه دينا

سواء أكان قادرا على وفائه أو عاجزا لأن فى الأكل من ذلك مساعدة له على عدم اعطائه الحق الذى عليه .

إذ الواجب علي المديون صرف كل مازاد على ضروراته فى الدّين فمن أكل من ذلك الطعام ، فقد أكل شبهة لكون الحق فى ذلك لغيرنا من حيث الأمر بتقديمه علينا ، ولو أن المديون دعانا إلى ذلك بطيبة نفس ، فلا نجيبه لأنه جاهل بما قررناه ، فهو كالطفل فى فى حجر وليه لايجاب إلى كل مايطلب .

ولم أجد لهذا الخلق فاعلا فى مصر غيرى إلاقليلا ، وغالب الناس يأكلون ماقدم لهم ، ولايكادون يسألون هل على صاحبه دين أم لا ، بل لايهتدون لكون الدَين مانعاً للمتورعين من الأكل أم لا .

فأعرض ياخى هذه الأخلاق على نفسك واقرانك تعرف الحال والحمد لله رب العالمين [١] .

---

(١) يقصد الإمام الشعرانى بنهيه عن الأكل من طعام النساء والصناع ومن عليه دين أن هؤلاء هم عادة الطوائف الفقيرة المحتاجة فى أى قطر فتكلفتهم بتجهيز أى نوع من الطعام أو الأكل عندهم فيه تضييق عليهم فى معيشتهم فهو يربأ برجال التصوف أن يكونوا سبباً فى التضييق على الناس وإتعابهم فى أرزاقهم بل يكون الصوفية هم أصحاب اليد العليا عند هؤلاء الناس .

ومن أخلاقهم عدم المبادرة إلى الانـكار على من يروه
يسعى على وظايف الناس من طلبة العلم

لأن الساعى ربمـا كان أهلا لذلك ، وصاحب تلك الوظيفة عامى مات أبوه الفقيه فلم يزل واضعا يده عليها بحكم الارث له فى ذلك لاسيا ان كانت عمامته كعمامة الفقيه ، بل الذى ينبغى للعبد أن يتربص فى مثل ذلك ، حتى يظهر له ان من فى يده تلك الوظيفة ليس بأهل لهـا ، أوهو أهل لهـا ، ثم بعد ذلك ينكر علي المبطل منهما ، كما أوضحنا ذلك فى كتاب المنن الـكبرى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم مزاحمتهم على شئ من مناصب الدنيا

كتدريس علم أو وعظ ، أوتسليك للمريدين ، أومشيخة حضور ونحو ذلك إلا بطريق شرعى .

فلا يكون له علاقة دنيوية تعوقهم عن دخول حضرة الله تعالى أبدا الاعدم القسمة لا غير ، وبذلك تميزوا عن غيرهم .

فمن كانت له علاقة من الدنيا تقطعه عن الله عز وجل ، فليس هو من أهل الطريق، ولو لبس الصوف والمرقعات .

ثم من علامة الملازمة أن يحتاج إلى وقوف عند حاكم لأجل مزاحمة أحدله فى تلك العلاقة لأن الصادق يعطى كل مدع عليه ماطلبه منه ، ولو بغير حق هروبا مما يشغله عن الله تعالى ، ثم انه يبرىء ذمة من أخذه منه فى الدنياوالآخرة ، ولورزقته أو بيته أوزاويته لأنه يعول على فضل الله تعالى فى أمر رزقه ، وجميع حاجاته لاعلى شى من الكون ، ومقصوده الأعظم أن يرى نفسه بين يدى ربه ليلا ، ونهارا لاغير ، وهذا لامزاحم له عليه .

فليفتش الفقير نفسه هل زاحم أحدا ولو بقلبه على شيء مما ذكرناه وهل هو صادق فى قطع العلايق أو كاذب [1] والحمد لله رب العالمين .

---

(١) قال الأستاذ الإمام أبو القاسم رحمه الله : اختلف الناس فى الزهد ؛ فمنهم من قال : الزهد فى : فى الحرام ؛ لأن الحلال مباح من قبل الله تعالى ؛ فإذا أنعم الله على عبده بمال من حلال ، وتعبده بالشكر عليه ، فتركه له باختياره : لا يقدم على إمساكه له بحق إذنه .

ومنهم من قال : الزهد فى الحرام واجب وفى الحلال فضيلة ؟ فإن إقلال المال ـ والعبد صابر فى حاله ؛ راض بما قسم الله تعالى له ، قانع بما يعطيه ـ أتم من توسعه وتبسطه فى الدنيا ، فإن الله تعالى زهد الخلق فى الدنيا بقوله : « قل متاع الدنيا قليل ، والآخرة

. . . . .

خير لمن اتقى » ، وغير ذلك من الآيات الواردة فى ذم الدنيا والتزهيد فيها .

ومنهم من قال : إذا أنفق العبد ماله فى الطاعة ، وعلم من حاله الصبر ، وترك التعرض لما نهاه الشرع عنه فى حال العسر ، فحينئذ يكون زهده فى المال الحلال أتم .

ومنهم من قال : ينبغى للعبد أن لا يختار ترك الحلال بتكلفة ، ولا طلب الفضول مما لا يحتاج إليه ويراعى القسمة : فإن رزقه الله ، سبحانه وتعالى ، مالا من حلال شكره ، وإن وقفه الله تعالى ، على حد الكفاف لم يتكلف فى طلب ما هو فضول المال ؛ فالصبر أحسن بصاحب الفقر ، والشكر أليق بصاحب المال الحلال . ا هـ . الرسالة القشيرية للإمام أبى القاسم القشيرى .

ومن أخلاقهم : شدة حيائهم من الله تعالى أومن جميع الكون

أن يقعوا فى معصية من المعاصى وهو يراهم ، حتى أنهم يستحيون من جوارحهم ، ومن الحائط ، والأرض ، كما يستحيون أن يعصوا ربهم بحضرة جماعة من الصالحين .

وقد روى بن عدى عن أبى أمامة مرفوعا : « استح من الله تعالى استحياءك من رجلين من صالحى عشيرتك »[٢] انتهى .

فكل فقير ادعى الحياء من الله تعالى أومن خلقه فمن علامة صدقه عدم وقوعه فى المعاصى جملة .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول من علامة كمال الفقير توالى مراقبته لله تعالى وكثرة الحضور بين يديه ليلا ونهارا قال : وقد سمعت سيدى إبراهيم المتبولى يقول كثيرا .

لى ثلاثون سنة وأنا مقيم فى حضرة الله تعالى لم أخرج ، وجميع ماأتكلم به إنما أكلم به الحق سبحانه .

فقيل له : فمن غرس لكم النخل الذى فى بركة الحاج ؟

فقال : إن الله تعالى أرسل ملكا على صورتى ، فغرس ذلك حين خطر ذلك ببالى، وأنا فى حضرته .

قلت : يحتمل انه غرس ذلك وهو حاضر مع الله تعالى ، لأنه أمر مندوب إليه ، والله أعلم .

وبالجملة ، فأقرب شاهد على العبد من الخلق جوارحه فلا يصح له أن يخفى عنها شيئا

(٢) ونص الحديث : (استحى من الله استحياءك من رجلين من صالحى عشيرتك) رواه ابن عدى فى الكامل .

من معاصيه ومن عمل على تحصيل مقام المراقبة لأعضائه لم يصح منه الوقوع فى معصية أبدا والحمد لله رب العالمين [١] .

---

(١) سئل ابن عطاء : ما أفضل الطاعات ؟

فقال : مراقبة الحق على دوام الأوقات .

وقال إبراهيم الخواص : المراعاة تورث المراقبة ، والمراقبة تورث خلوص السر والعلانية لله تعالى .

وقال الواسطى : أفضل الطاعات حفظ الأوقات . وهو: أن لا يطالع العبد غير حده ، ولا يراقب غير ربه ، ولا يقارن غير وقته .

ومن أخلاقهم عدم تسليمهم للنفس ماتدعيه من مقامات الكمال

لأن فى طى دعاويها غوائل قل من يسلم منها ، ولذلك طالت الطريق على بعض المتعبدين، وأفنوا عمرهم فى العبادة ولم يحصلوا علي شيء من مقامات الرجال كما أشار إلى ذلك سيدى عمر بن الفارض رضى الله تعالى عنه و نفعنا به بقوله .

تعرض قوم للغرام فاعرضوا ... بجانبهم عن صحتى فيه واعتلوا

رضوا بالأمانى وابتلوا بحظوظهم ... وخاضوا بحار الحب دعوى فما ابتلوا

فهم فى السرى لم يبرحوا عن مكانهم ... وما ظعنوا فى السير عنه وقد كلوا

وأشار إلى ذلك أيضاً سيدى على بن وفا رضى الله عنه بقوله :

تشيخوا من قبل أن يوجدوا ... فعمرهم ضاع ولم يولدوا

رضوا بأن يعتقدوا سادة ... وهم لأدنى وهمهم أعبدُ

مشوا مكبين علي وجوههم ... عمياً عن العلياء لايهتدوا

قد حسبو الأرض سماء لهم ... فاستقربوا ماهو مستبعد

وكلما مالوا بأهوائهم ... قالوا صعدنا وهم أخلد

فأعجب لمن شاخوا على صغرهم ... فى أرذل العيش لشوا يجهدوا

فلا تحاول طبهم إنهم ... لكل من خالطهم يفسدوا

إلى آخر ما قال وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب العهود وغيره .

فاعرض ياخى هذه الأخلاق الشريفة على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم ، والحمد لله رب العالمين[1] .

يقول الإمام القشيرى : فإن قيل :

فما معنى الولى ؟

قيل يحتمل أمرين أحدهما أن يكون فعيلا مبالغة من الفاعل ؛ كالعليم ، والقدير وغيره ، فيكون معناه : من توالت طاعاته من غير تخلل معصية .

. . . . .

ويجوز أن يكون فعيلا بمعنى مفعول ، كقتيل بمعنى مقتول ، وجريح بمعنى مجروح ، وهو الذى يتولى الحق ، سبحانه ، حفظه وحراسته على الإدامة والتوالى ، فلا يخلق له الخذلان الذى هو قدرة العصيان ، وإنما يديم توفيقه الذى هو قدرة الطاعة ، قال الله تعالى : « وهو يتولى الصالحين » .

ومن أخلاقهم : حسن ظنهم بربهم إذا سلط عليهم الخلق بالأذى

وأطلق ألسنتهم فيهم بالذم ، ويقولون : لولا أنه تعالى يريد تقريبنا إلى حضرته مافعل معنا ذلك ، لأنه لا يصطفى عبداً إلا بعد أن ينفر من أبناء الدنيا كلهم ، ويقبل على مولاه ولا يصح له ذلك إلا بعد أن يبالغوا فى إيذائه ، فهناك ينكشف له أنه لا نافع ولا ضار إلا الله تعالى وحده ، فيراعيه وحده ويدوم على مراقبته ليلا ونهاراً فيصطفيه الله تعالى حينئذ وينصره على كل من عاداه[٢] .

ولو أنه تعالى أطلق ألسنة عباده بالثناء والتعظيم لذلك العبد لركن إلى الخلق ضرورة ففاته الاصطفاء كما سيأتى بسطه فى خاتمة الكتاب إن شاء الله تعالى والحمد لله رب العالمين.

---

(١) ولعل قراءة متأنية لكتب الطبقات وتواريخ الرجال تبين لنا قيمة هذا الخلق فإننا نجد فى تاريخ رجال التصوف ألوانا من الأذى لا قوها خصوصاً فى أوائل حياتهم فصبروا عليها فكان لهم النصر من الله ولأعدائهم الخذلان والضياع .

ومن أخلاقهم : محبتهم فى كثرة التلامذة ليعلموهم الأدب مع الله تعالى

محبة فى الله عز وجل ، فيفيدون الحق تعالى بأنفسهم ويقولون للتلامذة : إنما نحن لكم كرتبة الادمان فنجربكم بها معنا فى تصاريف الأمور المخالفة لأهوائكم ونأمركم بالرضى عنها بها والصبر علينا لتترقوا بذلك إلى صحة معاملتكم مع الله تعالى ، فإن كل من لم يحكم الأدب مع شيخه لا يشم من الأدب مع الله تعالى رائحة ، فما ثم داع إلى الله تعالى من القوم يدعوا إلى حظ نفسه أبداً حاشاهم من ذلك .

وكان سيدى يوسف العجمى يقول لتلامذته :

تعالوا حتى اعلمكم الادب مع الله تعالى ثم يتنكر عليهم ، ويخالف جميع اهويتهم حتى انه يطلق امراة هذا فيعطيها لهذا ويخرج احدهم من خلوته ويعطيها للآخر ويعزله من الإمامة ويعطيها للاخر ، ويقول : كل من رضى بحكمى فيه ترق إلى الرضى التام بحكم الله تعالى فيه ، ومن لم يرض بحكمى فيه فمن لازمه السخط على مقدور الله تعالى وعدم الرضى باقداره ، وذلك كفر بالله تعالى ، فان الحق تعالى تصرفه مطلق ، فيفعل مايشاء لكن لابد للعبد من الاستغفار من كل معصية قدرها الله تعالى عليه من حيث كسبه ليقوم باداب الشريعة [1] والحمد لله رب العالمين .

---

(١) يقول الإمام القشيرى فى شروط المريد :

ومن شرطه : أن لا يكون له بقلبه اعتراض على شيخه ، فإذا خطر ببال المريد أن له فى الدنيا والآخرة قدرا أو قيمة ، أو على بسيط الأرض أحد دونه لم يصح له فى الإرادة قدم ، لأنه يجب أن يجتهد ليعرف ربه ، لا ليحصل لنفسه قدرا .

وفرق بين من يريد الله تعالى وبين من يريد جاه نفسة ، إما فى عاجله وإما فى آجله ، ثم يجب عليه حفظ سره حتى عن زره إلا عن شيخه ، ولو كتم نفسا من أنفاسه عن شيخه فقد خانه فى حق صحبته ، ولو وقعت له مخالفة فيما أشار عليه شيخه ، فيجب أن يقر بذلك بين يديه فى الوقت ، ثم يستسلم لما يحكم به عليه شيخه عقوبة له على جنايته ومخالفته ، إما بسفر يكلفه ، أو أمر ما يراه .

ومن أخلاقهم : كثرة تفويضهم إلى الله تعالى فى كل أمر طلبوه منه مالم يشرع

فلا يطلبون منه شيئا إلا مع درهم العلم فيه إلى الله تعالى عملا بقوله تعالى : « وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وانتم لاتعلمون (١) » .

فلذلك كانوا يقولون نحن لانعرف مانطلبه ان كان قسم لنا أم لا ، ثم بتقدير قسمته ، فهم يقولون : اللهم اعطنا كذا أو اصرف عنا كذا ان كان لنا فيه خيرة ، فانك ولينا ونحن كالأطفال فى حجر تدبيرك ، فإن اعطاهم ماطلبوا كان خيراً ، وان منعهم ذلك كان خيرا .

وقد خالف قوم هذا الادب فوقعوا فى أمور تكدر عليهم امر معاشهم ، وصاروا يسلون الاقالة مما كانوا سألوا الله تعالى فى اعطائه لهم فلا يجابوا ولو انهم كانوا سألوا بالتفويض (٢) لحفظهم الله تعالى من كل سوء .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول : من سوء الادب ان يسأل العبد ربه ، ويقسم عليه بانبيائه ورسله ان يعطيه كذا وكذا ، ثم إذا اعطاه له يتبرم منه ويسأل ربه التحويل ، وماهكذا يكون أهل الادب مع الله تعالى .

فيلحذر العبد من ذلك والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢١٦ .

قال سهل بن عبد الله : علامة المتوكل ثلاث : لا يسأل ، ولا يرد ، ولا يحبس .

وقال : أول مقام فى التوكل : أن يكون العبد بين يدى الله عز وجل كالميت بين يدى الغاسل ، يقلبه كيف شاء ، لا يكون له حركة ولا تدبير .

يقول الإمام القشيرى : وأعلم أن التوكل محله القلب ، والحركة بالظاهر لا تنافى التوكل بالقلب ، بعد ما تحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى ، فإن تعسر شيء فبتقديره ، وإن إتفق فبتيسيره .

ومن أخلاقهم : مداومتهم فى نهايتهم على الأعمال الصالحة

التى كانوا يعملونها فى بدايتهم ولا يتركونها استغناء عنها بما أعطاهم الله تعالى من دوام الشهود القلبي الذى هو أغلب أعمال العارفين ، فان الأعمال الظاهرة إنما هى وسيلة إلى حصول مثل ذلك الشهود ولا سيما إن كان لأحدهم اتباع فإنهم لا يهتدون للأعمال القلبية حتى يقتدوا به فيها وقد قيل للجنيد رضى الله عنه نراك تدمن امساك السبحة ومثلك لا يحتاج إلى مذكر يذكره بالله تعالى ؟ فقال شيء وصلت به إلى حضرة ربى تعالى لا اتركه انتهى .

فاعرض يا أخى هذه الأخلاق على نفسك و قرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أنهم كلما ترقوا فى المقامات ازدادوا معرفة بعيوبهم ونقايصهم فلا يزالون كلما ترقوا إلى مقام ظهرت لهم عيوبهم ، حتى يرى أحدهم انه قد استحق الخسف به لو لا عفو الله تعالى كما سيأتى بسطه آخر الكتاب .

وإذا جلس أحدهم إلى أحد من المسلمين يرى نفسه كالفاسق الذى جلس عند شيخ الاسلام. ولذلك كان معروف الكرخى رضى الله عنه يقول : كثيرا اشتهى أن أموت ببلد غير بغداد فقيل له فى ذلك فقال : أخاف أن لا يقبلنى قبرى فأفتضح انتهى

وهذا أمر قد أغفله غالب الفقرا فى هذا الزمان ، فيصحب أحدهم شيخه نحو الثلاثين سنة ، ولا يتبعه فى خلق من أخلاق الرجال ، وربما يقول أحدهم : الحمد لله الذى جمعنا على شيخنا فلان ، فانا كنا قبل إجتماعنا عليه من أشر الناس يعنى ونحن الآن من خيار الناس ، وإنما الأدب أن يقول أحدهم : قد حصل لنا البركة باجتماعنا على سيدى الشيخ فانه عرفنا بعيوبنا ونقايصنا وكنا قبله نظن فى انفسنا أننا من الصالحين[1] والحمد لله رب العالمين .

---

(١) قال ذو النون المصرى : مفتاح العبادة : الفكرة ، وعلامة الإصابة : مخالفه النفس والهوى ، ومخالفتهما ترك شهواتهما .

وقال ابن عطاء : النفس مجبولة على سوء الأدب ، والعبد مأمور بملازمه الأدب ، فالنفس تجرى بطبعها فى ميدان المخالفه ، والعبد يردها بجده عن سوء المطالبه ، فمن أطلق عنانها فهو شريك معها فى فسادها .

وقال أبو بكر الطمستانى : النعمه العظمى : الخروج من النفس ؛ لأن النفس أعظم حجاب بينك وبين الله عز وجل .

وقال سهل بن عبد الله : ما عبد الله بشىء مثل مخالفه النفس والهوى .

وقال الفضيل بن عياض : من رأى لنفسه قيمة فليس له فى التواضع نصيب .

وإذا دخلوا سوقا ، ورأوا أهل السوق غافلين عن الله تعالى يذكرون الله تعالى ، ويجعلون ثواب ذلك فى صحائف كل غافل فى ذلك السوق .

وبعضهم يشفع فى جميع أهل ذلك السوق عند الله تعالى ، ولا يخرج حتى يرى أمارات قبول شفاعته فيهم كما هو معروف عندهم ، وهذا أمر قد أغفله فقراء هذا الزمان ، بل ربما أن أحدهم يدخل السوق وهو غافل عن ما ذكرناه ، بل عن الله تعالى لم يخطر له الحق سبحانه على بال .

وقد كان سيدى عبد القادر الجيلى رضى الله عنه كلما دخل السوق تتغرغر عيناه بالدموع أسفاً على الغافلين ، ثم يدعو لهم وينصرف والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم إذا اطلعوا على عيب جليسهم وسريرته الخبيثة أن لا يفضحوه بين الناس

بحكايتهم ذلك للناس ولو تعريضاً فضلا عن التصريح ، بل يكتمون ذلك ولا يطلعون عليها إلا صاحب الواقعة فقط ، فيقولون له قد بلغنا عنك كيت وكيت وكذبنا الناقل ، وفي ذلك تذكرة للأخ ليأخذ حذره من الوقوع في ذلك في المستقبل ، ويأخذ في الالتجاء إلى الله تعالى أن يحميه من ذلك وينتبه لنفسه ضرورة ويتوب وهذا من أحسن السياسات .

وقد قالوا آفة الكشف التحدث به .

وقالوا من أدب العبد إذا أطلعه الله على أسرار العباد أن يسترها عليهم ، ومن أفشاها فربما طرد ومقت ، فإن من أخلاق الحق تعالى أن يرى العيب ويستره ، فليحذر الفقير من مثل ذلك[١] والحمد لله رب العالمين .

---

(١) قال الله سبحانه وتعالى : « ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا ... الآية

قال عوف : دخلت على ابن سيرين ، فتناولت الحجاج ، فقال ابن سيرين : إن الله ، تعالى ، حكم عدل ، فكما يأخذ من الحجاج يأخذ للحجاج ، وإنك إذا لقيت الله عز وجل غدا كان أصغر ذنب أصبته أشد عليك من أعظم ذنب أصابه الحجاج .

ومن أخلاقهم : طلبهم لكل حاجة طلبوها من حوايج الدنيا والآخرة من باب الله تعالى وما ثم إلا بابه

لكن تارة يكون هناك واسطة من الخلق ، وتارة لا يكون ، فيعلق أحدهم أمله بالله تعالى دون خلقه ، وهو تعالى يسخر له الوسائط فيكون الواسطة كالقناة التي يجرى لنا منها الماء ، فالحقيق بالشكر من أجرى القناة وأنبع الماء لا القناة .

وإنما أمرنا الله تعالى بشكر الوسايط من باب ربط الأسباب بمسبباتها من غير وقوف معها تنفيراً وهروباً من ألوهية الأسباب علينا من دون الله تعالى فافهم .

وفي كلام سيدي عبد القادر الجيلي رضي الله عنه : إذا طلبت حاجة فتعام عن الجهات كلها حال طلبك من ربك ، ولا تنص على جهة معينة منها ، بغير علم ، فإن ربك غيور ، فلا يفتح لك باب فضله وأنت محجوب عنه ناظراً إلى جهة أحد من عبيده ، انتهى .

فسد يا أخي الجهات كلها بتوحيدك فإذا فعلت ذلك فحينئذ يفتح لك بابه الحقيقي ، فلا يصير عندك وقوف مع شيء من الأسباب[1] .

فاعرض يا أخي هذه الأخلاق على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

---

(١) قال أبو تراب النخشبي حين سئل عن التوكل ؟ :
التوكل : طرح البدن في العبودية ، وتعلق القلب بالربوبية ، والطمأنينة إلى الكفاية ، فإن أعطى شكر ، وإن منع صبر راضيا موافقا للقدر .
وسئل ذو النون عن التوكل ؟ فقال: التوكل ترك تدبير النفس والإنخلاع من الحول والقوة.
وأما توكل أهل الخصوص : كما قال أبو العباس بن عطاء : من توكل على الله لغير الله لم يتوكل على الله في توكله حتى يتوكل على الله بالله لله، ويكون متوكلا على الله توكله لا لسبب آخر.
وسئل الجنيد عن التوكل ؟ فقال : إعتماد القلب على الله تعالى .

ومن أخلاقهم : عدم استبعادهم على أنفسهم وقوعهم فى أكبر الكبائر ولو بلغوا فى المقامات ما بلغوا

فإن أحداً لا يتحاشى عن جريان المقادير فيه ولكن يحفظ الله تعالى من يشاء .

وقد قيل لأبى يزيد رضى الله عنه : أيزنى العارف ؟ فقال : وكان أمر الله قدرا مقدورا .
فلم يقل لا يزنى ولا قال يزنى أدبا مع الله تعالى .

وقد حكى عن الشبلى أنه دخل خرابة ، فرأى فيها جارية فصاح بأعلى صوته : يامسلمين أدركونى فجاء أهل الحارة كلهم فقالوا له : ما الخبر فقال : خفت على نفسى من هذه الجارية حين لم يكن عندها محرم ، انتهى .

قلت : وفى هذه الحكاية تأديب لأهل حارته ، واتهام لنفسه رضى الله تعالى عنه .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : كل ما وقع فيه الناس فالعبد معرض للوقوع فيه قال : ومن أراد أن ينكشف له الأمر ، فليجلس فى بيت الوالى فكل جرم أتوا به إليه بتهمة أو أمر محقق ، فهو جايز فى حق أكبر الأولياء[1] .

فليكن سيدى الشيخ على حذر من وقوعه فيما يغضب الله تعالى عليه ، فإنه فى النصف الثانى من القرن العاشر أبى العجايب والغرايب وعلامات الساعه على كاهله ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) يقول الإمام القشيرى : ولا ينبغى للمريد أن يعتقد فى المشايخ العصمة ، بل الواجب أن يذرهم وأحوالهم ، فيحسن بهم الظن ويراعى مع الله تعالى حده فيما يتوجه عليه حق الأمر .

والعلم كافيه فى التفرقة بين ما هو محمود وما هو معلول .

وعدم غفلتهم عن ذلك ، فان الفقرا إذا ترقوا فى المقامات كان وقوعهم فى المعاصى الظاهرة قليلا أو معدوماً ، فيقنع أحدهم بذلك ، وينسى تفتيش باطنه .

وقد أجمع الأشياخ على انه لا يصح لأحد من الأكابر دخول الحضرة الآلهية ، وهو متلطخ بشيء من القاذورات المكروهه فضلا عن الحرام لأن لله تعالى ملائكة على أبواب الحضرة يشمون رايحه القلوب ، فكل قلب رأوه متلطخا بفعل حرام أو شهوة حرام منعوه من الدخول ، ثم إنه لو قدرانه دخل فى غفله الملايكة عنه فى غمار الناس أخرجوه ، وإن لم يخرج فهو محجوب عن ربه تعالى بسبعين ألف حجاب ، فليفتش من يدعي الصلاح نفسه حتى لا يكون فى سريرته شيء يقبح بين الناس ظهوره .

ولما اجتمع الإمام عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه بالسيد الخضر عليه الصلاة والسلام فى المدينة المشرفة قال له : عمر أوصنى فقال : احذر يا عمر أن تكون وليا لله تعالى فى العلانية وعدواله فى السر انتهى .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : قد جعل الله تعالى ابليس واقفا على باب الحضرة لا يقدر على دخولها ووكله بكل من غفل عن الله تعالى ، وعن شهوده أن يركبه كما يركب أحدنا الحمارة ، ويصرفها كيف شاء فإن استشعر العبد أنه بين يدى الله تعالى كأنه يراه اوانه هو تعالى يراه نزل عنه إبليس من لمح البصر .

فعلم أن المسلم بالذكر يدخل الحضرة وبالغفلة يخرج ،وليس عند أهل الحضرة غفلة أبدا واعلم أن كل من ادعى الصلاح وركبه إبليس فهو كاذب لقوله تعالى(إن عبادى ليس لك عليهم سلطان)والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سأل جعفر بن نصير عن المراقبة ، فقال : مراعاة السر ، لملاحظة نظر الحق سبحانه مع كل خطرة .

ومن أخلاقهم : قلة تناولهم الشهوات وقلة سماعهم الآلات

فكل من ادعى الصلاح وأكل الشهوات ، ولبس الثياب المحررات ، وترك الصلاة فى الجماعات ، ونام على الفراش الوطيات ، وأكل اللحم الضانى ، والمحمرات ، وركب الخيول المسومات ، فقد خالف جمهور العلماء والصالحين ، وأهلك من تبعه من المريدين ، وإن كانت دعواه صحيحة فى نفس الأمر إذ النية الصالحة فى مثل ذلك أعز من الكبريت الأحمر ، وغالب من يأتى هذه الشهوات يأتيها بحكم اللذة والشهوة الطبيعية ، مع الغفلة .

وكان الشيخ محيى الدين رحمه الله تعالى يقول : حكم الولى إذا تناول شهوة مع الغفلة حكم القمر إذا كيف .

وكان سيدى علي الخواص رحمه الله يقول : من ادعى انه يأكل الشهوات ويتلذذ بالطيبات وينكح النساء المنعمات ، مع حضور قلبه مع الله تعالى من حيث انه أباحه ، فأغضبوه ، فإن ملك نفسه عند الغضب ، فهو يملك نفسه عند الشهوة .

وقد حدث اناس يدعون الصلاح ويسمعون العود والطنبور والات اللهو ، وذلك خروج عن الطريق الأقوم وقل اعتقاد الناس فيهم ، فعدموا النفع بهم [1] ، فالحذر الحذر من مثل ذلك والحمد لله رب العالمين .

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كن ورعا تكن أعبد الناس وكن قنعا تكن أشكر الناس ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنا ، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما ، وأقل الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب » .
ولعل مراجعة متأنية لخلق رسول الله ﷺ فى حياته الخاصة فى أول الكتاب توفى موضوع هذا البحث حقه .

ومن أخلاقهم : كثرة الاستعاذة بالله تعالى من شر الحسدة

كلما أقبلت الخلايق عليهم بالاعتقاد ، وقبول الشفاعات خوفا أن يعمل الحسدة لهم المكايد ، فيؤذوهم ويشغلوهم عن عبادة ربهم بذلك ، ولو لحظة .

ومن تأمل من الفقراء الآن وجد نفسه كالبهلوان الذي يمشي على الحبل بقبقاب ، وجميع أهل مصر مثلا واقفون ينتظرون له زلقة من فوق الحبل لا سيما أقرانه الذين فُضّل عليهم ، فانهم يودون هلاكه في طرفة عين ، وهو من أغرب الغريب كيف يدعى أحدهم الصلاح ويحسد المسلمين ، وكان الأولى بالفقراء إذا تورع أحد من إخوانهم أن يزيدوا في محبته وتعظيمه ومدحه ، ويقولون : هذا هو الذي مشى على قواعد الشرع ، وأما نحن فقد خرجنا عن سياج الفقراء وقواعد الشرع ، فعلم ان كل شيخ ظهر منه الحسد لأحد من أقرانه ، فهو جاهل أو معاند كاذب في دعواه الصلاح لأنه لو كان صالحا لرأى وجه الحكمة الالهية في ذلك ، فترك الاعتراض على حكم ربه فإن الحاسد معترض على حكم ربه بلا شك وما رأينا وليا لله تعالى يعترض حكم ربه أبدا .

ثم لأى شيء لا يحسد أخاه على مجالسته لربه في أوراده صباحا ومساء مثلا ، فإن ذلك أولى بالحسد من اقبال أمير أو جندى لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا فضلا عن غيره .

وبالجملة : فقد خرج غالب المدعين عن الطريق وعدموا التوفيق [1] .

فاعرض هذه الاخلاق على نفسك وإخوانك تعرف الحال وتتمنى الموت في هذا الزمان والحمد لله رب العالمين .

---

(١) قال عمر بن عبد العزيز مارأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحاسد ، غم دائم ونفس متتابع وقال ابن المبارك : الحمد لله الذي لم يجعل في قلب أميرى ما جعله في قلب حاسدى .
وقال الأصمعي : رأيت أعرابيا أتى عليه مائة وعشرون سنة فقلت له : ماأطول عمرك !!
فقال : تركت الحسد فبقيت .

ظاهرا وباطنا أدبا مع مولانا السلطان الذى ولاهم ، فإنه أتم نظرا من جميع رعيته ، وقد طعن بعضهم فى بعض قضاة العسكر ، فحصل له مالاخير فيه ، وحبسوه فى حبس الديلم المتعلق بأرباب التهم والدم ، وبعضهم نفى إلى الواح ، وبعضهم ضرب ضربا مبرحا .

وقد قال القوم لاينبغى لأحد أن يعترض على أحد من الولاة إلا إن أعطاه الله تعالى التصريف فيه بالولاية والعزل ، وأمامن يتكلم ، فهو فى حقهم فيصبح فى جنزير وحبس فما هو من رجالهم انتهى .

ولا يخفى ان أولياء الله تعالى من أصحاب التصريف موجودون لكنهم ساكتون لعلمهم بأن هذه الأمور التى تقع من الولاة وسكتوا عليها قد حق بها التقدير الالهى المبرم، ولا يمكنهم أن يسألوا الله تعالى فى رد ذلك ، فلاينكرون إلا مالم يحق به القضاء المبرم ، كما هو مشهور فى الأمور المعلقة على الأسباب .

فإياك والمبادرة إلى الانكار ، وتقول : مابقى فى البلد أحد ينكر هذا المنكر ، أولاأحد يقوم بفرض الكفاية ، فربما كان ذلك قدحق به القضاء المبرم ، وأنت لاتشعر .

فعلم ان الأدب مع ولاتنا ، وترك المبادرة إلى الانكار عليهم أولى إلا بطريق شرعى واضح كالشمس مع توطين نفوسنا على وقوع العقوبة بالضرب أو الحبس فى ارتكابنا المعاصى ، وان قال المنكر : إن هؤلاء الولاة ظالمون قلناله . وأنت الآخر كذلك ظالم لنفسك ، وكما تقيم العذر لنفسك ، فكذلك ينبغى لك أن تقيم العذر للولاة ، وقد بسطنا الكلام على ذلك فى المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إذا زارهم أمير أن يقوموا له ويقبلوا يده

كما يفعل هو معهم ، وكذلك يستتبعونه إلى باب الدار ، ولا يتركون ذلك ، فيكونوا أعظم كبرا فى أنفسهم من الأمير .

وما نهى الشرع عن التواضع للأغنياء إلا بقصد أن ينال المتواضع لهم من دنياهم شيئا أما من لا يقبل منهم شيئاً ، ولو أعطوه له من غير سؤال فلا حرج عليه فى التواضع لهم لأنه لغرض شرعى .

وقد كان سيدى على الخواص رحمه الله يقوم للأمير ، ويقبل رجله ويمشى معه إلى خارج باب داره إذا زاره ، وإذا أعطاه شيئا من الدنيا لا يقبله منه ، وكان يقول : إنما أفعل ذلك مكافأة له على بعض فضله ، فإنه قد خلع كبرياه وعظمته لأجلى ، ولو أنه وقف مع رؤية نفسه على ما دخل دارى ولا زارنى

وكان يقول : ما زار أمير فقيرا إلا بعد أن رأى نفسه دون الفقير ، فما لقى الأمير الفقير إلا وهو فقير حقير قال : وهذه دقيقة تخفى على غالب الفقراء فيأتيهم الباشا أو الدفتردار أو قاضى العسكر ، فلا يقومون له ، وذلك فى غاية الجهل وسوء الأدب مع الله تعالى الذى خلع عليهم تلك الولاية .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يتأدب مع الأمرا كثيرا ، ثم يقول : هذا أدبنا مع ولاتنا فى دار الدنيا ، وسوف يعلمنا الله تعالى إذا انتقلنا إلى الدار الآخرة أدبا آخر يناسب أهل تلك الدار [١] .

---

(١) عن أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قال (ما بعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه ، والمعصوم من عصم الله) رواه البخارى .
وعن السيدة عائشة رضوان الله عليها قالت : قال رسول الله ﷺ : (إذا أراد الله

وكان سيدى إبراهيم المتبولى رحمه الله يقول : من خفة عقل الفقير أن يتكبر على الأمير ، وهو يقبل هديته وبره وإحسانه من قمح وعسل وأرز وبسلة وغير ذلك انتهى فاعلم ذلك واعمل عليه والحمد لله رب العالمين .

بالأمير خيراً جعل له وزير صدق إن نسى ذكره ، وإن ذكر أعانه ، وإذا أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء إن نسى لم يذكره وإن ذكر لم يعنه) رواه أبو داود باسناد جيد على شرط مسلم .

ومن أخلاقهم : كراهتهم لتردد أحد من الأكابر إليهم

من شدة هضمهم نفوسهم ، فلا يرون نفوسهم أهلا لأن يمشى أحد إليهم فهم يتوشوشون من مشى أحد من الأكابر إلى زيارتهم تعظيما ، للأكابر لاسيما إن أتاهم أحد من العلماء ماشيا ، فانهم يكادون أن يذوبوا من الحياء والخجل .

ثم إذا كافؤا الاكابر بالزيارة لا يرون أنهم كافؤهم على مرة واحدة .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول :

لولا ظن الأمرا فى الفقير الصلاح مازاروه فيافضيحة غالب الفقرا يوم القيمة ، حين تبدوا فضائحهم انتهى .

وقد زرت مرة سيدى الشيخ على البحيرى فتكدر وتشوش من مشى مثلى إليه وصار يقول لنفسه : يا فضيحتك ياعلى يوم القيامة ممن زارك حين تبدوا له فضايحك ، ولم يزل يحكى ذلك للناس ، ويقول : مثلى لايستحق أن أحدا يمشى إليه انتهى .

وهذا الخلق لم أره فاعلا إلا قليلا .

فاعرض ياخى هذه الأخلاق على نفسك وأهل عصرك تعرف حالك وحالهم (١)

والحمد لله رب العالمين .

---

(١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : (لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر) فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة . قال : (إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس) رواه مسلم .

(بطر الحق) دفعه ورده على قائله و (غمط الناس) احتقارهم .

ومن أخلاقهم : أن لايعتبوا قط على من انقطع عن التردد إليهم

بل كل يوم لايزورهم فيه أحد يعدونه يوم عيد ، هكذا درج جمهور المشايخ رضى الله عنهم فليمتحن الصادق نفسه ، فإن رآها تنشرح إذا تحول المعتقدون فيه إلى أحد من اقرانه ، فهو صادق فى دعواه محبة العزلة والانقطاع لمحبة [1] الله عز وجل وإلا فهو كاذب .

وإنما كانوا يكرهون تردد الناس إليهم خوفا على أنفسهم ، وعلى إخوانهم من الوقوع فى التزين وتزكية النفس منهم أو ممن رأوهم كما هو الغالب ، فإن كان فقيها ابدى المسائل الغريبة ، وإن كان فقيراً أبدى المقامات الرفيعة [2] .

وقد رأيت شخصا كاف نفسه عدم الخروج من زاويته مدة ، ثم عجز عن انقطاعه عن الناس ، وانقطاع الناس عنه ، فصار يرسل لأهل مصر السلام ، ويقول : والله انى مشتاق إليكم ولوكان معى اذن لزرتكم فقلت له : كيف تدعى الانقطاع وتستجلب الناس هذا فعل مخالف لدعواك محبة العزلة ، ثم انه صار يخرج فى الليل ويدور فى أسواق مصر ويحضر مواضع التنزهات ، وينزل فى مركب أيام النيل ثم يصبح جالسا فى زاويته بعذبة واطراق ، وهذا كله خداع ونصب فليحذر الفقير من مثل ذلك والحمد لله رب العالمين .

---

(١) ربما يقصد لعبادة الله عز وجل .

(٢) يقول الله تعالى : « ففروا إلى الله إنى نذير مبين » .

وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن الله يحب العبد التقى الغنى الخفى) رواه مسلم . والمراد (بالغنى) غنى النفس .

ومن أخلاقهم : إذا عمل أحدهم واعظاً أو مسلكا ان لا يغفل عن تفتيش نفسه فربما كان ذلك رياء وسمعة ، فليمتحن الواعظ نفسه بما لو عزله ولى الأمر عن مجلس وعظه مثلا إلى ذلك الواعظ الجديد ، فإن رأى نفسه منشرحة فرحانة لذلك ، فليعلم انه مخلص فى وعظه ، فليشكر الله عزوجل على ذلك ، والا فليعلم انه مرائى خالص ، وان وعظه يكون زاده إلى النار ، فالناس ينتفعون بعلمه وهو يشقى به كالشمعة التى تحرق نفسها لتضىء على غيرها.

فعلم ان كل شيخ أو واعظ غفل عن تفتيش نفسه فهو مغرور والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إذا كشف لأحد من الواح المحو والاثبات انه يقع فى معصية ان لايغفل عن سؤال الله تعالى ان يحول ذلك عنة ادبا مع الله تعالى وخوفا من غضبه تعالى عليه ، فقد يكون تحويلها عنه معلقا علي السؤال .

واما إذا كشف لأحدهم عن وقوعه فى معصية من اللوح المحفوظ يعنى عن المحو فمن الأدب كذلك أن لايغفل عن سؤال ربه أن يستره فيها بين العباد ، ولايؤاخذه بها فى الدنيا والآخرة ، ويقول :

يارب : أنت تعلم انى عاجز عن رد اقدارك النافذة فى فاسترنى فيها ولا تواخذنى من حيث كسبي ومجاوزتى حدودك .

فإن الله تعالى إن شاء يفعل له ماطلب .

ثم إذا قرب من وقوع المعصية فمن الأدب الرعدة والخوف من الله تعالى أن يخسف به الأرض ، فإن من يأتى المعاصى باكيا أخف ممن يأتيها ضاحكا .

ثم إذا وقع بحكم القضا والقدر ، فمن الأدب ان لايزال حزينا باكياً ولايرى ان تلك المعصية محيت بطاعة من الطاعات إلى أن يموت .

وقد ورد فى الاثار أن بعض الأكابر يبعث يوم القيمة وخطيئته مكتوبة فى كفه مع ماجرى له فى دار الدنيا من البكاء والحزن .

ثم ان هذا الكشف المذكور لايكون إلا للكمل ، فيمتحنهم الله تعالى باطلاعه لهم على تصاريف الاقدار الجارية فيهم والمخالفة لاغراضهم ، ليريهم فى نفوسهم هل هم متأدبون معه أم ساخطون على أقداره ؟

ولما كشف لسيدى مدين من ألواح المحو عن اسم شيخه سيدى أحمد الزاهد انه من أهل النار جاء إلى شيخه مرعوبا ، وقال : ياسيدى رأيت اسمكم فى أهل النار فقال : يامدين لى ثلاثون سنة وأنا أرى ذلك وأنا صابر فلما كان بعد مدة قال سيدى أحمد للشيخ

مدين : انظر اسمى ، فنظر ، فإذا هو فى السعدا فحمد الله تعالى على ذلك [1] فالحمد لله رب العالمين .

(١) يقول الإمام القشيرى : (وأما حقيقة المحو والإثبات فصادران عن القدرة ، فالمحو : ما ستره الحق ونفاه والإثبات ما أظهره الحق وأبداه .
والمحو والإثبات مقصوران على المشيئة ، قال الله تعالى « يمحو الله مايشاء ويثبت » .
قيل : يمحو عن قلوب العارفين ذكر غير الله تعالى ، ويثبت على ألسنة المريدين ذكر الله ، ومحو الحق لكل أحد وإثباته بما يليق بحاله .
ومن محاه الحق سبحانه عن مشاهدة ، أثبته بحق حقه .
ومن محاه الحق عن إثباته به رده إلى شهود الأغيار ، وأثبته فى أودية التفرق .
والمحق فوق المحو ؛ لأن المحو يبقى أثراً ، والمحق لا يبقى أثراً .
وغاية همة القوم أن يمحقهم الحق عن شاهدهم ، ثم لا يردهم إليهم بعد ما محقهم عنهم .

ومن أخلاقهم : أن يؤدوا ماعليهم من الحقوق لأربابها

ولا يحوجوهم إلى وقوف إلى حاكم ولا أرسال قاصد بمرسوم ولاغيره ، ومتى أحوج أحدهم صاحب الحق إلى شيء من ذلك ، فقد خرج عن الطريق .

ولذلك لم نر أحدا من أولياء الله تعالى قط عند حاكم يدعى عليه بحق زوجة أو جار أو فلاح أبدا [1] .

فاعرض ياأخي هذه الأخلاق على نفسك وعلى إخوانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

---

(١) عن أبي حبيب عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما قال : لما وقف الزبير يوم الجمل دعاني فقمت إلى جنبه فقال : يا بنى إنه لا يقتل اليوم إلا ظالم أو مظلوم وإني لا أراني إلا سأقتل اليوم مظلوماً وإن من أكبر همى لدين أفترى ديننا يبقى من مالنا شيئاً ثم قال : يا بنى بع مالنا واقض ديني رواه البخاري .

ومن أخلاقهم ردهم كل شيء يأتيهم من الولاة الذين لايتورعون فى أموالهم وهذا مادرج عليه جمهورهم .

وقد كان مالك بن دينار يأكل الكسرة اليابسة بملح أو بقل ، ويقول : من رضى من الدنيا بمثل هذا لم يحتج إلى مال الولاة .

ولم أرأحدا من اقرانى الان يرد مايأتيه من الولاة إلا نادرا ، وقد رأيت بعضهم يرد مايأتيه من الولاة ، فتفرست فيه انه غير مخلص فى ذلك ، فقلت له : ياأخي اخلص فى ردك ورد خوفا من الله تعالى لاليشكرك الناس على ذلك فقال لى : أنا بحمد الله كذلك، ولم يصغ لقولى ، فبلغ ذلك الدفتر دار محمد ، فأرسل له الف نصف ، فأعطاها الرسول له بحضرة جماعة ، فردها فلما أخبره القاصد بذلك قال الدفتر دار الذى عندى : أن هذا مرائى نصاب ، ثم صرله صرة تراب وشقف وزبل ، وقطها له ، وقال : ادخل عليه بين المغرب والعشاء وقل له : قد حصل لمملوككم الدفتر دار كسر خاطر بردكم الفيتح والمقصود ان تجبروا بخاطره وتأخذوه فمد يده إليه وقال : جزاه الله خيرا عن الفقراء فانى والله ادعواله فى سجودى ، فلما رجع الرسول ، وأخبر بذلك الدفتر دار صار يضحك هو وأصحابه زمانا طويلا وقال : كيف يرد الذهب بالنهار ويقبل الزبل بالليل [1].

فاياك ياخى من مثل ذلك ثم اياك والحمد لله رب العالمين .

---

(١) قال محيي بن معاذ : من لم ينظر فى الدقيق من الورع لم يصل إلى الجليل من العطاء .
وقال ابن الجلاء : من لم يصحبه التقى فى فقره أكل الحرام النص .
وقال بشر بن الحارث : أشد الأعمال ثلاثة :
الجود فى القلة ، والورع فى الخلوة ، وكلمة الحق عند من يخاف منه ويرجى .

ومن أخلاقهم : التواضع مع أولاد أشياخهم

ولا يمكنون أحدا من أولاد أشياخهم ، وان سفلوا من القيام لهم ولا من تقبيل يدهم ، ولا من الجلوس بين يديهم ، كآحاد التلامذة .

وان كان تحتهم فرش وطى اجلسوا ولد شيخهم عليه وجلسوا تحته .

وان استقضاهم فى حاجة بذلوا فيها مالهم وروحهم ، ثم لايرون بعد ذلك انهم قاموا بواجب حقهم [1] والحمد لله رب العالمين .

---

(١) وكل ذلك المقصود منه إحترام المشايخ أنفسهم .

ومن أخلاقهم : تقديم العمل على تحصيل جلاء باطنهم من ساير المعاصى الباطنة وذلك حتى لايقع منهم سوء ظن بأحد من المسلمين إذ الإنسان لايسيء بأحد الظن إلا قياساً على حاله هو ، فإذا انجلى باطنه ولم يبق فيه سيئة واحدة ، فهناك لايسيء الظن بأحد من المسلمين ، ويؤيد ذلك قوله تعالى « ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبيناً »[1] فإنه لولا كسبه للخطية أو الاثم وذوقه ذلك فى نفسه ماصح رميه به للبرىء.

فإن قيل : هل للشيخ الكامل طريق يعرف منها نقائض المريد من غير أن يكون فى الشيخ نظيرها ؟ قلنا : نعم له طريق إلى ذلك من باب الالهام لا من باب القياس على نفسه هو فيلهم الله تعالى الشيخ بنقائص مريده ليسعى فى تخليصه منها والحمد لله رب العالمين.

---

(١) سورة النساء آيه : ١١٢ .

ومن أخلاقهم : عدم وقوعهم فى المعاصى لأنهم داعون إلى الله تعالى

والمريدون ناظرون إلى جميع مايبرزمنهم ، فيقتدون بهم فيه كل ذلك بحكم الارث لسيدنا رسول الله ﷺ ، فإنه مشرع لنا فى حركاته وسكناته ، فكما لايجوز فى حقه وقوع المعاصى ، فكذلك اتباعه العارفون لاينبغى فى حقهم وقوعهم فى المعاصى ، وكما ان رسول الله ﷺ لو صح منه وقوع معصية لصدق عليه تشريع المعاصى ولا قائل بذلك ، فكذلك اتباعه إذا وقعوا فى معصية ، فقد فتحوا لاتباعهم باب وقوع المعاصى فافهم .

فاننا مأمورون بالناس بسيدنا رسول الله ﷺ فى كل أمر فعله أوقاله إلا ان يكون ذلك خاصا به ، ولم يأذن لنا فيه [1]

واعلم ياخى ان الغفر على نوعين ستر العبد عن الوقوع فى المعصية حتى لاتعرف المعصية طريقه ولايعرف طريقها وستر بين العبد ، وبين وقوع العقوبة به إذا وقع ، فالستر الأول : هو اللايق بالانبيا والثانى : هو اللايق بغيرهم هذا اعتقادنا فى انبيائنا ، وبتقدير ان لهم ذنوبا حقيقة ، فهى فى أمور فوق عقولنا لانهتدى لكونها ذنبا عندنا ، ولايجوز لنا حمل ذنوبهم على ذنوبنا ، لأننا فى دايرة تبتدىء من بعد انتهاء دايرتنا لانجتمع معها فى جزء منها فافهم فعلم انه لاينبغى لشيخ أن يتصدر فى الطريق إلا ان كان محفوظا عن المعاصى .

فاعرض ياخى هذه الاخلاق على نفسك واقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

قال النصراباذى : التقوى : أن يتقى العبد ما سوى الله عز وجل .
وقال سهل : من أراد أن تصح له التقوى فليترك الذنوب كلها .

وقال ذو النون :

ولا عيش إلا مع رجال قلوبهم تحن إلى التقوى وترتاح للذكر
سكون إلى روح اليقين وطيبه كما سكن الطفل الرضيع إلى الحجر

ومن أخلاقهم : عدم خوفهم من الظلمة ولو توعدوهم بكل سوء

لأنهم مع الله تعالى الذى هو المقدر لامع عبيده ، فهم يرونه أقرب إليهم من عبيده كما قال فى المختصر ، « ونحن أقرب إليه منكم ولكن لاتبصرون [1] » .

ومن عقل كل عاقل انه لاتنزل الأمور إلا بالله تعالى ، فهم وإن خافوا من الخلق لايشهدون مايخوفهم به الخلق إلا من الحق تعالى ، فهم مع المسبب لامع الأسباب ، ولهذا فضلوا على غيرهم .

ثم لايخفى عليك ياخى أن الله تعالى لايسلط أحداً من الظلمة على أحد إلا ان كان معه الدنيا ، والفقرا الصادقون قد خرجوا فى بدايتهم عنها ، فمن زهد فى الدنيا خافت منه الملوك ، ومن رغب فيها خاف هو من الملوك .

ثم ان وقع على أحد من الأكابر تسليط ، فليس ذلك من حيث كونهم يحبون الدنيا ، وإنما ذلك اختبارا لهم أو ليتأسى بهم اتباعهم لكونهم قدوة لهم ، كما فى قول السيد موسى عليه الصلاة والسلام : « ففررت منكم لما خفتكم [2] » فان معناه لما خفت ان الله تعالى يسلطكم على ، إذ الأكابر لاتخاف إلا من الله تعالى أما خوف اجلال وتعظيم ، وإما خوف تألم على جسدهم الذى أمنهم الله تعالى عليه من حيث كونه لله تعالى لالهم من باب التجريد فى علم المعانى والبيان وقد بسطنا الكلام على هذا الخلق فى كتاب المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة الواقعه آية : ٨٥ .

(٢) وتمام الآية : (ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما) سورة الشعراء آية : ٢١ .

ومن أخلاقهم : حسن الظن بالعلما والفقراء الذين يدخلون على الأمراء والظلمة

ولا ينكرون عليهم وحملهم على انهم لم يروا حال دخولهم عليهم منكرا اوراوه وعجزوا عن إزالته بالقول أو بالفعل ، ويجوز المبادرة بالانكار على العلماء والفقراء المذكورين، وحملهم على انهم قدروا على إزالة منكره ولم يزيلوه إنما اللائق حملهم على المحامل الحسنة .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : ان لله تعالى أولياء يدخلون على الظلمة فيحولوا قلوبهم حتى لا يظلمون أحدا فى ذلك الوقت ، فقد يكون من تنكرون عليه منهم هذا مادرج عليه جمهور العلماء المتورعين .

وقد كان سيدى إبراهيم المتبولى رضى الله عنه يقول لأصحابه :

من أدرك منكم النصف الثانى من القرن العاشر ، فلا يشدد فى إزالة منكرات الولاة إلا إن كان له نصير من الخلق يشد عضده ، أو يكون له حال يحمى به نفسه من أصحاب المنكر ، فان من لم يكن كذلك يكفيه الانكار بقلبه أو بلطافة وحسن سياسة ، وقد قتل خلق كثير ونفوا من بلادهم بانكارهم علي الولاة بغير سياسة أوحال يحميهم منهم وندموا على أمرهم لهم بالمعروف ، وصاروا يقولون نحن الظالمون الذين نصحناهم فيجعل أحدهم الواجب فى معتقده ظلما كل ذلك لقلة سياسته .

فاعلم ذلك واعمل عليه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم خوفهم من العقارب والسباع الضوارى واللصوص إذا سافروا البلاد

وإن وقع انهم خافوا على أنفسهم من ذلك ، فهو بحضور مع الله تعالى لامع الغفلة عنه ، ثم إن أصل الخوف على أنفسهم الواقع من الخلق كون العبد خرج من ضيق العدم إلى فضاء الوجود ، فكل شيء راه يلحقه بالعدم نفر منه ضرورة بحكم الطبع ، وأصحاب التمكين يرون انه لافعل لجميع الموذيات إلا بإرادة الله تعالى ، فرجع خوفهم من المؤذيات الى الخوف من الله تعالى كما مر فى الخلق قبله .

وقد تطور ابليس مرة ، لسيدى عبد القادر الجيلي رضى الله عنه فى صورة حية سوداء فى غلظ رجل الادمى ، ودخلت من كمه وخرجت من طوقه فلم تتغير منه شعرة ، ثم بعد أيام تراءى له ابليس وقال : فتنت خلقا كثيرا حين تطورت لهم حية ودخلت من طوقهم انتهى .

فعلم أن كل من ادعى الكمال وخاف من حية أو عقرب أو تمساح أو سبع بحكم الطبع فهو غير صادق فى دعوى الكمال بخلاف ما لو خاف من ذلك حفظا لجسمه من الهلاك من حيث كونه رعيته فإن ذلك لا ينافى الكمال والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كثرة رؤيتهم المنامات الردية دون الحسنة

وذلك ليجدّوا فى العبادة ولا يقنعوا بما عندهم فكلما استحسنوا شيئا من أحوالهم اراهم الله تعالى فى منامهم ما يجب علمه فى رؤيا السالكين الذين وصلوا إلى رتبة الكمال ضد ذلك[1] .

بخلاف المريدين الضعفاء ، فان الله تعالى يريهم المنامات الحسنة ليشد عضدهم بذلك لأنهم يعملون لله تعالى على طلب الجزاء ولا يكادون يجدون لإخلاص العارفين طعما ، فلذلك كان المريد يرى أنه فى مكة وأنه فى السما ، وأنه فى بحر من نور ونحو ذلك .

وأما الكامل ، فيرى نفسه فى ظلمة وأرض وعرة وأمور تنفر منها الطباع ، وقد قال رجل لمالك بن دينار : إنى رأيتك البارحه وأنت تتبختر فى الجنة فقال له مالك : أما وجد إبليس أحداً يسخر به غيرى وغيرك .

وكان معروف الكرخى رضى الله عنه يقول : أما وجد إبليس لى منذ ثلاثين سنة ، وأنا أرى أن الحق تعالى ينظر إلى نظر الغضب .

وحج سفيان الثورى ماشيا من البصرة ، فقال له الفضيل بن عياض : أما وجدت لك دابة تركبها ، فقال له سفيان : أما يرضى المجرم إذا أراد مجالسة سيده أن يأتى إليه إلا راكباً ، والله لو أنى آتى ماشياً حافياً مكشوف الرأس ، لكان ذلك قليلا ، انتهى والحمد لله رب العالمين .

(١) يقصد بذلك السالكين الذين وصلوا إلى رتبة الكمال .

ومن أخلاقهم إرخاء الطيلسان على عيونهم حياء من الله تعالى ومن الخلق وكفاً للبصر عن فضول النظر فلا ينظر أحدهم إلا بقدر مواقع قدمه فقط .

وقد ثبت تقنعه ﷺ بردائه تارة في الصيف ، وتارة في الشتاء ، وما بين لنا علته ، فكل مؤمن يفهم ما يليق برتبته ، ومن لم يعرف العلة في ذلك كفاه التأسي بصورة ظاهر الفعل .

فاياك يا أخي أن تظن بأحد حمل له طيلسانا أنه فعل ذلك بقصد التشيخ أو لغير غرض شرعي ، فتسيء في حقه الظن وذلك حرام .

فان قلت : كيف يلبس الطيلسان حياء من الله تعالى والله تعالى لا يحجبه شيء .
قلنا : إن الشرع تبع العرف في كثير من الأحكام ، وأمرنا أن نستر عورتنا في صلاتنا في الظلام حياءً من الله تعالى ، وهـــذا من ذلك ولا اعتراض إلا على من خالف السنة .

وقد صحح الجلال السيوطي أحاديث استحباب الطيلسان ، وقال من أنكر سليته كفر .

فاعرض يا أخي هذه الأخلاق السابقة على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : جهرهم بالذكر محبة فى الله عز وجل وطلبا لأحد يسمعهم فيذكر الله تعالى بذكرهم لا سيما إن كانت زاويتهم على الشارع .

فاياك أن تحمل أحدا منهم على الرياء إذا قال لمريده : قم فاذكر الله تعالى فى ذلك الشباك الذى على الطريق ليسمعك المارون ، فان قصده صحيح فى ذلك لا سيما فى حال نهايتهم ، ويا طول ما كتموا أعمالهم فى بدايتهم ، وخافوا على ظهورها حين كانوا يعتمدون عليها ، فلما اعتمدوا على ربهم ، ورأوا أنه خالق لأعمالهم كشفا ويقينا لم يبق عندهم خوف من إظهار أعمالهم[1] كما أوضحنا ذلك فى كتاب المنن والأخلاق والحمد لله رب العالمين .

(١) وبالجملة : إذا صدقت النية فى ذلك فان الجهر بالذكر يكون مفضلا عند الصوفية تشجيعاً للناس على إتيان مجالس الذكر وخاصة إذا كان له نغمة مستحبة يقال بها

ومن أخلاقهم : محبتهم فى التقلل من مجالسة الأمراء والعلماء

خوفاً من الاخلال بواجب حقهم إذا أكثروا مجالستهم لا لعلة أخرى نفسانية وذلك لأن كل شىء تكررت رؤيته هان فى العيون ، ولذلك قالوا : من أقل الناس نفعا بالشيخ زوجته ، وولده ، ونقيبه لكثرة مجالستهم له ، ورؤيتهم له بخلاف من يزور الأشياخ الشيخ فى بعض الأحيان ، أو يجالس العلماء للتعلم [1] .

وقد كان الإمام عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يقول : إياك والدخول على الأمراء ولو أمرتهم ونهيتهم ، وتأمل ياأخى أهل مكة لما كثرت مشاهدتهم ، للكعبة كيف تراهم لايعظمونها كل التعظيم الذى يقع من الافاقى [2] عند رؤيتها ، ولا يبكون كما يبكى

ولعل ذلك أيضا هو السبب الذى جعلوا لأجله خلوة الخطابة ، فيجلس فيها الخطيب مراقبا لله عز وجل ، حتى يخرج للخطبة بخلعة الهيبة من الله تعالى ؛ لأجل المراقبة التى كان فيها ، فيكون وعظه أوقع فى القلوب من وعظه إذا جلس بلغو أو بضحك عند المنبر مع الناس ، فإنه إذا طلع المنبر لايجدون لوعظه تأثيرا لزوال هيبته بالضحك ، واللغو واستصحاب الناس ذلك فى حال وعظه لهم فالحمد لله رب العالمين .

---

(١) وفى الحديث : (زرغباً تزدد حباً) .

(٢) القادم من بلاد بعيدة فلا يتاح له كثرة رؤية الكعبة .

ومن أخلاقهم : كثرة تعظيمهم للشرفاء

وإن طعن بعض الناس فى صحة نسبهم .

وكذلك تعظيم أولاد العلماء والصلحاء واكرامهم واجلالهم ، ولو كانوا على غير قدم الاستقامة بطريقه الشرعى اكراما لسلفهم الطاهر الصالح ثم إن رؤيتهم أن ذلك من بعض مايستحقونه عليهم ، وهذا الخلق لم أجد له فاعلا من اقرانى إلا القليل .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : من أقل مايعامل به الشريف فى التعظيم أن يعظم كما يعظم الناس نائب مصر أو قاضى العسكر أو الدفتردار .

وسمعته يقول أيضا : من أدبنا مع الشريف أن لانفتتح مجلس الذكر بحضرته ، ولانجلس على مكان أو فرس أعلا منه ، ولا نتزوج له مطلقة ولابلتنا إلا أن عددنا أنفسنا عبيدا لها ، ولا نمنعها شيئا طلبته منا مما لنا قدرة عليه من ساير الشهوات المباحة ، ولا نتزوج عليها ولا نتسرى ، ونقدم لها نعلها ، ونقوم لها إذا وردت علينا وإذا كنا نبيع على النساء لاننظر إلى وجهها ، ولا لشئ من يديها بل ولا ننظر فى الازار خوفا أن يبدوا شيئا من بدنها ، وان كان أحدنا كثير الأدب أعطاها ماطلبت شراه منه هبة أو هدية لابيعا حتى لايحتاج إلى الاشهاد عليها [1] .

وقد بسطنا الكلام على الأدب مع الشرفاء فى كتاب العهود وفى كتاب المنن فراجعهما والحمد لله رب العالمين .

---

(١) عن ابن عمر رضى الله عنهما عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه موقوفا عليه أنه قال : ارقبوا محمد ﷺ فى أهل بيته) رواة البخارى .

يقول الإمام النووى : معنى ارقبوه راعوه واحترموه وأكرموه .

ومن أخلاقهم : كراهتهم للأكل من صدقات الناس
الخاصة المقيدة بشروط عزيزه

كأن يكون موقوفا على الصوفية أو المشايخ أو العلماء العاملين ، لأنهم لايعدون نفوسهم من الصوفية المنصرف إليهم الاسم فى طريقهم ، ولامن المشايخ .

وهذا بخلاف الصدقات العامة كالموقوف علي الفقراء والمساكين ، فلا يكرهون الأكل منها إذا كان أصلها حلالا لااستبدال ، ولا تدليس فى طريق ، واقفها كما يقع فيه من لايتورع من الأمراء وأعوانهم .

وقد سمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول ينهى شخصا وقف عليه أبوه شيئا من الأكل منه وقال له .

كل من كسبك ان كنت رجلا ، وهذا خلق غريب فاعله فى هذا الزمان ، بل رأيت كثيرا من الفقرا يزاحم على الأكل من الصدقات مع كونه عنده مايكفيه وهذا خروج عن طريق القوم فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : استيذانهم لربهم تبارك وتعالى إذا كانوا يقرون كلامه العزيز

وطلبوا أحدا من الناس أو طلبوا منهم حاجة فلا يكلمونه إلا بعد قولهم بقلوبهم دستوريا الله اكلم عبدك هذا فى حاجته .

وكذلك يستأذنون رسول الله ﷺ إذا كانوا يقرون حديثه .

وكذلك يستأذنون الأئمة المجتهدين ومقلديهم إذا كانوا يقرون فى كلامهم ويقررونه. فيقولون : دستور يارسول الله أودستوريا امامى يامحمد يابن ادريس أن أكلم هذا فى حاجته ، ونحو ذلك ، ولهذا الأدب حلاوة عظيمة يجدها الإنسان فى باطنه لايقدر قدرها .

ولم أجد لهذا الخلق فاعلا فى عصرى الا قليلا ، فاعرض ياخى هذه الأخلاق على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كراهتهم لمد رجلهم فى ساعة من ليل أو نهار إلا بعد قولهم : دستور يارب أمد رجلى لأريحها من وجع القرفصة ، ثم يمدونها بعد ذلك .

وكذلك القول نحو المدينة المشرفة أو نحو ولى من أولياء الله تعالى فى سائر أقطار الأرض سواء الأحياء والأموات كل ذلك لشهودهم أنهم بين يدى الله تعالى أو بين يدى أهل الحضرة على الدوام من نبي وولى ، فإن لم يكن ذلك لهم كشفا كان لهم إيمانا .

ولهذا الأدب حلاوة عظيمة يجدها العبد فى باطنه ، وكلامنا فى مد الرجل لحاجة إماعبثا فهو أشد فى قلة الأدب ، وقدمدسيدى إبراهيم بن ادهم رجله مرة فى الليل ،فسمع قائلا يقول :

ماهكذا ينبغى مجالسة الملوك فلم يمد سيدى إبراهيم رجله حتى مات بعد عشرين سنة وهذا الأمر وإن كان مباحا فى الشرع ففعله أدبا أولى ولكل مقام رجال وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كراهتهم للنوم على حدث أصغر فضلا عن الأكبر

سواء أكان الحدث ظاهرا وهو معلوم، أو باطنا كالحقد والمكر والخبث والكبر والرياء وتنقيص المسلمين وغيبتهم وكل شيء يضره أو يضر غيره في الدنيا والآخرة بطريقه الشرعي كل ذلك مراعاة للأدب مع الحضرة التي تنتقل إليها في النوم أرواحهم، فإن الأرواح إذا نام صاحبها ارتفعت إلى العلى فلا يؤذن لها في السجود بين يدي الله تعالى إلا ان فارقت جسمها على طهارة ظاهرة وباطنة، فإن لم تكن كذلك وقفت ناحية عن الحضرة لا يصح منها سجود لو سجدت لكونها محدثة.

وسمعت سيدي عليا الخواص رحمه الله يقول:

اياك ياولدي أن تنام على محبة الدنيا فربما أخذ الله روحك تلك الليلة، فتحشر مع مبغوض لم ينظر الله إليه منذ خلقه.

قال: ولعلك ياولدي لاتعد محبة الدنيا خطيئة وتنسى قول السيد عيسى عليه الصلاة والسلام حب الدنيا رأس كل خطية انتهى.

وفي العمل بهذا الخلق ادب مع الملائكة الكرام الكاتبين وفتح باب الرحمة بدخولهم بيته، فإنهم لايدخلون بيتا فيه جنب فينبغي للفقير إذا جامع ولم تغتسل زوجته أن يخرج من ذلك البيت الذي هي فيه إلى موضع آخر قياما بحق الملائكة وطلبا لحصول الرحمة بحضورهم، حتى أنهم لا ينامون في موضع فيه حائض أو نفساء بل ولا يمكثون فيه لحظة [1] لإطلاق لفظ الجنب في الحديث والحمد لله رب العالمين.

---

(١) ويقصد الإمام الشعراني بذكر ذلك إيضاح تمام الأدب عند السادة الصوفية وإلا فان ذلك ليس من المحرمات على الإطلاق فان (المؤمن لا ينجس) كما ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ.

ومن أخلاقهم : كثرة الاجتهاد فى العبادة ولا يملون منها ليلا ولا نهارا

ولا يكتفون بدعائهم فى قراة الاحزاب ثم ينامون فى الليل ، فإن هذا غرور .

وقد رأيت سيدى الشيخ أبا الحمايل السروى رحمه الله تعالى أقام جماعة من الفقراء من قراءة حزب شيخهم حين سمعهم يقولون :

اجعلنا عندك من المقربين واجلسنا بين يديك مع الأنبياء والمرسلين .

وقال : قوموا واشتغلوا بالتوحيد أو بالقيام فى الأسباب حتى يبدأ كم الحق تعالى بالتقريب ، فإن حكم مثلكم حكم زبال دخل فى قمار الناس إلى السلطان وقال : زوجنى ابنتك أو اجعلنى وزيرا لك ، فربما طرد ومقت بمثل ذلك القول وماهكذا درج الصادقون من أهل الله عز وجل [1] انتهى فالحمد لله رب العالمين .

---

(١) يقصد بذلك عدم التواكل بل يجب الاجتهاد فى العبادة والتفكر والتدبر والتأمل وإقامة أحكام الشرع فى جميع أمور الحياة لا مجرد قراءة بعض كلمات بنغمة رتيبة ثم العودة إلى شهوات الدنيا ينتهل منها .

ومن أخلاقهم : أن لايصغوا قط لمن يمدحهم

لأن المادح إن كان صادقا فيما مدحهم به ، فقد تعجلوا أجرهم ، وان كان كاذبا ، فهو سخريا بهم .

وقد وقف شخص على دكان فى العنبرانيين ، وأشار إلى ، وقال : هذا الرجل الصالح هذا حامى مصر ، فكدت أن أذوب من الخجل والحياء من الله تعالى ، ثم من أصحاب النوبة الذين هم حماة البلد حقيقة .

وهضم النفس هو مادرج عليه السلف الصالح .

واما قول بعضهم : أنه ينبغى للعبد إذا مدحه أحد أن يأخذ ذلك علي لسان الحق تعالى ، ويشكره على ذلك ، فهو خاص ببعض الأولياء مع انه لاينافى كونه من الله تعالى ، فان الكامل يكنى ابا العيون ومعلوم ان الاقتداء بما عليه جمهور أهل الطريق أولى [١] والحمد لله رب العالمين .

---

(١) عن أبى موسى رضى الله عنه قال : سمع النبى ﷺ رجلا يثنى على رجل ويطريه فى المدح فقال : (أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل) متفق عليه .

وعن أبى بكر رضى الله عنه أن رجلا ذكر عند النبى ﷺ فاثنى عليه رجل خيرا فقال النبى ﷺ : (ويحك قطعت عنق صاحبك يقوله مراراً إن كان أحدكم مادحاً لا محالة فليقل أحسب كذا وكذا إن كان يرى أنه كذلك وحسيبه الله ولا يزكى على الله أحدا) متفق عليه .

يقول الإمام النووى : فهذه أحاديث فى النهى وجاء فى الإباحة أحاديث كثيرة وصحيحة قال العلماء : وطريق الجمع بين الأحاديث أن يقال :

إن كان الممدوح عنده كمال إيمان ويقين ورياضة نفس ومعرفة تامة بحيث لايفتتن ولا يغتر بذلك ولا تلعب به نفسه فليس بحرام ولا مكروه وإن خيف عليه شيء من هذه الأمور كره مدحه فى وجهه كراهة شديدة وعلى هذا التفصيل تنزل الأحاديث المختلفة فى ذلك ومما جاء فى الإباحة قوله ﷺ لأبى بكر رضى الله عنه : (أرجو أن تكون منهم) أى من الذين يدعون من جميع أبواب الجنة لدخولها .

وفى الحديث الآخر (لست منهم) أى لست من الذين يسبلون أزرهم خيلاء وقال ﷺ لعمر رضى الله عنه : (ما رآك الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك) الأحاديث فى الإباحة كثيرة .

ومن أخلاقهم كراهتهم للنوم فى النصف الثانى من الليل

وكذلك يكرهون النوم ليلة الجمعة، وليلتى العيدين، وليلة النصف من شعبان، وليالى القدر.

وان غلب أحدهم النوم نام جالسا، وذلك أن من بركة المواهب الآلهية المغفرة لجميع من حضرها، والعافية من جمع الأمراض، والتوبة من جميع الآثام، ويحتاج استثناء المشرك والمشاحن والمشار وغير ذلك مما ورد لأن كلامنا فيمن حضر الموكب الالهى الذى هو حضرة الله تعالى الخاصة، ودخولها محرم على من تلطخ بذنب، ولم يتب فافهم.

واعتبر ياأخى من يعكس فى حضوره مواكب السلطان وتأمل كيف يقطعون جامكيته بخلاف من يواظب على حضورها قبل الناس، فانهم يزيدوا فى جامكيته تبصرة، وذكرى لأولى الألباب.

فعلم ان من واظب علي النوم فى الأسحار، فليس له فى طريق الصالحين نصيب.

وفى الحديث ان أم السيد داود عليه الصلاة والسلام قالت له: « يابنى لا تترك قيام الليل، فإن ترك قيام الليل يدع الرجل فقيرا يوم القيامة.

وورد أن الله تعالى أوحى إلى السيد داود عليه الصلاة والسلام (ياداود كذب من ادعى محبتى فإذا جنه الليل نام عنى).

وفى بعض الكتب المنزلة يقول الله عز وجل:

ياعبدى جعلت النهار لمعاشك، وجعلت الليل للسمر معى وقد اشتغلت فى النهار بمعاشك، ونمت عنى فى الليل، فخسرت عمرك كله [1] والحمد لله رب العالمين.

---

(١) يقول أبو سليمان الدارانى: أهل الليل فى ليلهم أشد لذة من أهل اللهو.
ويقول السهروردى فى عوارف المعارف. فالصادق المريد إذ خلا فى ليله بمناجاة ربه انتشرت أنوار ليله على جميع أجزاء نهاره، ويصير نهاره فى حماية ليله، وذلك لامتلاء قلبه بالأنوار، فتكون حركاته وتصاريفه بالنهار تصدر من منبع الأنوار المجتمعة من الليل ويصير قالبه فى قبة من قباب الحق مسددا حركاته، موفرة سكناته.

ومن أخلاقهم : كثرة مجالستهم للحق جل وعلا طلبا لزوال الغم والهم الواقع للناس فى هذه الدار

فإن الهم والغم فيها إنما هو بقدر الغفلة عن الله تعالى ، فمن أراد دوام السرور ، فليداوم على الحضور ، فليختر العبد لنفسه ماشاء ، فلا يلومن إلا نفسه إذا ترادفت عليه الغموم والهموم ، فإن ذلك إنما هو جزاء بقدر إعراضه عن ربه تعالى [1] ، فاعلم ذلك ، فإنه نفيس والحمد لله رب العالمين .

---

(١) قال الله تعالى (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب أليم .

وقال تعالى (ويحذركم الله نفسه) .

وقال تعالى (إن بطش ربك لشديد) .

وقال تعالى (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد) .

ومن أخلاقهم كثرة رضاهم عن ربهم إذا قتر عليهم الرزق أكثر من
رضاهم عنه إذا وسع عليهم الرزق [(١)]

الرزق فقد سلك بهم طريق الصالحين ، وإذا وسعه عليهم ، فقد
سلك بهم طريق الغافلين عنه .

ثم انهم إذا تمكنوا فى هذا المقام ترقوا إلى فناء اختيارهم مع الله تعالى فيرون انه تعالى
أعلم بمصالحهم من أنفسهم ، فلايبقى عندهم ترجيح لشيء .

ثم إذا ازدادوا تمكينا رجعوا إلى صورة المقام الأول ، ولكن القصد مختلف ، فإن
كل من تمكن فى مقامه يزداد بالسلب تمكينا وبالعطاء حجابا من حيث اضافة
الأمور إليه .

فكلما ترقوا من مقام إلى مقام فلهم مشهد خلاف المشهد الماضى .

وقد بسطنا الكلام على ذلك فى المنن الكبرى وعلى رضى الله العبد بتقدير الله تعالى
عليه من حيث كونه تعالى خالقا وعدم رضاه من جهة كون العبد كاسبا فراجعه والحمد لله
رب العالمين .

---

(١) سئلت السيدة رابعة العدوية : متى يكون العبد راضياً ؟ فقالت : إذا سرته المصيبة
كما سرته النعمة .

وقال الأستاذ أبا على الدقاق : الإنسان خزف وليس للخزف من الخطر ما يعارض
فيه حكم الحق تعالى .

ومن أخلاقهم : كثرة استغفارهم لرؤيتهم النقص فى عباداتهم

فلا يرون لهم قط عبادة كاملة ، ومن كان هذا مشهده فهو غائب عن طلب الأجر والثواب على عباداته .

وقد كان الفضيل بن عياض يقول :

انى لأنصرف من صلاتى وأنا مستحي من الله تعالى أكثر من استحيائى إذا شربت خمرا [١] انتهى .

وذلك لأن الخمر ينادى على صاحبه بأنه عاص لله تعالى ولرسوله ﷺ بخلاف الذنوب فى الطاعات ، فإنها تخفى على غالب الناس ، وأيضا فإن الغافل فى صلاته قد اشتغل بغير الله تعالى فى حضرته وشارب الخمر عصى فى حجاب .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

والله ان أحدنا ليستحق الخسف به لولا عفو الله تعالى .

وكان يقول :

من تأمل نفسه بعين البصيرة من حيث كسبه وجد سداه ولحمته ذنوبا وعيوبا ضم بعضها إلى بعض ، فصار صورة إنسان .

وفى كلام الشيخ شرف الدين بن المقرى رحمه الله تعالى :

ذنوبك فى الطاعات وهى كثيرة ... إذا عددت تكفيك عن كل زلة

تصلى بلا قلب صلاة بمثلها ... يكون الفتى مستوجبا للعقوبة

صلاة أقيمت يعلم الله انها ... بفعلك هذا طاعة كالخطيئة

إلى آخر ماقال والحمد لله رب العالمين .

---

(١) عن ابن مسعود رضى الله عنه، أن نبي الله ﷺ قال ذات يوم لأصحابه . (استحيوا من الله حق الحياء) قالوا : إنا نستحي يا نبي الله ، والحمد لله .
قال : ليس ذلك ، ولكن من استحيا من الله حق الحياء ، فليحفظ الرأس وما وعى، وليحفظ البطن وما حوى ، وليذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء) حديث صحيح أخرجه أحمد فى مسنده والترمذى فى سننه والحاكم فى المستدرك والبيهقى فى الشعب .

ومن أخلاقهم : حسن سياستهم للمقاريض الذين يقرضون فى اعراض الناس فيقدمون لهم الطعام ، ويبشون فى وجوههم ويظهرون لهم المحبة ، فإذا مالوا إليهم ، فهناك يعظوهم بسياسة ، ويقولون لأحدهم :

قد مال قلبنا إليك كثيرا ومقصودنا الاخوة على وجه الشرع بأن تمسك على الكلام فى أعراض الناس كلما تسمعنى استغيبت أحدا ولا تسامحنى فى كلمة واحدة ، فيأخذه له من ذلك معنى .

ثم أنهم يصيرون يمدحونه فى المجالس ، ويقولون قد حصل لنا خير بصحبتنا لفلان كان لساننا منطلقا فى اعراض الناس ، فمن حين صحبناه ، ومسك علينا الكلام فى الناس قلت غيبتنا لهم ، فهناك يصير يستحي من أن يقع فى أعراض الناس خوفا أن يخالف ماوصفوه به من ضبط اللسان .

ولو أنهم قالوا له : ابتداء تب إلى الله تعالى عن الكلام فى أعراض الناس وإلا مقتك الله تعالى لربما وقع فيهم ، وازداد غيبة فى من نبهه على ذلك[1] فالحمد لله رب العالمين .

---

(١) يقصد الإمام الشعرانى بذلك : أن الدعوة إلى الله تكون بالحكمة والموعظة الحسنة لا بالعنف واتهام الناس بكل منكر كما يفعل ذلك بعض الدعاة للعاصرين بل تكون بالتعقل والذكاء والتروى والأهم من ذلك كله الأسوة الحسنة .

ومن أخلاقهم عدم رؤيتهم فى نفوسهم أنهم من جملة العلماء العاملين أو عباد الله الصالحين

فيصيرون يعلمون الجاهل ، وهم يرون انه احسن حالا منهم ولو ان السلطان مثلا رسم لأهل العلم أو الصلاح بمال جزيل لاتطمح نفوسهم قط لأن يعطوا شيئا منه كالا تطمح نفس العامى أو الفسقة إلى ذلك .

وهذا الخلق قل من يتنبه له من الأقران بل بعضهم يغضب إذا نقصوه فى العطاء عن أحد من أقرانه ، ويصير يقيم الأدلة على أنه أعلم ، وأولى بأن يزاد .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

من نظر إلى علوم السلف الصالح رأى نفسه جاهلا .

وقد نقل ابن السبكى فى طبقاته أن الحافظ بن شاهين فسر القرآن فى ألف مجلدة ضخمة ، وصنف المسند فى ألف وستمائة مجلدة ، وذكروا أنه حاسب الحبار[1] فبلغ استجراره الحبر لـلكتابة ألف رطل وثمانماية رطل .

وصنف الشيخ عبد الغفار القوصى كتاباً فى مذهب الشافعى فى ألف مجلدة .

وكان محمد بن جرير الطبرى يحفظ وقر ثمانين بعيراً .

وحرقت خزانة الـكتب ببغداد فى المدرسة النظامية فحزن لذلك نظام الملك فقالوا له: لاتحزن فإن ابن الصباغ يملى من حفظه جميع ماحرق فأملا جميع ماحرق من كتب التفاسير والحديث واللغة والأصول وغيرها فى مدة ثلاث سنين .

وقد بسطنا الـكلام على ذلك فى كتاب المنن فانظر ياخى نسبة علمك إلى هؤلاء تجده لايجيىء عشر عشر علم أحد وإياك والدعوى والحمد لله رب العالمين .

---

(١) بائعى الحبر .

ومن أخلاقهم : موافقتهم فى مدح عدوهم إذا رأوا أحداً يمدحه بنظم أو نثر

وإظهار البشاشة وطلاقة الوجه وكتمان عداوتهم لعدوهم حتى لا يكاد أحد يلحق بهم. وفى ذلك من حسن السياسة مالا يخفى ، وفيه سد باب الغيبة والنميمة وتخفيف عداوة عدوهم إذا بلغه فرحهم بمن مدحه ، وإكرامه بالبشاشة والنقوط فى ذلك المجلس ، وحكم العكس بالعكس كما جرب .

وهذا خلق غريب قل أن يوجد فى أحد من العلماء والفقراء الآن بل رأيت عالمين دخل أحدهما وليمة فرأى عدوه هناك ، فرجع فقاموا له ليدخلوه فعجزوا فى دخوله وقال : لا أدخل مكاناً فيه فلان ، فقام عدوه الآخر ، وخرج وحصل مالا خير فيه ، فيحتاج من يخالط الناس فى هذا الزمان إلى عقل وافر والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم قبولهم هدية علموا بالقرائن
إن لها قدراً عند مهديها

كأن أرسلها مع غلامه ، وقال : لاتعطها إلا للشيخ فى يده مثلا ، أو كانوا يعلمون منه أنه يصير يتذكرها كل قليل لكونها فوق مرتبته مثلا ، فإن ذلك من علامة كونه بخيلا أو ممن يتبع نفسه هديته .

وكذلك لا يأكلون شيئاً أكد على أحدهم صاحب السماط أن يأكله كأن مسك وركا وصار يقول له : أجبر بخاطرى ، وكل هذا ، فإنهم يزدادون بذلك نفرة من أكله لأنه إمارة على بخله إذ الكريم لايبالى بأى من أكل طعامه كائنا من كان .

وهذا خلق لم أر له ذائقاً بل ربما يفرح أحدهم إذا أكدوا عليه فى العزومة ، والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم: كراهتهم للأكل وحدهم

لحديث: شر الناس من أكل وحده وجلد عبده ومنع رفده.

كما كرهت الصلاة فرداً، فكذلك يكره الأكل فرداً لجامع أن كلا منهما مشروع، وفى الأكل مع الجماعة فوائد منها محبة الناس له، ومساعدتهم له على نصرة الدين إذا رأوه قايما فى إزالة منكر، ومنها كثرة الرزق والمدد لحديث أن المعونة تأتى من الله تعالى على قدر المؤنة، ومنها امتثال أمر الشارع، فعلم أن حكم أكلهم وحدهم بالعكس من ذلك فينحل أمر البخيل إلى كراهة كل من لم يطعمه له، وعدم نصرة الدين نكاية فيه والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم : مباسطتهم للخادم وتواضعهم معه

حتى يصير يجلس يأكل مع سيده ولا يتعلل بالحياء ولا بالخوف من زجره إذا أكل معه من غير عزومة عليه كما كان عليه الجلال المحلي شارح المنهاج .

ومتى كان الخادم يستحى أن يأكل مع سيده أو يخاف منه ، فسيده معدود من المتكبرين. وقد دعى الإمام عمر بن عبد العزيز مرة خادمه أن يأكل معه ، فأبى ، فبكى وقال فى نفسه :

لولا علم منك سوء الخلق والفظاظة ما أبى وجلس يأكل معك كما كان خدم رسول الله ﷺ يأكلون معه فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم ردهم السائل

ولو بلقمة أو زبيبة أو عمامة أو جوخة عملا بقوله ﷺ :

للسائل حق وإن جاء على فرس .

ولكونهم من شأنهم عدم الشح وعدم تمييزهم نفوسهم على إخوانهم .

وكل فقير منع سائله لغير غرض شرعى فهو لم يشم من طريق الفقر رائحة ، فإن الفقراء على الأخلاق الإلهية بنوا طريقهم ، فلا يمنعون إلا لحكمة كأن لم يجدوا إخلاصاً فى ذلك الوقت ، أو علموا أن ذلك السائل يعصى الله تعالى بما يأخذه منهم أو كان سؤاله تعنتاً لا لحاجة بل امتحاناً .

وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن ، والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : فى حال كمالهم النسبى أن يقدموا نفوسهم
على غيرهم فى المطاعم والملابس وغيرها
عملا بحديث « أبدأ بنفسك » .

وبحديث « الأقربون أولى بالمعروف » ولا أقرب إلى الإنسان من نفسه عكس ما كانوا عليه فى حال بدايتهم من إيثار الغير على نفوسهم ومدحهم على ذلك[1].

قال سيدى على الخواص رحمه الله تعالى :

وإنما كانوا يمدحون على الإيثار حال بدايتهم فى الطريق لأنهم كانوا فى مقام المجاهدة والعمل على الخروج من ورطة الشح الذى فتحوا عيونهم عليه فى الدنيا بخلاف حالهم فى زمن كمالهم ، فإنهم مأمورون بأن يعطوا كل ذى حق حقه بحكم العدل وفى هذا الذى قلناه جمع بين الآيات والآيات الواردة فى الإيثار وعدمه ، فالحمد لله رب العالمين .

---

[١] قال الله تعالى : « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف » .
وقال تعالى : « لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها » .
وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : دينار أنفقته فى سبيل الله ودينار أنفقته فى رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك ، أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك ، رواه مسلم .

ومن أخلاقهم : كثرة تسليمهم وترك تكذيبهم لكل من
أدعى ممكناً فى العادة من سائر المقامات حتى القطبية

لأن الولاية أمر باطنى لايطلع عليه إلا الله تعالى ، ثم صاحبه .

وقد لايطلع الله عليها صاحبها أيضا ، فيكون فى نفسه أذل الناس وأحقر الناس لايرى له شفوف على أحد من المسلمين ، فيسلمون له ضرورة لأن أحدهم يرى نفسه فى الأرض ، ويرى المدعى للقطبية كأنه فى السماء ، وأهل الأرض لايعرفون ما أهل السماء فيه .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول ، لأصحابه .

سلموا لكل مدع دعواه مالم يدع باطلا كالنبوة والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كمال التنزيه لله تعالى

فلا يقولون قط بالجهة كما يقع فيه أهل الجهل بالله عز وجل أخذاً بظاهر الأحاديث التي يعطى ظاهرها رايحة التشبيه بأحوال الخلق وتعالى الحق فى علا ذاته عن أن يلحقه تشبيه بخلقه[٢] .

وقد أجمع أهل الحق كلهم على أن الحق تعالى لا يتحد مع خلقه فى مرتبة من المراتب ، وكيف يلحق المخلوق خالقه كما بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب اليواقيت والجواهر وفى كتاب المنن الكبرى ، والحمد لله رب العالمين .

---

[١] وعلى هذا مذهب أهل السنة وهو التفويض المطلق فى المتشابه وكان ذلك مذهب الصحابة والتابعين ، ولم يقل أحد فى الصدر الأول من الإسلام بالجهة ولا بالتشبيه أو التجسيم .

ومن أخلاقهم : عدم تسليمهم للنفس ما تدعيه حال المرض من عجزها عن القيام فى الفريضة مثلا إلا بعد امتحانها مرات بأن تقوم ، فلا تقدر تقف لا بنفسها ولا باعتماد على شىء ، وهناك يصلون جالسين .

وهذا الخلق قل من يتنبه له من المرض بل يبادر أحدهم إلى الصلاة جالساً وبعضهم يترك الصلاة بالكلية ، وذلك خروج عن الدين .

وقد رأيت شيخنا شيخ الإسلام زكريا شارح الروض يصلى النوافل قائماً وهو يتمايل لا يكاد يقدر على الوقوف فقلت له يوماً :

مثلكم لا يكلفه الله تعالى بالقيام فى مثل ذلك .

فقال : ياولدى كل صلاة يحتمل أن تكون آخر أعمالى فى الدنيا فأخاف أن أختم عملى بالكسل ، انتهى .

وفى كلام سيدى أحمد الرفاعي : كل فقير لا يحاسب نفسه فى كل حركه وسكون ويتهمها فى جميع ما تدعيه لا يكتب فى ديوان الرجال ، فالحمد لله رب العالمين .

البابُ الرابع

فى جملة أخرى من الأخلاق

فمن أخلاقهم : عدم أكلهم من طعام من شفعوا فيه شفاعة وقبلت فضلا عن كونها لم تقبل .

أو قبولهم هدية أرسلها لهم الشخص المشفوع فيه قبل الشفاعة أو بعدها .

وهذا الخلق قل من تنبه له من الفقراء بل بعضهم يتطلب حصول ذلك بقلبه أو بنفسه ، وهو من أكبر الذنوب مع انه يخرب مابين الفقير وبين ربه لأن الشفاعة تكون واجبة فى واجب ومستحبة فى مستحب واخذ العوض الدنيوى على ذلك بيع للدين بالدنيا وان كان مال المشفوع فيه غير حلال ضر نفسه بذلك وأوقف قضاء حاجته لأنه يتلف قلب الفقير ، والذى يشفع فلا يصير له كمال توجه فى قضاء حاجته ولا قضاء حاجة أحد من المكروبين .

فإذاً ترك الأكل وقبول الهدية مصلحة للشافع والمشفوع له والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم قبول هدايا الظلمة وأعوانهم

وكراهة قبولها على اسمهم أو على اسم جماعتهم ، ولو سفوا التراب .

وإنما هان عليهم عدم قبول هدايا الظلمة لأنهم لا يصحبونهم قط لعلة دنيوية ، وإنما يصحبونهم للأجر والثواب ، ومعلوم ان هدايا الظلمة إنما هى أوزار فإن غالبها بلص وجور على رعيتهم وأخذ جرائم ممن يتحاكم عندهم .

وقد بلغنى أن شخصا سرقوا له جاعة فاشتكى إلى شيخ العرب فقال : اتهم لك واحدا فقال : لا اتهم أحدا فقال له : حاشيته انظر لك أحدا فى بلدك له بهائم كثيرة فاتهمه فقال : لا أتهم أحدا فقال شيخ العرب : أنا أتهم لك .

فأرسل جماعته فسحبوا جميع بهائم رجل فى البلد شهد الناس فيه كلهم بالخير ثم ان شيخ العرب أرسل تلك البهائم ففرقها ضحايا على زوايا مصر ، فصار كل من حصل له بقرة أو جاموسة يشكر شيخ العرب ، ويقول جزاه الله عنا خيرا ، وكذلك القول فى ضحايا الغنم يأخذها شيخ العرب أو الكاشف غصبا من البلاد ثم يفرقها ضحايا على العلماء والصالحين لكن بحمد الله عن قريب يصير الكاشف أو شيخ العرب يعجز عن خراج السلطان من ضيق الحال ، ولا يجد شيئا يفرقه .

فاياك ياخى أن تقبل شيا من ذلك وان شككت فى قولى فأرسل استخبر من الفلاحين تعرف صدقى .

ثم لا يخفى ان الفقراء الصادقين سهامهم موتورة على الذين يظلمون الناس ، ومعلوم ان قبولهم هداياهم يبطل عمل تلك السهام ، مع ما فى ذلك من كثرة التبعات ، وعدم قبول الشفاعات .

فعلم ان كل من ادعى الصلاح وأكل من هدايا العمال ولبس من ثيابهم ، فهو نصاب كذاب كما أوضحنا ذلك فى كتاب المنن .

وسيأتى فى الباب السادس فى الوسط منه ما قاسيته من العقوبة لما أكلت حبات من عنب عيسى شيخ العرب مع شهرته بالدين والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كثرة التزاور لبعضهم بعضا

وفاء بحقوق بعضهم ولو فى الشهر مرة ، ولا يتركون الزيارة اكتفاء باتحاد قلوبهم فإن الاجسام تطلب حظها من الزيارة مثل الأرواح .

وقد درج على ذلك جمهور الفقراء [1] ، وقد حدث جماعة يدعون الفقر ، ويهجرون أخاهم السنة والسنتين ، وأكثر ولا يزورونه ، فيحصل بينهما الجفاء ويظن الناس أن بينهما عداوة فيمشون بينهما بالنميمة ، فيتولد من ذلك مفاسد.

وقد قلت مرة لشخص من أصحاب شيخ من مشايخ العصر : ان شيخك أوحشنا كثيرا فحكى ذلك لشيخه فقال له : أما تعلم أن الدفتادار يزورنا ، وإذا بلغه اننا نزور فلانا يزدرينا فى عينه ، وينقطع عن زيارتنا فقلت له : تبا لكم فقراء كيف يصح من فقير أنه يتلفظ بمثل هذا العذر البارد ؟ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم والحمد لله رب العالمين .

---

[١] عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ : [أن رجلا زار أخاله فى قرية أخرى فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكا ، فلما أتى عليه قال :

أين تريد ؟

قال : أريد أخالى فى هذه القرية .

قال : هل لك عليه من نعمة تربها عليه ؟

قال : لاغير أنى أحببته فى الله تعالى .

قال : فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه] رواه مسلم .

ومن أخلاقهم أن لايصحبوا أميرا إلا إن وطنوا نفوسهم على
القيام بشروط صحبته بحيث لايخلوا منها بشرط واحد

فمن شروط صحبة الفقير للأمير .

ان لايقبل منه هدية ولايعتب عليه فى عدم تردده إليه ، فإن صحبه بقصد إحسانه أو ليتردد إليه قياما بجاهه بين الفقراء فقد أخطأ الطريق .

ومنها أن يتحمل عن ذلك الأمير أوزاره من مظالم العباد وغيرها ، حتى يأتى ذلك الأمير يوم القيامة ، وليس عليه ذنب يوقف لأجله فى الحساب .

ومنها أن لايدخل فى صحبته إلا أن كان بيده ولايته ، وعزله ، وحماية نفسه من تصرف ذلك الأمير فيه بحبس أوضرب ، لأنه إن لم يحم نفسه سقط من عينه .

وإنما شرطنا ذلك ليخاف من الفقير إذا هدده ، وطلب كفه عن المظالم .

ومنها أن يكون مانعا بتوجهه إلى الله تعالى من أن يزيد عليه أحد فى بلاد ذلك الأمير مالا للسلطان ظلما أو يطلب عزله من ولايته .

ومنها أن يفرح بعدم زيارة الأمير له لأن الأمير لايزور الفقير إلا إذا كان فى كرب وشدة ، ومادام بخير فلايأتى إلى الفقير .

وقد كان سيدى إبراهيم المتبولى رحمه الله يقول :

الفقراء كبيت الخلاء لايأتيهم إلا محروق انتهى .

فاياك يأخى ان تخل بمثل ذلك إذا صحبك أمير وان لم تقدر على ذلك فاترك صحبته فانها لحظ نفس والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم مزاحمتهم على صحبة أحد من الولاة وأبناء الدنيا

قال سيدى على الخواص رحمه الله تعالى :

وينبغى للفقير أن يكثر النفرة من صحبة الأمراء ، وان تقدم لهم بأحد منهم صحبة وطرأ عليهم فقير يريد أن يصحبهم كذلك حسنوا اعتقادهم فيه ، وصاروا يمزورون ذلك الفقير ، حتى يظن ذلك الأمير ان الفقير الأول لا يصلح تلميذا لذلك الفقير الثانى ، ثم يفسح لذلك الفقير عن صحبة ذلك الأمير بسياسة ، بحيث لا يشعر أحد بقصده .

وهذا الخلق ما رأيت له ناعلا فى اقرانى إلا القليل ، وهو من أعظم أخلاق الفقراء الصادقين ، وربما ادعاه بعضهم وهو غير صادق فيه ؛ فليمتحن نفسه ، بما لو دخل شخص من أعدائه على ذلك الأمير ، وصار يقطع فى عرضه وينتقصه ، حتى غير اعتقاد ذلك الأمير فيه ، ولا بقى يقدر ينظر له صورة ، فإن انشرح لذلك ، فهو صادق فى المقام ، وإلا تكدرت منه شعرة فهو مرائى منافق فى حكم أهل الطريق .

وقد كان سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

كل فقير يعتقد فيه ظالم ، ويهدى إليه شيئا إلا ويصير يركن إليه بالقلب ، ويخالف قول الله تعالى .

« ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار [1] » .

وان حصل لذلك الأمير عزل من وظيفته أو حبس على مال السلطان يمسكرن ذلك الفقير ويقولون : أين ودايعه ؟ أين ماله ؟ .

فليوطن من يقبل هدايا الظلمة نفسه على خزى الدنيا وعذاب الآخرة والحمد لله رب العالمين .

---

[1] سورة هود آية : ١١٣ .

ومن أخلاقهم أنهم لا يقدمون على صحبة أحد من الولاة إلا إذا رأوا صحبته ترجح على عدم صحبته يقينا من غير تلبيس من النفس

ثم إذا رأوه كثير الظلم ، والبلص للناس مع صحة اعتقاده فيهم تسببوا فى تجريحهم عنده بإرسال أحد من الزواق له يقطع فى عرضهم عنده ، حتى يتحول اعتقاده فيهم .

وهذا خلق غريب قل من يفعله بل رأيت بعضهم يفسد من رآه من الأمراء يعتقد فى أخيه ، ويرسل له من يقول له : ان هـذا الرجـل الذى تعتقده لا يصلح خادما للشيخ الفلانى .

كما وقع لبعضهم لما صحبنى محمد الدفترادار ومحمد بن بغداد ومحمد بن عمر ، وكل ذلك لشدة محبتهم فى الدنيا التى هى رأس كل خطيئة .

فالحمد لله الذى عافانا من مثل ذلك .

واياك ان تظن بفقير جرحه الناس عند أمير ، وتـكدر ان ذلك لحظ نفس ، وإنمـا يجب عليك حمله على أنه تـكدر غيرة على الخرقة والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : حسن سياستهم لمن يشفعون عنده من الأمراء

وإذا رأوه فى شدة غضب لا يفتحون له الباب بل يتمهلون اليوم ، واليومين ، وأكثر ، فإذا خمد غضبه شفعوا إذ ذاك .

ولما طلعت للوزير على باشاه شافعا فى محمد العبادى حين نقم عليه من كلام الأعداء فيه قال لى : ماحاجتكم ؟ .

فقلت له : جيت أشفع فى محمد العبادى إن كان التأديب فيه بلغ حده واستحق الشفاعة فيه ، وإن لم يكن التأديب بلغ حده فيه فنحن معكم عليه حتى يتأدب .

فقال لى : إن شاء الله تعالى ننظر فى أمره بخير .

وكان قد عزم على قتله بعد أن شفع فيه جماعة من العلماء وردهم ولو اننى قلت له :جيت أشفع فى فلان المظلوم الذى ظلمتموه بغير حق ، لربما انتصر لنفسه ولم يرجع لقولى .

فتعلم يا أخى طريق السياسة ثم اشفع [1] والحمد لله رب العالمين .

---

[١] تلاحظ كثرة تنبيه الإمام الشعرانى على كيفية معاملة أصحاب السلطة والأمراء ولعل ذلك راجع إلى أن رجال التصوف يهتمون دائماً بأمور المسلمين وحوائجهم وقضاء مصالحهم فأراد الإمام الشعرانى بترداد تنبيهاته وضع أسس هذه المعاملة .

إلا إن علموا منهم شدة الورع ، فربما كانت ضحيتهم أرسلها لهم أحد الولاة من الذين لا يتورعون .

واعلم ياأخى ان التضحية ماشرعت إلا لدفع البلاء عن أهل البيت فى تلك السنة ، كما ان العقيقة تميط الأذى عن المولود طول عمره .

ومعلوم ان البلاء والأذى لايندفع إلا بذبح شيء حلال أمامثل هدايا العمال فإنها فلول يزيد البلاء على أهل الدار وعلى المولود .

وهذا الخلق قد صار غريبا فقل من يتخلق به بل بعضهم يضحى بالغنم ، التى أرسلها له الكاشف أو شيخ العرب ، ويعزم على جماعته وأصحابه ، فيأكلون من ذلك ، وربما يقول بعضهم علي وجه المدح لنفسه : لم آكل من طعام أحد فى هذه السنة إلا من طعام سيدى الشيخ ، كأنه يعتقد انه أحل من طعام التجار ، ونحوهم .

وقد بسطنا الكلام على ذلك فى المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم قبولهم المساعدة فى الحج من الظلمة

فلا يقبلون شيئا فيه شبهة من جمال أو زاد أو نفقة أو غير ذلك [١] .

وقد صار هذا عزيزا فى هذا الزمان بل رأيت من يرسل قصاده إلى الكشاف ومشايخ العرب فيسألوا منهم المساعدة لسيدى الشيخ فى حجه ويظهرون ان سيدى الشيخ مسكين.

وبعضهم سافر بنفسه وسأل تعريضا وتصريحا ، وما هكذا أدركنا المريدين من أهل الطريق فضلا عن الأشياخ الأئمة .

إلا ان يكون قصد سيدى الشيخ الإنفاق من ذلك على المضطرين فى طريق الحاج كمن مات جمله وليس معه شىء يكرى به من يحمله وزاده ونحو ذلك فهذا لا بأس به وكان عليه الشيخ محمد المنير والشيخ أبو بكر الحديدى رحمهما الله تعالى فالحمد لله رب العالمين .

---

[١] ومن شروط الحج الاستطاعة فكيف إذا لم يستطع الإنسان الحج واستعان بأموال الظلمة على حجه ؟

ومن أخلاقهم : كراهة المجاورة بمكة المشرفة خوفا من إخلالهم بأدب تلك الحضرة الشريفة

وسبقهم إلى ذلك عبد الله بن عباس [1] رضى الله عنهما فسكن الطائف إلى أن مات وكذلك مالك والشعبي ومن تبعهما وكانوا يقولون مالنا وابلد تضاعف فيه السيئات ويؤاخذ بالخواطر فيها .

وقد سمعت سيدى على الخواص رحمه الله ينهى عن المجاورة بمكة ويقول :

لا ينبغى أن يجاور بها إلا من يقوم بشروطها .

فقال شخص : وما شروطها ؟ .

فقال : شروطها عند القوم الا تخطر المعصية على قلب من يقيم بها ، وان لا يسيء ظنه بمسلم فيها فى وقت من الأوقات ، وان لا يرى نفسه خيرا من أحد من المسلمين فى سائر الآفاق ، وان لا يبيت على دينار ، ولا درهم ، ولا طعام ، ولا ثياب ، وهو يعلم ان فى مكة أحدا محتاجا إلى ذلك ، وأن لا يسأله أحد شيئا ويرده ولو عمامته وجوخته لاسيما ان قال له : برب هذا البيت اعطنى كذا ، وان لا يحن قط إلى بلاده ، ووطنه ، فيصير جسده بمكة ، وقلبه فى غيرها ، ومعلوم ان الحق تعالى لا ينظر من العبد إلا قلبه وان يقلل الأكل جهده ، ولا يأكل قط ، وعين تنظر إليه إلا إن اشركها معه ، وأن يلبس هناك المدبمات والعباء دون الثياب النفيسة والمحررات لاسيما ان زاد على ذلك من البخور والروايح الطيبة ، فإن صرف ثمن ذلك فى طعام المحتاجين أولى بلاشك .

وقد بسطنا الكلام على شروط المجاورة بمكة فى كتاب المنن والحمد لله رب العالمين.

---

[١] هو الصحابى الجليل عبد الله بن عباس رضى الله عنهما كان يسمى حبر الأمة لشدة تمكنه فى العلم ، وقد سكن الطائف ولم يسكن مكة لأن البلد الحرام تضاعف فيه السيئات ، (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) .

ومن أخلاقهم : التعفف عن الأكل من صدقات الناس وأوساخهم

عملا بما اختاره رسول الله ﷺ لأهل بيته ، فإنه مانهاهم عن ذلك إلالحبته فيهم وشيء اختاره رسول الله ﷺ لأهل بيته لاينبغي مخالفته .

وقد كان سيدى على الخواص رحمه الله تعالى لايأكل من صدقات الناس ويقول . إنها أوساخ ومن أكل منها فكأنه يقول للناس : بولوا على وعلى ثيابى وتمخطوا أو ابصقوا على وجهى وتنخموا ، فإن الوسخ يشمل ذلك كافة وتفاوت القذارة يكون يكون بحسب مافى ذلك للمال من كثرة الخبث وقلته [1] .

وسمعته مرة أخرى يقول :

صدقة الفرض تذهب الوسخ من المال والروح ، صدقة التطوع تذهب الوسخ من البدن ، فكأن من يأكل من صدقة الفرض يلطخ روحه بالقذر ومن يأكل من التطوع يعرض بدنه للاوجاع والأورام والدمامل والخراريج انتهى .

فليحذر الفقراء من قبول الصدقات مادام أحدهم يجد الكسرة والخلقة والحمد لله رب العالمين .

---

[١] وفى الحديث : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير له من أن يسال أحداً فيعطيه أو يمنعه » متفق عليه .

ومن أخلاقهم : ان لايطلبوا من الله تعالى أن يوسع عليهم فى الدنيا
إلا إن وطنوا نفوسهم على كثرة العبادة ليلا ونهارا

فإن من طلب من الله تعالى الزيادة فى الرزق طالبه الله بالكثير من العمل ، ومن رضى باليسير من الرزق رضى الحق تعالى منه باليسير من العمل .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

لايكفى الفقير الناصح لنفسه فى هذا الزمان الشكر لله تعالى بالقول باللسان فقط إلا إن كان ليس عليه خطية أما كثير المعاصى كأمثالنا ، فلا يكفيه إلا الشكر بالعمل ، فيصوم ، حتى يصير كالشن البالى ، ويقوم حتى تتورم منه الاقدام قال الله تعالى : « اعملوا آل داود شكرا [1] » ماقال قولوا شكرا وهذه الأمة المحمدية أولى بأن يشكروا بالعمل .

وهيهات أن يتحصل لهم من كثرة الأعمال شىء يصلح لأن يكون شكرا لكثرة العلل القادحة فى الإخلاص ، ولايقبل الله تعالى من الأعمال إلا ما كان خالصاً ، وابتغى به وجه الله تعالى .

فارض ياأخى بالقليل من الرزق فإنه أولى لك والحمد لله رب العالمين .

(١) سورة سبأ آية : ١٥ .

ومن أخلاقهم : صحبة مشايخهم على الصدق والوفاق دون الكذب والاختلاق والنفاق

ومن لم يكن كذلك لاينتفع بشيخه ولوصحبه طول عمره بل ربما مقت واستحكم المقت فيه فتلف بالكلية وتعطل من أعمال الدنيا والآخرة .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول :

من علامة الصادق أن لايحوج شيخه إلى تقوية قلبه بالحضور فى مجلس الذكر مثلا بل يداوم على ماأقامه شيخه فيه ، ومتى وجد فى نفسه كسلاان لم يحضر معه شيخه ، فهو كاذب لايصح لشيخه أن يمنحه أدبا من آداب الطريق لأن وعاء المنافق المخالف يمج كل خير أدخل فيه لعدم قبول محله له ومثاله مثال الصخرة التى ألقيت فى الماء ، فربما تمكث ألف سنة ولاتلين ، ولايدخلها ماء ، فهذا المريد كالصخرة وزاوية شيخه كالبحر ، فكما لايدخل جوف الصخرة شىء من الماء كذلك لايدخل جوف هذا المريد شىء من خير شيخه ، ومدده الذى فى الزاوية ، ولو أن المريد المنافق مع شيخه أظهر نفاقه لشيخه ، وقال : لاحاجة لى بطريقك لكان صدق وخف مقته لكنه كابر وادعى الصدق ، فازداد مقتا بتعب شيخه فى نصحه ، فكلما نصحه فى شىء ، وخالف مقت ومعلوم أن حضرة الله تعالى ما كل أحد يصلح لدخولها ، ولذلك جعل الله تعالى فى طريقها الموانع والمهالك كما وضع أهل المطالب من الكفار الموانع ، والمهالك فى طريقها .

فإذا كان هذا وضعوه فى طريق شىء يجب الزهد فيه . فكيف بشىء يجب قطعا الرغبة فيه ؟ وأى قدر للدنيا بحذافيرها إذا تركت فى طريق طلب حصول مجالسة الله عز وجل ولو لحظة من العمر ؟ .

ومن شك من المريدين فى أنه منافق مع شيخه ، فليعرض على نفسه مالو قال له شيخه إرم ما معك من الدنيا أو طلق زوجتك أو اخرج من خلوتك مثلا لأدخلك حضرة الله

عز وجل ، فإن فعل ذلك بانشراح ، فهو صادق وإلا فليعلم انه منافق ، فلا يتكدر إذا قال له شيخه : أنت منافق معى .

وفى كلام الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه : إذا كان من يعمل على الوفاق لايسلم من النفاق فكيف . بمن يعمل على الخلاف ؟ انتهى .

وأكثر المريدين الآن يعملون على الخلاف ولايوافقون شيخهم سوى باللفظ فقط .

وكان سيدى إبراهيم المتبولى رحمه الله يقول :

لايبعد شى من المقامات على مريدله شيخ أبدا إذا أطاع شيخه لأنه يعرف كل طريق توصل إلى أى مقام يطلبه المريد ولـكن المانع خلاف المريد أو عدم القسمة انتهى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إذا ربوا يتيما أو يتيمة وأنفقوا عليهما حتى تزوجا مثلا ان لا يروا لهم على ذلك اليتيم فضلا

أدبا مع الله تعالى الذى هو فى كفالته .

وأيضاً ، فإنهم متى رأوا لهم فضلا فقد حبط عملهم ، وذلك لأنه منّ والمن يحبط الأجر.

فليحذر الفقير الساذج من مثل ذلك .

وقد كان الإمام مالك رحمه الله يقول :

أهل الفضل هم أهل الفضل مالم يروا فضلهم .

أى فإن رأوا فضلهم فقد خرجوا عن كونهم أهل فضل .

فرب ياأخى اليتيم امتثالا لأمر الله تعالى أوطلبا للأجر من الله تعالى[1] ، فإذا فعلت ذلك رأيت لليتيم الفضل عليك لأن به حصل لك الأجر والثواب .

وهذا لا يصح إلا لمن كمل إيمانه بما وعد الله تعالى ، حتى صار الجزاء عنده كأنه رأى عين ، وهناك يصح له معاملة الله عز وجل فالحمد لله رب العالمين .

---

(١) وفى الحديث : عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا ، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما » رواه البخارى .

ومن أخلاقهم : تعظيم الأماكن التى ورد أن الله تعالى عند أهلها حاضر كالمنكسرة قلوبهم والمرضى ومجالس الذكر ونحو ذلك .

قال الله تعالى فى بعض الأحاديث : « أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى » .

وقال فى حديث : « جعت فلم يطعمنى ومرضت فلم يعدنى أما انك لوعدته لوجدتنى عنده[1] » .

قال تعالى : أنا مع عبدى ماذكرنى وتحركت بى شفتاه » .

ومن هنا كان سيدى على الخواص رحمه الله إذا عاد مريضا أو حضر مجلس ذكر، أو دخل مسجدا يدخل بانكسار وذلة وخشية ، ويلبس الثوب المرقع ، ويقول :

نذل بين يديه تعالى فى الاماكن التى أخبر أنه حاضر فيها لعله يرحمنا ، وإن كان هو تعالى حاضرا فى كل مكان بلامكان ولكن هكذا تأدب الأكابر معه .

وفى الحديث : أنه ﷺ كان يخرج يعود المرضى فى اقصا المدينة حافيا راجلا بلاقلنسوة ولاعمامة أدبا مع الله تعالى من حيث كونه أخبر انه عند المريض ، ومشا كلة للفقراء الذين عادهم وتشريعا لأمته الذين يفهمون الأسرار .

فاعلم ذلك واعمل عليه والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سبق ذكر هذا الحديث بكامله فى المقدمة .

ومن أخلاقهم : تعاطيهم الأسباب التى تميز صديقهم من عدوهم ليعرفوا مايستحقه كل واحد من اطلاعه على أسرارهم أو كتمانها عنه .

وانا أعلمك ميزانا تعرف به محبك الصادق من غيره ، وذلك أن تمدح نفسك المدح المفرط بحضرته ، فإن انشرح وصدق بباطنه فهو محب ، وان انقبض خاطره ، ووقف شعره منك ، فاحفظ نفسك منه ، فإنه عدو فى صورة صديق ، ومثل هذا فليس فى صحبته إلا انه يحصى عليك نقائصك ليهجوك بها أيام سخطه عليك ، فاحذر من هذا كل الحذر ولايغرك مدحه لك بين الناس وجوابه عنك فى بعض الأوقات والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : افتخارهم بزيارة الفقراء لهم

فإذا زارهم فقير لايؤبه له يكون ذلك اليوم عندهم عيد ، لأنهم لايرون نفوسهم أهلا لأن يزورهم أحد من الصالحين خوفا أن يقال : لولا ان فلانا من الصالحين مازاره الشيخ فلان .

ولما كان سيدى محمد بن عنان يزور أحدا من فقراء مصر يكبر ذلك الفقير فى أعين الأمراء والمباشرين ، ويقولون : لولا أنه أمر عظيم مازاره الشيخ محمد بن عنان لأن الشيخ محمد كان لايعجبه كل أحد ادعى الطريق لكون أمره رضى الله عنه كان مبنيا على الصدق مع الله تعالى فكان إن لم يعرف لفقير مقاما عند الله تعالى لا يزوره ولو انقلب إليه جميع أهل مصر من العامة بالاعتقاد ، لأنهم كلهم محجوبون عن حضرة الله تعالى لايعرفون من هو المقدم فيها من غيره .

وكان سيدى محمد بن عنان رحمه الله يقول :

أقل مراتب الفقير عند من يعرف مقامات الفقراء أن يعظمه كما يعظم أعظم ملوك الدنيا، وذلك لأنه لا أعظم ممن يجالس الحق جل وعلا ليلا ونهارا ، فكل من رأوه عاكفا بقلبه على حضرة ربه اجلوه أكثر من اجلالهم للسلطان لأن السلطان ، وان كان الحق تعالى ألبسه خلعة الملك والتصريف ، فقد يكون أكثر أو قاته غير مجالس للحق تعالى إنما هو مجالس لما هو مشغول به من جمع مال ومحاربة اعداء ، وتلذذ بمأكل ومشرب ومنكح وغير ذلك ، وهذا فإن كان مقاما رفيعا لجمع الحق تعالى به شتات العالم ، فثم ماهو أرفع منه وهو الاشتغال بالله وحده فافهم .

فعلم مما قررناه عدم إفتخار الفقراء الصادقين بتردد أحد من الولاة إليهم من باشا ودفتردار وقاضى عسكر وشيخ عرب ونحوهم خلاف ماعليه بعض المشايخ الذين ظهروا فى النصف الثانى من القرن العاشر ، فربما زارهم أحد من الولاة فيصير كالشاعر لكل

من دخل عليه ممن لايعلم بزيارة ذلك الأمير ، فيقول امس كان الدفتردار أو قاضى العسكر عندنا ، ويصير يفتخر بذلك ، كأنه اجتمع بالإمام الشافعى أو بسيدى أحمد البدوى رضى الله عنهما ، وهذا كله من علامات الإفلاس فى الطريق ولو أنه عرف طريق الفقراء ماافتخر بأحد من ابناء الدنيا المحجوبين عن الله عز وجل .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

سمعت سيدى إبراهيم المتبولى رحمه الله يقول :

كل فقير افتخر بزيارة أحد من الأمراء له فهو نصاب مرائى لم يشم من طريق الفقراء رائحه .

قال سيدى على الخواص :

وقد كان السلطان قايتباى وأمير كبير وغيرهما يزور سيدى إبراهيم المتبولى فى بركة الحاج ، وماسمعناه قط يذكرهم بعد أن يخرجوا من عنده لابمدح ولابذم انتهى .

وكان سيدى محمد العدل رحمه الله يقول :

من كان مفتخرا بالزائرين فليفتخر بزيارة الفقراء الذين لايؤبه لهم فإنهم هم الذين ينبغى الافتخار بصحبتهم لمدح الله تعالى لهم ، أما الملوك والأمراء فصحبتهم عار وشنار يوم القيامة ، وكل فقير رأيتموه يفتخر بتردد أبناء الدنيا له ، فاعلموا أنه لم يدخل حضرة الله تعالى أبدا ولوكان له شهرة وعمامة صوف وعذبة .

وقد سمع سيدى محمد بن عنان شخصاً من جماعته يحكى لبعض الناس ، ويقول له :

مادريت ان السلطان طومانباى زار سيدى الشيخ البارحة ، فزجره سيدى محمد ، ومقته وقال :

إن كنت يافلان لاترى تعظيم شيخك إلا بزيارة أحد من الأمراء له فأنت لم يحصل لك شىء من الطريق انتهى .

وقد رأيت الباشاه ملك الأمراء زار شيخا فى مصر ، فصار كل باشاه أتى بعده يزور ذلك الشيخ إلى أن جاء الباشاه على ، فزار ذلك الشيخ وقال : قلبي يحدثنى أن هذا الشيخ دنياوى لم يشم من طريق الفقراء رائحة فقيل له : بما تعرفون ذلك فقال : نعرف ذلك بالأنس الذى يحصل فى قلوبنا إذا رأيناه أو جلسنا عنده فقال له شخص : فلم تزوروه بعد ذلك فقال : هذا من حكم القانون أن كل أمير جاء فمن العقل أن يزور من كان يزوره من قبله ولولم نعتقده مترة لذلك الشيخ لا اعتقادا فى صلاحه انتهى .

وأعرف شخصا زاره الباشاه محمد مرة ثم انقطع عنه ، فصار كل من دخل عليه من الفقراء والمباشرين وغيرهم يقول له : زارنى الباشاه وقلت له : كذا وقال لى : كذا واستأذننى فى التردد إلى فلم آذن له ، وذلك كله كذب وزور ، ثم بعد ذلك صار كل شيخ عرب اجتمع به أو محتسب يقول له : أمس كان عندنا الباشاه وأجرينا له ذكركم ومدحناكم عنده ، فيفارقه ذلك الشيخ عرب أو المحتسب ، ويرسل له الأصواف الرفيعة، والقمح والسمن والعسل والأرز وغير ذلك كأن ذلك النصاب يقول لشيخ العرب أو المحتسب : ان لم تحسن إلى تكلمت فى حقك للباشاه كلمة فاخربت ديارك ، ومثل هذا الشيخ معدود من جملة الظلمة الذين يأكلون أموال الناس بغير حق فوته رحمه به وبالإسلام فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كثرة رحمتهم لمن قدر الله تعالى عليه شيئا من المنكرات التى هى من علامات الساعة بالنص أو الكشف أكثر من رحمتهم لغيره لكن تكون الرحمة له باطنا ، ثم لابد من الانكار ظاهرا قياماً بواجب الشريعة ولأن لا يفتح باب الإحتجاج من الناس لأفعالهم المخالفة للشريعة ويقول : ايش كنت أنا هذا أمر أخبرنا الشارع أنه من علامات الساعة ؟ .

فيقل الندم والحزن من الناس علي العاصى فتنتهك الشريعة .

على أنه ما كل علامات الساعة مذمومة بل فيها ما هو مذموم ، ومنها ما ليس بمذموم .

فمن المذموم :

استغناء الرجال بالرجال والنساء بالنساء .

وانتساب الناس إلى غير مناسبهم وانتماؤهم إلى غير مواليهم .

وعدم توقير الصغير للكبير وعدم رحمة الكبير للصغير .

وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وتعلم الناس العلم ليجلبوا به الدراهم والدنانير أو ليجادلوا به العلماء ويماروا به السفهاء ويصرفوا به وجوه الناس إليهم .

وبيع الدين بالدنيا .

وقطيعة الرحم .

وبيع الحكم .

وأكل الربا .

وتطويل المنارات .

وتفضيض المصاحف .

وزخرفة المساجد .

وتشييد البناء .

واتباع اللهو وان يطيع الرجل زوجته ويعق أمه .

ومن العلامات التى ليست توصف بذم :

أن يكون المطر قيظا .

والولد غيظا .

والغنى غرا .

ويسود القبيلة فاسقها .

ويركب النساء السروج .

ويخرج الرجل من بيته فيقوم إليه من هو خير منه فتسلم عليه [1] انتهى .

---

(١) يقول ابن ماجه فى سننه : حدثنا محمود بن خالد الدمشقى حدثنا سليمان بن عبد الرحمن ، أبو أيوب ، عن ابن أبى مالك ، عن أبيه عن عطاء بن أبى رباح ، عن عبد الله بن عمر ، قال : أقبل علينا رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : يامعشر المهاجرين ، [خمس خصال إذا ابتليتم بهن ، وأعوذ بالله أن تدركوهن : لن تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون ، والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقضوا عهد الله ، وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم فاخذوا بعض مافى أيديهم وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويجهروا بما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم .

وروى الترمذى : حدثنا صالح بن عبد الله ، حدثنا الفرج بن فضالة السامى أبو فضالة عن يحى بن سعد عن محمد بن عمر بن على ، عن على بن أبى طالب قال : قال رسول الله ﷺ : إذا فعلت أمتى خمس عشرة خصلة حل فيها البلاء ، قيل وما هى يارسول الله ؟ قال : إذا كان المغنم دولا والأمانة مغنما ، والزكاة مغرماً ، وأطاع الرجل زوجته وعق أمه وبر صديقه ، وجفا أباه ، وارتفعت الأصوات فى المساجد ، وكان زعيم القوم أرذلهم ، وأكرم الرجل مخافة شره ، وشربت الخمر ، ولبس الحرير ، واتخذت القينات والمعازف ، ولعن آخر هذه الأمة أولها ، فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء ، أو خسفاً ، أو مسخاً .

وقد أفاض الإمام ابن كثير فى ذكر أشراط الساعة وغيرها من أمور يوم القيامة فى كتابه النهاية ، فاليرجع إليه من أراد التوسع فى ذلك الموضوع .

وكان سيدى إبراهيم المتبولى رحمه الله يقول لأصحابه :

من أدرك منكم النصف الثانى من القرن العاشر فلايتصدر لإزالة المنكرات إلا إن أعطاه الله تعالى الكشف الصحيح ، فيعرف المنكرات التى هى من علامات الساعة ، والمنكرات المعلقة على انكار من يريد ازالتها من العلماء والاكابر ، فإن رآها من علامات الساعة ، فليعلم انه مغلوب ولا يقدر على ردها ، فليخفف فى التعب فى طلبه ازالتها وإنما طلب إزالتها ظاهرا نصرة لجانب الشرع وان رآها ليست من علامات الساعة ، فليشدد فى إزالتها جهده بخلاف مارآه من علامات الساعة ، فإن المعارضة فى ذلك كالسعى فى خلف ماوعد به الصادق المصدوق انتهى .

فعلم أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب على الدوام إلى قيام الساعة بحسب القدرة عليه ، وإنما الكلام فى التشديد وعدمه .

وقد غلب أهل الباطل الآن على أهل الحق فى أكثر الأحكام وصارت المحرمات بالإجماع بين أظهرنا لايستطيع أحد إزالتها بل لو قدر أن أحداً قام فى إزالتها خرج الناس عليه ، حتى كأنه أتى منكرا لقلة من يرونه ينكر ذلك فى زمانهم وصدق رسول الله ﷺ فى قوله : « لاتقوم الساعة حتى تصير السنة بدعة » يعنى عند غالب الناس .

فإياك ياخى أن تبادر إلى تجريحك لعلماء عصرك فى عدم انكارهم المنكر وتقول : مابقى أحد يغار على دين الله تعالى بل يجب حملهم على العذر الصحيح ، وإن شككت فى قولى هذا فاجمع لك جماعة ، واذهب بهم إلى مواضع المكوس ، وامنع المكاسين أن يقبضوا المكس ، وتنظر ما يقع لك مع أن المكس محرم باجماع المسلمين ، وإن قال لك شخص : لاطاعة لمخلوق فى معصية الله تعالى إذا أمر بها فقل له : السلطان أتم نظرا منى ومنك فربما أخذ ذلك بوجه شرعى لانطلع نحن عليه يرجع نفعه على المسلمين عامة ، ومعلوم أن مثلك لايكون ناصحا لمثل مولانا السلطان إلا بعد تقديم مقدمات .

وما كل مايعلم من منكرات الشريعة يقدر الناس على إزالته إلا بتأييد من الله عزوجل والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : زيادة المحبة والتعظيم لكل من ينصحهم فى دينهم وزيادة البشاشة له دون العبوسة لألا يقطع عنهم النصح .

وقد نصحنى مرة شخص فأعطته جوختى وأظهرت له البشاشة ، فصار من أصحابى إلى الآن وقد كان متين بما ينصحنى فجزاه الله عنى خيرا ، فإن الناصح قد صار فى هذا الزمان أعز من الكبريت الأحمر .

وقد أقسمت بالله تعالى على جماعة كثيرة من أصحابى أن ينصحونى فلم يفعلوا وصاروا يحببون عنى ويغشونى ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فالله تعالى يغفر لهم ، ويكشف عنهم حجب الطبع حتى يشهدوا أن نصحهم خير لى [1] ، فيرضوا الحق تعالى عنهم ويرضونى عنهم والحمد لله رب العالمين .

---

[١] يقول السهروردى فى عوارق المعارف : سئل أبو حفص عن أدب الفقراء فى الصحبة ، فقال : حفظ حرمات المشايخ ، وحسن العشرة مع الإخوان ، والنصيحة للأصاغر وترك صحبة من ليس فى طبقتهم ، وملازمه الإيثار ، ومجانبة الإدخار ، والمعاونة فى أمر الدين والدنيا .

فمن أدبهم التغافل عن زلل الإخوان ، والنصح فيما يجب فيه النصيحة وكتم عيب صاحبه والإطلاعه على عيب يعلم منه .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : رحم الله أمرءاً أهدى إلى عيوبى .

وهذا فيه مصلحة كلية تكون للشخص ممن ينبهه على عيوبه .

قال جعفر بن برقان : قال لى ميمون بن مهران : قل لى فى وجهى ما أكره ، فان الرجل لاينصح أخاه حتى يقول له فى وجهه مايكرهه فان الصادق يحب من يصدقه ، والكاذب لايحب الناصح ، قال الله تعالى . « ولكن لا تحبون الناصحين » ، والنصيحة ما كانت فى السر .

ومن أخلاقهم : قيامهم بواجب حق والديهم

فلا يرفعون صوتهم عليهما ، ولا يبخلون عليهما بشيء يطلباه منهم .

وقد جاء الأمر ببر الوالدين والنهى عن عقوقهما ، ولم يخص الشارع ﷺ شيئا معينا من البر بل أوجب برهما مطلقا ، وحرم عقوقهما مطلقا [1] .

وتأمل ياأخي في السيد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام كيف نادى اباه بالابوة بقوله «ياأبت لاتعبد الشيطان» [2] دون أن يناديه بإسمه اجلالا له مع انه كان غير مؤمن،

---

(١) قال الله تعالى : [وأعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم] .

وقال تعالى : [ووصينا الإنسان بوالديه حسناً] .

وقال تعالى : [وقضى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب أرحمهما كما ربياني صغيراً] .

وقال تعالى : [ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن أشكر لي ولوالديك] .

وفي الحديث : عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : سألت النبي ﷺ : أي العمل أحب إلى الله تعالى ؟

قال : الصلاة على وقتها .

قلت : ثم أي ؟

قال : بر الوالدين .

قلت : ثم أي ؟

قال : الجهاد في سبيل الله) متفق عليه .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لايجزى ولد والداً إلا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه) رواه مسلم .

(٢) سورة مريم آية : ٤٤

فإذا كان من دعى اباه باسمه يكون عاقا فكيف بمن جفاه وبخل عليه بالنفقة وغيرها .

وسمعت سيدى علي الخواص رحمه الله يقول :

من أدب الولد مع والديه أن لايرفع صوته فوق صوتهما ، ولا يأكل معهما فى إناء إلا على وجه الايثار لهما على نفسه لأنهما أصل له ، وهو فرع منهما .

وقد كان عمر بن عبد العزيز لا يأكل مع والدته ، ويقول : أخاف أن تسبق عينها إلى رطبة أو عنبة ، فآكلها ولا اشعر انتهى .

وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم سؤالهم ربهم أن يعطيهم المنازل الرفيعة فى الجنة إلا بعد توطينهم نفوسهم على كثرة الصبر على البلايا والمحن فى هذه الدار

فإن حصول المنازل العالية لكل مؤمن مقرون بذلك .

ومن هنا كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أعلا الناس درجة فى الجنة لكونهم أشد الناس بلاء كما ورد .

فوطن نفسك ياخى على كثرة البلاء فى جسمك ومالك وولدك وعرضك ، ثم اطلب القرب من حضرة ربك (١) .

وقد ورد أن الله تعالى أوحى إلى السيد موسى عليه الصلاة والسلام لما دخل على مبتلى ، وقال : ياربِّ عافه من هذا البلاء ياموسى تسلنى . له العافية ، وقد سبق فى علمى أنه من أهل الجنة ، والجنة لاتنال إلا بالبلاء .

وقد بلغنا أن الله تعالى لما ابتلي عبده زكريا عليه الصلاة والسلام بالنشر أن تحت المنشار لما وصل إلى دماغه ، وقال : آه ، فأوحى الله إليه .

أما تقدم منك طلب القرب منى ؟

أما علمت أن أهل حضرتى أكثر الناس بلاء ؟

---

(١) عن أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : مايصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه) متفق عليه .

وسئل الجنيد عن الصبر ؟

فقال هو تجرع المرارة من غير تعبيس .

وقال ذو النون : الصبر : التباعد عن المخالفات ، والسكون عند تجرع غصص البلية ، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة .

وقال ابن عطاء : الصبر : الوقوف مع البلاء بحسن الأدب .

وقيل : هو الفناء فى البلوى بلا ظهور وشكوى .

أما علمت : أن من أسمائي الصبور ؟ لئن قلت آه مرة ثانية لأمحون اسمك من ديوان النبوه .

قلت : لا يصح سلب نبي من نبوته في الشريعة لعصمته ، فإن صح ذلك عن الله تعالى في حق نبي ، فهو من حضرة الإطلاق التي يفعل الله تعالى منها مايشاء والله سبحانه أعلم .

فانظر يا أخي كيف كلف تعالى نبيه بالصبر تحت المنشار ، وأوجب ذلك عليه لكون منزلته عنده عالية .

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام لصبر على جفا خلقي كما صبرت أنا على من يأكل رزقي ويعبد غيري ولم أعاجله بالعقوبة انتهى فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إكرام الخبز

ولا ينتظرون الادم بعد ماحضر الرغيف إلا لعذر ، ولذلك من إكرامه تقبيله ، ووضعه على العين ، ووضع السفرة تحته ، وعدم التساهل فى وضعه على الأرض أورميه بفناء جدران البيت فى الغبار .

وقد بلغنا أن رسول الله ﷺ دخل بيت عائشة رضى الله عنها فرأى كسرة يابسة ملقاة فى جانب الحائط ، وقد علاها الغبار ، فتقدم ﷺ إليها ، وأخذها ، ونفخها من الغبار ، ثم وضعها على عينيه وقال : « ياعائشة أحسنى مجاورة نعم الله تعالى فإن النعمة قل مانفرت عن أهل بيت فكادت ترجع إليها » انتهى .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

ماورد من النهى عن الأكل على الخوان كما تصنع الأعاجم محله ما إذا كان ذلك على وجه الكبر ، أما الأكل على خوان تعظيما لنعمة الله تعالى ، فذلك مطلوب ، فإن تعظيم نعمة الله تعالى من تعظيم أمر الله ، وماغلت الحبة ، وغيرها قط إلا باستهانة الناس بها على جارى عوايد الله تعالى فى تأديب عباده إذا خرجوا عن الأدب .

قال الله تعالى : « وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون[1] » .

فمن لم يرجع إلى الله تعالى بإحسانه رجع إليه بعقوبته وقد بسطنا الكلام على ذلك أواخر الباب الثانى عشر من المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة الأعراف آية : ١٦٨ .

ومن أخلاقهم : كراهتهم للاجتماع بالمريد الذى أخذ عن أحد من أقرانهم إلا لضرورة شرعية

خوفا عليه أن يتزلزل عن محبة شيخه بإحسانه إليه أو يحتقرهم ، ويعظم شيخه ، فيمقت لاحتقاره لهم أو يعظمهم على شيخه فيخون عهده .

وما للمريد فى زيارة غير شيخه فائدة مادام متقيدا على شيخه ، فإن خرج من تحت طاعته لعذر شرعى ، فلا بأس باجتماعه على غيره بل قد يجب ذلك ليربيه ، ومعلوم أن التربية من الأغراض الصحيحة كما بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب قواعد الصوفيه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : ان أحدهم لايقول لأخيه أنى أحبك إلا بعد أن تسمح
نفسه بمقاسمته في ماله وحسناته لأن لا يكذب

وقد صار هذا الخلق اليوم نادرا فى فقرا العصر ، ولا أعلم الآن من تحقق به فى مصر من أقرانى إلا سبعة أنفس وقد امتحنتهم ، فوجدتهم محبين لى بحيث لو طلبت منهم مالهم كله لأعطوه لى بطيبة نفس ، فرضى الله عنهم .

وقد امتحنت شخصا ادعى محبتى وله نحو سبعين نصفا كل يوم .

وقلت له : رتب لى كل يوم نصفا منها .

فقال : لاتطيب نفسى بذلك ، فاصبر حتى أجدنية صالحة ، فله الآن نحو عشرين سنة ماوجدنية صالحة ، فالله تعالى يغفر لنا وله آمين .

فاصحب ياخى الناس فى هذا الزمان ولا نطالبهم بالحقائق إلا إن كنت متخلقا بما تدعوهم إليه فتعطيهم أنت الآخر مامعك إذا احتاجوا إليه ، وإن كان ذلك نازلا عن اخلاق القوم من حيث أنه متاجرة لأجل أعمالك الصالحة فى الدارين .

وان كنت متجردا عن المال فامتحن نفسك باعطائهم دارك أو خلوتك أووظيفتك أوجوختك أوعمامتك إذا كانوا أحوج إليها منك أو نحو ذلك من اسبابك[1] والحمد لله رب العالمين .

---

(١) يقول الإمام السهروردى فى عوارف المعارف : ومن أدبهم أن لايرون لنفسهم ملكا يختصون به .

قال إبراهيم بن شيبان : كنا لانصحب من يقول نعلى .

وكان من أخلاق السلف : أن كل من احتاج إلى شيء من مال أخيه استعمله من غير مؤامرة . قال الله تعالى : (وأمرهم شورى بينهم) أى مشاع هم فيه سواء .

ومن أخلاقهم : محبتهم لنسائهم محبة أخوة فى الإسلام

كغيرهن لا محبة طبع ، فكلما ازدادت زوجتهم من الأعمال الصالحة كلما زادوا فى محبتها ، وكلما نقصت من الأعمال الصالحة كلما كرهوها ، وإن كانت مطاوعة له فى جميع ما يأمرونها به من أمر الفراش ، والرضى بالقليل فى المطعم والملبس كل ذلك ايثارا لجناب الحق على جناب حظوظهم .

وقد كانت رابعة العدوية تقول لزوجها :

لا تظن انى أحبك محبة الازواج إنما أحبك محبة الاخوة فى الإسلام رضى الله عنها .

فعلم أن المرأة التاركة للصلاة يجب بغضها فى الله عز وجل لأنها تركت عماد الدين كله ، وهذا الخلق قل من يتخلق به الآن من الاقران بل بعضهم لم يزل يتزوج ويطلق كلما قالوا له : أن فلانة امرأة جميلة سمينة لها مال وجهاز مع انه يدعى الصلاح .

وسيأتى فى هذا الكتاب عن سيدى عبد الله المنوفى شيخ الشيخ خليل صاحب المختصر فى مذهب المالكية رضى الله عنهما انه كان متزوجاً جارية نوبية كبيرة الأنف والشفتين والقورة والاسنان سائلة المخاط ، وكان يقدم لها نعلها ، ويقول لها : اجعلينى فى حل فإنى ما كنت أصلح لمثلك ، حتى قال بعض الطلبة يوما : والله ان نفوسنا تتكلف لرؤيتها فكيف تقيم أنت معها وتضاجعها ؟ فقال : والله يا أولادى ان أهوال يوم القيامة ما تركت فى بقية لشىء من شهوات الدنيا انتهى . هكذا درج الأشياخ رضى الله عنهم .

وكان سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يقول :

المرأة الحسناء تصيبك فى باطنك والشوهاء تصيبك فى ظاهرك ، ومايصيبك فى ظاهرك أهون مما يصيبك فى باطنك الذى هو محل نظر الحق تعالى إليك انتهى .

فعليك يا أخى بالمجاهدة والرياضة لنفسك إن طلبت ن تحب زوجتك لأجل دينها لا لأجل الإستمتاع بها ، وإلا فأنت بعيد عن هذا المقام ، وبالجملة فإذا كان بعض الفقرا فى هذا الزمان قد غرقوا فى شهوات بطونهم وفروجهم فما بالك بغيرهم ، فالله يلطف بنا وبكل غافل عن آخرته وربه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم مبادرتهم لصحبة أحد إلا بعد امتحانه فى أمور
دينه لأن من لاينفع نفسه لاينفع غيره

اللهم إلا أن يريد أن يتلمذلهم ليربوه فلا بأس بذلك من غير امتحان فكلامنا إنما هو فى أصحاب الأنفس الردية الذين لايصحبهم أحد من الفقراء فى بلدهم .

وفى كلام الشيخ تاج الدين بن عطاالله : لأن تصحب جاهلا لايرضى عن نفسه خيرلك من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه .

وقد خالف هذا الخلق أقوام وبادروا إلى صحبة الناس من غير تجربة ثم تقاطعوا بعد ذلك وصار كل واحد منهم يحكى عن صاحبه ماهو أهله .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

من صحب الأخرق فلا يلومن إلا نفسه فربما أراد نفع صاحبه نضره أو قتله كما حكى ان شخصا نحالا صحب اخرق ، فكان الذباب يعف على وجه النحال فرآه يوما ، وقد نام وعف الذباب على وجهه ، فقال الاخرق : ان نشيته عنه عاد إليه ثانيا ، ولكن اقتل الذباب خير له من نشيله ، فحمل حجرا عظيما وألقاه على وجه النحال ليقتل الذباب ، فرضح رأسه ، فمات ، وطار الذباب يمينا وشمالا لم يصب الحجر منه شيئا فالعاقل من اعتبر والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : ادمان إمساك السبحة للتسبيح عليها

وإن كانت قلوبهم صارت ذاكرة لاتغفل عن الله تعالى كما مراقتداء بالسلف الصالح في ذلك .

وقد أنكر شخص على بعض الفقراء تسبيحه على السبحة ، وقال : هذا بدعة فصنف الجلال السيوطي في ذلك مؤلفا ذكر فيه أن أول من أحدث المسبحة التي هي الخرز الحسن البصري ، ثم تداولها أشياخ الطريق بعده إلى عصرنا هذا من غير نكير فيما بينهم ، وانها نظير ماورد في التسبيح على الحصا وعقد الأصابع .

وكان الحسن البصري ، والجنيد ، وغيرهما إذا قيل لهم : مثلكم لايحتاج إلى سبحة يقولون : شيء استعملناه في بداية أمرنا لانتركه في نهاية أمرنا ، وفي رواية عن الجنيد : شيء دخلت به إلى حضرة ربي لا أتركه .

وكان يقول : أحب أن أذكر الله تعالى بقلبي ويدي وسبحتي ولساني انتهى .

وبالجملة فالانكار على مثل من يسبح على سبحة كالتنطع في الدين ، ولاينبغي التشديد في الانكار إلا على شيء يهدم أركان الشريعة ، وكل مريد طالب شيخه بالدليل على كل شيء أمره به شيخه أو على كل شيء رآه ، يفعله فانه خير كثير فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين .

ولو شهدوا في نفوسهم انهم أفسق الناس لأنهم عبيد ، والعبد لابرأح له عن باب سيده ، ولاغنى له عنه في وقت من الأوقات في الدنيا والآخرة ، وهو تعالى يحب من عبيده اظهار الفاقة والحاجة له[1] .

وإنما كان بعض العارفين يتوقف عن الدعاء للناس ، حتى يتوب من كل ذنب فعله ، ثم بعد ذلك يدعوا احتياطاً للسائل الذى سأله أن يدعوا له ، حتى يجاب دعاؤه بسرعة ، وإلا فالدعاء مطلوب منا في كل وقت وحال .

وبلغنا عن سفيان بن عيينه انه كان يقول :

لايمنع أحدكم من الدعاء مايعلمه من نفسه ، فإن الله تعالى أكرم الأكرمين ، وقد أجاب سؤال شر الخلق أجمعين ، وهو ابليس فأنظره إلى يوم الدين اجابة لسؤاله مع انه أبغض الخلق إليه تعالى :

وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب المنن والحمد لله رب العالمين .

---

(١) يقول الله تعالى : (أدعوا ربكم تضرعا وخفية) .
وقال عز وجل (وقال ربكم أدعونى أستجب لكم) .
وفى الحديث : عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « الدعاء مخ العبادة » .
يقول الإمام القشيرى : والدعاء مفتاح الحاجة ، وهو مستروح أصحاب الفاقات ، وملجأ المضطرين ، ومتنفس ذوى المآرب ، وقد ذم الله سبحانه وتعالى قوما تركوا الدعاء فقال : (ويقبضون أيديهم) قيل ، لايمدونها إلينا في السؤال .
وقال سهل بن عبد الله : خلق الله تعالى الخلق وقال : ناجونى ، فإن لم تفعلوا فانظروا إلى ، فإن لم تفعلوا فاسمعوا منى ، فإن لم تفعلوا فكونوا ببابى ، فإن لم تفعلوا فأنزلوا حاجاتكم بى .
وقال الأستاذ أبا على الدقاق : قال سهل بن عبد الله : أقرب الدعاء إلى الإجابة دعاء الحال ودعاء الحال : أن يكون صاحبه مضطراً لابد له مما يدعو لأجله .

وإن لم يعملوا بما علموا من حيث كونهم حملة شريعة سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ، وأمناؤه على شرعه كما مر وقد أمرنا بمحبتهم، ونهينا عن بغضهم إلا بطريق شرعي .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

من أبغض عالما فقد أبغض من يحبه رسول الله ﷺ، ومن أشد مكايد الشيطان بالعامة أن يبغضهم فى علمائهم، فلا يصير أحدهم يسمع شيئا مما معهم من العلم، حتى يضلوا، ومن هنا حط الصوفية على فقرا المطاوعة أشد الحط لكونهم يبغضون العلماء وليس مع أحد منهم كتاب ولا سنة يستضيء به فى ظلمات الجهل وصنفوا فيهم مصنفات، وأقاموا على إبطال طريقهم البراهين نصيحة لهم والحمد لله رب العالمين .

وهم فى الباطن على خلاف ذلك ، وما دام لهم سريرة يفتضحون بها فى الدنيا والآخرة لو انكشفت فاللائق بهم كثرة الإستغفار ، والخوف لتلبيسهم على الناس ، فإذا تخلقوا بما ظنه الناس فيهم كان لهم حكم آخر

فإن من شرط الكامل أن يشهد كماله ونقصه معاً ليعطى كلا منهما حقه من الشكر والإستغفار ، وما دام ناقصا ، فهو تحت حكم ما شهده من نقص أو كمال فى حالتين مختلفتين لأنه صاحب عين واحدة بخلاف الكامل فإنه صاحب عينين أو أعين لا تزاحم عين صاحبتها .

وقد كان عتبة بن غزوان الصحابى رضى الله عنه يقول :

أعوذ بالله تعالى أن أكون فى نفسى عظيما وعند الله تعالى صغيرا انتهى

ثم إن هذا الخلق قليل من يتحقق به والغالب فى الناس محبتهم لكثرة اعتقاد الناس فيهم فوق ما يستحقونه ، ولا يكاد أحدهم يستغفر من ذلك فليتنبه الصادق لما قلناه من التفصيل والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم أكلهم من المال المشترك إذ أتاهم به أحد الشريكين قبل القسمة وقبل القرعة

سواء كان ذلك فى البقول أو الثمار كالكراث والجزر والقمح والفول الأخضر مثلا ، والقصب الذى يعصر منه العسل ولا يكفى المتورع أن يأكل مما أتى به الشريك إليه وقال : كل على ذمتى ، فانى جملت له نظيره ، فإن ذلك لا ينضبط بالحرص والتقدير عادة

وقد أرسل لى صاحبنا سيدى محمد بن الموفق قصبا نحو مائة وخمسين عودا وقال : مصوا هذا فانى عددت لشريكى مثلها ، فلم أمص منه شيئا لأن الأعواد لا تنضبط بالعدد لإختلافها فى الطول والغلظ والحلاوة وغير ذلك ، فلو أنه قسمة بالقرعة الصحيحة لربما كنت أكلت منه .

فاياك ياخى والأكل من الأمور المشتركة كالفول الأخضر والفريك ونحو ذلك إلا بإذن الشريكين ، فإنها من قسم الشبهات والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم وقوعهم فى خديعة أوغدر لأحد إلا بطريق شرعى

فان ذلك معدود من البغى ، وهو يعود على صاحبه ، ويتوارثه ذريته من بعده ، ويعاقبون عليه إلى سابع ولد كما جرب ذلك .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

من غدر صاحبه كان الكلب أشرف همة منه لأنه لايغدر صاحبه ، ، ولا من أحسن إليه يوما من الدهر ، فإياكم والغدر فانه يتفرع منه المكر والبغى والخديعة ويحرم صاحبه فوايد الدنيا والآخرة إذا عرف بذلك بين الناس والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أن لايبادروا إلى الانكار على من رأوه يأخذ مال الولاة
ويفرقها على الناس إلا أن علموا أنه لا كشف عنده

يعرف به من له رزق فى تلك الدراهم أو ذلك الطعام ، فإن علموا أنه من أهل ذلك الكشف ، فليس لهم الإعتراض عليه لأنه إنما يأخذ ذلك المال ليوصله إلى أربابه الذين ظلمهم ذلك الظالم ، فهو كالذى يسعى على الأرامل والأيتام ، وينفق عليهم من كسبه على حد سواء وان تفاوت التعب ، فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم ان لايتخذوا من النقباء إلا من يكون أمينا عفيفا لايسرق ولايخون ولا يفضل نفسه على اخوانه ولوسرا .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

الخيانة والسرقة امران مهلكان .

قال : والفرق بينهما ان السارق هو من يسرق مالم يؤتمن عليه والخائن من سرق ما أيتمن عليه ، وقد جعل رسول الله ﷺ الخيانة من علامة النفاق ، والمنافق لايفلح يقينا .

قال : وقد أوحى الله تعالى إلى السيد موسى عليه الصلاة والسلام احذر من الأمين ولاتأمن الخائن فإن القلوب بيد غيرك انتهى .

وكان سيدى إبراهيم المتبولى رحمه الله يقول :

الخيانة تذهب البركة كما يذهب الحرام كثيرا من الحلال ، ومن خان فى درهم أو لقمة جره ذلك إلى الخيانة فى ألف ، وكذلك القول فى السرقة ، وماوجدنا قط سارقا ولاخائنا إلا وهو قصير الذيل والبركة ممحوقة من يده ودينه وماله انتهى .

وقد أقمت أنا نقيبا فى الزاوية على الفقرا ، فأحتاج إلى شىء من العسل ، فقلت له : خذ حاجتك . وأخذ بقدر نصيب عشرة أنفس من الفقرا ، فعلمت انه قليل الدين ، فمن ذلك اليوم عزلته ولم أستأمنه ، وعلمت أن النقيب الأمين قل وجوده ، وما بقى إلا النقباء المتفاوتون فى الخيانة ، فالشيخ يستعمل أقلهم خيانة عند الحاجة إليه والفقرا وليهم الله تعالى وكل من خانهم محق الله تعالى البركة من دينه وعمره وساير مايتقلب فيه .

وقد كان الأشياخ المتقدمون لا يجعلون نقيبا إلا من علموا أنه يخشى الله تعالى بالغيب بأن يكون ثانى مرتبة للشيخ فى العلم والأدب ، وهذا أمر قد تورع منه ما بقيت الدنيا بل ربما كان الشيخ الآخر ممن يخون الفقرا ويأخذ لنفسه ما جاء على إسمهم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ومن أخلاقهم : شدة تفتيشهم على كل لقمة تدخل جوفهم

لا سيما فى رمضان ، فلايأكلون إلا الحلال وإن لم يجدوه طووا ، حتى يحصل لهم الاضطرار قبل أكلها كما تقدم بسطه فى الكتاب مرارا ، وتقدم أن أوائله بأن تصير الأمعاء تلذغ بعضها بعضا .

وهذا الخلق قل من يعمل به فى هذا الزمان ولذلك كان سيدى على الخواص رحمه الله تعالى لا يأكل قط من طعام مشايخ الزوايا ويقول :

إنه أخبث الطعام لكونهم يقبلون هدايا من الظلمة والعمال ومن لا يتورع من المباشرين والتجار .

ويقول : إذا كان الفضيل بن عياض يقول :

أن من يأكل الحلال بدينه أقبح ممن يأكل الحرام بالطبل والمزمار .

فكيف بمن ليس له كثير من العبادة والنسك لينصب به على الناس بل قنع بلبس الزى وصار كالتمساح نسأل الله العافية .

وقد أوحى الله تعالى إلى السيد موسى عليه الصلاة والسلام يا موسى : إن أردت أن تجاب دعوتك فصن بطنك عن الحرام وجوارحك عن الآثام .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يأمر أمرأة بالغسل من بول صبي الذى لم يأكل غير اللبن ويقول :

إن غالب طعام أمه حرام لأن زوجها مكاس

فقلت له : إن الشارع أطلق الرش من بوله

فقال : صحيح ولكن هذا من الورع .

وسمعته مرة أخرى يقول :

من أكل الحرام ، وأطال فى العبادة ، وقيام الليل ، فهو كالحمام الذى رقد على بيض فاسد ، فهو يتعب نفسه فى طول المقام عليه ثم لا يفرخ شيئا بل يخرج كله مذرا .

وكان الإمام سفيان الثورى رحمه الله يقول : كنت وأنا آكل الحلال أقرأ الآية من القرآن العظيم فيفتح على منها سبعون بابا من العلم ، فلما أكلت من طعام من لا يتورع صرت إكرر الآية زمانا ، فلا يفتح لى منها باب واحد من العلم إنتهى .

فإياك يا أخى والأكل من الشبهات ثم إياك[1] والحمد لله رب العالمين .

---

(١) وفى الحديث : عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » متفق عليه .

وعن أنس رضى الله عنه : أن النبى ﷺ وجد تمرة فى الطريق فقال : (لولا أنى أخاف أن تكون من الصدقة لأكلتها) متفق عليه .

ومن أخلاقهم : إذا صار أحدهم موردا للأمراء والأكابر
أن لا يمدح أحدا منهم بحضرة عدوه

وإنما اللائق أن يذكر عنه أنه يحبه بقصد التأليف بينهما حسب الطاقة .

وقد اخل بهذا الخلق جماعة من الساذجين ، فمدحوا العدو عند عدوه ، ونقلوا ماقاله هذا فى حق هذا فارموا بينهم ، فاشتدت العداوة أكثر مما كان يفعله الفسقة بينهم ، وذلك لأن كل واحد منهم يقول : سيدى الشيخ لايكذب ، وحاشاه أن ينقل باطلا وما دروا أن الشيخ صار فاسقا بذلك ، فلا يقبل قوله ، فليتنبه الفقير لمثل ذلك فى هذا الزمان وليعف عما بأيدى الولاة جهده ، فإنه لا يوقعه فى ذم أحد أو مدحه إلا الطمع والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : اقامة العذر باطنا للأمير الذى يتولى ولاية
كان عاهدهم انه يعدل فيها إذا وليها

ولا يطالبونه بالوفا بما كان قد عاهدهم عليه إلا أن وجدوا له قدرة شرعية على ذلك ، فإن المعزول إنما يتكلم بلسان عزله ، وانكساره ، فإذا تولى تكلم بلسان العز والاستكبار ، ومن هنا قال الإمام الشافعى رضى الله عنه : إذا ولى أخوك ولاية فارض منه بعشر الود الذى كان يودك به قبل ولايته .

وقد تقدم أن مقام الوفا بالعهد إنما يكون للأنبياء وكمل ورثتهم ، وأما غيرهم فقد فقد يعاهد ربه عزوجل على شيء ولا يوفى به فضلا عن عباده .

قال الله تعالى « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ، فلما آتاهم من فضله بخلوا به ، وتولوا وهم معرضون[1] » إلى آخر النسق .

وقد قالوا : بين التحقيق والفرض والتقدير كما بين السماء والأرض .

فاعذر ياخى كل من تولى ولاية فى هذا الزمان من أصحابك فى عدم اقامة العدل والمعروف فيها بطريقه الشرعى ، ولا تطلب منه الاستقامة بالكلية فإن ذلك لا يتيسر لأكابر الناس فضلا عن غيرهم والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة التوبة آية : ٧٥ .

ومن أخلاقهم أن يعظوا كل أمير دخلوا عليه لحاجة

بقصد نفعه بذلك لكن بشرط أن يغلب على ظنهم عمله بما وعظوه به ، فإن لم يغلب علي ظنهم ذلك قضوا حاجتهم منه سرعة ، وخرجوا منكرين عليه بقلوبهم .

وقد كان السلف الصالح يستغنمون النصيحة لكل أمير دخلوا عليه لينفعوه وينفعوا ، وهذا أمر قد صار كالمحال وقوعه من فقرا هذا الزمان لأمور يطول شرحها أقلها محبة الدنيا ، فقل فقير يدخل على أمير فيه الصدقة والخير إلا ويخطر فى باله أن ذلك الأمير يرتب له شيئا من الجوالى أو الهدايا مثل مارتب لغيره من الاقران ، ومن يطلب مثل ذلك ، فليس له قوة يعظ بها ذلك الأمير لأن من طمع فى تحصيل شيء ذل ومن ذل لايقدر على التغليظ على من يريد تحصيل ذلك الشي منه .

وقد بلغنا ان عبد الملك بن مروان خطب يوما بالكوفة فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال .

أيها الناس اسمعوا ماأعظكم به ، فقام إليه رجل ، فقال : والله لانسمع لك حتى تقضي لهذا الرجل بالحق فإن الناس قالوا له : مايخلص لك ظلامتك إلا فلان فجيت به إليك لأنظر عدلك الذى كنت تعدنا به قبل ولاينك هذه الخبيثة ، فطال بينه وبينه الكلام ، ثم قال الرجل .

ياأمير المؤمنين انكم تأمرون ولاتأتمرون ، وتنهون ولاتنتهون ، وتعظون ولاتتعظون ، افنقتدى بسيرتكم فى أنفسكم أم نطيع أمركم بألسنتكم ، فإن قلتم أطيعوا أمرنا واقبلوا نصحنا فكيف ينصح غيره من غش نفسه وان قلتم خذوا الحكمة واقبلوا العظة ، ولاتلتفتوا لحالنا ، فعلام قلدنا كم أزمة أمورنا ، وحكمنا كم فى دمائنا وأموالنا ، فإن كانت الإمامة قد عجزت عن اقامة العدل فيها ، فخلوا سبيلها وإلا فإن بقيت فى يدكم عاماً لخربت البلاد ، واضمحلت الحقوق .

فنزل عبد الملك من على المنبر وقال :

أن مثلى لايصلح خطيبا لكم ، وصار يبكى حتى كاد وقت الجمعة أن يخرج ، ثم صعد المنبر ، فخطب .

فإن وجدت ياخى أميرا يسمع من وعظك ، فعظه وإلا فلا حرج عليك فى السكوت ، وقد وجدت العلامات التى وقت الشارع ﷺ الأمر بالمعروف إليها بقوله لحذيفة رضى الله عنه : « مر بالمعروف وانه عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحا مطاعا ، وهوى متبعا ، ودنيا مؤثرة واعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك بخويصة نفسك ودع عنك أمر العامة » .

وقد وجدت جميع هذه العلامات كما هو مشاهد .

فإن رأيت ياأخى أحدا من العلماء يدخل على الأمراء ولايعظهم ، فاحمله على العجز اذظنه أن الوعظ لايؤثر فيه وان كان ذلك خلاف ماعليه الجمهور والحمدلله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كثرة تبجيلهم وتعظيمهم لمن لاث الناس بعرضه من فقرا العصر

إذا كان على قدم الاستقامة فى العلم والعمل ، ويجعلون تلك الاشاعة عنه لاحقيقة لها ، وإنما أشاعها عنه الأعداء والحاسدون لاسيما إن رأيناه صابرا على تحمل الأذى ، ولا يقابل أحدا بسوء ، فإنه يتعين علينا إجلاله وتعظيمه لأنه علي قدم العلماء العاملين فى تحمل الأذى .

وهذا الخلق قدعز وجوده فى غالب الفقرا اليوم وصاروا يقبلون الاشاعة بالنقص عن الإنسان بمجرد الاشاعة من غير تثبت حتى قل انتفاعهم بأهل عصرهم ، فإنه مامن أحد إلا وله محب ومبغض .

فعلم أن من دين الإنسان إذا سمع الاشاعة عن أحد بسوء العقيدة أو غير ذلك من النقائص أن يجتمع به ، وينظر حاله ، فإن رآه كما أشيع عنه نصحه وان رآه بضد ذلك اتخذه صاحباً وأحبه ، وقد أطلق صلى الله عليه وسلم الحديث فى قوله : « أشد الناس بلاء الانبياء ثم الأمثل فالأمثل » ولم يفصل ، فشمل بلاء الأبدان وبلاء الاعراض إذا صبر العبد على ذلك .

فاياك ياخى ثم ايك أن تسمع كلمة عن فقير من بعض أعدائه فتشيعها عنه ، فتقع فى الغيبة والنميمة والكذب [1] .

---

(١) وفى الحديث : عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رجلا قام وهو مع رسول الله ﷺ : قبل ذلك ، جالس ، فقال بعض القوم : ما أعجز فلان ! !

فقال ﷺ : أكلتم أخاكم واغتبتموه .

وفى الرسالة القشيرية : أوحى الله إلى موسى عليه السلام : (من مات تائباً من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة ، ومن مات مصراً عليها فهو أول من يدخل النار) .

فى التوراة مانصح عالم أهله وجيرانه وبالغ فى نصحهم إلا رموه بالعظايم انتهى .

عليه يحمل حديث : « أشد الناس عداوة للعالم أهله وجيرانه » لـكن يستثنى من ذلك من كان كامل السياسة للخلق من الأولياء فإنه يبالغ فى نصح أهله وجيرانه ومع ذلك فهم يحبونه فافهم والحمد لله رب العالمين .

ولا يستبعدون حصول الثواب الجزيل فى العمل القليل فى التعب لأن مقادير الثواب لاتدرك بالقياس .

وقد قدمنا فى هذا الكتاب أن من عقل العاقل إذا ضاق عمره أو وقته فى قيام الليل مثلا أن يقرأ بالآيات والسور التى ورد التفضيل فيها على غيرها ولا يقول أن القرآن كلام الله تعالى فلا يصح التفاضل فيه لرجوعه إلى ذات واحدة فإن ذلك يرد الأحاديث.

وقد كان سيدى على الخواص إذا ضاق وقت التهجد عليه وخاف من طلوع الفجر يصير يقرأ الفاتحة ، وآية الكرسى فى كل ركعة ، وتارة يقرأ سورة الاخلاص ثلاث مرات ، وتارة يقرأ أواخر سورة الحشر لما ورد أنها تعدل الف آية ، وكذلك آية الكرسى وأما سورة الاخلاص فورد أنها تعدل ثلث القرآن .

قال بعض العارفين : أى تعدل ثلثه أى لو فرق أثلاثا ، وكذلك الحكم فى ماورد أنه يعدل ربع القرآن أو نصفه أى لو قسم أرباعا أو أنصافا فاعلم ذلك واعمل عليه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم ظنهم أن اعمالهم ولو كثرت تحمى أحدهم من وقوع العذاب به فى ساعة من ليل أو نهار

كما كانت أعمال الناس فى الزمن الماضى ، فإن العزم قد ضعف عما كان عليه الناس فى الزمن الماضى ، وصارت أعمال النـاس كالجبال فى الصورة ، وفى المعنى كالهباء لقلة الاخلاص فيها .

وسمعت أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله يقول :

من كشف حجابه فى هذا الزمان رأى نفسه تستحق الخسف بهـا حال طاعاته لمـا يخطر على قلبه من الفواحش بين يدى الله عز وجل ، ولولا رحمة الله تعـالى بالعبد لأهلـكه لقلة أدبه فى طاعاته فضلا عن معاصيه .

قال : وقد كنت وأنا صغير إذا عملت طاعة أحس بالحماية لى من الآفات من الجمعة إلى الجمعة ، فصرت اليوم أخاف من وقوع العذاب على حال فعلى للطاعة .

وقد كان سيدى عبد العزيز الديرينى رضى الله عنه يقول :

الناس ينتظرون بطاعاتهم المغفرة ورفع الدرجات فى الجنة وانا أنتظر أن تمطر السماء على حجارة من قلة أدبى فى تلك الطاعة .

فاعلم ذلك وأكثر من الطاعات ولا ترى أنهـا أهـل لأن تقبل منـك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كثرة الصلاة والتسليم على سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم

حتى لا يكاد أحدهم يمل من ذلك فى ليل أو نهار[1] لأنه صلى الله عليه وسلم هو المشرع لهم كل خير عملوه ، فله صلى الله عليه وسلم عين أجر جميع أعمال أمته ومن شح منهم بعين أجر عمله على نبيه كان لنبيه مثل أجره لا عينه ، وذلك معدود من سوء الأدب عند أهل الأدب .

---

(١) يقول الله تعالى : (إن الله وملائكته يصلون على النبي ، يا أيها الذين ءامنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (من صلى على صلاة ، صلى الله عليه بها عشرا) .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم على صلاة) .

وعن على رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ ، (البخيل من ذكرت عنده فلم يصل على) .

وعن أبى بن كعب رضى الله عنه قال ، كان رسول ا ﷺ إذا ذهب ربع الليل قام فقال ، يا أيها الناس ، أذكروا الله ، أذكروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه ، جاء الموت بما فيه) .

قال أبى بن كعب ،

فقلت : يارسول الله : إنى أكثر الصلاة فكم أجعل لك من صلاتى ؟

قال : ماشئت .

قال : قلت : الربع ؟

قال : ماشئت ، وإن زدت فهو خير لك .

قال : فقلت فالثلث ؟

قال : ماشئت فإن زدت فهو خير لك .

قال : قلت النصف ؟

وقد قدمنا أن من أدب الفقير أن يجعل ثواب جميع أعماله لنبيه ﷺ بانشراح صدر وينوى بذلك القربة من الله تعالى وأن من أدبه أن يفتتح العمل على اسم سيدنا رسول الله ﷺ من حيث الأجر الحاصل من تلك العبادة لا على اسم نفسه هو عملا بحديث « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده وأهله والناس أجمعين » .

ولولا أنه ﷺ دلنا على الأعمال الصالحة ما اهتدى أحدنا لفعلها بل ولا عرف أنه تعالى أمره بها فضلا عن معرفة كيفيتها ، فجعل أحدنا ثواب أعماله لنبيه ﷺ بالإجابة من بعض حقه الواجب علينا ، ولا يجوز لأحدنا أن يرى له فضلا بذلك على نبيه ﷺ فافهم فإن هذا يقع فيه خلق كثير ، فيصيرون يرون لهم اليد عند سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ بذلك ، وإن دفعوه عنهم عند خطوره .

وقد روى الطبرانى أن رسول الله ﷺ قال :

أريت حمزة وجعفرا وكان بين أيديهما طبقا كاه نبق كالزبرجد يأكلان منه .

فقلت لهما : ماوجدتما أفضل الأعمال والأقوال .

فقالا : لا إله إلا الله .

قلت : ثم ماذا ؟ .

قالا : الصلاة عليك يارسول الله .

قلت : ثم ماذا ؟.

قال ، ماشئت ، وإن زدت فهو خير لك .

قال : قلت : أجعل لك صلاتى كلها ؟

قال ، إذاً يكفى همك ، ويغفر لك ذنبك .

أما الصيغة التى كان يرددها سيدى إبراهيم المتبولى فهى : (اللهم إنى أسألك بك أن تصلى وتسلم على سيدنا محمد وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وعلى آلهم وصحبهم أجمعين ، وأن تغفر لى مامضى وتحفظنى فيما بقى) .

قالا : حب أبي بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما . ذكره ابن فرحون المالكى .

وقد من الله تعالى بذلك على من صغرى إلى الآن فليس عمل أحب إلى قلبي من ذكر الله تعالى والصلاة على سيدى رسول الله ﷺ ، وحب الإمامين أبي بكر وعمر والصحابة اجمعين ، فنسأل الله تعالى الدوام على ذلك إلى الممات .

وقد كان سيدى أحمد بن الرفاعى رضى الله تعالى عنه يكثر الصلاة على سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ ، ويحث أصحابه على الإكثار منها ، ويقول :

بلغنا انها تجيز صاحبها على الصراط بسرعة .

وقد حدث قوم فى هذا الزمان يدعون طريق الفقر ويثقل عليهم الصلاة على رسول الله ﷺ وربما حضر أحدهم مجلسنا فيصير ساكتا ، ويقول : هذه ليست من طريق شيخنا، وفى ذلك توبيخ لشيخه وشهادة عليه بأنه كان لايكثر من الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك من علامة النفاق كما ورد فكأنه يقول إن شيخى كان منافقا .

فليحذر الفقير من مثل ذلك وليصل على سيد الخلق على الاطلاق ﷺ قايما وقاعدا ومضطجعا . وإن لم يكن ذلك من طريقة شيخه .

وقد سمعت سيدى محمد السروى رحمه الله يقول :

ثم فى الفقرا من هو أكثر أعمالا من الشيخ نور الدين الشونى ولكنه فاق أقرانه باستناده إلى سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ فأكرم كما يكرم الناس غلام الأمير تبعا للأمير انتهى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم محبتهم لتحصيل مطابقة ما يرونه في النوم لما أخبر به رسول الله ﷺ من المغيبات

كعذاب القبر ، وأهوال يوم القيامة ، بحيث يصير ذلك عندهم كأنه رأى عين وذلك لأن الإيمان الذوقى لا ينحجب عن صاحبه ، وإذا انحجب عن الإنسان إيمانه ، فربما وقع فى الذنوب العظام

وفى الصحيح : « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا[1] » الحديث فذكر الرضا الذى هو من أعمال القلوب دون القول فافهم .

وفى القرآن العظيم : « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد[2] منه » .

وهذا الخلق قد صار عزيزا فى هذا الزمان وما كان غالب الناس إلا حوسبوا ، وفرغوا من الحساب لكون إيمانهم غير ذوقى فالحمد لله الذى من علينا بالإيمان الذوقى والحمد لله رب العالمين .

---

(١) وتمام الحديث (ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا) رواه أحمد فى مسنده ومسلم فى صحيحه والترمذى فى سننه كلهم عن العباس بن عبد المطلب .

(٢) سورة هود آية : ٢٨ .

ومن أخلاقهم : مجاهدة نفوسهم بالجوع والسهر المفرطين

واتعابها فى الأعمال الشاقة فى بداية أمرهم بطريقه الشرعى ،

ثم إذا بلغوا النهاية المعروفة بين القوم ، فمن الأدب مع الله تعالى الشفقة عليها ، والرحمة لها ، وإطعامها الطعام اللذيذ ، وتنويمها على الفرش ، وعدم تعاطى الأعمال الشاقة إكراما لها من حيث انها بلية الله تعالى وأمته وعبده وكأنه جردها عنه ، وجعلها كالجارله ، وهو غيرها كما هو مقرر فى علم المعانى والبيان ، وإلا فهو واحد فى نفس الأمر كما يقول الإنسان قالت لى نفسى : كذا فقلت لها : لا وهى القائلة افعل أولا تفعل لاغيرها.

وقد سمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

إنما سوح المريد بمجاهدة نفسه لكونه يرى نفسه لنفسه ، ثم إذا بلغ مقام الكمال شهد نفسه ملكا لربه ، وقد وصاه الله تعالى عليها بقوله تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » ونهاه عن ظلم نفسه ، وعن تحملها فوق الطاقة عادة .

فعلم أن ظلم النفس فى مرضات الله تعالى بتحميلها من العبادة فوق طاقتها محمود فى البداية مذموم فى النهاية إذ الكامل يجب عليه أن يعطى كل ذى حق حقه ، وهو يعلم أن فى مجموع ذاته من يطلب الله تعالى ، ومن يطلب الآخرة ، ومن يطلب الدنيا ومن يحب الراحة ومن يحب النوم وهكذا فيعطى كل ذى حق حقه .

وقد بلغنا أن معروف الكرخى بردت له زوجته كوز ماء فى الصيف ، فنام فرأى جارية من الحور العين .

فقال لها : لمن أنت فقالت : لمن لا يشرب الماء المبرد فى الكيزان .

فلما استيقظ تناول الكوز وضرب الأرض ، فكسره قال السرى السقطى : فلقد رأيته فى الأرض حتى عفى على خزفه التراب لم يرفع من الأرض ، فلما عرضوا هذه الواقعة على الشيخ محي الدين قال : كان حاله فى تبريد الماء أكمل من حاله حين شرب

الماء الذى لم يبرد لإعطائه نفسه حقها الذى أمره الله تعالى به فى نهايته ، ولكنه فعل ذلك لأجل تلامذته لترقى همتهم بعدم تبريدهم الماء انتهى .

ثم على ما قررناه من أن ظلم النفس فى مرضات الله تعالى محمود يفهم معنى قوله تعالى « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه[1] » أى بالتعب فى مرضاتنا ، وإلا فالظالم لنفسه بالمعاصى لا يكون مصطفى لله تعالى فافهم .

وقد بلغنا أن حورية جاءت إلى سيدى عبد العزيز الديرينى يقظة وقالت له : قد اشتقت لك أما شبعت من الإقامة فى هذه الدار .

فقال : بلى ولكن حتى ينتهى الأجل .

ثم قال لها : ارجعى إلى دارك انتظرينى هناك ، فقد قرب الانتقال ، فمات بعد سبعة أيام ، وهذه من جملة كراماته رضى الله عنه والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة سبأ آية : ٣٢ .

ومن أخلاقهم : كثرة التسليم لولاة الأمور وحملهم على المحامل الحسنة بطريقه الشرعى .

من حيث كونهم أتم نظرا من أمثالنا ، فإذا ركبوا يهوديا أو نصرانيا مثلا فرسا لانبادر لإنزالهم ، ولا نقول : الله أكبر يا كلاب ، فربما كان الحكام إنما أركبوهم الفرس لمصلحة تعود على المسلمين لا نعرفها نحن ، فليفتش من يريد إنزال الكافر عن الفرس عن سبب ذلك ، فإن رآه بأمر الحكام أو تقريرهم سكت ، وإن رآه بغير أمرهم وتقريرهم أنزلهم ، فقد يكونون علموا بذلك وأقروه لمصلحة تعود على المسلمين .

وقد رأى فقير فرنجيا راكبا فرسا فأنزله وكبر عليه ، فرفعوه إلى نائب مصر فضرب الفقير ضربا مبرحا ، وقال له : ايش أدخلك فى أمر لاندرى عاقبته فأرسلت أنا إلى شخص من خواص أصحاب الباشاه ، وسألته عن سبب اكرام هذا الفرنجى فقال : لأنه من خواص ملك الفرنسية ، وان عندهم من المسلمين نحو عشرة آلاف أسير ، وقد أوصاه الملك وقال له : إن أكرمك نائب مصر ، فأرسل أعلمنا نكرم الأسرى الذين فى بلادنا ، وإن لم يكرمك أهناهم واستعملناهم فى الأعمال الشاقة وعذبناهم انتهى .

فالزم ياأخى الأدب مع الحكام ، فإن لهم فى أفعالهم حكما لايطلعونك ، وامثالك عليها كهذه القضية والحمد لله رب العالمين .

إلا بعد مشاورة ولاة الأمور فى ذلك خوفا من اثارة فتنة أعظم من بقاء تلك الكنيسة أو البيعة ، وقد خالف بعض العلماء ماقلناه ، وأراد هدم بيعة لليهود بمصر ، فنعوه الإفتاء والتدريس والوعظ ، وأرادوا نفيه من مصر ، فحصلت فيه شفاعة ، فتركوه وأفتى العلماء بأن فى مثل ذلك افتياتا على الإمام الأعظم ونوابه .

فليشاور من يريد هدم كنيسة ولاة الأمور فى ذلك ، فإذا سمحوا له بالهدم ، فهناك يشرع فى الهدم بتأييد الولاة له ، فإن ولاة الأمور إذا كانوا مضادين لأعظم الأولياء أتعبوا سره ، وغلبوه لأن الله تعالى جعل بيدهم الحل والربط والولاية والعزل فى هذا الوجود .

وقد قال لى أمير مرة: لا يكمل تصريف الولى فى هذه الدار إلا بإرافقتنا له اللهم إلا أن يكون له حال يحميه من تأثيرنا فيه ، فهذا لا يحتاج إلى مساعدتنا له وايضاح ذلك أننا إذا كنا عليه أتعبنا سره فى التوجه إلى الله تعالى فى إهلاكنا ، وربما لم يجبه الحق تعالى إلى ما سأل فيدوم عليه الأذى انتهى

وقد سمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

إذا قربت الساعة أمسك الله تعالى التصريف عن أهل الحق حتى تقع الأمور التى وعد الله تعالى بوقوعها بين يدى الساعة ، فيصير الولى يتوجه إليه فى عزل ذلك الظالم ، فلا يجاب ، فعلم انه يشترط الإذن من الله تعالى للمتوجه والإستحقاق لمن يريد يدفع عنه ، وذلك بأن يكون الشيخ عارفا بالمقادير المعلقة تائبا هو والمشفوع فيه من جميع الذنوب آكلا من الحلال دون الشبهات ، وإن لم يحصل هذه الشروط فهما مغلوبان .

وسمعت أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله يقول :

يشترط فى من يقوم فى نصرة الدين أن يكون مخلصا فى ذلك لا يدخله هوى نفس فى

ذلك يأكل من الحلال ، وإلا فمن يأكل الشبهات لايصح له تأييد من الحق عز وجل ، فيخذل ضرورة ، وقد كان شخص يقوم فى إزالة المنكرات فى بلاد الهند ولا يقوى أحد على معارضته ، فعملوا عليه الحيلة ، وأطعموه من الشبهات ، فبطل عمله ، وذلك أنه لما عارض السلطان أمر كل واحد من الرعية أن يأتى ببيضة ، حتى ذلك القايم فى إزالة المنكر ، فلما أتوه بالبيض خلطه ، ثم فرقه على الناس ، فأكل بعضهم بيضة أخيه ، فبطل عملهم ودعاؤهم عليه ، ثم شرع فى ظلمهم ، وصاروا يدعون عليه فلم يجابوا ، فعلم أن من أكل من الحرام أو الشبهات ، أودخله هوى نفس خذل لأنه حينئذ إنما هو ساع فى نصرة نفسه وهواه لافى نصرة الدين ، وما وعد الله تعالى بالنصر إلا من نصر دينه خالصا مخلصا انتهى .

فحرر ياأخى نيتك فى نصرة الدين بهدم الكنيسة مثلا ، ثم إهدم بأمر ولى الأمر وإلا عرضت نفسك للخذلان والنفى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم إفتاؤهم بالتشديد لمن استفتاهم من المتورعين وبالتسهيل لمن استفتاهم من العوام كالفلاحين

كما درج عليه الأئمة المجتهدون وكل اتباعهم كسيدى عبد العزيز الديريني والشيخ بدر الدين بن جماعه والشيخ شهاب الدين بن الأقطع البرلسي [1] والشيخ على النبتيتى الضرير واضرابهم رضى الله تعالى عنهم .

وقد روى الإمام القشيرى بسنده إلى الإمام أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه قال: دخلت اخت بشر الحافي علي الإمام أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنهما .

فقالت له . انا نغزل فى سطوحنا فى القمر فيمر علينا مشاعل الولاة ، فتزداد ضوءاً على ضوء القمر ، فنلبس ذلك الثوب الذى غزل منه خيط على تلك المشاعل .

فقال لها : من أنت عافاك الله تعالى ؟ قالت . أخت بشر الحافي .

فقال الإمام أحمد لها : من بينكم يخرج الورع الصادق لاتلبسى ذلك الثوب .

وقد سئل الحسن البصرى رضى الله تعالى عنه عن شخص يأكل من جوائز السلطان هل يخرج بذلك من الورع ؟ .

فقال : إن كان ممن يقتدى به خرج عن الورع .

---

(١) يقول عنه الإمام الشعرانى ، ومنهم الإمام العلامة المحقق الشيخ شهاب الدين البرلسى الملقب بعميرة الشافعى ، رضى الله عنه صحبته نحو عشرين سنة .

وكان عالما زاهداً حسن الأخلاق والشيم ، له سمت حسن ، وانتهت إليه الرياسة فى تحقيق المذهب ، ولم يزل يدرس ويفتى الناس حتى مرض مرض الموت وكان مرضه بالفالج ، فأقام به نحو سنة ثم مات .

أخذ العلم عن جماعة منهم شيخ الإسلام الشيخ عبد الحق السنباطى ، ومنهم شيخ الإسلام برهان الدين بن أبى الشريف ، ومنهم الشيخ نور الدين المحلى ، رضى الله تعالى عنهم أجمعين وكتب على مؤلفاتى أحسن كتابة رضى الله تعالى عنه .

وسأله جماعة من المتعبدين الذين يأكلون من عمل يدهم وقالوا : قدغبنا فى الحصاد بالاجرة يوما ، وكان لنا فرن تهدم بابه فى خرابة ننام فيها ، ثم جئنا فوجدنا شخصاً لا نعرفه أصلح لنا باب الفرن افنخبز فيه بعد ذلك ؟ .

فقال : لا .

وسأله شخص يأكل من صيده السمك فقال : انى كثيرا اصطاد سمكا فى الدجلة فنفض فيها جندى سفرته أفآكل من ثمن السمك الذى اصطاده بعد ذلك ؟ ؟ .

فقال : لاتاكل من ذلك .

وسأله شخص آخر مرة وقال : إن لى مزرعة ورثتها من أباى الورعين ولى فيها بقر وبقرة آكل من لبنها وثوران أحرث عليهما ، فاشتغلت فى صلاتى يوما عن حفظ البقرة، فخرجت من مزرعتى ، ومشت فى طين جارى فى وحل ، ورجعت وقوائمها متلطخة بطين أرض جارى ، فاختلط بطين أرضى فاكل من زرعى فيها بعد ذلك ؟ .

فقال : لا .

ولوان غير المتورع سأله عن مثل هذه الأمور لأفتاه فيها بالترخيص .

قلت ومما يقرب من هذه المسألة مسألة اخراج الكتب الموقوفة فى مكان وشرط واقفها أن لاتخرج منه إلا لترميم ونحوه من مصالحها ، فمن تورع طالع فيها فى مكانها ، ومن ترخص أخرجها وحفظها من الضياع .

وقد استفتى الشيخ جلال الدين السيوطى رحمه الله تعالى عن جواز نقل الكتب من المدارس التى شرط واقفها أنها لاتخرج منها ؟ .

فقال : الذى أقول به الجواز ، وقد رأيت شيخنا شيخ الإسلام البلقينى [1] وشيخ

---

(١) يقول عنه الإمام الشعرانى ، ومنهم الشيخ الصالح المجمع على حالته الشيخ شهاب الدين البلقينى رضى الله تعالى عنه ، كان رضى الله عنه غريبا فى أقرانه ، لكثرة زهده وورعه ، وحسن خلقه وحلاوة لسانه وضبطه .

الإسلام يحيى المناوى يستعيران الكتب من الخزانة المحمودية ويمكث الكتاب عندهما سنين عديدة ، وهما الإمامان المقتدى بهما ، فإنهما كانا من الفقه بالمحل الأعلى ، حتى بلغا رتبة الاجتهاد فى المذهب ، وكان المناوى صوفيا له أحوال وكرامات ، فلولا رأيا ذلك جائزا مافعلاه .

وفى قواعد الشريعة أنه يجوز أن يستنبط من النص معنى يخصصه ، فإذا كان هذا فى نص الشارع ففى نص الواقف أولى ، فيقال هنا : أن مقصود الواقف بشرطه إنما هو تمام النفع ، وتمام الحفظ ، فإذا وجد من يحتاج إلى الانتفاع بكتاب منها حال تصنيفه لكتب العلم ، ولا يمكنه الانقطاع لأجل ذلك فى مكان الوقف ووثقنا بدوام حفظه ، وصونه جاز الاخراج له ، وكان ذلك مستثنى من المنع تخصيصا لعموم لفظ الواقف بهذا المعنى

أخذ العلم عن عدة من العلماء الأعلام ، ومن أجلهم العلامة الشيخ شهاب الدين الرملى الأنصارى رضى الله تعالى عنه ولازمه ملازمة شديدة فى أجازة بالإفتاء والتدريس فدرس وأفتى فى حياته ، وانتفع به خلائق حتى كانت حلقته أوسع من حلقة شيخه .

وأخذ طريق القوم عن سيدى على المرصفى ، ثم عن تلميذه الشيخ نور الدين الشونى شيخ مجلس الصلاة على النبى ﷺ فى جامع الأزهر ، وأحبه غاية المحبة واستخلفه فى مجلسه فى حياته وبعد مماته ، وقدمه على جميع أصحابه وقال ، ماقدمته فى المجلس إلا بعد مشاورة النبى ﷺ ، واعتقد علمه وصلاحه الخاص والعام ، واشتهر فى مصر وقراها والشام ، والحجاز ، والروم.

وصحبته رحمه الله تعالى نحو أربعين سنة ، فما رأيت عليه شيئا يشينه فى دينه ، وما ذكره أحد بسوء إلا ورآه تلك الليلة وعليه ثياب خضر وبيض نقية الخضرة والبياض ، فأعرف بذلك كذب الحاسد وصدق الشيخ شهاب الدين وشدة إخلاصه .

وما رأيته قط التفت إلى وظائف الفقهاء ، بل تربى على الفقه والورع والزهد فى الدنيا حتى أتته وهى راغمة .

مات رضى الله عنه فى ثانى صفر سنة ستين وتسعمائة ، ودفن بالقرب من تربة الجامع الأزهر رحمها الله تعالى .

المستنبط كما تخصص قوله تعالى : « أولامستم النساء[1] » استثنى منه المحارم بالمعنى المستنبط ، وهو الشهوة ولادليل لاستثناء المحارم من آية أو حديث سوى هذا الاستنباط ، فكذلك هذا قال .

وقد ذكر الحافظ عماد الدين بن كثير فى تاريخه : ان علماء بغداد منعوا الفقهاء فى بعض السنين من قراءة الأطفال فى المساجد إلا شخصا واحدا كان موصوفا بالصلاح والخير ، فاستثنوه من المنع ، وانهم استفتوا الماوردى من أئمتنا والقدورى من أئمة الحنفية ، وغيرهما ، فأفتوا باستثنائه ، واستدلوا بأنه ﷺ : أمر بسد كل خوخة فى المسجد الاخوخة الإمام أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، فقاسوا استثناء هذا الرجل على استثناء خوخة الإمام أبى بكر .

قال : وهو استنباط دقيق لايدركه إلا الأئمة .

قال : وقد استندت إلى قولهم حين استفتيت قديما عن أبنية القرافة ، فافتيت بهدمها كلها كما هو المنقول إلا مشاهد الصالحين قياسا على ما أفتى به الماوردى والقدورى .

لكن فى المسألة أمران ينبغى التفطن لهما .

أحدهما : أنه لايستعار من هذه الخزانة إلا مالايتيسر وجوده فى غيرها مماليس فيه شرط يمنع الخروج .

الثانى : أن لايمكث الكتاب عند المستعير إلا بقدر الحاجة فقط ، ومدرك هذين الأمرين أن ماجاز للضرورة يتقدر بقدرها انتهى .

وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن الكبرى فى الباب الرابع عشر منها فراجعه والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة المائدة آية : ٦ .

ومن أخلاقهم : عدم تقلقهم من مونة من أقام عندهم من المجاورين

ولو بلغوا عند أحدهم ألف نفس ، وأكثر لايستثقل منهم لأنه يشهدان رزقهم علي الله تعالى لاعليه هو [١] ، وغاية أمره أن الله تعالى جعله كالوكيل الذى يفرق على العبيدماحده له سيدهم ، فلا يصح أن يعطيهم من رزقه ذرة واحدة وإنما الحق سبحانه وتعالى يجعل مايشاء من الجود فى قلب من يشاء من عباده بقدر حظه ونصيبه ، وكثرة الواردين عليه ، والقاطنين عنده يعمر على معرفة قدر مرتبته فى الجود قلة وكثرة .

فلا تظن ياخى أن الفقرا كغيرهم يتبرمون من إقامة الضيف عندهم طويلا قياسا على غيرهم .

وإن حصل من فقير صادق ثقل من إقامة أحد عنده ، فإنما ذلك لقلة استحقاق الفقرا القاطنين عنده أو الواردين عليه لعدم اقبالهم على العبادة أو خروجهم عن الاستقامة لاغير ، فيدبرون عن الله تعالى ، ويطالبون الشيخ بالقيام بهم على جارى العادة السابقة أيام استقامتهم ، فلايقدر الشيخ على ذلك لأن الحق تعالى إنما يسخر لعبده الرزق ويسهله عليه إذا كان مقبلا عليه كما أشار إليه حديث « فكم ممن لامطعم له ولا مؤوى » ، مع أنه تعالى يرزق الكافر ، وإنما المراد لا كافى له بسهولة ولا مؤوى له كذلك فافهم والحمد لله رب العالمين.

---

(١) بكى سيدنا على بن ابى طالب يوما فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : لم يأتى ضيف منذ سبعة أيام ، وأخاف أن يكون الله تعالى قد أهاننى .

وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : زكاة الدار أن يتخذ فيها بيت للضيافة .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا وأشتاتا) : إنهم كانوا يتحرجون فى أن يأكل أحدهم وحده ، فرخص لهم فى ذلك .

ومن أخلاقهم : حسن سياستهم لقاصد الأمير إذا أتاهم بشيء من الدنيا يفرقونه على الفقرا أولا نفسهم

فلا يقولون له فلوس استاذك حرام ، فلانقبلها ، لأن فى ذلك تنفيرا للأمير عن الاعتقاد فى طائفة الفقرا وربما كذب الفقير فى قوله إن ذلك حرام لأنه ليس كل شى يدخل يد الفقير يكون حراما ، وإنما السياسة أن يقولوا للقاصد سلم لنا على أستاذك ، وقل له الفقرا لا يصحبون أهل الخير مثلك لشيء يأخذونه منهم ، وإنما يصحبونهم لله تعالى لأجل شفاعة فى مظلوم أو ليساعدهم فى إزالة منكر حدث فى بلدهم ، ونحو ذلك .

وقد أرسل لى مرة عامر بن بغداد مائة دينار هدية ، فرددتها عليه وقلت له :

هديتى عندك قبول شفاعتى فى المكروبين ، فإن ذلك هو الذى ينفعنى وينفعك ، وينفع المكروب [١] .

فأبى أن يأخذها .

فقلت : له قبول هديتك يضرنى ، ويضرك ويوقف دعائى لك عن القبول إذا حصلت لك شدة .

فرضى عنى بذلك رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

ثم وإن قال القاصد إنما أرسل لكم استاذى ذلك لاجل كونه مريضا مثلا ، لتدعوا له قالوا له :

الدعاء بلا عوض ارجا للاجابة وكل فقير ينبغى له الدعاء لولاة الأمور سواء أعلم بذلك الأمير أم لا .

---

(١) قال الله تعالى : (من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها) .
وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أتاه طالب حاجة أقبل على جلسائه فقال : (اشفعوا تؤجروا ويقضى الله على لسان نبيه ما أحب).

وقد أرسل لى الباشاه محمد دراهم حين مرض ولده بالطاعون ، وحين مرض هو فى المحرم سنة اثنين وستين وتسعماية ، فرددت ذلك ، دأبى قاصده ان يرد إليه بذلك .

فقلت له :

لايخلوا إما أن يكون أجل المريض حضر فلا أقدر على زيادته أولم يحضر أجله ، فما عملت له شيا استحق به الدراهم وأن كان سبق فى علم الله تعالى أن خلاصه من ذلك المرض يكون معلقا على الدعاء ، فقد اخترت أن يكون أجرى على الله تعالى .

فقال : تذبح للفقرا قربانا .

فقلت له : ليس لنا حاجة بذلك اللحم فإن اللحم عندنا كثير .

فقال : يرسل الباشاه يعمل عندكم مولدا .

فقلت له : إذا خلص من مرضه أنا أعمل له مولدا من عندى محبة فيه وفرحا بسلامته فولى وهو راض عنى انتهى فتعلم

ياأخى مثل هذه السياسة ، وأعمل بهما ، واياك أن تعترض على من يرد مال الولاة ، وتحمله على محامل سيئة ، فتخطى طريق جمهور السلف ، والخلف من الصالحين ، وإذا كنت أعوج ، فلا تطلب من المستقيم أن يعوج معك بل تأس أنت بالمستقيم ، وانبعه أن أردت أن تمشى على اثار الصالحين .

وقد بلغنى أن جماعة ممن أخذوا من ذلك المال اعترضوا على ردى المال من حيث أنهم تميزت عنهم فى مصر ، وكان الأولى لهم مدحى على ذلك ، وذم أنفسهم ، فإن مال الولاة فى هذا الزمان لايخفى على عاقل حاله ، ولا هؤلاء الفقرا تورعوا ولا هم سكتوا عن تجريح من تورع ، وأنا أعلم منهم انى لو أخذت من ذلك لأنكروا أيضا على ، وصاروا يقولون : مابقى أحد يتورع ، وينسون نفوسهم ، فهم يعترضون بكل حال ، فنسأل الله تعالى أن يتوب علينا وعليهم من كل ذنب والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إذا دخلوا على أمير يشفعون عنده فى انسان أستحق التعزير
مثلا بضرب أو حبس وأخذ مال أن يجعلوا اللوم على ذلك المذنب
ويصوبوا رأى الأمير فى حبسه أو ضربه أو تجريسه

ويقولون إنه يستحق أكثر من ذلك ، ثم إذا سكنت نفس الأمير من الغضب على ذلك المذنب سارقوه بالحلم شيئا فشيئا لاسيما أن كان المشفوع فيه من ذوى الهيأت .

ويقولون له :

مثلكم من يتخلق بأخلاق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اقالة العثرات وقد قال صلى الله عليه وسلم « اقيلوا ذوى الهيأت عثراتهم » .

ثم إن رأوا الأمير مصمما على عدم العفو عن ذلك الشخص .

قالوا له : يامير اعطنا منديل الامان ، فإذا أعطاه لهم

قالوا له فى اذنه بلطافة وتبسم : يامير لابد أن يكون لك ذنوب وقعت فيها ، فاجعل العفو عن هذا الشخص ذنبا من ذنوبك ، واستغفر الله تعالى منه يغفر لك .

فلعله يرق له ، ويعفوا عنه .

وإياك ياخى أن تدخل على أمير دهقان تشفع عنده إلا وأنت عفيف عن مال ذلك الأمير إذا كان دهقانا يبادر الفقير الشافع عنده بالتعظيم ، والهدية ، فيبرد قلبه من الشفاعة ، وربما انقلب ذلك الشافع على المشفوع له كما وقع ذلك من محمد بن بغداد ومن أخيه عامر مع فقيرين دخلا يشفعان عندهما ، فأخذ أحدهما وصولا بقمح وعسل ودجاج، وغير ذلك واخذ الآخر بغلة وعدتها ، فركبها من حوشه ، وخرج بها يحط على المشفوع فيه ، فليحذر الفقير الشافع من قبول شيء ، فيبيع دينه بدنياه الحرام .

وقد صار هذا الأمر متعارفا بين غالب الولاة ، فإذا دخل عليهم عالم أو صالح ، وأغلظ عليهم فى القول يقول أحدهم لجماعته : هذا الوقت ألق عليه الإ كسير ، فينقلب معى على

المشفوع فيه ، فيصيرون يضحكون على ذلك الشافع زمانا ، ويهون فى أعينهم كما وقع لقاصدى مع ابن بغداد ، فانى أرسلته مع مظلوم ، فلما وصل إليه كتب له وصولا بعسل وقمح ، ثم وضع ذلك المظلوم فى الجنزير بحضرته ، وهو ساكت لأجل قبوله هديته ، فخاف بذلك لسانه انتهى

ولو ان قاصدى كان تعفف ، فربما لم يضع ذلك المظلوم فى الجنزير ، ولكن من أهانه الله تعالى بمحبته للدنيا ، فماله من مكرم .

وقد ظفرت طول عمرى بنقيب صادق اسمه إبراهيم الصنديصطى رحمه الله تعالى ، فمكث طول عمره لم يأكل للولاة مالا ، ولم يشرب لهم ماء ، ولم يقبل لهم هدية ، وكان يخلص منهم المظلومين إلى أن مات .

فاياك ياخى من مثل ذلك ثم اياك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كثرة صبرهم على مجالسة الثقلاء

واظهارهم أنهم خفاف على قلوبهم لأن لا يلحقهم خجل ثم إذا قام الثقيل من عند أحدهم لا يمكنون أحدا يذكره بسوء ولا أن يقول : إنه ثقيل فضلا عن أن ينطق هو بذلك .

وكان أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول للثقيل :

حصل لنا بركتكم وفوائدكم فلا تقطعونا من المجالسة .

فقالوا له فى ذلك فقال :

أتحمل عن اخوانى ثقل مجالسته لأن غيرى ربما كان لا يقدر على احتمال كلامه .

وروى الجلال السيوطى رحمه الله تعالى : أن ابا هريرة رضى الله تعالى عنه كان يقول إذا جلس إليه ثقيل :

اللهم اغفر لنا وله وارحنا منه .

وكان حماد بن سليمان يقول : كل من رأى نفسه ثقيلا كان خفيفا وبالعكس .

وكان حماد بن سلمة إذا رأى ثقيلا قال : ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون .

وكان ابن شهاب الزهرى يقول : إذا طال جلوس الثقيل عندكم فاصبروا فإنها رباط فى سبيل الله .

وكان بعضهم يكرم الثقيل ، ويقول الاجتماع مقدر لا يدفعه تعبيسى فى وجهه ، ولا زجرى له عن العود إلى

ومزح الإمام أبو حنيفه مع الأعمش يوما ، وقال له : مم عمشت عيناك .

فقال له : من النظر إلى الثقلاء مثلك ، وكان له إدلال عليه ، فضحك أبو حنيفة رضى الله عنهما .

وكان الأصمعى يقول : جلس عندى ثقيل ، وأطال الجلوس ، ثم قال لعلى قد أضجرتكم

واثقلتكم فقلت له : أحمل ثقلا فوق ثقل فقال : إنى راحل فقلت له : العجل ثم العجل ثم العجل ياجبلا من جبل فى جبل فوق جبل .

وكان شيخنا الشيخ أمين الدين إذا كان جالسا ، ورأى ثقيلا يقصد الجلوس عنده يغلق باب خلوته عليه أو يطلع البيت ، ويقول : أنا رجل حديد المرارة لاأطيق أسمع كلام ثقيل انتهى .

فقد حكيت لك ياأخى أحوال القوم مع الثقلاء وإن من الناس من يصبر على مجالسة الثقلاء ومنهم من لم يصبر فكن ياخى مع الصابرين فإن الله تعالى معهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كثرة الشفقة على الدابة التي ركبوها باجارة أو عارية[1]

زيادة على شفقتهم على الدابة التي هي في ملك أحدهم عادة

فلا ينبغي لأحدهم أن يضربها بسوط إلا بقدر تأديبها ، ولا ينخسها بحديدة ، حتى يخرج دمها ، ولا يحملها فوق طاقتها ، ولو أذن صاحبها في ذلك ، فإنه قليل الدين .

ولا يجوز له أن يستأجرها ليركبها وحده منفردا ، ثم يحمل معه خرجا أو يردف معه صاحبه من غير علم صاحبها .

وكان أخي الشيخ أفضل الدين رحمه الله إذا استعار دابة ليركبها يوما لا يأكل ولا يشرب بعد استعارتها ، ويقول :

إن صاحبها أذن لي في ركوبها ، وبطني جايع ، والأكل والشرب يزيدني ثقلا لم أستأذنه فيه ، فلا يزال جيعانا عطشانا ، حتى يرجع آخر النهار .

ورأيته مرة يأكل وهو راكب فنبهته على ذلك فقال : إني دخلت بيت الخلاء بعد أن استعرتها ولم يغب عن ذهني ما نبهتني عليه ، ولكني آكل دون ما نزل مني في الخلاء إنتهى .

وكان سيدي عبد العزيز الديريني رحمه الله تعالى لا يحمل معه سوطا إذا ركب حمارة نفسه ، وإنما يردها بكمه ويقول : هيهات أن عبد العزيز يحمل من يضربه بكمه ، فإن من يضرب بهيمة بشيء ضرب في قبره بمثله[2] .

وقد أوضحنا الكلام على ذلك أول الباب الخامس عشر من المنن الكبرى فراجعه والحمد لله رب العالمين .

---

(١) ويمكن تطبيق ذلك على جميع الأمور والأشياء التي تستعار فان بعض الناس لا يهتمون بما يستعيرون قدر اهتمامهم بحاجاتهم .

(١) وفي الحديث : عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن من اتخذ شيئا فيه الروح غرضاً . متفق عليه .

ومن أخلاقهم : مواظبتهم على الوضوء ليلا ونهارا كلما أحدثوا وكثير ما يتوضؤن على طهر ايزدادوا به نورا على نور كما جرب وقيل إنه حديث .

وقد بلغ سيدى تاج الدين الذاكر رحمه الله تعالى فى تقليل الأكل إلى أن صار يتوضأ كل أسبوع مرة ، وكان آخر امره يتوضأ كل أسبوعين مرة .

والعمل بهذا الخلق متعذر جدا علي من يأكل كثيرا من الفقرا ، وذلك مؤذن بقلة مجالستهم لله تعالى لأن من يجالس الله تعالى يترك استعمال كل ما يفرقه عنه أو يحجبه عنه، والحدث من جملة مايحجب عن الله تعالى بدليل عدم صحة الصلاة معه .

وكذلك من شأنهم أنهم لايقرؤن القرآن أو الحديث أو العلم أو يذكرون الله تعالى أو يدخلون المسجد إلا على طهارة رضى الله تعالى عنهم أجمعين [1] .

ومن خالف ماذكرناه ، وترخص فى قراءة القرآن وما بعده من الحديث فهو خارج عن طريق القوم والحمد لله رب العالمين .

---

(١) وفى الحديث : عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره) رواه مسلم .
وعنه قال : رأيت رسول الله ﷺ توضأ مثل وضوئى هذا ثم قال : من توضأ هكذا غفرله ماتقدم من ذنبه وكانت صلاته ومشيه إلى المسجد نافلة) رواه مسلم .

ومن أخلاقهم صحبة الحشاشين وإلانة القول لهم

واطعامهم الحلاوة والكنافة المبسوسة بالفطر ، وإظهار المحبة لهم ، وعدم العبوسة فى وجوههم ، ثم إذا مال أحدهم إليهم بالمحبة يصير أحدهم يسارقه فى تبغيضه فى تلك الكتبة شيئا فشيئاً إلى أن يقع بغضها فى قلبه إن شاء الله تعالى .

وقد قدمنا فى أوائل هذا الكتاب إن أصحاب الكتب ضالة كل داع إلى الله تعالى ، فهم لاينفرون من أعوج ، ولا من مستقيم رضى الله عنهم أجمعين والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كثرة تواضعهم لبعضهم بعضا

ورؤيتهم نفوسهم أقل من تلامذة أقرانهم وأنقص فى المقام .

وقد كان الشيخ عبد القادر الجيلي رحمه الله يقول :

من طابت نفسه أن يقرأ على أحد من أقرانه أو يتلمذ له ، فقد خرج من رعونات نفسه فإن ذلك من أعلا رياضة تكون للنفس ، وهو أعلا من الجوع والعرى والسهر والعزلة ، ونحو ذلك .

وهذا الخلق قد صار من أغرب الغريب ، حتى أن بعضهم ربما ترك زيارة أخيه خوفا أن يقول الناس أن المزور أعلا من الزائر وهذا أمر خارج عن سياج أهل الطريق ، فقد زار ﷺ وأكابر الصحابة الفقراء والمساكين مع علو مقام الزائر على مقام أعظم ملوك الدنيا بما لا يتقارب ، ولم يعتذروا بعذر .

فزر ياخى إخوانك وأقرأ عليهم رسائلهم التى ألفوها فإن رأيت كلامها محررا ، فذاك ، وإلا فنبههم على ما فيها بلطف وحسن سياسة ، وإن كتبتها عندك ، وأوهمت الناس حاجتك لمثلها ، فقد بلغت الغاية فى رياضة النفس .

فاعرض ياخى هذا الأمر على نفسك قبل أن تتصدر للمشيخة ، فإن رأيت نفسك منشرحة لتلمذها لأحد من أقرانها ، فاجلس ، وإن انقبضت نفسك من ذاك ، فاتخذ لك شيخا يربيك ، ويزيل منك الرعونات والاضلات وأضلات ، الله الله فى ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : زيادة التعظيم لكل من اختفى من أقرانهم ونفرت عنه تلامذته لأنه قد مشى على قواعد أهل الكمال لأن الكامل الصادق لابد أن يختفى بعد الشهرة ، ويذل بعد العز .

وإيضاح ذلك أن الفقير ما دام ناقصاً ، فهو يطلب الظهور ، والشهرة ، فإذا حصل له ذلك حصل له العز والجاه بين الناس ، فإذا أخذ فى الكمال رأى أن الكمال له فى هذه الدار إنما هو بالذل والإنكسار ، والخفاء ، فصار يكره الشهرة ، والعز بالطبع[1] .

وقد كان الشيخ أبو المواهب الشاذلى رحمه الله يقول : إذا بلغ الفقير مقام الكمال فى العرفان صار غريباً فى الأكوان لا يعرفه إلا من أشرف على مقامه لأنه يصير أعماله كلها قلبية لا يكاد يظهر شيئاً من أعماله إلا فى حال يقتدى به فيه لا غير ، وربما ظن بعض من لا علم عنده له بأحوال القوم أن ذلك الفقير الذى اختفى بعد ظهور كراماته ومكاشفاته قد سلب حاله ، فيحتقره ويخرجه عن دايرة القوم ، والحال أنه فى أعلا مقامات الكمال.

وقد أخبرنى سيدى على المرصفى أن شيخه سيدى محمد ابن أخت سيدى مدين سلك اثنى عشر نفسا ، فلما انتهى سلوكهم قال لهم : إبعدوا عنى ، وخلونى أتزود لمعادى ، وأتهيأ للموت ، فتفرقوا كلهم عنه كلهم ، حتى كأنهم لم يعرفوه ، وصار يخرج إلى السوق ويشترى حاجته ، ويحمل طبق الخبز والحطب على رأسه ، ونزع ثياب الفقراء ، ولبس ثياب التجار إلى أن مات .

فإن قال قائل : أن تسليك الناس وإرشادهم إلى طريق الأدب مع الله تعالى خير ، فكيف يكون تركه أكمل قلنا له : كلاهما خير ، ولكنه ، ثم مقام كامل ، ومقام أكمل ، وإرشاد الخلق ، والاشتغال بهدايتهم ، وإن كان كاملا ، فالاقبال على الله وحده أكمل كما قال ﷺ : « لى وقت لا يسعنى فيه غير ربى » ومن عرف تفسير إذا جاء نصر الله

---

(١) يقول ابن الجلاء : لولا شرف التواضع لله لكان حكم الفقير إذا مشى أن يتبختر .

والفتح عرف ما أشرنا إليه على أنه ﷺ قد كان أنهى تبليغه وهدايته للخلق بحسب القسمة الإلهية ، فلم يبق من آثار رسالته ما يفاضل بينه وبين الإقبال على الله وحده ، وكذا القول فى ورثته فليفهم فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعتقدوا الـكمال فيمن تفرق عنه تلامذته ، واختفى وإياكم أن تقولوا فلان سلب فتقعوا فى الغيبة له والـكذب عليه، وتتعرضوا للمقت والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أن يحفظوا حرمة اخوانهم فى غيبتهم فلا يتكلمون من ورائهم بشيء يستحيون أن يواجهوهم به إذا لقوهم

وهذا الخلق قد صار غريباً فى هذا الزمان ، فترى أحدهم يذكر أخاه بالسوء ، ويبين الناس فيه العجر والبجر ، ثم إذا جاء ذلك الأخ يزوره مثلا يقوم له ويبجله ويمشى معه إلى باب الزاوية ، ثم يقول بعد ذلك : ايش أعمل هؤلاء لا يرضيهم منا إلا ذلك يعنى أنهم لا يستحقون أن يفعل معهم ذلك ، فيزكى أحدهم نفسه ، ويجرح أخاه ، ولا يخفى ما فى ذلك من النفاق المنافى لطريق أهل الله عز وجل .

وقد وقع لى مع شخص مثل ذلك ، فدخلت عليه على غفلة ، فسمعته يذكر فىّ العجر والبجر ، فلما قدمت عليه قام لى وأجلسنى على فراشه فقلت له : تب من مثل ما كنت فيه قبل دخولى ، فـكلح ، وخجل ، وافتضح بين الناس الذين كان يكلمهم ، وإنما كلمته بمثل ذلك فى الملأ توبيخا له لينزجر عن مثل ذلك ، ولو علمت منه أنه كان ينزجر بإسرارى له بذلك لأسررت له بذلك .

وقد سمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول كثيرا :

افضحوا إخوانكم فى وجوههم حسب الاستطاعة بحسن سياسة ، وناقشوهم كل المناقشة ، وإذا غابوا فاحملوهم على المحامل الحسنة عند من رأيتموه يذكرهم بسوء ، فإذا سمعتم أحدا يقول : كيف يدعى هؤلاء ترك الدنيا وأحدهم يسافر من مصر إلى الروم فى طلب جوالى أو مسموح مثلا ؟ فقولوا له : قد يكون هذا يقصد بذلك الخفاء بين الناس ، حتى لا يتميز عن أبناء جنسه الذين يسافرون فى طلب أرزاقهم ، أو قد يكون قد اطلع من طريق كشفه أن له رزقا فى الروم لا يمكن أن يصل إليه إلا بسفرة إليه ، فسافر فى طلب رزقه انتهى .

وقد رأيت أنا شخصا فى بيلاق قال لى : كشف لى عن لقمة فى دمياط لا بد لى من أكلها ، فسافرت إليها ، فلما أقبلت على البر رأيت شخصا يأكل لحما فزور بلحمة ، فألقاها فأخذتها وبلعتها ، فلما بلعتها تحركت نفسى للرجوع إلى بيلاق ، فرجعت من ساعتى ، وعلمت أن من الرزق ما يأتى إلى صاحبه ومنه ما يأتى صاحبه إليه لا بد له من ذلك انتهى

فاعمل على ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : تحمل الأذى عن كل من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله بطريقة الشرعى

فلا يؤذونه بظاهرهم ولا باطنهم ، فالظاهر كإيذائه بالجوارح الظاهرة والباطن كسوء الظن ، وتمنى السوء له وقد عد العلماء بالله تعالى الأذى للناس من السموم القاتلة ، ولكن لايكاد يشعر به كل أحد لاسيما سوء الظن بالأولياء والعلماء العاملين وحملة القرآن الكريم

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

إياك أن تنقص مقام أحد إلا أن أطلعك الله تعالى من طريق الكشف على سوء خاتمته التى يبعث عليها من الكفر ، فهناك لا يكون قولك فيه أنه كافر غيبة ، وإما ما عدا ذلك ، فهو من جملة الغيبة المحرمة بشروطها المقررة فى كتب الفقه ، فالكامل هو من ينظر فى نقائص نفسه ، ليتطهر منها قبل موته قال الله تعالى : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون[1] » إنتهى .

ويؤيده قول الشيخ محيى الدين فى الفتوحات المكية إياك يا أخى ومعاداة أهل لا إله إلا الله فإن لهم من الله تعالى الولاية العامة وهم أولياء الله وإن جاءوا بقراب الأرض خطايا لا يشركون بالله شيا فإن الله تعالى يلقاهم بمثلها مغفرة ومن ثبتت ولايته حرمت محاربته فلا تعاد إلا من تحققت أنه عدو لله تعالى وليس ذلك إلا الكافر فهناك تتبرأ منه كما تبرأ السيد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فى قوله تعالى « فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه » والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سئل سفيان الثورى عن قوله صلى الله عليه وسلم : (إن الله يبغض أهل البيت اللحميين) فقال : هم الذين يغتابون الناس ، يأكلون لحومهم .

وذكرت الغيبة عند عبد الله بن المبارك ، فقال :

لو كنت مغتابا أحدا لاغتبت والدى ؛ لأنهما أحق بحسناتى .

ومن أخلاقهم : عدم إرسالهم عيالهم فى فرح من عرس وختان إلا أن وثقوا بدينهن فى عدم ميلهن إلى الدنيا وزينتها

فرب نظرت عيالهم إلى ما على النساء فى الفرح من الزينة فازدرت ما عليها من الثياب ، وطلبت من زوجها إنه يكسوها الحرير ويلبسها الحلى ، فتكلف زوجها الفقير ما ليس فى قدرته أو تكلفه أن يتوجه إلى الله تعالى فى أن يحجب عين عياله عن رؤية زينة الناس ، أو فى أن يقلب له مرقعة زوجته أو جبتها الصوف فى أعين الناس حريرا وجواهر كما وقع لسيدى أبى العباس البصير رضى الله عنه ، حين أرسل زوجته إلى عرس لامرأة أمير كبير بعد سياقهم على الشيخ السياقات ، فقال لزوجته حين كرهت الذهاب إلى العرس بثيابها الرثة : البسى هذه المرقعة وسوف يقلبها الله تعالى فى عيون النساء الحاضرات فى العرس كاملية منسوجة بالذهب والفصوص والمعادن ، فكان الأمر كذلك فصارت نساء الأكابر كلهن يشهدن تلك المرقعة كاملية منسوجة بالذهب ، والفصوص والجواهر ، حتى انبهرت عقول النساء ، وقالت امرأة الأمير لزوجها : ما ملك إلا الشيخ ، فإنى رأيت على زوجته حليا مرصعا بالفصوص والمعادن ، فصارت ثيابنا عندها كثياب جوارى المطبخ ، فأرسل أمير كبير يبذل للشيخ فى تلك المرقعة الأموال ، والشيخ يقول له : والله أنها مرقعتى ولكن الله تعالى قلبها فى أعين الناس كما أخبروكم سترة للفقرا بين الأكابر انتهى .

وكذلك وقع لسيدى الشيخ عبد العزيز الديرينى أن امرأة سيدى محاهد النبراوى عزمت على زوجة سيدى عبد العزيز ، فدعتها إلى عرس ولدها ، وفرشت لها البسط والمقاعد المطرزة ، لظنها أنها مثلها فى الزينة والفخامة ، فلما دخلت زوجة سيدى عبد العزيز رضى الله تعالى عنه ونفعنا به عليها وجدت عليها ثوباً خلقا ، ومرقعة ، فطوت البسط والمقاعد وأرسلتها تجلس عند النساء فى المطبخ ، فلما جاء سيدى عبد العزيز يطلب زوجته

سألها عن حالها ؟ فأخبرته بالخبر ، وأنها طوت بسطها لما رأت ثيابها الخلقة ووضعتها عند جوار المطبخ ، فقال لها سيدى عبد العزيز رضى الله عنه : هذا غاية الاكرام والاحسان التي جعلتك عند الطبيخ فكل شيء استوى يطعمونك منه ، ثم أخرجها وسافر معها إلى ديرين فقوى عليهما الحر فى الطريق ، فجلس الشيخ وقال . لها : اقلعى من هذا القلقيل شيئاً نبنى لنا حائطا منه ونجعل عليه الردآ ، حتى يميل القال فقالت زوجته : ثم أنت فى الشمس وسخطت على ثيابها ومعيشتها فنام فقامت وقلعت من القلقيل ونظرت إليه ، فإذا هو كله ذهبا ، فاستيقظ الشيخ فوجد عقلها قد انبهر من ذلك ، فقال لها : أن شئت فاحملى لك قلقيلة واصنعى الك حلياً وزينة ، ولكن لا يصير الك نصيب فى الآخرة وان شئت صبرت إلى الجنة فقالت : اصبر إلى الجنة انتهى فلولا أن الشيخ بين لها هذه الكرامة لفسد حالها ثم بعد أن عرفت ياأخى ذلك فأرسل عيالك للافراح أو اتركـ ولا أرى عدم أرسالها إلا خيراً الك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كثرة رحمتهم للسكران وجميع العصاة

وإذا طلع زاويتهم السكران لايضربونه ، ولا يخرجونه إلى جماعة الوالى إلا بطريق شرعى ، وإنمـا يجلسونه فى رحبة المسجد أو الميضاة ، حتى يصحوا فيغسلون له ثيابه أن تنجست ، ويطعمونه الطعام اللذيذ والحلوى ، ثم يعظونه ويخوفونه من الخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ، ثم يقولون له :

نحن أحببناك لله تعالى وما بقى يهون علينا مفارقتك ، وذلك ليذسوه محبة من كان يحبهم من الفسقة لمـا يرى من كثرة شفقتهم عليه .

وهذا هو اللايق بالفقر ، وأما الضرب ، فلا يجوز .

وهذا الخلق قل من يتخلق به من الفقرا وطلبة العلم ، إنمـا يخرجون السكران ، ويغلقوا دونه باب المسجد ، حتى يمر عليه والى الطوف فيأخذه ويضربه ويغرمه الدراهم، وقد قال ﷺ لهزال لمـا وجد رجلا مع امرأته « هلا سترته بثوبك » أنتهى .

وفى الحديث أيضاً أنهم أتوا النبى ﷺ بشارب خمر ، فشتموه ، فنهاهم ﷺ عن ذلك وقال : « لاتـكونوا عوناً للشيطان على أخيكم » انتهى .

فارحم ياأخى أهل المعاصى ماداموا يخفونها ، وتخوفهم بالموعظة الحسنة .

وقد روى البيهقى أن شخصاً جاء إلى عبد الله بن عمر فقال : إن لى جيراناً يشربون الخمر فى بيوتهم ، وقد نصحتهم فلم يسمعوا وأنا داع الشرط إليهم ليأخذوهم ، فقال له عبد الله : لاتفعل ودم على نصحك لهم أنتهى ، والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : اهتمامهم بإكرام الضيف وتهيئة ما يأكل وما يشرب بسرعة وطيبة نفس

فإن البطوء عليه بالأكل يضجره ويذهب حلاوة الضيافة ، كما أن العبوسة فى وجهه توحشه ، وربمـا ندم الذى نام عنده من عبس فى وجهه .

وكذلك من آدابهم إعلام الضيف بجهة القبلة وببيت الخلاحق لا يحوجوه إلى السؤال عن ذلك ، وقد غلب الحياء الطبيعى مرة على بعض أصحابنا ، فتغوط وبال فى قلنسوة ولد صاحب البيت حين انحزق ، فأخذها من على رأس الطفل وهو نائم ، ثم هرب من الفجر ، وكذلك من آدابهم تهيئة الوطا والغطا وتهيئة ماء الوضوء لقيام الليل .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله تعالى إذا هيأ ماء الوضوء للضيف ، فنام الضيف ولم يقم الليل ، يقول له :

اذهب بسلام ولا تقم عندنا ، وكذلك كان لا يعطى الضيف الغطا إذا علم منه الـكسل ، ويقول :

إنه إذا دفى نام عن قيام الليل ، ففاتته تلك المواقف الربانية ، وما فيها من الخير والهدايا والتحف ، وكان تبعة ذلك على لأنه لو برد فى الليل لربمـا قلق فذكر الله تعالى ونام جالساً ، انتهى .

وهذا طريق غير مسلوك الآن ولـكل مقام رجال والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : خدمة الضيف بأنفسهم أو غلامهم

وتزويده إذا رحل عنهم بالطعام وعليق الدواب ، والدراهم والدنانير بحسب قدرتهم.

وقد ذكر الإمام الشافعي رضى الله تعالى عنه في رحلته إلى الإمام مالك رضى الله تعالى عنه أنه لما زاره عزم عليه أن ينام عنده وتلقاه بالترحيب ، وقال له : إن للقادم دهشة فتلقوه بالترحيب قال الإمام الشافعي .

ثم إنه أدخلني مكاناً في قعر بيته ثم أرسل لي غلاماً يقول لي : القبلة ها هنا ، وهذا إناء فيه ماء ، وهذا بيت الخلا وأشار إليه ، ثم إن مالكا دخل على ومعه غلام حامل طبقاً ، فوضعه من يده وسلم على وقال للعبد : اغسل علينا ، فوثب الغلام إلى الإناء ، وأراد أن يصب على أولا ، فصاح به مالك الغسل في أول الطعام يكون لرب المنزل لأنه يدعوا الناس إلى كرمه ، فحكمه أن يبتدىء بالغسل ، وفي آخر الطعام للضيف لأن صاحب الطعام ينتظر من يدخل ليأكل طعامه .

قال الإمام الشافعي ، فاستحسنت ذلك من مالك ، ثم أكلت أنا وأياه ، فأتينا على جميع الطعام ، وعلم مالك إني لم أجد من طعامه كفاية ، فقال : يا أبا عبد الله هذا جهد من مقل إلى فقير معذر ، فقلت : لا عذر على من أحسن ، إنما العذر على من أسى ، فلما صلينا العشاء في مسجد سيدى رسول الله ﷺ سألني عن بعض أحوال مكة ؟ ثم قال : من حكم المسافر أن يحل تعبه بالاضطجاع ، ثم فارقني ، فلما كان الثلث الآخر من الليل قرع على مالك الباب وقال الصلاة يرحمك الله ، فانتبهت ، فإذا هو حامل إناء فيه ماء ، فشق ذلك علي ، فقال : لايروعك مارأيت مني ، فإن خدمة الضيف عندنا فرض ، انتهى .

فاعلم ذلك واعمل به والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إقامة العذر للعلماء إذا لبسوا الملابس الفاخرة وركبوا الخيول المسومة

ويرون أن فعل ذلك من جملة إعزاز الدين ، ولا يطالبون منهم التقشف كالفقراء لأن الفقراء لا يحتاج الناس إليهم كحاجتهم إلى العلماء ، ولا يكاد أحد يعرف لهم مقاما حتى يخرج عليهم في أحوالهم ، وأيضاً فإن المطلوب من الفقرا الخفاء عكس المطلوب من العلماء لأن كلا منهما تابع لسلطان ماهو حامل له ، فسلطان الشريعة هو الظاهر في هذه الدار ، وسلطان الحقيقة هو الظاهر في تلك الدار .

وقد تقدم في هذا الكتاب أن حقيقة الصوفي هو عالم عمل بعلمه على وجه الإخلاص لاغير لكن لما عز وجود ذلك في الناس ظنوا التباين بينهما ، فصاروا يقولون : فلان من أهل الشريعة ، فلان من أهل الحقيقة إذا علمت ذلك فلأهل الله تعالى الظهور بالملابس الحسنة تارة ، وبالثياب الخلقة تارة ، ولهم الاقتصار على واحدة منهما طول عمرهم لأنهم حملة الشريعة والحقيقة .

ولما دخل الإمام الشافعي على محمد بن الحسن رحمهما الله تعالى رأى في بيته داره ملابس ومراكب وغلماناً ، وخداما وسقفا مموهة بالذهب ، فبهت الشافعي من ذلك فقال له محمد بن الحسن :

يا أبا عبد الله هذا ما يسر به الصديق ويكمد به العدو .

وأما تقشف العلماء الماضين كالقاضي بكار ، والشيخ عز الدين بن عبد السلام ، فذلك لشدة اشتهارهم بالصلاح ، فاستغنى أحدهم عن عزه بالملابس الفاخرة بصلاحه ، فكان للقاضي بكار رضي الله تعالى عنه رداء على بدنه ولبدة على رأسه ، وكان للشيخ عز الدين رضي الله تعالى عنه فروة يلبسها شتاء وصيفاً ، ولما غضب من السلطان حمل جميع أمتعته على الحمارة ، وركبت زوجته فوق ذلك ، وكذلك بلغنا عن الشيخ أبي اسحق الشيرازي . انتهى .

وقد بسطنا الكلام على ذلك في الباب الخامس عشر من المنن الكبرى وذكرنا عدة جماعة من علماء عصرنا والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم رؤيتهم لمحاسن أعمال الناس لاسيما العلماء والصالحين

ولا يتعرض أحدهم للحكم على بواطنهم بشيء من الأمراض الباطنة ، فيقول عن عالم أو صالح بعيد عن مثل هذا أن يسلم من الرياء أو النفاق أو الحقد أو الحسد أو الكبر أو الشك أو محبة الدنيا ، ونحو ذلك ، فإن الله تعالى لم يكلف داعيا إلى الله تعالى أن يشق قلوب الناس وينظر مافيها لأن ذلك من خصائص الحق جل وعلا ، فهو الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

فلا تظن ياخى أن أحداً من العارفين يحكم على باطن أحد بشيء إذا رأيته يحط على أهل عصره إنما ذلك على سبيل الفرض والتقدير كما كان ﷺ يعرض فى وعظه ولا ينص على أحد معين بل يقول : « مابال أقوام يفعلون كذا أو يقولون كذا » .

فكل من كان من أهل ذلك الأمر يتنبه لنفسه من ذات نفسه ، ويتوب إلى الله تعالى من الاستهانة بأمره أو اجتناب نهيه من غير تقريع ولا توبيخ مع كونه قد حصل به الغرض من النصح ، وقد قدمنا فى هذا الكتاب أن كل من حكم على باطن أحد بشيء فإنما ذلك قياس على حاله هو من خير أو شر ، وأن باطن العبد إذا انجلى من السوء صار الناس كلهم عنده أولياء سالمين من الدسايس والنقايص لايظن غير ذلك قياسا على نفسه هو وان من كان بالعكس ، فهو بالعكس .

فاعلم ذلك وتنبه ياخى لنفسك وكل ماتظن فى أحد سوء فاعلم أن ذلك كله إنما هو صورة نفسك ففتش نفسك وتب واستغفر .

ومما يبادر بعض المتورعين إلى إنكاره على الفقهاء وعدهم الشخص بأن يقرأوا عنده ليلة الجمعة أو ليلة النصف من شعبان مثلا بثلاثة أنصاف ، فيعطيهم شخص أربعة أنصاف ، فيفسخون على الأول ، فينبغى حملهم على أنهم مافسخوا إلا لظهور تعظيم الثانى

للقرآن الكريم بإكرام أهله أكثر فقدموا القراءة عنده والأكل من طعامه لأنه أكرم وأعظم مروءة نظير من جعل للمصحف ثوب حرير تعظيما له مع فقد صيغة الإجارة في مثل ذلك غالبا فما صحت الاجارة .

وقد بسطنا الكلام على حمل الناس على المحامل الحسنة في الباب الخامس عشر من كتاب المنن فراجعه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم مؤاخذة نفوسهم بما يخطر فى بواطنهم من السوء
لاحتمال أن الله تعالى يؤاخذهم به كما يؤاخذ الخواص

وذلك كالرياء والحسد ومحبة الدنيا ورؤية نفوسهم على غيرهم لا على وجه الشكر لله تعالى ونحو ذلك فلا يصرون على مايخطر فى بالهم من السوء بل يتوبون منه كما يتوبون من المعاصى الظاهرة على حد سواء فإنها ظاهرة لله عز وجل لاسيما توبتهم من ذلك كلما يقومون للصلاة فإن من وقف بين يدى الله تعالى وهو متلطخ بمثل هذه الصفات فهو كمن لطخ ثوبه وبدنه بدم وفرث وقيح وطلب أن يجالس السلطان ولله المثل الأعلى فهو إلى العقوبة أقرب لازدرائه بالحضرة فاياك ياخى وعدم التوبة مما يخطر على بالك ثم اياك وفى القرآن العظيم « أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض [1] » الآية فهددهم بالخسف بالمكر وهو من أفعال القلوب [2] والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة النحل آية : ٤٥

(٢) قال الله تعالى : « وأما من خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى ، فان الجنة هى المأوى » .

يقول الإمام القشيرى : ثم اعلم : أن مخالفة النفس رأس العبادة .

وقد سئل المشايخ عن الإسلام ، فقالوا : ذبح النفس بسيوف المخالفة .

وقال ذو النون المصرى : مفتاح العبادة : الفكرة ، وعلامة الإصابة مخالفة النفس والهوى ، ومخالفتهما ترك شهواتهما .

وقال السرى السقطى : سمعت جدى يقول : آفة العبد : رضاه من نفسه بما هو فيه .

وقال الشاعر :

نون الهوان من الهوى مسروقة ... وصريع كل هوى صريع هوان

ومن أخلاقهم علمهم بما ورد أنه يكون سببا لموتهم على الإيمان من الأمور المقربة إلى الله تعالى

ولا يقول أحدهم أن كان سبق فى علم الله تعالى إننى أموت على الإيمان ، فهو واقع لامحالة ، وإن سبق فى علم الله تعالى موتى على غير الإيمان فلا يفيدنى شيئا كما يقع فيه من يسلك الطريق بغير شيخ ، فإن ذلك من الجهل المبين ، فان الله تعالى رتب الأسباب على مسبباتها .

وقد أجتمع بعض أشياخنا بالسيد الخضر عليه الصلاة والسلام ، فحادثه ، فقال له الخضر : إنى كنت أحضر مجلس أبى ادريس الخولانى كلما يقص على الناس ، فقال لى أبو ادريس يوما : يانبى الله أى عمل إذا عمله العبد أمانة الله تعالى على الإيمان ، فقلت له : أدركت مائة ألف نبى ، وسألتهم عن ذلك ؟ فلم يجيبونى ، حتى أدركت محمدا ﷺ فسألته عن ذلك ؟ فأجابنى وقال : من صلى صلاة الفجر وقرأ آية الكرسى وآمن الرسول إلى آخر السورة وشهد الله إلى قوله وترزق من تشاء بغير حساب ، فمن واظب على ذلك مات على الإيمان ، وذكر نحوه الإمام أبو الحسن بن فرحون فى كتابه الزاهر انتهى ، وفى هذه القصة صحة إجتماع الخضر بالنبى ﷺ خلاف ما عليه بن تيمية وأتباعه

وذكر صاحب كتاب بستان العارفين[1] عن عبدالله بن عمر رضى الله تعالى عنهما قال: قلت : يا رسول الله علمنى شيئاً يحفظ على الإيمان حتى ألقى به ربى عز وجل ، فقال : صلّ كل ليلة ركعتين بعد المغرب تقرأ فى كل ركعة منهما بعد الفاتحة سورة القدر مرة ، وسورة الإخلاص ست مرات ، والمعوذتين كل واحدة مرة ، فإن الله تعالى يحفظ عليك الإيمان ، حتى توافى به يوم القيامة ، وفى رواية فإذا فرغ من الركعتين سبح الله تعالى خمس عشر مرة .

فاعلم ذلك وأعمل به والحمد لله رب العالمين .

---

(١) هو الإمام النووى رضى الله عنه صاحب كتاب رياض الصالحين وقد ألف كتاب بستان العارفين دفاعا عن التصوف وتوضيحا لفكرته وقد طبعه حديثا مجمع البحوث الإسلامية فليرجع إليه .

ومن أخلاقهم : إذا عملوا مولدا كبيراً بطباخين وملشدين ونحو ذلك أن يتوجهوا إلى الله تعالى فى حفظ الطباخين وخدام الطعام والحاضرين عن إخراج الصلاة عن وقتها

وقل من الفقراء من يهتدى للتوجه إلى الله تعالى فى مثل ذلك بل وربما أخرج الشيخ أو النقيب تلك الليلة الصلاة عن وقتها اشتغالا بذلك الطعام ، فلو وضع خير ذلك المولد بطعامه ومنشديه فى كفة ، ووضع إثم ترك الصلاة فى وقتها فى كفة لرجح ترك الصلاة على ذلك المسمى خيرا .

فعلم أنه لا يليق بفقير أن يعمل مولدا إلا أن كان يقدر على حفظ الحاضرين من الآفات ، كالغيبة فيه من حيث نظامه ، ومن حيث مساعدة الظلمة له فى ذلك الطعام ، ومن حيث تقبيل الناس رجله أو يده ونحو ذلك .

وقد حضرت مولدا مرة ، فبات غالب من حضره يستغيب صاحب المولد ، فمن ذلك اليوم ما حضرت مولدا إلى وقتى هذا والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم ظنهم بأنفسهم النجاة بأعمالهم

ولو عبدوا الله تعالى عبادة الثقلين بعد أن سمعوا قول البارى تعالى « وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون [1] » فكل الناس جاهلون بما يؤول أمرهم إليه من السعادة والشقاوة إلا الأنبياء ومن يشاء الله تعالى من الأولياء ، ومن هنا بكى الأولياء الدم بعد الدموع خوفا من حسرة ترك مجالسته تعالى فى الآخرة ، فإن أهل النار عن ربهم محجوبون ، وهو أشد العذاب عندهم ، فخف يا أخى من النقص فى طاعاتك كما تخاف من المعاصى الظاهرة والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة الزمر آية : ٤٧

ومن أخلاقهم عدم حزنهم النفسانى على أحد صحبهم ثم فارقهم

بل يقولون : قد أصاب فلان فى مفارقة مثلنا خوفا أن يسرق طبعه من صفاتنا الخبيثة ، فيهلك ، فهم ينظرون للذى عليهم أولا ، ولا ينظرون للذى لهم إلا بعد ذلك عكس ماعليه غيرهم .

وهذا خلق غريب فى هذا الزمان بل بعضهم يقول عن من فارقه : أن فلانا مُقِيت ، ويقيم الأدلة على مقته ، وذلك من علامة انه ممن زين له سو عمله فرآه حسنا ولو كان كاملا لرأى حسناته ذنوبا بالنظر لما يستحقه جلال الله تعالى .

ومن هنا كان سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يزجر من يقبل يده ويقول :

تقبيل اليد لايكون إلا لمن ثبت على قدم الاستقامة إلى الممات ، ونحن أصحاب ذنوب، فالهرب من التعظيم أولى بكل عاقل ، وربما ألفت النفس ذلك ، فصارت تستنكر ذلك إذا ترك الناس تقبيل يدها أورجلها ، وذلك من علامات كبرها التى تستوجب به دخول النار ، فليتنبه الفقير الساذج لمثل ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم هروبهم من فعل كل شيء يقيم لهم ناموسا من بين اقرانهم ويميزهم عنهم إلا بعذر شرعي

فلا يطالب أحدهم اخوانه بالتردد إلى موضعه مع عدم أن يتردد إلى مواضعهم أو يطالبهم بتقبيل يده ، ولا يقبل هو يد أحد منهم ، أو يطلب منهم أن يخدموه ، ولا يخدم هو أحدا منهم .

وهذا خلق غريب في غالب فقرا الزمان ، فيريد أحدهم التخصيص بالحرمة عن أصحابه، وقد رأيت شخصا خرج من بيته ، فركب حماره ، وصار جماعته يأمرون الناس بالقيام له من حوانيتهم الحوانيت : وينزلون من يرونه راكبا من على دابته كما يصنعون بأهل الذمة في بعض الأوقات ، ويقولون أنزلوا للشيخ والشيخ راكب ساكت إما غارق في حب الله تعالى ، أو في حب نفسه وشهواتها لايخلوا من واحدة منهما ، فالله تعالى يغفر له ان كان مع نفسه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم تكبيرهم باخوانهم بحسب مقامهم فى التواضع

فكلما تواضع أخوهم كلما عظموه أكثر مسارعة لاظهار ماوعد الله تعالى به على لسان نبيه ﷺ فى قوله من تواضع لله رفعه الله .

وكان الشيخ محي الدين بن العربى رضى الله تعالى عنه يقول :

تعرف منازل الناس عند الله تعالى بطريقين لا ثالث لهما .

احدهما بالكشف .

والثانية بكثرة الطاعات .

وكان سيدى ياقوت العرشى رحمه الله يقول :

ينبغى للفقير أن يعظم الناس بحسب دينهم لابحسب ثيابهم[1] .

وكان سيدى أبو العباس المرسى رضى الله تعالى عنه يقوم لبعض العصاة فى بعض الأوقات ، ولا يقوم لبعض المطيعين فقيل له فى ذلك فقال :

انى المح من بعض المطيعين الكبر ومن بعض العاصين ذل النفس ، فأعامل كل واحد منهما بحسب مافى نفسه انتهى .

وكان سيدى على الخواص يعظم الفقير الخامل الذكر بين الناس أكثر من الفقير المشهور بالكرامات ، ويقول :

أن هذه الدار ليست بمحل لظهور الكرامات ، وإنما هى دار تكاليف ، فكل كامل مشغول بما كلف به فيها .

---

(١) قال ابن عطاء : التواضع : قبول الحق ممن كان .
وقال عروة بن الزبير : رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وعلى عاتقه قربة ماء ، فقلت :
يا أمير المؤمنين ، لا ينبغى لك هذا !!
فقال : لما أتانى الوفود سامعين مطيعين ، دخلت فى نفسى نخوة فاحببت أن أكسرها .. ومضى بالقربة إلى حجرة امرأة من الأنصار فافرغها فى إنائها .

وتقدم فى هذا الكتاب أن شريفا دخل على سيدى ياقوت العرشى ، فرأى النـاس يقبلون رجله ولا يلتفتون إليه هو ، فأخذ فى نفسه من ذلك ، فقال له سيدى ياقوت فى اذنه سراً :

ياسيد إنمـا عظمونى لأنى تبعت طريق سلفك الطاهر ، فاكتسيت منهم الشرف ، وأنت لمـا خالفت سلفك فى اخلاقهم وتخلقت بالرذائل أهنت ، فسكت الشريف ولم يحر جوابا فاعلم ذلك واعمل عليه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم تـكديرهم بحظ نفس ممن أمروه بأمر ولم يمتثل أمرهم لأنهم نواب رسول الله ﷺ ، وقد قال تعالى : « ماعلى الرسول إلا البلاغ[1] » .

فالداعى إلى خير إنما هو مبلغ شرع ربه لعباده لاغير والحق تعالى يفعل بعد ذلك مايشاء فمن تـكدر ممن خالفه بحظ نفسه فهو مع نفسه إلا أن يظهر التـكدر للعاصى رحمة به رجاء أن يراعى خاطره ، ويطيع أمره ، فيحصل له الخير .

فعامل ياخى الخلق معاملة الحق تعالى لك ، واحذر أن تقطع عنهم برك وإحسانك إذا خالفوا أمرك ، فإن الله تعالى يرزقك ليلا ونهارا ، وأنت مصر على معاصيه وانصح اخوانك مع رحمتك بهم والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة المائدة آية : ٩٩

محتويات الكتاب

الموضوع	الصحيفة

الموضوع	الصحيفة

الباب الثانى

الموضوع	الصحيفة

الموضـوع	الصحيفة

الموضـوع	الصحيفة

الموضـوع	الصحيفة
ومن أخلاقهم : نداؤهم لأصحابهم بالقلب	٤٥٧
ومن أخلاقهم : ان يجددوا معالم الطريق كلما خلقت	٤٥٨
ومن أخلاقهم كثرة الجد والاجتهاد فى العبادة ، ليجددوا الطريق بعد موت أشياخهم الذين كانوا يجددون آداب الطريق	٤٦١
ومن أخلاقهم : شدة الحط والزجر والتوبيخ والهجر لمن يقول : ماثم إلا الله تعالى	٤٦٣
ومن أخلاقهم : عدم الجزم بترجيح أحد من العلماء أو الفقراء على غيره أدبا مع الله تعالى ، فإنه يمحو مايشاء ويثبت	٤٦٤
ومن أخلاقهم : الستر على من يدعى الطريق بغير حق إلا إن ترتب على الستر محظور	٤٦٥
ومن أخلاقهم : كثرة شفقتهم	٤٦٦
ومن أخلاقهم : كثرة تعظيمهم للعلماء	٤٦٧
ومن أخلاقهم : كراهتهم القرب من الملوك والامراء إلا إن أعطاهم الله تعالى الكشف الصحيح	٤٦٨
ومن أخلاقهم : عدم طلبهم كثرة الأتباع	٤٦٩
ومن أخلاقهم : عدم مبادرتهم للإنكار على من رأوه ياخذ مال الولاة من كمل العارفين إلا بطريق شرعى	٤٧٠
ومن أخلاقهم : حسن سياستهم لصاحبهم	٤٧١
ومن أخلاقهم : عدم معاداتهم لاحد ممن يحضر المواكب الإلهية	٤٧٢
ومن أخلاقهم ، المبالغة فى الادب مع ولاتهم	٤٧٤
ومن أخلاقهم ، أدبهم مع طلبة شيخ إمامهم	٤٧٥
ومن أخلاقهم ، حمايتهم من الاكل من طعام المتهورين فى مكاسبهم	٤٧٦
ومن أخلاقهم ، عدم أكلهم من طعام من يعتقد فيهم الصلاح	٤٧٧
ومن أخلاقهم ، مسالمة الظلمة وعدم الركون إليهم	٤٧٨
ومن أخلاقهم ، عدم الاكل من طعام من يأكل بدينه من الفقراء	٤٨٠
ومن أخلاقهم ، عدم أكلهم من طعام النذور أو الاعراس الواسعة أو طعام	

الموضوع	الصحيفة

الموضوع	الصحيفة

الموضوع | الصحيفة

الباب الرابع

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

(تم الجزء الأول ويليه بعون الله الجزء الثانى)

وأوله الباب الخامس فى جملة من الأخلاق

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٣٦٨ لسنة ١٩٧٥

مطبعة حسان

(٢٤١) شارع الجيش . ت ٨٢٣٢٥٤ القاهرة